سلسلة رسائل وبحوث جامعية ٢٢

إجحاف بحق المجاهد

صلاح الدين الأيوبي

نوزاد

رجل عصره



الأستاذ المساعد الدكتور

أحمد عبد العزيز محمود

التفسير

إجحاف بحق المجاهد
صلاح الدين الأيوبي رجل عصره

إجحاف بحق المجاهد
صلاح الدين الأيوبي
رجل عصره

تأليف

الاستاذ المساعد الدكتور

أحمد عبدالعزيز محمود

كلية الآداب-جامعة صلاح الدين

أســـــم الكتـــــاب: إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي رجل عصره
تـــــــــــأليف: د . أحمد عبدالعزيز محمود
نـــــــــشر: مكتب التفسير للنشر والإعلام / أربيل
التـــصميم الــــداخلي: جمعة صديق كاكه
الخـــــــــط: نەوزاد كۆیی
الغـــــــــلاف: أمين مخلص
الطبعـــــــــــة: الأولى ١٤٣١ هـ — ٢٠١٠م
عـــــدد النـــــسخ: ٥٠٠ نسخة

رقم الايداع في المكتبة العامة (٧٢٦) سنة ٢٠١٠

للنشر والاعلان
اربيل – شارع المحاكم – تحت بناية فندق شيرين بالاص
ت: ٢٢٢١٦٩٥-٢٢٣٠٩٠٨-٢٥١٨١٣٨
موبايل:٠٧٥٠٤٦٠٥١٢٢- ٠٧٧٠١٣٨٧٢٩١
tafseeroffice@yahoo.com
altafseero@hotmail.com
tafsseroffice@maktoob.com

www.al-tafseer.com

الأهداء

إلى:

والدي المرحوم.

إلى روح القائد القدري الفذ الناصر صلاح الدين الأيوبي، وخير سلف من انجال اباة الضيم الذين هم فروع دوحة كريمة وعريقة، نجم الثريا عليائها تعهدها بالرعاية اجداد، امتازت سيرتهم وسريرهم بانبل مكارم الاخلاق واسماها وامثلها واسناها، وحازوا شرف نيل قصب السبق والقدح المعلى، في تمريغ انوف طغاة الحملات الصليبية في وحل الصغار، على اعتاب الاذلال، وقد اثخنت الجروح الغائرة افئدتهم قبل اجسادهم، لما حاق بهم من أدهى وامر ضروب الذل والهوان، على ايدي بطل حطين ومحرر القدس ومطهر ارض المسلمين من دنسهم ثانية، بعدما عمل الفاروق(رض) سيفه في رقابهم، ليكون فرقاناً بين الحق المغتصب، والباطل المغتصب، ففي العهدين عاد الحق إلى نصابه بقوة السيف، الذي ابى العودة إلى قرابه، الا بعد نيل المنى وتحقيق الانتصار على من ساقتهم اظلافهم إلى الاندحار والحتف حين سال لعابهم الجشع متجرئين على مقدرات ومقدسات الأهل والوطن، جاهلين ما لابطال الاسلام من شديد البأس وعظم العزم، على قهر المعتدي والعدوان في كل زمان ومكان، وان طال الامد إلى حين، اذ ان ساعة الحسم اتية لاريب فيها، ولات حين مناص حينما تقرع اجراس عودة المنتفضين

من الاحفاد بوجه احفاد الطغاة ثالثة، جرياً على نهج الاجداد فتحتضر على ايديهم اشباح الموت، وما بايمانها من ادوات الشر، فينحت ذكرهم في ذاكرة التاريخ إلى الابد. والقدير العلي يحثنا على عدم الركون إلى الذين ظلموا بقوله: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾(١)، فمتقي النار التي وقودها الناس والحجارة، يستجيب بلا أدنى مواربة أو مرية لنداء الكبير المتعال، اذ ينادي المؤمنين في التنزيل الحكيم بقوله علا شأنه وسماه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾(٢).

---

(١) هود: ١١٣.

(٢) الممتحنة: ١.

المقدمة

تعد الدراسة عن المجاهد صلاح الدين الأيوبي في التاريخ من المواضيع البالغة الأهمية. ومكتباتنا الاسلامية منها العربية والكردية والأخرى بحاجة ماسة إليها. فالأبحاث في التاريخ الاسلامي مازالت في مراحلها الأولية فيما يخص تاريخ هذا القائد الفذ الذي قل نظيره، وسجل التاريخ اسمه في أوسع أبوابه، إذا ما أخذنا الحقبة التاريخية التي عاش فيها. هذا ومما تجدر الإشارة إليه، ان بعض الجوانب من تاريخ صلاح الدين الأيوبي قد نالت قسطاً من الاهتمام، ولاسيما السياسية والعسكرية والفكرية منها، وهذا مادعاني وشدني إلى اختيار شخصيته كرجل عصره الذي قاد الجيوش الاسلامية(وليست القومية) لتحرير أرض الشام من دنس المحتلين الصليبيين المتمثلين بأجداد بوش الأب والابن وتوني بلير ومن ساق حولهم، أو من أعوانهم، بعد أن سنحت له الظروف أن يتبوأ مكانة المسؤول الأول، اثر وفاة السلطان نورالدين محمود ابن المجاهد عمادالدين زنكي في ذلك الصراع الدامي، معتمداً على الطاقة البشرية الهائلة من العرب والكرد وغيرهما التي صارت تحت تصرفه، وعلى قدرات وإمكانيات الشام ومصر والجزيرة الاقتصادية، فضلاً عن مواهبة الخلاقة في مجال التنظيم والقيادة ونبوغه العسكري، ولم يراع البعض من بني جلدته في يومنا أدنى مراتب ودرجات الانصاف تجاه هذا الرجل الفذ، بل قاموا يتهمونه زوراً وبهتاناً

ليلاً ونهاراً بالتقاعس عن تشكيل دولة باسم الدولة الكردية، متناسين ومتجاهلين ان الدولة الأيوبية التي شملت مصر وبلاد الشام والجزيرة واليمن؛ هي ذاتها الدولة الكردية، بل أوسع مساحة من الدويلات والامارات الكردية التي برزت في العصرين الوسيط والحديث، ولكنها كانت بعيدة كل البعد عن فكرة القومية الضيقة التي ظهرت في أوربا في منتصف القرن التاسع عشر، بل سادتها الروح الدينية التي لم تقتصر على أمة بعينها دون غيرها، بل شملت جميع الملل والنحل كافة التي انضوت تحت راية الاسلام تطبيقاً لقوله تعالى: ((وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا)).

وقد قسمنا البحث إلى ستة فصول، تناولنا في الفصل الأول أسرة صلاح الدين، يليها بيان العلاقة بين أسرتي زنكي وشاذي، ويتبعها معركة حطين، عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م).

الفصل الثاني خصصناه للحديث عن العناصر السكانية منها، العرب والكرد، والمغاربة والأرمن، وتليها عناصر أمن صلاح الدين كالخادم والحراس والطباخ والحريم. ثم إلقاء الضوء على أمن الرعية المتمثل بولاية العهد والاستخلاف والنيابة والوزير والقاضي ودزدار القلعة، وناظر الديوان والحسبة والاستيفاء، وديوان رسائل الانشاء ومقدم الأحداث.

هذا وتناول البحث أيضاً أهم الاستحكامات التي قام بها صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة، متمثلة بالحصون والأبراج والأبواب المحكمة والأسوار والخنادق والجسور والقناطر والربايا والمسالح والقلاع التي غلب عليها الشكل المستدير بدلاً من المستطيل على الطراز البيزنطي.

في الفصل الثالث واصلنا الكلام عن الجيش الصلاحي البري والبحري معاً، مع ذكر المؤسسات والأجهزة التي تقوم بالاشراف على تسيير أمورها، بكونها استمراراً للأنظمة نفسها، أو هي بالأحرى امتداداً للأنظمة في عصر العباسيين والفاطميين، ثم تناولت الدراسة الجيش الصلاحي من حيث العناصر التي كونت هذا الجيش لاسيما العرب والكرد، وكيفية تصدي صلاح الدين للمخاطر التي كانت تهدد مصر وبلاد الشام والجزيرة، بل حتى مركز الخليفة العباسي في بغداد، إذ شهدت الدولة الصلاحية أحداثاً كثيرة وتطورات خطيرة تمثلت بالمؤامرات وحركات عمارة اليمني والسودان والكنز التي هددت أركان دولته، لذا استعان جيشه بالجاويش والطلائع واليزيك والاستخبارات وحمام الزاجل والبريد العسكري والمجلس الحربي، مع ذكر أهم الرتب العسكرية منها، العريف، والنقيب، والمقدم...

هذا ولابد من الاشارة إلى البحرية الصلاحية التي أفرد الناصر صلاح الدين قسطاً كبيراً في هذا المضمار من أجل تقويتها عن طريق بناء مراكز لصناعة السفن والاساطيل التي انتشرت على طول البلاد وعرضها لمواجهة الصليبيين، كالطريدة والشيني والبطسة والمسطح والحراقة والحمالة والبركوس والشلندي والاعزازي والعشيري، ثم الفرق الملحقة بالجيش كالفرقة الهندسية والفرقة الطبية وفرقة الموسيقى العسكرية وحملة أعلام الجيش.

ثم تحدثنا عن أهم الأسلحة التي استخدمها الجيوش الصلاحية في حروبها البرية والبحرية للهجوم والدفاع سواء بسواء، منها الأسلحة الخفيفة والترس والكلاليب والباسليقات والتوابيت واللجام. فضلاً عن استعماله

الأسلحة الثقيلة كالدبابة والمنجنيق والعرادة والقذائف النارية والبارودية. ثم تناول أخيراً تموين الجيش الصلاحي وقوامه.

أما في الفصل الرابع، فقد تناول البحث عن علاقة صلاح الدين، بكل من الخلافة العباسية وسلاجقة الروم والاتابكة وبلاد المغرب والأراتقة، مع بيان موقف صلاح الدين من الفاطميين وأهل الذمة والدولة البيزنطية.

في الفصل الخامس، تتطرقنا إلى أهم الأنشطة الاقتصادية والثقافية والصحية والشعرية أيام الدولة الصلاحية في تلك الحقبة التاريخية.

وتناول الفصل السادس وهو الأخير، اهتمام السلطان صلاح الدين بالحج والحجاج والأسرى والسجناء، ثم تتبعها الحياة الاجتماعية، ثم تليها وفاة الناصر، كما يتحدث البحث عما قاله المؤرخون عن صلاح الدين.

ولايسعني أخيراً إلاّ أن أتقدم بوافر الشكر والعرفان للسيد محمد فقي رسول لمراجعته اللغوية الدقيقة لهذا الكتاب.

المؤلف

٢٠٠٩/٤/٩م

الفصل الأول

أسرة صلاح الدين الأيوبي

ارتبط اسم صلاح الدين الأيوبي بتحرير معظم بلاد الشام، بعد احتلال دام مايقارب القرن من الزمان، وباعادة مدينة القدس إلى الحظيرة الاسلامية، بعد أن غير الفرنج(الصليبيون) معظم مصالحها الدينية والحضارية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة الاسلامية السمحاء؛ إذ اتفق أهل التاريخ حيث صانها من الغزو الفرنجي، ولم يقف عمله عند هذا الحد، بل حول سكانها إلى مذهب السنة والجماعة، بعد أن طغت العقيدة الاسماعيلية(الشيعية) عليهم مايقارب القرنين، ولقد كانت مسيرته الحافلة بالمفاجآت والمنجزات تمثلت في ربط تاريخ بلاد مصر وسكانها بتاريخ الشام وسكانها.

هذا ولقد اقترن اسم صلاح الدين في عصره ومابعده بالوحدة الاسلامية، وبالمقاومة والصمود في وجه أشرس حملات الصليبيين، فكان عملاقاً حقاً في أيامه، بل من عمالقة التاريخ ان جاز القول عنه وبحقه، وظلت شخصيته تتراءى وذكراه العطرة تعود على كلمالاح ضيق أو شدة على صدور وقلوب المسلمين كافة والكرد خاصة، كما ظلت أصداء أعماله الجليلة والفريدة في عهده تتردد على ألسنة الناس حتى عصرنا. هذا ولاننسى ان طيف صلاح

الدين لايزال يحلق ويرفرف عالياً فوق سماء الشام ومصر والعراق منذ بداية القرن الماضي، وعودة الصراع والنزاع الاسلامي والعربي مع الغرب وأذنابه وأيتامه في الشرق هنا وهناك.

ولله در عمادالدين الأصفهاني الكاتب حين قال في رثاء صلاح الدين:

فارقت ملكاً غير باق متعبا   ووصلت ملكا باقيا راحاته

أسرته:

أولاً/ والده أيوب:

هو أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب بالملك الأفضل نجم الدين.

قال بعض المؤرخين، كان شاذي بن مروان من أهل دُوينَ ومن ابناء أعيانها والمعتبرين بها. وكان له صاحب يقال له: جمال الدولة المجاهد بهروز، وكان من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور، وكان بينهما من الاتحاد كما بين الأخوين، فجرَت لبهروز قضية صعبة وشائكة كادت أن تودي بحياته، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الامراء بدوين، فأخذه صاحبها فخصاه، فلما مثل به لم يقدر بهروز على الاقامة بالبلد[1]، وخرج وحط رحاله في خدمة أحد الملوك السلاجقة، وهو السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لأولاده، فوجده لطيفاً كافياً ومتمكناً في جميع الامور الحياة، فتقدم عنده رويداً رويداً وتميز في أعماله، وفوض أحواله إليه، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل، أو منصرف لعمل اسرته، فرآه السلطان يوماً مع اولاده، فانكر على اللالا، فقال له: انه خادم، وأثنى عليه وشكر دينه

وعفافه ومعرفته، ثم صار يسيره إلى السلطان في الاشغال، فخف على قلبه، ولعب معه بالشطرنج والنرد فحظي عنده، وصادف ان اتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه في الأمور، وأرصده لمهامه بدقة، وسلم إليه أولاده[٢]، وسار ذكره يتردد في تلك النواحي، فسير إلى شاذي يستدعيه من بلده (دوين)، ليشاهد ماصار إليه من النعمة والوفرة مالأ ومكانة، وليقاسمه فيما خوّله الله تعالى، وليعلم شاذي جيداً انه مانسيه، فلما وصل إليه بالغ في اكرامه واحترامه والانعام عليه[٣].

واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور إلى بغداد(دار السلام) والياً عليها ونائبه فيها، وكذلك كانت عادة الملوك السلاجقة في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستعحب معه شاذي، فصار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز[٤] دزدار قلعة[٥] تكريت[٦]، فلم يجد من يثق به في أمرها سوى شاذي، فأرسله إليها بعد أن أخذ رأيه فيها، فمضى وأقام بها مدة من الزمن وتوفي بها؛ فولى مكانه ولده نجم الدين أيوب، فنهض بأمرها خير نهضة، وشكره بهروز وأحسن معاملته إليه، وكان أكبر سناً من أخيه أسدالدين شيركوه[٧].

ولقد أدرك شاذي منذ توليه مقاليد الحكم من صديقه المخلص بهروز، ان عمله محفوف بالأخطار والصعاب، وقد اتفق أن بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة، وعادت فعبرت على نجم الدين أيوب وأخيه أسدالدين شيركوه وهي تبكي، فسألاها عن سبب بكائها، فقالت: ((أنا داخلة في الباب الذي للقلعة، فتعرض إليّ الاسفهسلار))، فقام شيركوه وتناول الحربة التي كانت للإسفهسلار وضربه بها فقتله، فاعتقله أخوه نجم الدين أيوب وأودعه السجن، وكتب إلى بهروز وعرّفه صورة الحال ليفعل فيه

مـايراه مناسباً، فوصل إليه جوابه بعد اطلاعه على تفاصيل القضية: لأبيكما عليّ حق، وبيني وبينه مودّة متأكدة، مايمكنني أن أعاملكما بحالة سيئة تصدر مني بحقكما، ولكن أطلب منكما أن تتركا المقام بتكريت، فخرجا منها ليلاً ووصلا إلى مدينة الموصل، فأحسن إليهما الاتابك عمادالدين زنكي، وزاد في إكرامهما، والانعام عليهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، ثم لما ملك الاتابك قلعة بعلبك، استخلف بها نجم الدين أيوب[٨].

يقول ابن خلكان: ((لقد رأيت في بعلبك[٩] خانقاه للصوفية يقال لها (النجمية)، وهي منسوبة إليه، عمرها في مدة إقامته بها، وكان رجلاً مباركاً، كثير الصلاح، مائلاً إلى أهل الخير، حسن النيّة، جميل الطوية))[١٠].

وعلى الرغم من ان نجم الدين أيوب قد استقر في قلعة بعلبك وأصبح حاكماً مستقلاً نوعاً ما، فإن أخاه أسدالدين شيركوه لم يصحبه هذه المرة، كما فعل من قبل، بل ظل باقياً بجانب عمادالدين زنكي، لأن الأخير كان يعد العدة لجهاده مع الفرنج(الصليبيين)، ويدرك تمام الادارك ان لاسدالدين شيركوه كفاءة عسكرية نادرة، تجعله أهلاً لأن يعتمد عليه كل الاعتماد في جهاده. ولم يخب أسدالدين ظنه؛ إذ انه شاركه في عملية فتح الرها سنة(٥٣٩هـ/١١٤٤م)، فضلاً عن وقوفه إلى جانب ابنه نورالدين زنكي سنة(٥٤١هـ/١١٤٦م)، عند وفاة عمادالدين في سنة(٥٤١هـ/١١٤٦م)، وساعد على الاحتفاظ بمدينة حلب وممتلكاته في شمالي الشام. كما أنه كان على رأس قوات نورالدين التي استردت الرها سنة(٥٤١هـ/١١٤٦م)، عندما حاول جوسلين حاكمها السابق، أن يدخلها. وظل إلى جانب نورالدين في حلب، يساعده ويسانده خير مساندة في حكمه وفتوحاته فكآفأه نورالدين على خدماته باقطاعه حمص والرحبة وجعله مقدم عسكره[١١]. وهكذا تمركز الأخوان في

مركزي سلطة وقوة: أحدهما شمال الشام، في حلب والموصل، والآخر جنوبها، في بعلبك، ثم في دمشق. فقد انتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق، بعد أن حاصر مجيرالدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين بعلبك، وتسلمها من نجم الدين أيوب بالأمان، فجازاه بأن منحه إقطاعاً تبلغ مساحته نحو عشر قرى من أراضي دمشق[١٢]. وفي دمشق بدأ نجم صلاح الدين يسطع، ومستقبل العائلة يتغير.

لقد اتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دوين، وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، وأنهم اكراد روادية، والأخيرة بطن من القبيلة الهذبانية الكردية، وهم من أهل دوين وعلى بابها قرية يقال لها أجدانقان، وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد أيوب والد صلاح الدين بها، وشاذي أخذ ولديه أسدالدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزحوا إلى تكريت، ومات شاذي بها، وعلى قبره قبة داخل البلد[١٣].

وثمة رواية تاريخية ينفرد بها ابن كثير تذهب الى ان أسدالدين شيركوه ينتسب إلى الزرزارية[١٤]؛ التي تعد بطناً من بطون الهذبانية الكردية[١٥].

ويقول ابن خلكان تتبعت نسبهم كثيراً فلم أجد أحداً ذكر بعد شادي أباً آخر، حتى إني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب، فلم أرَ فيها سوى شيركوه بن شاذي، وايوب بن شاذي، لاغير؛ وقال لي بعض الكبراء بينهم: هو شاذي بن مروان، وقد ذكرت ذلك في ترجمة أيوب وشيركوه، ورأيت مُدرجاً رتبه الحسن بن غريب بن عمران الحرشي، يتضمن أن أيوب هو ابن شاذي بن مروان بن أبي علي بن عنترة ابن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبدالعزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث ابن

سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بـن بـيهس بـن الحارث صاحب الحمالة بن عوف بن أبي حارثة بن مـرة بـن نـشبة بـن غـيظ بـن مـرة بـن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بـن قـيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان. ثم رفع هذا النـسب حتى انتهى إلى آدام عليه السلام. ثم ذكر بعد ذلك ان علي ابـن احمـد بـن أبي علي بن عبدالعزيز يقال إنه ممدوح المتنبي، ويعرف بالخراساني، وفيـه يقول من جملة قصيدته:

شرق الجوّ بالغبار إذا سا　　　ر عليَّ بن احمد القمقام[(١٧)]

وأما حارثة بن عوف بـن أبـي حارثـة صـاحب الحمالـة، فهـو الـذي حمـل الدماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان أخو هرم بـن سنان، فيهما قال زهير بن أبي سلمى المزني قصائد منها قوله:

على مكثريهم حق من يعترِيهمُ　　وعند المُقلين السماحة والبدلُ[(١٨)]

وهل ينبت الخطيَّ الأ وشيجُهُ　　وتغرسُ إلاَّ في منابتها النخلُ

هذا آخر ماذكره في المدرج، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شـرف الـدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولـده الملك الناصر صلاح الدين أبوالمفاخر داود بن الملك المعظم، وكتب لهما بـسماعهما عليـه في آخـر رجـب سـنة تـسع عـشرة وسـتمائة، والله أعلـم: انتهـى مانقلتـه مـن المدرج[(١٩)].

ورأيـت في تـاريخ حلـب، الـذي جمعـه مؤلفـه، بعـد أن ذكـر الاخـتلاف في نسبهم، فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أمية وادعى الخلافـة. ويقـول ابـن خلكـان سمعـت شـيخنا القاضي بهاءالدين عرف بابن شداد يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر

ذلك وقال: ((ليس لهذا أصل أصلاً))[٢٠]. فان صلاح الـدين نفـسه، كـان يعتـز باصله الكردي.

ثانياً/ صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب:

بينما كان أسدالدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيـوب يـشقان طريقهمـا في محاولة لإيجاد قاعدة أو قواعد يستقران فيها ويعملان بها، ولد لـنجم الـدين أكثـر مـن بـن، مـنهم شمـس الدولـة تورانـشاه، وسـيف الاسـلام ظهيرالـدين طغتكين، وشاهنشاه بن أيوب، وصلاح الـدين يوسـف، المعـروف بـأبي المظفـر، الملقـب الملـك الناصـر صـاحب الـديار المـصرية والـبلاد الـشامية والفراتيـة واليمنية، وكان آخر من ولد لنجم الدين مـن الاولاد في تكريـت، وقـد سـجل المؤرخون تـاريخ ولادة سـنة (٥٣٢هـ/١١٣٧م)، أي سـنة مغـادرة أو طـرد والـده وعمـه مـن تكريـت[٢١]. وقـدر أي المؤرخـون في ولادة صـلاح الـدين يوسـف في ذلك العام بالذات مـن المـصادفات التاريخيـة، فحـددوها بأنهـا حـدثت في تلـك الليلة ذاتها التي غادر نجم الدين أيوب فيها تكريت، ووصفوا انطباعات أهله بشأن ولادته بأنها ممزوجـة بالأمـل والخـوف، فتفـاءل الـبعض قـائلاً: ((لعـل فيه الخيرة وماتعلمون)) بينما تشاءم البعض الآخر وتطير منه[٢٢].

وما كانت ولادة صلاح الدين في تلك الليلة بالذات، بالدلالة الغيبيـة الأولى على مستقبله، بل رأى المؤرخون أيـضاً في اختيـار اسـم يوسـف ولقـب صـلاح الدين له من العلائم الدالة على مسيرته. فقد كان اختيار اسـم يوسـف أمـراً عادياً عند عائلة صلاح الدين، لأنه اسم شائع بين المسلمين، اختاره بعـضهم لابنه لـشيوعه، مـن دون تقـصي خلفيتـه التاريخيـة، بينمـا اختـاره الـبعض الآخر تبركاً بالنبي يوسف(عليه السلام)، كما فعل جد صـلاح الـدين عنـدما

سمي ابنه نجم الدين، أيوباً تبركاً بالنبي أيوب، وعندما كانت حياة هذا النبي عليه السلام سلسلة من المآسي والمحن، رأى الباحثون في سيرة صلاح الدين يوسف شيئاً عن التشابه مع سيرة النبي يوسف، حتى أنهم أحياناً فقدوا الحس التاريخي والزمني ورأوهما شخصاً واحداً، كما رأوا صلاح الدين مفهوماً إسلامياً سنياً، لأنه أحيا السنة في مصر.

ثالثاً/ صلاح الدين في الموصل:

ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع. ولما ملك نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي دمشق سنة(٥٣٤هـ/١١٣٩م)، لازم نجم الدين أيوب خدمته، وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة، والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونورالدين يرى له ويؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد، حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية[٢٣].

يتفق الجميع على ان صلاح الدين قد أمضى العامين الأولين من حياته في الموصل، معززاً مكرماً، لدى عمادالدين زنكي، وان كانت انطباعاته الأولية عن الموصل تكاد تكون معدومة لصغر سنه، لكنها غرست في ذاكرته عن طريق أهله وذكرياتهم التي طالما تحدثوا عنها. فلقد كان أول بروزهم في الموصل، ومن خلال مساعدتهم الكامل لعمادالدين زنكي في فتوحاته حولها، وفي ادارة أعماله. وإذا كان صلاح الدين لم يع حياته في الموصل، موطنه الأول، فإنه وعاها في بعلبك، حيث نشأ وترعرع وأمضى مالايقل عن ثمانية أعوام من عمره(٥٣٣-٥٤١هـ/١١٣٨-١١٤٦م) تركت طابعها وبصماتها عليه بشكل أو آخر، فقد كان أبوه والي القلعة يملك ثلث المدينة إن لم يملك أكثر منها،

فيديرها وينظمها ويحكمها ويدافع عنها[٢٤]. وكان حاكماً مستقلاً، ومن ثم فلأولاده مكانة خاصة في المجتمع الذي يعيشون فيه. وقد أحب أهل البلد نجم الدين أيوب، لاهتمامه بالرعية ولانسانيته وإخلاصه. هذا ولاننسى ان الحياة في القلعة تختلف عنها في المدينة؛ فالقلعة مركز الحركة العسكرية، وكان سكن الوالي ومركز حكمه فيها؛ لذلك فكل من عاش فيها كان على أهبة عسكرية دائمة، للدفاع عنها ضد الفرنج(الصليبيين) من ناحية وضد حاكمي دمشق، مجيرالدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين، ومدبر دولته معين الدين أنر مقطعها من ناحية أخرى، فإن هؤلاء لم يتخلوا عن ملكية معين الدين لها، لأهميته الاستراتيجية في المنطقة[٢٥].

وبقطع النظر عن الحركة العسكرية المستمرة، فان الحياة في قلعة تاريخية، حياة تمجد اثارها باعمال مجيدة وبقدرة الانسان الفائقة على الابداع والابتكار والبناء والمقاومة المستميتة ضد العدو الذي خرج من جحره هنا وهناك في أرض المسلمين متجاوزاً حدود الله الذي يعد خطاً أحمر لايمكن تجاوزه والقفز عليه كيفما كان شمالاً ويميناً يعيث في الأرض فساداً.

ومما لالبس ولا التباس فيه، أن حياة القلعة تركت، انطباعها على تكوين وتقوية شخصية صلاح الدين، فنشأ رجل عمل من جانب ورجل مغامرة ومخاطرة من جانب آخر، إذ أدرك مايجب عليه من خلال حسه التاريخي، ورؤيته لعمل التاريخ وتطبيقه السنة المستمدة من القرآن الكريم. والمعروف لدى القاصي والداني أن حياة القلعة كانت تتطلب بشكل مستمر تمرساً في فنون الفروسية، فلابد من أنه بدأ ينخرط في التدرب على الفروسية في مرحلة مبكرة أو في مقتبل من عمره، ويقال على الأرجح في بعلبك تحديداً، ولقد واظب في الممارسة عليها بعد انتقالها منها أيضاً. وهناك

مجال آخر لم يغفله صلاح الدين ولم يبتعد عنه أبداً، وهو تدربه وممارسته لعبة الصولجان(البولو) فيها أيضاً لاسيما في هذه المرحلة المبكرة من عمره. وهنا تجب الاشارة إلى أن والده كان مغرماً بها، حتى أنه توفي بسببها بحسب ماذكره بعض المؤرخين(٣٦). ومما لاريب فيه أنه قد شجع أبناءه عليها، لأنها كانت مهنة ولعبة عصرهم الذي عاشوا فيه، لذا نرى ان صلاح الدين أتقنها خير اتقان وتفوق فيها على أقرانه وعلى باقي إخوته في سن مبكرة وشغف بها كثيراً، فكانت هذه اللعبة أصبحت حلقة وصل ومحبة بينه وبين نورالدين زنكي، الذي كان مغرماً بها بشكل مفرط ايضاً، وما ان اكتشف موهبة الناصر صلاح الدين في هذه اللعبة بشكل مذهل، شرع يدعوه الى قاعته الخاصة في مدينة حلب، لكي يشارك معه فيها.

ونرى ان كلاً من نورالدين ونجم الدين، وصلاح الدين بعد أن كبر، ينظرون إلى لعبة الكرة في كيفية التعامل معها، بوصفها رياضة ترفيهية وفكرية فقط، بل بوصفها أيضاً تدريباً للفارس والخيّال على فنون الحرب والقتال. هذا ونجد ان نورالدين قد وصفها خير وصف في رده على زاهد قابع في الجزيرة الفراتية، كان قد نصح له بعدم ممارستها والانشغال بها قائلاً: ((والله مايحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، انما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولايمكن أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاء وصيفاً. وإذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لاقدرة لها على أتمام السير في الطلب، ولامعرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذه اللعبة، فيذهب جمامها وتتعود سرعة

الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة))[٢٧].

ولما كان صلاح الدين في أثناء نشأته في بعلبك قد سمع كثيراً عن الفرنج الصليبيين الذين كانوا يغزون أراضي الشام بين فينة وأخرى، ويخربون الزرع، ويحتلون أراضي المسلمين بغير حق، ويحملون الاسرى ويعودن بهم إلى مناطقهم هنا وهناك، من دون أن يجدوا معارضة أو مقاومة من أحد، ويعيثون في الأرض فساداً. ولما كان يصاحب والده، رأى ان الأخير كان يحصن ويقوي بعلبك ضد الفرنج(الصليبيين) الذين كانوا يغيرون عليها بين حين وآخر، لايتركون سكانها يعيثون بأمان. هذا في الوقت الذي كان يعزز قواته ضد حكام دمشق، الذين جدوا وأصروا في استعادتها مهما كلفت الأثمان مادياً ومعنوياً، في أعقاب وفاة عمادالدين زنكي، وشرعوا في محاربة نجم الدين على أبوابها، فكان الأخير بين نار الصليبيين وحكام دمشق، جراء هذا الضغط المفرط بحقه وبحق جيشه، جنح مضطراً دون ارادته ومشيئته في الحوار معهم، وكانت لديه قدرة فائقة في تقليب وتحريك فن المفاوضة مع الصديق والخصم سواء بسواء، وبعد أن بدأت المفاوضات بينهما، وافق في النهاية على تسليم بعلبك لهم، في مقابل مكافأة في تخصيص الاقطاع له مع مبلغ من المال. وعلى إثر هذا الاتفاق المفروض عليه من قبل اخوانه في دمشق، انتقل نجم الدين إلى دمشق سنة(٥٤١هـ/١١٤٦م)[٢٨]، حيث عاش مكرماً، كغيره من ساستها وقادتها البارزين الذين يشهد لهم له التاريخ، على الرغم من معاداة حكام دمشق لنورالدين في حلب، التي أصبحت مكاناً وموقعاً وملجأ مستقراً لأخيه أسدالدين شيركوه.

رابعاً/ صلاح الدين في دمشق:

وليس غريباً إذا قلنا ان الحياة اختلفت في بعلبك عن مدينة دمشق التي تعد مدينة كبيرة مكتظة بالسكان من مختلف الاعراق والاجناس منها: العرب والكرد والترك وغيرهم، منهم من سكنها منذ أقدم الأزمنة كالكرد، ومنهم من وفد إليها من قوافل التجار والغزاة، ومنهم من قصدها للارتزاق أو لأغراض العلم والدراسة أو العمل في اقطاعات الحكام، ومنهم من لجأ إليها منذ القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، من المناطق الشامية التي احتلها الفرنج كأنطاكية وطرابلس والرها.

ومما يلاحظ ان مدينة دمشق كانت في ابان حكم مجيرالدين آبق بن محمد بن بوري، ومعين الدين أنر، مركزاً تحاك فيها المؤامرات والاغتيالات، ضد هذا وذاك، وكانت معرضة للهجمات بين فينة وأخرى، كالهجمات التي شنها عمادالدين زنكي عليها عام (٥٣٤هـ/١١٣٩م). كما تطلع صليبيو الشام الى احتلالها كلما سنحت لهم الظروف والفرصة المناسبة، على الرغم من اتفاقياتهم التي وقوعوها مع معين الدين أنر. هذا وقد تعززت المحاولات وتكررت مراراً وتكراراً لاحتلال دمشق التي صارت عقدة الصليبيين تقف بوجههم لوحدة صفوف أهلها، فدافعوا عنها دفاع المجاهدين عن العباد والبلاد، ضد كل قاصد لها، سواء كان فرنجياً صليبياً قادماً من وراء البحار أو غيره، كما تدل[٢٩] كتابات ابن القلانسي، المؤرخ المعاصر لهذه الحقبة المتعامل والمتفاعل معها بشكل أو آخر خلال رصده للاحداث ومتابعة نتائجها سلباً أو ايجاباً لهذه الوقائع التاريخية.

والمستحق ذكره هنا، هو أنه كانت دمشق قد أصبحت مركزاً وقاعدة للاحياء السني، والمقاومة الفكرية أيضاً، منذ القرن الخامس الهجري، إذ درس فيها خيرة العلماء، وكتب وخطب فيها أيضاً الكثير من العلماء والفقهاء ابتداءً من الإمام الغزالي، الى تلميذه علي بن طاهر السلمي، الذي يعد أول المتصدين فكرياً للفرنج ومن سار على ركبهم، إلى هبة الله بن عساكر، وغيره من آل عساكر وطلابهم الذين تولوا مهام الخطابة والتدريس في الجامع الأموي. واللافت للانتباه، لقد ترددت أصداء تعاليم هؤلاء في أجواء وسماء المجتمع الدمشقي، مقوية من عزم اهلها في مقارعة ومقاومة كل من وجدوه ورأوه يتحرك في الظلام الدامس أو في العلن غازياً لمدينتهم الآمنة المطمئنة. ولقد أثمرت هذه التعاليم القيمة وتبدت في وقوف سكان دمشق رجالاً ونساءً شيباً وشباناً، بل وحتى الصبيان صفاً واحداً، أمام ملوك وطغاة الغرب المتسلطين على رقاب الملل والنحل المغلوبة على أمرها، فضلاً عن فرنج الشرق المتربصين والمحاولين احتلالها سنة(٥٤٣هـ/١١٤٨م)، إذ حدثت مناوشات ومعارك بينهما، وكانت عناصر أمنية تنقل إلى القادة العسكريين أخبار مايقوم به الصليبيون من حفر الخنادق وتجييش الجيوش، وجرى الحال على هذا المنوال، وقد عرفت هذه الحركة بالحملة الصليبية الثانية[٣٠].

وتتحدث الروايات التاريخية، أنه حين هاجم الفرنج دمشق، كان صلاح الدين في الحادية عشرة من عمره، فشاهد بام عينه أول مرة أن أهل دمشق يستعدون ويدافعون ويقامون بل ويقاتلون، متوزعين على شكل فرق ومجموعات قتالية هنا وهناك، بعضهم يدافع في الذود عن المدينة دفاعاً مستميتاً من خلف أسوارها، في حين يخرج بعضهم من بواباتها يقف كالطود

الشامخ لصد هجمات الغزاة الفرنج، بينما يتسلل البعض الآخر في شعاب الغوطة يقتنصهم أفراداً وجماعات يرغم العدو على التقهقر والحيلولة دون تحقيق مايصبو إليه الخصم من احتلال المدينة، ولم يتهانوا جميعاً في اداء أية مهمة عسكرية للحفاظ على دمشق وحمايتها(٣١).

ومن ضمن الأخبار التي شاهدها صلاح الدين ان بعض الحكام يفاوضونهم في محاولة لكسب الوقت، بغية ابعادهم عن المدينة. لقد شاهد وتابع هذه الأمور كلها عن كثب، وليس بعيداً إذا قلنا أنه اشترك في بعضها، ولو كان بدور يسير نظراً لصغر سنه الذي يشفع له، بيد انه كان يسمع شتى قصص بطولات المجاهدين في معاركهم مع الغزاة الصليبيين على أراضي بلاد الشام من والده ومن غيره الذي شارك أو ساهم في القتال ضد الفرنج.

وتروي المصادر التاريخية ماقد تجلى في هذه المعركة أنها تكاد تكون حاسمة في تاريخ دمشق من حيث البطولات الجمة التي سجل المؤرخون بعضها ان لم يكن جميعها باعتزاز وفخر، منها قصة استشهاد الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي، الذي اولج الليل في النهار، لتوجسه الخفي من اهتزاز وتخلخل الوضع الأمني في دمشق، وكان على أهبة الاستعداد للانقضاض على أي عنصر خارجي يبغي غزو بلدته، على الرغم من كونه شيخاً مسناً فقهياً صالحاً، كما يذكر ابن الأثير، خرج لقتال الفرنج، فلما رآه معين الدين أنر، وهو راجل، قصده وسلم عليه بكل حرارة حين تلقاه، وقال له: ((ياشيخ أنت معذور لكبر سنك(٣٢)، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين، وطلب منه أن يعود، فلم يفعل وقال له: قد بعت واشتر مني،

والله لا أقلته ولا استقلته، يعني قول الله تعالى: ((إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ))[٣٣]. وتقدم الشيخ ولم يسمع ماقال له معين الدين أنر، فقاتل الفرنج قتال الأبطال حتى استشهد عند النيرب، نحو نصف فرسخ عن مدينة دمشق، أي حوالي ثلاثة كيلومترات، ((وقتل مقبلاً غير مدبر))[٣٤]. ولم يكن منهم فريداً في هذا المضمار، بل كان معه اخوانه في الدين والوطن، منهم فقيه آخر هو عبدالرحمن الحلحولي الفلسطيني الزاهد، ولقد وردت اشارات تاريخية[٣٥] عن قصة استشهاد هذين الشيخين الجليليين بطريقة مؤثرة تختلف قليلاً، عن رواية ابن القلانسي، فصورهما جاهلين غير عارفين ومدركين بأساليب وفنون القتال، وذكر أنهما قد خرجا معاً خارج سور واستحكامات دمشق، حتى قاربا مع الفرنج الى السواتر الترابية التي كانوا متخندقين وراءها على طول خط القتال والمواجهة، فسأل الشيخ عبدالرحمن الحلحولي الشيخ الفندلاوي: أما هؤلاء الروم، فقال له بلى، فقال: فإلى متى نحن وقوف، فأجابه الشيخ الفندلاوي: نسير على اسم الله: فتقدما وقاتلا حتى قتلا في مكان واحد[٣٧].

ومن الملاحظ ان أخبار هذين الشيخين لم تنقطع بل اشرأبت بعنقها تستشرف ساعة الوصول، حتى تسري في أوساط دمشق، رواية عن الشيخ الفندلاوي بعد استشهاده في معركة الشرف والعز، مفادها أن بعض العلماء والفقهاء رأوا الفندلاوي في المنام، فقالوا له: ((مافعل الله بك، وأين أنت، فقال: غفر لي ربي، وأنا في جنات عدن على سرر متقابلين..))[٣٨]. ولاننسى

ان مثل هذه القصص والمفاخر الحافز على الجهاد والاستشهاد في دمشق، الى آيات من القرآن الكريم، تحث على الجهاد والاستشهاد.

ومن المألوف لدى الجيمع ان حملة الفرنج على دمشق قربت المسافة بين المسلمين في دمشق وحلب والجزيرة، على الرغم من العداء بين حكام دمشق وآل زنكي في حلب والجزيرة، إذ استنجد حكام دمشق بسيف الدين غاز وأخيه نورالدين، فلبيا الدعوة، وسارا من حلب حمص منتظرين أن يدعوهما معين الدين أنر إلى دخول دمشق، لكنه لجأ إلى مراوغتهما، بينما كان يفاوض الفرنج كي يكسب بعض الوقت، وليضرب أحدهما بالآخر، كما فعل شاور مع نورالدين فيما بعد. وتبرز الروايات التاريخية أن معين الدين راسل بعض زعماء وقادة الفرنج الاوربيين الصليبيين قائلاً: ((ان ملك المشرق قد حضر، فإن رحلتم، والأ سلمت البلد إليه، وحينئذٍ تندمون، وارسل الى فرنج الشام، يقول لهم: بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق، أخذوا مابأيديكم من البلاد الساحلية، وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين(غازي)، وأنتم تعلمون أنه في ملك دمشق، لايبقى لكم معه مقام في الشام..))[٣٩].

وفي مهب رياح التقلبات العسكرية، وعد فرنج الشام بتسليمهم حصن بانياس إذا تخلوا عن فرنج الغرب، فوافقوا وحاولوا أن يثنوا فرنج الغرب عن القتال، وقد فازوا بهذا الربح ونجحوا خير نجاح، فتخلى هؤلاء عن حصار دمشق، فسحبوا قواتهم وعادوا متوجهين شطر بلادهم، وعلى اثر ذلك، فقد تسلم فرنج الشرق قلعة بانياس[٤٠].

ومن الجلي ان المصادر الغربية شهدت لمعين الدين أنر بالدهاء في المفاوضة، فإن رفع الحصار عن دمشق كان راجعاً الى دفاع أهلها المستميت،

وإلى تشكيل الفدائيين بالفرنج، والى الخلافات بين الفرنج الآتين من الغرب وفرنج الشرق[٤١].

ان الصراع الاسلامي الصليبي وتجربة حصار مدينة دمشق ومحاولة احتلالها كانتا قاسيتين على الناصر صلاح الدين، سواء أنه شاهد مشاهدة عيان أو اشترك فيها على الرغم من صغر سنه، أو سمع أو تناهى له عن تطوراتها، انه شاهد تحركات الفرنج ورصد عملياتهم العسكرية التي كانت تجري على قدم وساق عن كثب، يحاولون ويستخدمون كل طاقاتهم ومجهوداتهم الحربية والقتالية، أن يهدموا مافي وسعهم مابنته سواعد عائلته، فأحس وأدرك تمام الادراك بعدم الاستقرار، وبالخوف والرعب المستمر المخيم على أجواء دمشق، ومما زاد في أثر هذه الحملة الطين بلة في نفسه، أنه فقد أول مرة أخاً له عزيزاً وغالياً عليه، الذي استشهد في دمشق، وهو يدافع عنها دفاع الأبطال أراد أن يلتصق أبطالها بها، كالتصاق العظم بالجلد سنة(٥٤٣هـ/١١٤٨م)، فأصبحت انطباعاته المريرة بشأن الحملة بعد أن ذاق أهل المدينة شتى أنواع العذاب، في حين نجد أن الحملة كانت حافزاً له للعمل وأن يبحث عن أرض صلب قويّ عودها يستطيع الوقوف عليها ضد ذلك العدو الفاجر الغاشم، الذي حاول بكل طرائقه واساليبه المطروقة وغير المطروقة لها أن يحرمه بلده، وتمكن من أن يحرمه أخاه[٤٢].

كانت الأخطار المحدقة بأمن المنطقة، جعلت نورالدين، ونجم الدين أيوب، وأسدالدين شيركوه، وغيرهم يعلمون علم اليقين أن الفرنج سيعودون في محاولات أخرى ثانية وثالثة لاحتلال دمشق، وقد أدركوا تمام الادراك ان حكامها عاجزون عن الدفاع عنها، فشرعوا يعدون لاحتلال نورالدين لها، وكان نجم الدين أيوب يعمل من داخل دمشق يعد العدة وطرق جميع

الطرق لتهيئة الجو المناسب كي يسهل عملية دخول نورالدين إليها، في الوقت الذي ساعد أسدالدين شيركوه نورالدين في الاعداد لها بغية دخولها من الخارج. وقد وصف ابن الاثير في رواية تاريخية عن دور الأخوين في تسهيل عملية دخول نورالدين زنكي دمشق قائلاً: ((فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق، أمر اسدالدين فراسل أخاه نجم الدين ايوب وهو بها، في ذلك. وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى مايراد منه، وطلب هو وأسدالدين من نورالدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ماطلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما، وصارا عنده في أعلى المنازل، ولاسيما نجم الدين، فإن سائر الامراء كانوا لايقعدون عند نورالدين، إلا ان يأمرهم أو أحدهم بذلك إلا نجم الدين أيوب، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك))[٤٣]. ولعل من المناسب أن نشير هنا، انه قد كرر الأخوان العمل ذاته في مصر فيما بعد، بيد ان صلاح الدين ناب عن والده فيها. وبدأ نجم الدين أيوب يسطع في سماء دمشق، واختاره نورالدين زنكي سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م) ليرافقه في حلب فيستظل بظلاله ثانية، ومنحه إقطاعاً. والمصادر تجهل ولا ندري لماذا اختار نورالدين صلاح الدين بالذات، الأنه لمس فيها صفات ميزته من باقي اخوته، أم لأن نجم الدين وأسدالدين توسما فيه لما لم يتوسماه في إخوته، فأسلمه نورالدين ليدربه، وهذا شرف كبير له، أم أن المؤرخين اختاروا ان يركزوا على صلاح الدين من دون إخوته؟!

وتجب الاشارة إلى أن ابن خلكان قد علق على اهتمام نورالدين بصلاح الدين قائلاً: ((كان مخايل السعادة عليه(صلاح الدين) لائحة، والنجابة تقدمه من حالة الى حالة، ونورالدين يراه ويؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين

طرائق الخير وعرف المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد))[٤٤]. ولم يطل صلاح الدين الإقامة في حلب، فعاد إلى دمشق حيث كانت عائلته تتحكم بمراكز إدارية حساسة فيها، فأخوه شمس الدولة تورانشاه يعمل شحنة لدمشق، حيث تولى المنصب سنة(٥٥٠هـ/١١٥٥م)؛ وعمه أسدالدين نائب عن نورالدين في مشارفة الديوان، ووالده إداري عام؛ وحينما قرر أخوه شمس الدولة تورانشاه أن يتخلى عن ولاية الشحنة، تولاها صلاح الدين سنة(٥٥١هـ/١١٥٦م)[٤٥]، وكان عمره آنذاك لايتجاوز تسعة عشر عاماً. هذا وحتى إن لم يكن متمرساً في هذا النوع من فنون الادارة، فإن والده كان خبيراً به، ومن ثم درّبه عليه. وهكذا طفق صلاح الدين يدخل عالم الادارة والسياسة والقيادة من خلال عمله في ولاية الشحنة.

ومن المألوف أنه تولى مهمة الشحنة أول مرة مدة قصيرة، واختلف مع صاحب الديوان، ومن الجدير بالذكر هنا، أنه لفت الأنظار بعمله وبحزمه وربما بكرمه، حتى إن بعض الشعراء المعدومين المتلهفين الى من يرعاهم رعاية الأب لإبنه الوحيد، حاولوا أن ينضموا إليه. وكان من هؤلاء الشعراء، عرقلة الكلبي الذي أشاد في مدائحه له، بحزمه وشدته وقضائه على الفساد بقوله:

لصوص الشام توبوا من ذنوب   تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا   فمولاي الصلاح لكم فساد

وبقوله أيضاً:

رويدكم يالصوص الشام   إني ناصح في مقالي
واياكم وسمي النبي   يوسف رب الحجا والحجال
فذاك مقطع أيدي النساء   وهذا مقطع أيدي الرجال[٤٦].

ومن الضروري هنا أن ندرج موقف صلاح الدين، بعد أن استقال من شحنة دمشق سنة(٥٥١هـ/١١٥٦م)، وعاد الى حلب، ولم تمر الا مدة وجيزة على استقالته، حتى عينه نورالدين زنكي سفيراً بينه وبين أمرائه، وأصبح يصحبه في حله وترحاله ويرافقه كرجال الظل معه في أثناء إقامته، حتى سنة (٥٦٠هـ/١١٦٤م)، عندما ولاه نورالدين شحنة دمشق مرة ثانية، كانت هذه الولاية بعد عودته من السنة الأولى في مصر، التي أدخلته عالم السياسة والحرب ان جاز القول، ومهدت له الطريق لدخول بلاد مصر(٤٧).

خامساً/ صلاح الدين في بلاد مصر:

وإلى جانب ماذكر، نرى ان صلاح الدين قد بلغ من العمر السابعة والعشرين، كان يتدرب تدريجياً على شؤون الادارة والفنون العسكرية باشراف ثلاثة من كبار عصره، وهو والده نجم الدين أيوب، وعمه أسدالدين شيركوه، والسلطان نورالدين محمود بن زنكي: وكان قد أثبت مقدرة عسكرية وادارية، حتى أخذ هؤلاء يعدونه لدور قيادي ينتظره التاريخ متى يتسلم هذا الأمر، كما أخذت المصادر التاريخية تهتم بأخباره السارة وتحركاته المبدعة والمثمرة، يمكن جني ثمارها هناك وهناك على المسرح السياسي وساحة الوغى(٤٨).

وبالطبع فان الدولة الاسلامية في هذه الحقبة كانت أحوج ماتكون الى وجود شخصية فذة عسكرية حليمة تمارس عملها المطلوب، وشاءت الاوضاع التي مرت بها المنطقة من تداعيات وانقسامات في الشام ومصر بل وحتى في الجزيرة الفراتية، أن تمهد لصلاح الدين مستقبلاً في مصر، وهو في هذه السن المبكرة من العمر، فجاءته الفرصة تسعى له سعياً. وربما كان

لنورالدين وأسدالدين شيركوه دور في تهيئتها. هذا في الوقت الذي كانت الآلة السياسية والماكنة العسكرية والحالة الاقتصادية والدينية تشير بجلاء ووضوح، الى أن الخلافة الفاطمية في مصر في طريقها الى الزوال. هذا في الوقت الذي حدد موعد الزوال وجرى فيما بعد على يد صلاح الدين الأيوبي. فقد حدثت خلافات كثيرة بين القوات المصرية المتواجدة هناك المتعددة الولاءات السياسية والاصول العرقية والاهواء المذهبية، على منصب الوزارة، وهو ما أدى الى الكثير من خلق المشكلات والأزمات، فضلاً عن سفك الدماء وإضعاف قدرة الجيش وإضعاف منصب وهيبة الخلافة ذاتهما(٤٩).

وبما أن هذه الوظيفة كانت بالغة الأهمية، لعدم تمكن السلطان من الاحتكاك المباشر بموظفيه في الوزارة، لذا كان الوزراء قد أخذوا منذ بداية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، يتلاعبون بهذا المنصب الذي ينتقل بالوراثة من الأب الى الابن الأكبر، وشرعوا يولون خلفاء صغاراً يحكمون باسمهم، بل يقتلون بعضهم ليتحكموا في الأمور(٥٠). ومع استمرار الخلافة وضعفها وفقدان هيبتها وسيطرتها، بدأت العقيدة الاسماعيلية تضعف داخل القاهرة وخارجها تدريجياً، ولاسيما في مدينة الاسكندرية، مركز الاحياء السني، وفي غيرها من الثغور الاسلامية.

ومع توالي الأيام وتنامي دور عمادالدين زنكي وابنه نورالدين، بعد ظهورهما على جبهة مقاومة الفرنج الشامية ظهرت أصداؤهما في مصر، وتأثيرهما في مستقبل الخلافة فيها، ذلك لأن مقاومتهما الفرنج واستعادتهما بعض الأراضي المحتلة، ولاسيما إمارة الرها، أقنعتا الفرنج بأن وجودهم في الشام مهدد في خطر لايحمد عقباه، إذا بقوا على هذا الحال، فأخذوا في تنفيذ خططهم ومشاريعهم التي جاءوا من أجلها، فشرعوا يتطلعون الى

التوسع باتجاه بلاد مصر، وبدأوا يغزونها بالتدريج، ثم تراجعوا عنها بين سنتي(٥٥٠-٥٦٤هـ/١١٥٥-١١٦٨م)، بعد أن قبضوا مبالغ كبيرة في مقابل انسحابهم، الى أن غزوها أخيراً بقصد احتلالها سنة(٥٦٤هـ/١١٦٨م)، وفشلوا في تحقيق مايصبون إليه من آمالهم وأحلامهم الخائبة[٥١]. ولعل من المناسب هنا القول، بأن هذه الحملات المتواصلة قد أضعفت بلا أدنى شك الخلافة سياسياً ومادياً، لأنها عجزت عن صدهم واستئصال جذورهم في بكرة أبيهم، قبل تنامي نفوذهم المضطرد بالازدياد طردياً في بلاد مصر، ولاسيما في القسم الساحلي، كما أنها فتحت المجال للعناصر المعارضة للخلافة لانتقادها والعمل على نشر مذهب السنة والجماعة، كخطوة أولى للقضاء المتدرج عليه.

ولم ينحصر عمل حركة الاحياء السني في الساحل الشمالي من بلاد مصر، بل شمل مدناً أخرى أيضاً، حيث استقر بعض الزهاد والمتصوفة وعلماء وفقهاء السنة، الذين دعوا إلى المذهب خفية وعلناً، في الاسكندرية والقاهرة والفسطاط، والقوص، وعيذاب، والفرما، ودمياط وساعد هؤلاء في بث ونشر المذهب السني أحد الرجالات العظام وهو: زين الدين علي بن نجا الواعظ، الذي قصد بلاد مصر بدعم وتشجيع من نورالدين زنكي، وتنطق الروايات التاريخية بالشهادة على ان شاور حاول التنصل من اتفاقيته مع نورالدين زنكي بعد أن استرد وزارته، فأرسل إلى أسدالدين ثلاثين ألف دينار، وقال: ((ترحل الآن في أمن الله وحفظه))، فأرسل إليه أسدالدين شيركوه قائلاً: ((إن الملك العادل نورالدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ذهبت إلى الملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكون لك ثلث فعل البلاد، والثلث الآخر لشاور العسكر، والثلث لصاحب القصر يصرفه في مصالحه)). فأنكر شاور ذلك وقال: ((إنما طلبت نجدة وإذا انقضى شغلي عودوا؛ وقد سيرت

إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا، وأنا أرضي نورالدين زنكي، فقال شيركوه؛ لايمكنني مخالفة نورالدين ولا أنصرف إلاّ بامضاء أمره))[٥٢].

وحين رأى شاور إصرار وعزم أسدالدين على التقيد والالتزام بالاتفاقية أخذ يعد لمحاربته، كما أن أسدالدين شرع يعد للرد عليه، ومن هنا بدأ اسم صلاح الدين يسجل بأنه ساعد عمه في الإعداد لمقاومة ومقارعة شاور ومحاربته. ولقد نسب المؤرخ المقريزي من خلال رواية تاريخية مفادها ان صلاح الدين لعب دوراً مهماً في هذا الصراع، يذكر ان أسدالدين أرسل صلاح الدين مع سرايا ومجاميع من الجيش لجمع الأتبان والغلال والسلع وغيرها في بلبيس، إعداداً للتحصن بها. أما عمه فظل مخيماً خارج القاهرة ردحاً من الزمن، مع أن شاور الناكر للجميل والعهد قد أغلق أبوابها بوجهه.

وإذا أدركنا ان حالة الخوف قد تغيب عن صلاح الدين، فإنه قد خيله، وحاز على الاموال والغلال، ثم تقدم شطر جزيرة قويسنا، فتصدى له والي قويسنا وهزمه، وأغرق جماعة من جنده، ثم عاد الى مخيم عمه[٥٣]. وكانت هذه أول معركة وتجربة لصلاح الدين يقود العساكر فيها بمفرده، على الرغم من أنها أسفرت عن هزيمة عسكرية بحسب المقاسات والحسابات العسكرية، إلا أنها دربته على محاربة المصريين، وعرفته على طبيعة بلدهم وعلى موطن ولاءاتهم.

وبقي نفوذ شيركوه ساري المفعول، لذا فقد حارب على أبواب القاهرة، وكاد أن يدخلها، لولا أن شاور استنجد بالفرنج، فهب الملك أموري لمساعدته من جهة عسقلان قاصداً بلبيس. ولما أدرك أسدالدين بحركة الصليبيين غادر القاهرة على جناح السرعة متوجهاً صوب بلبيس، فوجدها مزودة تزويداً كافياً وكاملاً وتستطيع أن تقاوم وترد المهاجمين عليها، وانضم إليه

الكنانية التي بها، وتحصن فيها ومعه صلاح الدين مدة ثلاثة أشهر، جرت خلال تلك المدة عدة معارك طاحنة، شارك فيها صلاح الدين، وذاق طعم الحرب مع الصليبيين في أرض بعيدة عن أرضه وأهله وأصحابه. ولم ينته الحصار بل طال على أسدالدين، فحاول صاحبه وقائده المحنك نورالدين زنكي أن يخفف عنه عبأ الحصار، ويحاول صرف اهتمام الفرنج الى بلاد الشام، فاسترد حارم من فرنج الشام، الأمر الذي فوت الفرصة على عضد الملك أموري وجماعته، وجعلهم يقررون ويضطرون إلى التراجع عن بلاد مصر، بعد أن سعوا وجنحوا، لصلح بين شاور وأسدالدين، وتم الاتفاق على إنسحاب شيركوه وقواته من مصر(٥٤).

والذي لايختلف بشأنه القاصي والداني، هو المؤرخ المعاصر اينكرويتز(Ehrenkeutz) الذي مدح صلاح الدين مشيداً بدوره المتميز في مقاومة القوات الشامية الفرنج في بلبيس قائلاً: ((إن الأمر الوحيد الذي حمى العساكر الشامية من الفناء ومهد لها التخلص من مصيدة شاور العسكرية، هو حسن سياسة شيركوه وحكمته. أما مقاومة القوات الشامية في بلبيس مدة ثلاثة شهور أمام عدو عنيد، فتدل على مهارة صلاح الدين في تزويدها وإعدادها للمقاومة. وقد قدر له نورالدين عمله هذا، فكافأه لدى عودته الى دمشق، بإعادة منصب الشحنة إليه))(٥٥). وكانت هذه الحملة بداية مسيرة صلاح الدين العسكرية، وغرست فيها بذور انتقامه من كل من شاور والفرنج.

واستقر في مدينة في مصر، برعاية وزيرها الملك الصالح طلائع بن رزيك، الذي كان حريصاً كل الحرص على بناء علاقة قوية ومتينة مع

نورالدين فنسق معه في مجال الجهاد. وقد بدأت العناصر السنية تعمل مع أسدالدين شيركوه منذ دخوله بلاد مصر سنة(٥٥٩هـ/١١٦٣م)[٥٦].

ويقول ابن شداد[٥٧]، انهم دخلوا مصر في ثاني جمادي الآخرة سنة(٥٥٨هـ/١١٦٢م)، والقول الأول للمقريزي أصح، لأن الحافظ أبا طاهرالسّلفي ذكر في (معجم السّفر) أن الضرغام بن سوار قتل في سنة(٥٥٩هـ/١١٦٣م)، وزاد غيره فقال: يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادي الآخرة من السنة عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، فيما بين القاهرة ومصر، واحتز رأسه وطيف به على رمح، وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفن عند بركة الفيل، وعمرت عليه قبة. وقد اتفقوا على أن الضرغام إنما قتل عند قدوم أسدالدين شيركوه وشاور الى مصر، فما يمكن أن يكون دخولهم مصر سنة(٥٥٨هـ/١١٦٢م)، على أن الضرغام لاخلاف عليه في قتله سنة(٥٥٩هـ/١١٦٣م)[٥٨]، بعد ان وصل القائد المحنك شيركوه الأراضي المصرية على رأس ألف فارس، ونزل على بلبيس[٥٩]، واصطدم بعسكر الوزير ضرغام بن سوار اللخمي الذي كان يقوده ناصرالدين أخو الوزير وهزمه[٦٠]، في أثناء محاولته الفرار من أرض المعركة[٦١].

وأعاد شيركوه شاوراً الى دست الحكم، على أن الأخير سرعان ما أدار ظهر المجن الى مغيثه، ونكث العهد الذي قطعه لنورالدين زنكي، فألتجأ الى الصليبيين وطلب معونتهم وأغراهم بالمال، وخوفهم من مغبة سيطرة وسطوة شيركوه، ومن ثم تبعه نورالدين على مقدرات بلاد مصر. فأنجده الصليبيون بقوة عسكرية قادها الملك أموري بنفسه[٦٢]، ووصلوا الى مصر، وحاصروا بلبيس التي تحصن فيها شيركوه، بحسب الخطة المرسومة بين

شاور والصليبيين، وبعد محاولات متكررة، إلا أنهم لم يستطيعوا التغلب على شيركوه، ثم أتاهم من الشام خبر هزيمتهم العسكرية في حارم[٦٣]، والملك نورالدين قد حصنها، وسار نحو بانياس، فسقطت في أيديهم. فاضطروا الى مراسلة شيركوه في أمر الصلح، وعودة الطرفين الى الشام، وكانت هذه تعد نهاية الحملة النورية-الشامية الاولى على مصر[٦٤].

- صلاح الدين في مصر مرة أخرى(٥٦٢هـ/١١٦٩م):

لم يحقق أي من الاطراف المتنازعة غايته، سوى شاور، الذي تخلص من غريمه ضرغام، وعاد شيركوه الى الشام[٦٥]، وهو في غاية القهر والحزن[٦٦]، وعلى ((مضض وقلبه مقلقل))[٦٧].

ولكن الحملة جعلت نورالدين زنكي يدرك تمام الادراك أن مصر: ((بلاد بغير رجال، تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والمحال))[٦٨]، وهذا ماحدا بنورالدين محمود يتوجه بحملة أخرى إلى مصر بقيادة أسدالدين شيركوه.

ولم يكد يكون صلاح الدين يستقر حاله في دمشق، حتى قرر عمه أسدالدين العودة ثانية على جناح السرعة الى بلاد مصر، فقد كان يهدف الى تحقيق عدة أهداف هذه المرة، منها معاقبة شاور لخيانته العهد مع نورالدين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل حاربه داخل مصر عن طريق استعانته بالصليبيين عليه، ومنها أيضاً أنه أحس والتمس خلال مدة وجوده في مصر، نوعاً من المعارضة لشاور والفاطميين، ففكر في استغلالها وتوظيفها لمصلحته، فضلاً عن قيادتها حركة أو ثورة ضد شاور والخلافة الفاطمية سواء بسواء، وهناك عامل أو هدف آخر يعد من أهمها، أن اسدالدين كان قد رأى في مصر وأموالها وخيراتها مابعث في نفسه من هذا

الطموح. وعلى الرغم من ذلك لم يتردد أبداً في تزويد أسدالدين بالعساكر ومستلزمات الجيش، وأرسل نورالدين معه صلاح الدين مرة ثانية، ومجموعة من الامراء على راس قوة مؤلفة من الفي فارس عام(٥٦٢هـ/١١٦٦م)[٦٩]، عندما استدعى الوزير شاور الملك أموري، فحضر حالاً، بعد استدعائه مباشرة، واصطدام بقوات شيركوه في معركة(البابين)[٧٠] بصعيد مصر على بعد عشرة أميال جنوبي المنيا الحالية[٧١]، بعد أن قطع طريق الكرك في ربيع الأول من العام نفسه، في طريق محفوفة بالأخطار، فالفرنج الذين كانوا في طريقهم[٧٢] رابضين في الكرك[٧٢] والشوبك[٧٣] قد ينقضون عليهم وينكلون بهم شر تنكيل، وهم بعيدون عن مناطقهم؛ والبدو يلحقونهم هنا وهناك وينقلون أخبارهم يومياً على جناح السرعة الى الصليبيين. وكان لزاماً عليهم أن يغيروا طرق سيرهم بين آونة وأخرى للتخفي. وكأن هذا لم يكف، فقد وقف عامل آخر بوجه الحملة لايقل عن العوامل التي اشرنا إليها فيما سبق، إذ تمثلت في الطبيعة التي عرقلت سيرهم، إذ إن عاصفة رملية عنيفة هبت عليهم، كما يشير إليها بعض المصادر الغربية، فقضت على عدد غير قليل من الرجال والزاد، إذ يصف لنا المؤرخ وليم الصوري ماجرى لقوات الحملة الشامية قائلاً: ((ان العاصفة الرملية كانت شديدة لدرجة ان العساكر لم يستطيعوا أن يفتحوا أفواههم حتى للتحدث مع بعضهم البعض، فنزلوا عن أحصنتهم وتمددوا مواجهين الأرض ومتشبثين بها كيلا تسحبهم الرياح. وبعد أن انتهت العاصفة، إستمروا في رحلتهم، بعد أن تاهوا في الصحراء بضعة أيام))[٧٤].

ولقد تولى صلاح الدين تحصين مدينة الاسكندرية خير تحصين من أجل حمايتها، ومقاومة الجيوش المتحالفة والمتجحفلة بالاشتراك مع أهلها الذين التفوا حوله، وقاموا معه مدة ثلاثة أشهر يراقبون الاحداث عن كثب، إذ حاصرهم شاور والصليبيون، ومنعوا عنهم ((الميرة والاقوات))(٧٥). واضطر صلاح الدين في النهاية بعد حصار ظالم ضيق عليه الخناق، الى قبول الصلح مع شاور والصليبيين، بموافقة عمه أسدالدين، ولكن قلبه على مضض لسوء وضع جيشه، وكان همه الوحيد إخراج الصليبيين من مصر بأي ثمن، وان الصلح يتضمن شرطاً وهو مغادرة الطرفين أرض مصر، وكذلك أن يغادر شيركوه معهم لقاء مبلغ من المال(٧٦)، بيد أن أموري عقد اتفاقاً مع شاور ينص على أن يكون لهم شحنة بالقاهرة، وكان بمثابة مفوض سام، أو سفير في الوقت الحاضر(٧٧)، وتكون أبواب المدينة بيد فرسانهم لمنع نورالدين زنكي من انفاذ عسكره إليهم، ويكون للصليبيين من دخل مصر كل سنة مبلغ مائة الف دينار(٧٨).

كل هذا يجري ومادار والخليفة الفاطمي العاضد لاحول له ولاقوة(٧٩)، وليس له من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، فقد حكم شاور عليه وحجبه.

ولقد أشار المقريزي بشجاعة صلاح الدين في احدى المعارك البطولية في هذه الحملة بقوله انه أبلى يومئذٍ صلاح الدين يوسف بلاء حسناً وحمل حملات فرق بها الجموع وبدد شملها، وحمل شاور على عسكر شيركوه فكسر القلب، فتلاحقت الميمنة بمن كان في القلب: واستمر القتال حتى حال بين الفريقين الليل فهزم كثير من الفرنج وقتل منهم كثير، وكاد ملكهم أن يؤخذ، ووقع في قبضة شيركوه وأصحابه نحو سبعين أسيراً(٨٠).

كمـا أن المقريـزي أشـار أيـضاً الى دور صـلاح الـدين في تقريـر الـصلح والحـصول علـى شـروط مـصلحته ومـصلحة عـساكره بقولـه: ((فلمـا تقـرر الصلح أرسل صلاح الدين إلى ملك الفرنج يقول إن لـي أصحاباً مـنهم القـوي ومنهم الضعيف، فأما القوي فإنه يبعنا في البر، وأمـا الـضعيف فإنـه يـسير في البحـر، فـاعطهم مراكـب، فأنفـذ(أمـوري) إليـه عـدة مراكـب خـرج فيهـا أصحابه))[٨١].

وقد توجس صـلاح الـدين الخـشية مـن تعـاظم المخـاوف الـتي يهـدده بهـا شاور بعد أن نقـض اتفاقيـة الـصلح، وقـبض علـى أهـالي الاسـكندرية الـذين ساندوا صلاح الدين، لذا قرر أن يتدخل بحزم وقوة، وطلب من الملك أمـوري الحضور في إجتماع لمناقشة هذا الأمر، وبعـد أن اجتمعـا قـررا أن يطلبـا كـف شاور عن التنكيل بأهالي الاسكندرية، وأن يلـتزم ببـنود الاتفاقيـة وإلا الـسيف بيننا، وضغط أموري على عميلـه في الـصداقة للافـراج عـنهم، فوافـق شـاور وأطلقهم، فرحل بعضهم مع القوات الشامية إلى الـشام، بينمـا إختـار الـبعض الآخر منهم البقاء في الاسكندرية، التي تعد موطنهم، ولايمكن مغادرتهـا مـن أجل رغبة ونـزوة شاور الخائن الناقض للعهود والاتفاقيات. ولم تمض إلا أيام معـدودات بعـد مغـادرة أسـدالدين شـيركوه وصـلاح الـدين، حتـى نكـل بهـم وأذاقهم شتى صنوف العذاب[٨٢].

ولقد اشار ولـيم الـصوري الى المواجهـة بـين صلاح الـدين والملك أمـوري، بقوله إنه بعد تسليم الاسكندرية، غادرها صلاح الـدين قاصـداً مخـيم الملـك أموري، وظل عنده حتى آن أوان عودة القوات الشامية، فعامله الفـرنج بكـل احترام، وزودوه بحارس من عنـدهم[٨٣].

- صلاح الدين في مصر مرة ثالثة سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨-١١٦٩م):

ان هذه الحملات الشامية والصليبية على بلاد مصر جعلت الطرفين يطلعان على أحوالها العامة، ومعرفة نقاط ضعفها[٨٤]، وثرواتها الطائلة بحكم موقعها الستراتيجي، ولم يعد بوسع أي من الطرفين أن يتخلى عن فكرة الهيمنة عليها، ويبدو أن الصليبيين كانوا أكثر رغبة وجدية في امتلاكها، ولاسيما بعد أن كشفوا ضعف أمرها[٨٥].

وأصبح مستقبل مصر بعد هذه الأحداث في الميزان بين المملكة اللاتينية والشام، مع أن كفة المملكة اللاتينية كانت هي الراجحة، لأن الملك أموري، لم يغادر مصر في هذه المرة الثانية (٥٦٢هـ/١١٦٦-١١٦٧م)، إلاّ بعد أن ركز فيها حامية عسكرية تتكون معظمها من فرسانه الاشداء، لتحمي مدينة القاهرة من أي هجوم شامي من ناحية، ولتراقب مايجري داخلها عن كثب ولكن بشكل كثيف، وباستطاعتها من خلال مراقبتها لها أن تستكشف إمكاناتها العسكرية والمادية، ولتكون مقدمة لقوات احتلال فرنجية، من ناحية أخرى، وفي عام(٥٦٤هـ/١١٦٨-١١٦٩م)، أدرك أموري أن الوقت قد حان لاحتلال مصر، وقد تحجج عند تنفيذ حملته الجديدة التي أعلنها غداة حملته الأولى، وهي تباطؤ المصريين (أي وزارة شاور) في دفع الضريبة السنوية التي فرضها عليهم. والواقع ان شاور قد أدرك تماماً بأن الضريبة أثقلت كاهل مصر، وأن المساعدة التي طلبها من الصليبيين قد تحولت إلى نوع من الحماية ممثلة بوجود مندوبهم(الشحنة) في القاهرة، و وجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة[٨٦].

هذا في الوقت الذي نجد ان قادة الحامية الصليبية الموجودة في مدينة القاهرة، قد أرسلوا مراراً إلى أموري، وألحوا عليه ضرورة التوجه صوب مصر، ولارجعة في هذا القرار الذي يجب تنفيذه، لذا توجه الملك الصليبي هذا إلى مصر، قاصداً بلبيس أولاً، حيث احتلها وأباحها لجنوده، فعاثوا فيها فساداً وتخريباً شمالاً ويميناً، ثم توجه زحفه نحو القاهرة، التي قاومت خير مقاومة، وطلبت بعض الجماعات فيها بدعوة القوات الشامية، بعد أن تبين بجلاء ووضوح، أن مصر ستقع في أيدي مغول الغرب الفرنج هذه المرة، لامحالة، وكان على رأس هذه الجماعات، الكامل، بن شاور الذي حاد عن سياسة والده، والقاضي الفاضل رئيس ديوان الإنشاء، الذي قام بدوره في تحويل دفة السياسة المصرية باتجاه الشام، وتولى المفاوضات والمراسلات مع نورالدين وأسدالدين وحتى صلاح الدين، وأخيراً الخليفة الفاطمي(العاضد) الذي كان مغلوباً على أمره، لكنه ساند الاستنجاد بعساكر الشام، وقد سجل المقريزي له موقفه النبيل هذا بقوله، عندما سأله، لماذا كتب الى نورالدين مستنجداً من دون استشارة وزيره شاور، فأجاب ((لا أعرف أنه لايوافقني عليه(على الكتاب) لكراهته في الغزو[٨٧] وأنا أعلم من أي باب أدخل عليه))[٨٨].

ومع استدعاء القوات والنجدات الشامية تباعاً صوب مصر، بدأت كفة الشام ترجح في الميزان، إلى أن وصلت هذه القوات الزاحفة من الشام شطر بلاد مصر، وما أن حست القوات الصليبية بهذا الزحف العارم، حتى انسحبت على أثرها بسرعة البرق، وقد رجحت الكفة الشامية، والأيوبية منها، بصورة خاصة، وانكشف واضحاً، وتقرر مصير مصر.

وقبل الخوض في تفصيلات الأحداث والوقائع المؤدية الى ظهور صلاح الدين على ساحة السياسية المصرية، لابد من أن نركز قليلاً على دور صلاح الدين في هذه الاحداث التاريخية.

يذكر ابن الاثير[٨٩] حين وصل رسل الخليفة العاضد يستنجدون بنورالدين على الفرنج المحاصرين للقاهرة (٥٦٤هـ/١١٦٨-١١٦٩م)، أرسل نورالدين، وهو في حلب، يستدعي أسدالدين من حمص، فما أن خرج القاصد من حلب حتى وصلها أسدالدين. ((وكان سبب وصوله أن كتب المصريين ايضا قد وصلته بالمعنى نفسه، فسار إلى نورالدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله، فعجب نورالدين من ذلك وتفاءل به خيراً، وأطلع شيركوه على كتاب مؤثر ارسله الخليفة الفاطمي العاضد)) وينفرد الدواداري بذكر نصه الذي رأى نسخته، بحسب قوله، ومما جاء فيه: ((واغوثاه! واغوثاه! واغوثاه! إلحق دين الاسلام! أدرك أمة محمد عليه السلام! يانورالدين! يانورالدين!))[٩٠]. وبعث في الكتاب خصلات من شعور سيدات البلاط الفاطمي. في محاولة لإذكاء مشاعر نورالدين وحميته في الذود عنهم، وإن اختلفوا في الرؤى السياسية والمذهبية.

جمع نورالدين مجلس حربه وشاورهم فيما ينبغي فعله، فاستقر رأيهم على ارسال اسدالدين شيركوه على رأس حملة كبيرة، وأمره بالتجهيز الكامل الى مصر والسرعة في ذلك[٩١]، لأنه كان مطلعاً على أمور مصر أكثر من غيره، من خلال وجود عناصر أمنية مخلصة فيها تزوده بتقارير سرية، التي يبعثونها على أدق صورة، فهي تحتوي على تفاصيل كثيرة من الناحية العسكرية عن النوايا التي يبيتها الصليبيون ومن التف حولهم تجاه المسلمين؛ ((وأعطاه مائتي ألف دينار، سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة

وحكمـه بالعـساكر والخـزائن))[٩٢]. وسـار نورالـدين وأسـدالدين الى دمـشق، حيث أضاف نورالدين جماعة أخرى إلى حملتـه مـن الأمـراء والمماليـك. كـان من بين الأمـراء صـلاح الـدين يوسـف بـن أيـوب الـذي ذهـب علـى كـره منـه ((وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ)).

ويعقب ابن الأثير على تـردد صـلاح الـدين: ((أحـب نورالـدين مـسير صـلاح الـدين، وفيـه ذهـاب بيتـه، وكـره صـلاح الـدين المـسير، وفيـه سـعادته وملكه))[٩٣]. أما ابن خلكان الذي ردد بعض ما أورده ابن الأثير، فاشـار الى أن أسدالدين شيركوه سارع في زحفه الى مـصر، ((بنفـسه ومالـه وإخوتـه وأهلـه ورجاله))[٩٤]. وكرر ابن شداد أن صلاح الـدين أخـبره بنفـسه قـائلاً: ((كنـت أكره خروج الناس في هذه الدفعة، وماخرجت مع عمي باختيـاري))[٩٥]. أمـا أبوشامة، فيضيف إلى هذه الروايات، قولـه: إنـه لمـا وردت كتـب المـصريين الى نورالدين بالاستنجاد، أحضر صلاح الدين واعلمه الحال، وقـال: ((تمضي الى عمك بحمص فما يحتمل الأمر التأخير)). وروى صلاح الدين انه فعل بحسب رغبـة نورالـدين قـائلاً: ((فلمـا فارقنـا حلـب علـى ميـل منهـا لقينـاه (أي أسدالدين) قادماً في المعنى؛ فقال له نورالدين: تجهـز للمـسير، فـامتنع خوفـاً من غدرهم (أي غدر المـصريين) أولاً ومـن عـدم ماينفقـه في العـساكر ثانيـاً، فأعطاه نورالدين الأموال والرجال، وقال لـه: إن تـأخرت أنـت عـن المـسير الى مصر، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإنا إن أهملنا أمرهـا ملكهـا الفرنـج، ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره، قال صلاح الـدين فالتفت إلى عمي أسدالدين، وقال تجهز يايوسف، قـال صـلاح الـدين فكأنمـا ضـرب قلـبي بـسكين! فقلت والله لـو اعطيـتني ملـك مـصر ماسـرت إليهـا، فلقـد قاسـيت

وعانيت بالاسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً. فقال عمي لنورالدين: ((لابد من سيره معي، فترسم له، فأمرني نورالدين، وأنا استقبله فانقضى المجلس، ثم جمع أسدالدين الجيش من التركمان والكرد وغيرهم، ولم يبق غير المسير، فقال لي نورالدين؛ لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه؛ فأعطاني ماتجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نورالدين مهيباً مخيفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره، وتوفي، أعطاني الله من ملكها مالاكنت أتوقعه))[٩٧].

وقد علق لين بول(Lane-poole) على قصة تردد صلاح الدين قائلاً: ((ومن الغريب أن الشخص الوحيد الذي تردد في الذهاب كان صلاح الدين، فقد كان يد عمه اليمنى في حملاته السابقة، لكنه فضل الراحة والمناقشة مع رجال الدين))[٩٨].

ويذكر في هذا المضمار أيضاً جب(Gibb) أن صلاح الدين أذعن لأمر نورالدين بالذهاب بشيء من التردد. أما إرينكرويتز، فيذكر انه على الرغم من اهتمام أسدالدين بمصر، فإنه تردد مبدئياً في الذهاب، ولعله ارتأى في الذهاب خطراً على نفسه بسبب توسع الفرنج في المنطقة، أو لأن التعب والمعاناة من الرحلات والحملات السابقة أثرا فيه. ولقد كان شيركوه يخاف فخاً ينصبه شاور له، ويخشى قلة الأزواد، لكنه طالب بمرافقة صلاح الدين له. ويقال ان صلاح الدين احتج مبدئياً على الذهاب، لأنه كان لايزال خائفاً من تجربة الاسكندرية، لكن عمه أصر على ذهابه، كما أن نورالدين زوده بما يحتاج إليه للرحلة[٩٩].

ومع ما قد يكون في هذه الاستنتاجات نوع من الصحة، فنحن نرجح ان صلاح الدين كان يرى لنفسه ولعائلته مستقبلاً زاهراً ينعم به في مصر،

بيد ان تردده في الذهاب، خوفاً من مشقة السفر وخيانة شاور المتكررة، وقوة الفرنج، فإنه كان قد أقام جسراً مع عدد غير قليل من رجالات مصر، فضلاً عما سبق، قد أسس قاعدة شعبية في كل من الاسكندرية وبلبيس، ولاسيما من العسالقة والكنانية، ولعل أهم مسانديه في مصر هو القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني العسقلاني الذي راسل نورالدين وأسدالدين بالنيابة عن السلطات المصرية الحاكمة، وعن نفسه، ونجح في مراسلاته في التأثير في هذين القائدين بالاسراع إلى النجدة. وقد جازاه صلاح الدين على خدمته هذه وعلى خدمات لاحقة كثيرة بعد ان تولى الوزارة جمادي الثانية (٥٦٤هـ/آذار ١١٦٩م)، بتعيينه كبير إداريي دولته، ثم وزيره، واتخاذه يد اليمنى في تغييراته الادارية(١٠٠).

ان ماسبق ذكره يقودنا إلى معرفة ان صلاح الدين قد اشترك في حملة عمه الثالثة على مصر، كقائد عسكري مستقل ومعه رجاله وأمواله ودوابه، كما ذهب وهو واثق من أنه ذاهب هذه المرة إلى مصر ليبقى فيها. لذلك كان أول عمل قام به هو قتل شاور(١٠١).

ولم يجر صدام مسلح بين شيركوه وملك الفرنج أموري هذه المرة، إذ استطاع شاور من اقناع الملك الصليبي بالعودة إلى بيت المقدس، إلا أنه، أي شاور عاد إلى أسلوب المراوغة والخداع مع شيركوه في تنفيذ الوعود التي قطعها لنورالدين زنكي، لهذا قرر صلاح الدين ومعه الأمير عزالدين جورديك اغتيال شاور(١٠٢). ثم أمر الخليفة العاضد بقطع رأسه وإرساله إليه، وفي الحال اسند منصب الوزارة إلى شيركوه، وعينه قائداً عاماً للجيش الفاطمي، وأنعم عليه بلقب الملك المنصور، ولم يتمتع أسدالدين شيركوه بمنصبه طويلاً بل توفي بعد شهرين تقريباً(١٠٣)، في جمادي الآخرة

سنة(٥٦٤هـ/١١٦٩م)، فاسند العاضد المنصب الى إبن أخيه صلاح الدين، على الرغم من معارضة بعض الامراء النوريين، ولاسيما عين الدولة الياروقي وعزالدين جورديك وغيرهما، فلم يعترفوا به، وقفلوا راجعين إلى الشام. وأبوا أن يعملوا تحت إمرة صلاح الدين الذي كان أصغر الأمراء سناً[١٠٤]. وقال العاضد بحق صلاح الدين: ((والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين وما بلغت غرضاً في حقه يقرب عهد مقام عهده...)). ثم خلع عليه الوزارة بالعقد والجوهر، وحنكه، ونعته بالملك الناصر.

ذكر المؤرخون[١٠٥] أن أسدالدين لما مات استقرت الامور بعده للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضاع، وبذل الأموال ملك قلوب الرجال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله تعالى عليه، ((فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بقميص الجد والاجتهاد))، ومازال على قدم الخير وفعل مايقربه الى الله تعالى، إلى أن مات[١٠٦].

سادساً/ نورالدين زنكي، وأسدالدين شيركوه، وصلاح الدين:

لابدلنا من وقفة تأمل عن هذه اللحظة من تاريخ صلاح الدين وسيرته، لحظة وفاة عمه العظيم أسدالدين شيركوه، فلقد شهدناه حتى الآن، وهو يشد الخطى خلف عمه، وفي ظله، وتحت رعايته ورايته بل وارشاداته، ويقرب منه، ورأيناه يعمل بكل جد واخلاص في البدء تحت قيادة عمه، فيخصص له هذا مهمات صعبة وخطرة، تعتمد سلامة الموقف وأمان الجيش عليها، فإذا به أهل للمسؤولية، يستوعبها، ويقدرها، ويلتزمها، ويحافظ عليها، في إبداع وشجاعة، وربما كانت وقفته في بلبيس هي التي أنقذت

الموقف في الحملة الأولى على مصر، وربما كانت وقفته في الاسكندرية هي التي أنقذت الموقف في الحملة الثانية. ولئن كان المخطط للوقفتين هو أسدالدين شيركوه، في إطار من عبقرية عسكرية تحلى بها، فاستطاع بهما أن ينشيء نقاط ارتكاز محصنة تنكفئ قوته الصغيرة إليها في حال التهديد، فما كان له أن يطمئن إلى تحقيق غرضه لو كلف بالمهمتين غير ابن أخيه صلاح الدين. الا ان الأخير لم يكتفِ بالابداع العسكري في تحصين الموقعين، وتأمين الأقوات لهما، والإنسحاب إليهما، واستخدامها نقاط دفاع وهجوم واستنزاف، بل استطاع كما رأينا أن يبني في كل منهما قاعدة شعبية تدين له بالولاء والأمل، فتعينه في النهاية على حكم مصر. وعلى ذلك يمكن القول إن العم وابن أخيه كانا متكاملين بشكل نادر المثال، فصلاح الدين متفهم تماماً لعمه، ومستجيب لعبقريته العسكرية ومضيف إليها من عنده، وبين البطلين، إلى جانب التفاهم، ثقة لاحدود لها(١٠٧).

لقد كان أسدالدين شيركوه، بحكم جيله الأكبر في العائلة، وبحكم أقدميته في العمل السياسي والعسكري، ومن فوق ذلك، بحكم عبقريته الفذة وانصهاره الكامل في الجهاد، يتقدم صلاح الدين بخطوة، ويعلوه برتبة. ولذلك فقد وصل قبله إلى الموقع الحاسم، وإلى نقطة اللارجوع في مسيرة النصر. أما الموقع فهو منصب الوزارة في مصر، الذي هيأ الفرصة له ليصبح صاحب الأمر فيها، من خلال مؤسساتها الداخلية، بعد أن وصل إليها بقوة خارجية عن مصر هي قوة الشام، وبذا أمكن ضم مصر بإحكام إلى الجبهة الاسلامية المقاتلة للفرنج، وانتهى عهد تذبذبها في لعبة التصدي لهم حيناً من الزمن، والارتماء في احضانهم حيناً آخر، كأنهم خيار آخر يتساوى في المقام مع خيار الالتزام الجهاري، وكان انحيازاً إليهم، قد تقتضيه ضرورة

عابرة، هو خيار أمان لاخيار تهلكة. وقد ساعده في ذلك أن مصر ذاتها الحقيقة، ضاقت ذرعاً بتلك اللعبة الخطرة والمذلة في آن معاً، فجاء نصر أسدالدين شيركوه بأعلى صوت لتجلو لها ذاتها الحقيقة، وتثبت أقدامها على التزامها التاريخي والعرفي الكردي الأصيل، التزام التصدي للغزاة الصليبيين، والدفاع عن حضارة الاسلام، والكرد جزء منها، والتقوي بأخوتها في تلك الحضارة النابضة، وبامتدادها الجغرافي والعسكري والسكاني. ولو تدافعت الأحداث بالمنطق ذاته لكان أسدالدين هو الذي استغل هذا الاختراق التاريخي وطوره خير تطوير. لكنه لم يعمر وينعم به بعد تحقيق هذا الانجاز التاريخي سوى شهرين، فآلت المهمة الى صلاح الدين(١٠٨).

هنا تبدو لنا ظاهرة قد يحلو للبعض أن يسميها مصادفة تاريخية، وهي وجود صلاح الدين في تلك اللحظة إلى جانب عمه، لابوصفه منتظراً ساكناً أو مترقباً طامعاً، بل بوصفه احتياطاً بديلاً، ملماً بكل تعاريج الأحداث التي انقضت، وبكل حاجات الشوط الباقي. ويكاد المتمعن في المسيرة، وفي علاقة البطلين، يحس بأن أسدالدين كان في قرارة نفسه، يدرك بأن منيته قددنت. ولعله كان يعاني علة مستعصية مزمنة يخفيها. وكان قد اختار ابن أخيه لمتابعة الجهد والجهاد، بحيث لم يكن موته أكثر من عملية تسليم الراية. وتم انتقال الراية كما رأينا في هدوء، لان صلاح الدين أيضاً، كان من جهته فيما يبدو، قد أعد لاحتمال موت عمه المبكر كامل العدة واتخذ له الأهبة كلها. وعلى الرغم من مشاركة صلاح الدين السابقة، والمبدعة في حملات معه، فإنه لابد لنا من الإقرار، بأن الفضل الأكبر في اجتياز تلك المرحلة الصعبة، يعود بعد إرادة المولى عزوجل، الى أسدالدين شيركوه نفسه. لقد أصبح الاندفاع نحو النصر النهائي الآن، وبعد أن ثبتت أقدام صلاح الدين

على أرض كنانة مصر، أسهل، وأضحت المسألة مسألة تعبئة الرجال ولم الشمل وتنظيم الجيوش والسفن، في إطار توافر الموارد البشرية والمالية[١٠٩].

بيد أن وفاة أسدالدين شيركوه أحدثت صدمة واهتزازاً وارتباكاً لصلاح الدين، ستظهر آثارها في خطواته المتعثرة خلال الاعوام الخمسة عشرة التالية. فلئن تسلم موقعاً من المواقع المهمة اقتحمه عمه، فإنه لم يكِ بعد قد تحلى بمثل تجربة ذلك الرجل العظيم أسدالدين شيركوه، وربما لم يكِ بعد قد تحلى بمثل انصهاره في مفهوم الجهاد، والتعالي عن اطماع الذات وأهوائها في سبيل الوصول الى الهدف العظيم. ولولا أنه استطاع في نهاية المطاف أن يتعلم من التجربة المرة، ولولا أنه حظي بمستشارين عظام من رجال الفكر والقلم والبصيرة أمثال القاضي الفاضل وعمادالدين الأصفهاني، واستمع إليهم وفوق ذلك، لولا فضل من الله عليه وعلى الأمة الاسلامية، لفوت الفرصة وبدد الإنجازات التي كان عمه قد حققها تحت راية عظمى، بل تحت شمس مضيئة، هما راية نورالدين زنكي ونور شمسه، فإن تجمع العناصر لتأليف فرصة تاريخية فذة، لايضمن اقتناص تلك الفرصة، بل يحوي فرصة بديلة هي فرصة تبديدها في إطار من سوء الفهم والقيادة. ولعل أهم ما أنجزه صلاح الدين، أنه بعد مراودة صعبة مع فرصته التاريخية، استطاع أن يروض نفسه ليعتليها ويندفع بها إلى النصر العظيم[١١٠].

أما الذي هيأ لتلك الفرصة وأوجدها، فهو نورالدين. وكما لايمكن تحيد موقع صلاح الدين التاريخي من دون مواكبة مسيرته مع عمه أسدالدين شيركوه، فإنه يستحيل تحديد موقعه من دون الرجوع الى مسيرة القائد الأعلى للرجلين معاً، والمخطط العظيم للاحداث والوقائع، نورالدين محمود.

وكما لايستطيع أحد أن يفي صلاح الدين حقه بطلاً تاريخياً من دون أن يفي أسدالدين حقه، كذلك، وفوق ذلك، لابد من الاعتراف والوفاء لنورالدين زنكي، المثل الأعلى في الجهاد، والعبقري في التخطيط والتنفيذ.

سابعاً/ العلاقة بين أسرتي زنكي وشاذي:

لقد نشأت العلاقة بين أسرتي شاذي والد كل من أسدالدين شيركوه، ونجم الدين أيوب، وأسرة زنكي سنة(٥٢٦هـ/١١٣١م)، فكان قد مضى عليها عند وفاة نورالدين محمود (٥٦٩هـ/١١٧٤م)، أكثر من أربعة عقود من الزمان، تداخلت في أثنائها مقادير الاسرتين تداخلاً قوياً. وقد بدأت هذه العلاقة عندما استنجد عمادالدين زنكي بنجم الدين أيوب، والي قلعة تكريت، الذي حماه وساعده على الفرار والهروب إلى الموصل، ففعل بذلك جميلاً حفظه له عمادالدين الذي رد الجميل إليه، وإلى أخيه عندما التجأ إليه في السنة نفسها، هربا من صاحب قلعة تكريت. واستمرت العلاقة وطيدة بين الاسرتين علاقة جميل ورد جميل، وبلغت ذروتها في مساعدة الأخوين شيركوه وأيوب لنورالدين بدخول الشام[١١١].

في الواقع كانت هذه الحقبة من التاريخ تكاثر فيها ظهور الطامعين في الحصول على موطئ قدم يحكمونه، إقطاعاً لهم، ويوسعونه بعد ذلك، بالفتح العسكري، ليصبح ملكاً، يتوارثه أبناؤهم، ويتوزعونه إقطاعات فيما بينهم. وكان عمادالدين زنكي أحد هؤلاء الأمراء الطامعين في الملك. إلا أنه، ولأول مرة منذ نصف قرن من الزمان، بدأ عملية تحويل اللعبة من مجرد مباريات تتوخى توسيع الرقعة وتقوية السلطة، ولو بالتواطؤ أو بالتعاون مع الفرنج، إلى مواجهة بين المسلمين والفرنج. وكان الصليبيون المتمثلون في

الدولة اللاتينية قد نجحوا قبل ذلك في ان يكون لهم دور في مباريات الامراء الطامعين، هجوماً ودفاعاً، يؤيدون طامعاً ضد منافس له ويحصلون على ثمن لهذا التأييد. وقد حدثت أبرز مبارياتهم في هذا المجال مع حكام دمشق ومع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم في مصر.

فقد كان صلاح الدين شاباً عطشاً إلى مجد كان يستحقه ويعد نفسه أهلاً له. لكن انتقال السلطة والامور إليه بصورة مفاجئة، بعد وفاة عمه اسدالدين شيركوه، واعتلاءه سدة القوة في الديار المصرية، أغنى البلاد الاسلامية وأكثرها تحضراً، احدثا اهتزازاً قوياً في نفسه[١١٢].

مضى نورالدين زنكي في تنفيذ خطته في توحيد مصر والشام بعزم وتصميم، بحيث وجه ثلاث حملات متوالية إلى مصر، من دون أن تثنيه عن مراده النكسات والصعوبات التي واجهته الحملتان الأولى والثانية عن مراده، بل استمر يراقب أصداء هاتين الحملتين في مصر وجوارها، ويتحقق من أنهما قربتاه من هدفه، فيدفع الحملة الثالثة لتحمس الأمر، فإن تسليمه قيادة هذه الحملات كلها إلى أسدالدين شيركوه، بمصاحبة من ابن أخيه صلاح الدين، كان يحمل في طياته قدراً من المخاطر السياسية التي ماكانت له أن يقدم عليها لولا ثقته التامة بهما من ناحية، وايثاره المصلحة الاسلامية العليا على كل اعتبار شخصي من الناحية الأخرى[١١٣]. وقد تمكن الرجلان من اضفاء دور أوسع على مهماتهما في مصر، حيث استطاعا ان يبرزا كبطلي جهاد ضد الفرنج، وركني سند لأهل السنة، وأملاً بالقضاء على فساد وفوضى وانحلال استشرت في الدولة الفاطمية المتآكلة. ولاشك في أن طموحات قد نشأت لديهما في حكم مصر، بعد أن بدا لهما أنهما سيلقيان تأييد شعبي في أرض الكنانة مايكفي لتثبيت دعائم ذلك الحكم. ولقد

شهدنا كيف أن أسدالدين كان يتحدث عن هذه الطموحات علناً وصراحة[١١٤]. وهو ما أخاف نورالدين زنكي كثيراً.

ولاننسى الاشارة الى ان نورالدين لم يكن إنسان سياسة يتحسب للاحتمالات كافة، لما اختار أسدالدين وصلاح الدين للحملة الثالثة، بل ربما كان اختار أميراً آخر، وأبقاهما عنده رادعاً لأية طموحات قد تتراءى لذلك الأمير في حال نجاحه. لكن كان إنسان جهاد وحرب وهدف كبير مستحوذ عليه، فاستدعى أسدالدين شيركوه، وأمره بأن يقود الحملة بعد ان تلكأ. وعندما طلب أسدالدين أن يكون صلاح الدين بجانبه، فإن حاكماً غير نورالدين زنكي، ربما رأى من الأفضل والأجدر تفريق الرجلين بدلاً من جمعهما في مهمة واحدة، لكنه رأى عكس ذلك أو مايتوقعه، فأمر صلاح الدين بمصاحبة عمه، بعد أن اعطاه ترقية، إذ جعله قائداً مستقلاً بذاته لجيش خاص به، وبذلك أصبح في إمكان الرجلين أن يعملا مجتمعين منفردين. ومافعل نورالدين ذلك إلا لعلمه بأن مشاركة الرجلين معاً في الحملة تقوية لها وتعطيها قوة وفرصة أفضل للنصر. وقد تمكن صلاح الدين بعد وفاة عمه أن يعتمد على نفسه وعلى جيشه الخاص في سبيل الوصول إلى منصب الوزارة، لكنه جعل من جيش عمه احتياطاً استراتيجياً للطوارىء أو للحسم[١١٥].

وبلا مواربة فأن نورالدين كان على يقين بأن أسدالدين وصلاح الدين سينجحان في توحيد بلاد الشام ومصر، فيهيئان بذلك للخطوة الأخيرة الحاسمة في تصوره الاستراتيجي، وهي القضاء على المملكة اللاتينية. ولاندري ماذا كان يفعل أسدالدين شيركوه لوطال العمر به، لكننا نرجح أن منطق الاحداث والاوضاع والطبيعة البشرية كانت ستعمل كلها لايجاد وضع

كالذي أوجده صلاح الدين. ولاننسى أن نموذج الطامح إلى تأسيس ملك وسلالة كان هو النموذج الطاغي في ذلك العصر. أما نموذج القائد الذي نذر نفسه ندراً كاملاً للجهاد بعيداً عن كل طموح شخصي، فكان نورالدين زنكي أول من تبناه وجسده.

ومالايحتمل الاختلاف هو ان نورالدين وضع استراتيجية متكاملة تتضمن توحيد بلاد الشام أولاً، ومن ثم توحيد الشام وبلاد مصر، وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن معاً. فأما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد هو مذهب أهل السنة، وأما توحيد الصف فهو جمع الشام ومصر في اطار سلطة سياسية واحدة. وكان كلما توغل في خضم الجهاد وتقدم الزمان به، يزداد اقتناعاً بأن رؤوساً قد أينعت وحان وقت قطافها، وتلك هي راس الحكم والسلطة في مصر، ورأس الخلافة الفاطمية ومذهبها الشيعي الباطني، وبعد ذلك رأس الدولة(المملكة) اللاتينية التي دبت في جسمها عوامل الانحلال والتشقق، وكان سبيله إلى ذلك كله مزيج من العمل السياسي العبقري، ومن المعارك الحربية التي تخدم أهداف الاستراتيجية في وضع محدد، ولايحيد عنها[١١٦].

مسك الختام الذي يعطر به الحديث عما نحن بشأنه، ماكان للخلاف الموجود، كالخلاف الذي قام بين نورالدين زنكي وقائده صلاح الدين أن يتوقف بسهولة. وربما ظن الناصر صلاح الدين أن في إمكانه أن يسترضي نورالدين ببعض المبادرات الرمزية والشكلية؛ فقد وافق مثلاً على استقبال مندوب لنورالدين زنكي مكلف بتدقيق حساباته، ولم ير بأسا في هذا التدقيق القانوني والشرعي، بيد ان الغريزة السياسية عند صلاح الدين كانت تدرك أن تدقيق الحسابات ليس ذا بال، بل المهم هو الهيمنة

والسيطرة على الأموال، وتلك السيطرة كانت في يده، وفي مرة ثانية أرسل صلاح الدين إلى نورالدين بعض الغنائم التي حصل عليها في إثر استيلائه على قصور الفاطميين في مصر، فعلق نورالدين عليها بقوله: ((ماكانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولاتسدبه رحلة... فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر. لكنه أي صلاح الدين يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، و وفور الأعداد من الاجناد، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد، يجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالإمداد))[١١٧]. وفي هذا القول تلخيص رائع لخطته، وأمله وحقه، والمرارة، والخيبة التي كان يحس بها[١١٨].

ووجد الخلاف طريقه أخيراً إلى ميادين المجابهة، ففي سنة(٥٦٧هـ/١١٧١م)، وجه صلاح الدين حملة إلى حصن الشوبك جنوبي شرق الأردن، الذي يعد مع حصن الكرك نقطتي مراقبة ومضايقة على الطريق بين الشام ومصر. ولعل صلاح الدين أراد أن تكون هذه المراقبة بيد رجالات جنوده الأكفاء، ولعله أراد من وراء ذلك أن يعزز مراكزه الأمنية الامامية في وجه كل من الصليبيين ونورالدين زنكي من باب التحسب والتحوط الأمني، ولعله فكر ملياً في أن يجعل من حصن الشوبك المتين نقطة أمامية للسير إلى الشام نفسها، إذا اقتضى الأمر والضرورة. وعندما كاد أن يفتح الحصن. توجه نورالدين زنكي بقواته نحو الحصن ليساعد صلاح الدين في اقتحامه، وربما أيضاً ليقطع عليه فرصة حيازته بعد ذلك، بيد أن صلاح الدين آثر الانسحاب قبل وصول قوات زنكي، مفضلاً تفويت فرصة العمل المشترك مع نورالدين[١١٩].

ومما تقدم يتبين بوضوح لامزيد عليه، لمن يحسن الاستماع إلى نبض التاريخ، لقد أدرك نورالدين تمام الادراك بأن الوقت يجري سريعاً لغير مصلحته، وبأن السن يتقدم به، وبأن عليه أن يضرب الضربة التي أمضى حياته فيها، فيستعيد كل ماخسر من المكانة والمواقع. لكنه كان يعلم أيضاً بأن النصر لن يتحقق الا بمشاركة مصر بجيشها ومالها، فكتب إلى صلاح الدين يدعوه ويحثه إلى القيام بهجوم مشترك على المملكة اللاتينية، واتفقا على ان يكون تلاقي الجيشين عند حصن الكرك في شرق الأردن. ولم تمض الامدة قصيرة حتى وصل نورالدين حصن الكرك في شهر شوال سنة(٥٦٨هـ/أيار ١١٧٣م)، بينما وصل صلاح الدين مع جيشه إلى الرقيم، على مسافة يوم واحد من جيش زنكي، بيد أنه نكث بالاتفاق وتنصل منه وعاد أدراجه إلى بلاد مصر بحجة أن والده مريض مرض الموت. وقد أوفد صلاح الدين لهذا الغرض رسولاً إلى نورالدين وقال الأخير لوفد صلاح الدين: ((حفظ مصر أهم عندنا من غيرها))[١٣٠] وبذلك ضاعت الى الأبد فرصة زنكي في أن يكون المنتصر على المملكة اللاتينية، واحتفظ صلاح الدين بهذه الفرصة الذهبية لنفسه، وفي العام التالي، توفي نورالدين في ١١ شوال ٥٦٩هـ/أيار ١١٧٤م)، لكن ذكراه بقيت إلى الأبد[١٣١].

وليس غريباً ان صلاح الدين أدخل موقع الكرك في الخطة العسكرية التمويهية التي أعدها تغطية لهجوم الكبير، الذي مكنه من الانتصار في حطين؛ ان توجه إلى حصن الكرك مع نفر من عسكره، ليوهم العدو المتغطرس بأن قصده محاصرة الحصن واحتلاله، وبعد أن أقام بقربه بعض الوقت، اتجه بسرعة إلى مركز تجمع القوات الاسلامية برأس الماء في حوران[١٣٢]، على بعد عشرين كيلومتراً من درعا، حيث كان ابنه الأكبر،

الأفضل نورالدين، متمركزاً لاستقبال هذه القوات، وانطلق من مركز التجمع الى خسفين، فالاقحوانة جنوب بحيرة طبرية، ثم الصنبرة، فكفر سبت، ولعل هذه الطريقة ذاتها، وهذه المسيرة ذاتها، هما اللتان كانتا في ذهن نورالدين، حينما وصل الكرك والتقى بصلاح الدين كي ينطلقا معاً نحو المملكة اللاتينية(١٢٣).

فبمهارة الحليم الحصيف، وبمهابة الحكيم الحنيف، لم يتوصل صلاح الدين إلى اقرار خطة نورالدين العسكرية والسياسية، إلاّ بعد هزيمة مرة لقنته درساً قاسياً. إذ كان قد قرر سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م)، وقبل توحيد مصر والشام، أن يسير حملة عسكرية على المملكة اللاتينية، قائداً لجيش مصر وحده، من دون إلتفات الى الشام موقعاً وقوة، وقد بذل جهداً مضنياً ومالاً كثيراً في اعداد هذا الجيش وتدريبه وتجهيزه خير تجهيز، وربما كانت هذه أول حملة واسعة يقودها نورالدين بنفسه، وأول تجربة له كقائد حملة(١٢٤)، قصد بها أن تكون هي المعركة الحاسمة والفاصلة. غير ان جيشه لقي هزيمة منكرة ومذلة في المناطق المحيطة بالرملة، وكاد هو أن يقع في يد الفرنج قتيلاً أو أسيراً(١٢٥). وربما جاء إقدامه على هذه الحملة ليؤكد للمسلمين ولنفسه، أنه لم يتحول عن الهدف الاسلامي الكبير، وأنه قادر على تحقيقه وحده، غير ان النتيجة جاءت عكس ماتوقع، فاضطر الى توجيه قواه إلى توحيد الشام وبلاد مصر، غير مبال بأي اعتبار، لأنه بات مقتنعاً بأن مصر عاجزة عن تحقيق النصر وحدها، فلا مفر إذن من حملة شامية-مصرية، تنطلق من بلاد الشام، حيث العبور إلى فلسطين أسهل، وخطوط التموين أقصر وجغرافية الأرض ملائمة أكثر للمعركة. ولقد علق على هذه المعركة

بقلم القاضي الفاضل في رسالة باسم صلاح الدين ((ولافلت لنا هذه النبوة (النكسة) عزيمة))[١٣٦].

ومما ريب فيه ولاسبيل إلى جهله أو تجاهله، هو ان صلاح الدين أخذ يدرك الآن أنه فوت فرصاً، وجنى هزيمة، فجاء صراعه من أجل أخذ بلاد الشام وخصمها بعد ذلك فظاً وقاسياً. ولقد وصل هذ الصراع والنزاع به إلى أسوار الموصل، التي حاصرها واستعصت عليه، فأشار عليه الخليفة العباسي ونصحاؤه العظام الكرام من أمثال القاضي الفاضل وعمادالدين بن شداد، بأن يرفع الحصار، ويتوقف عن قتال المسلمين، ويعود أدراجه من الموصل الى مواجهة المجابهة مع الدولة(المملكة) اللاتينية، ففعل، وكافأه أهل الموصل بالقتال إلى جانبه في معركة حطين. ولاشك أيضاً في أن تحولاً بشأنه قد بدأ يلوح في الرأي العام الاسلامي. وقد عبر ابن الاثير عن هذا التحول كما بدا في لقاء صلاح الدين مع امراء الجيش عشية معركة حطين: ((إذ قال بعض أمرائه له، ان الناس في المشرق يلعنوننا ويقولون، ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين، والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه ونكف الألسن عنا))[١٣٧]. ولاريب في ان صلاح الدين كان يعرف تمام المعرفة أن التاريخ والاسلام، مرتقبان لتلك اللحظة التي ستحسم مصير المسلمين وستحدد الى الأبد موقعه في التاريخ، فقرر خوض المعركة الحاسمة قائلاً: ((الرأي عندي أن نلقى بجميع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لاتجري بحكم الانسان، ولانعلم قدر الباقي من أعمارنا))[١٣٨]. وقد كتب الله للمسلمين الفتح في تلك المعركة معركة حطين، فبرأ ساحة صلاح الدين من كل ماكان قد جرى قبلها، مصداقاً لقوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم بعد انتصاره على مشركي مكة:

((إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا))[١٣٩]، وهذا مانجده في صلاح الدين بعد حطين شخصاً آخر، يتوسل للهداية ويتلمس الصراط المستقيم.

كان صلاح الدين مهندساً بارعاً في وضع السياقات الهندسية، لبناء الأمة الحضارية، فقد برع في مجال أن يوحد الصف والهدف داخل ذاته هو مثلما وحدهما في الاطار الاسلامي، وظهر ذلك في التغيير الكبير الذي طرأ على شخصيته. فقد أصبح سعيه للجهاد ولنقاء الذات، مفضلاً على سعيه للملك، بعد أن نال جل مبتغاه منه، وبدأت تنمو فيه علائم الزهد في الملك الذي ناله واستحقه، ولابد لنا لفهم هذا التطور في شخصيته، من بعض المراجعة السريعة لمسار الاحداث بعد معركة حطين. فقد استطاع صلاح الدين أن يستغل ضربته المذهلة في حطين، ليستعيد بيت المقدس وعكا وعسقلان وغزة، أي الساحل الفلسطيني كله، من الفرنج، وربما كان، وهو دون شك حاضراً في أعماق ذاته، راجياً أن يهنأ في دار الآخرة بتحقيق الهدف العظيم الذي سعى له. هذا في الوقت الذي كان نورالدين محمود زنكي يدعو بأن يؤتى الله النصر للاسلام لا لمحمود زنكي، فهاهو النصر قدجاء. وما النصر الا من عندالله، ولئن تراضى في استعادة (صور)، وسمح للفرنج الذين غاروا مواقع أخرى، بأن يتوجهوا إليها، فإنه بدا سيد الموقف في الساحة العسكرية، وفي وسعه ان يتأنى في تحرير مابقي من الساحل الشامي، كصور وطرابلس وانطاكية، إلا ان قوة فرنجية انطلقت من صور باتجاه عكا، بينما أخذت ممالك الغرب تنزل حولها موجات متلاحقة من المقاتلين. وفي ربيع الأول عام(٥٨٧هـ/نيسان ١١٩١م) نزل إلى جوار عكا ملك فرنسا فيليب أغست بجيشه

وتبعه ريتشارد ملك الانكتار(الانجليز)، واكتملت بذلك القوات الفرنجية للمشاركة في هذه الحملة التي عرفت باسم الحملة الصليبية الثالثة، وفي الحادي عشر من تموز تمكن الفرنج من استعادة عكا بعد حصار دام عامين[١٣٠].

فعندما ادرك ريشتارد أشباح الخطر تحوم حول جيشه، انطلق جنوباً يعيد احتلال الساحل الجنوبي، وكان على صلاح الدين أن يتخذ قرارات صعبة للغاية. ولئن اعتاد الناس أن يهللوا للنصر، ويمدحوا القائد المنتصر ويعلوا من قدره، بأفضل شكل لاحتواء انتصار خصمه، ولإبقاء قدر من المقاومة والصمود إلى يوم تغيير الموازين والأوضاع فيه. ويمكننا القول أن عبقرية صلاح الدين في الحرب وفي السياسة قد تجلت في مواجهته الحملة الصليبية الثالثة بمثل ماتجلت في معركة حطين[١٣١].

انه لمن القول الصائب والصحيح والإنصاف البالغ، مبلغه الجدير به، ان نقول، كانت معركة حطين حرباً إقليمية مع دولة محلية، وإن تكن معززة بالفرسان المتطوعين من بلاد الفرنج، فضلاً عن الاسبتارية والداوية بصفتهما من الفرق الدينية الخيرية واشترك أفرادهما في المعارك المختلفة، وكانت لهم حصون خاصة يدافعون عنها، في حين نرى ان معركة عكا وما تلاها كانت حرباً قارية، ولئن عرف القرن العشرون(الماضي) حربين أطلق عليهما اسم الحروب العالمية، فربما كانت الحروب الصليبية، أول الحروب العالمية التي عرفها التاريخ. وقد شارك في الحملة الصليبية الثالثة، كل من ملك فرنسا، وانجلترا، وألمانيا وإمارات كثيرة غيرها، ودفعوا فيها الآفاً مؤلفة من الجنود، وفتحوا فيها أكثر من جبهة، إذ جاء الألمان بقيادة ملكهم

فردريك بارباروسا، عن طريق البر، عبر الأناضول، بينما وفد الانجليز والفرنسيون وغيرهم من الذين تحالفوا معهم عن طريق البحر(١٣٢).

لم يكن صلاح الدين من الذين يدنون مما يلحق الضرر بالجيش الصلاحي والاسلامي على السواء، لذا كان يجري حساباته بدقة تامة ومتناهية، وأن لايرتكب خطأ واحداً، ليتجنب كارثة كبرى في وجه هذه القوى المتفوقة. ولقد اختار عدم الخوض في معركة حاسمة، وفضل أن يبقى جيشه في المرتفعات، في موازاة جيوش الفرنج المتقدمة على الساحل، ليجعل تحول الفرنج إلى مهاجمته أصعب، وليحتفظ لنفسه بمواقع دفاعية أفضل. وخاض ضد الفرنج حرب استنزاف، لكسب الوقت، مترقباً أي شرخ قد يلوح في معسكرهم لاستغلاله سياسياً. وقد بدت الشروخ تتوالى. ففي رجب(٥٨٧هـ/آب١١٩١م)، غادر ملك فرنسا فلسطين، وأخذ ريتشارد من جهته يحس بالخشية من خوض معركة حاصلة ضد صلاح الدين لاستعادة القدس، الأمر الذي أحدث احباطاً داخل جيشه، ثم انه كان يعلم أن غيابه الطويل عن بلده سيعرض عرشه للخطر. وفي ظل هذا الميزان الجديد للقوى، تم عقد صلح بينه وبين صلاح الدين في شعبان(٥٨٧هـ/أيلول ١١٩٢م)(١٣٣)، احتفظ الفرنج بموجبه بشريط ساحلي يمتد من صور الى يافا، ونالوا حق الزيارة والحج الى بيت المقدس، لقد استخدم صلاح الدين مواهبه(١٣٤) كلها للخروج من هذه المحنة بأقل الخسائر. وانتابه في أثنائها شوق إلى الزهد، وفكر في التخلي عن الملك والانصراف إلى العبادة، لكن ذلك لم يكن ممكناً لأنه لم يكن في وسعه ان يخلي مواقع القيادة، في مثل ذلك الوضع الحرج. ومن الجائز أن بعض منتقديه ومعارضيه كان يخفف من غلوائه كي لايدفعه إلى اتخاذ قرار يعود بالضرر على جميع المسلمين.

ثامناً/ صلاح الدين ومعركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م):

من المسلمات التي يستوي في التسليم بها والاستسلام لها، اولوا الوعي ومن عداهم هي ان عظمة الاسلام قد تجسدت في قوة المنطق في حال اقتضاء الضرورة الملجأة إلى الضياع، مع من يروم الانضواء تحت لواء الاقتناع بما ينبغي الركون إليه، لتجرده من النواقص والشوائب والنأي بجانبه عن الخلل والزلل، لاسيما إذا كان الأمر متصلاً بالجوانب العقائدية كعقيدة الاسلام التي كان ظهيرها الأول، ومازال من قطع على نفسه ميثاقاً يتمثل في قوله جل علاه وتعاظم شأنه: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ))[١٣٥].

ومن المباديء الرئيسة التي عبر صلاح الدين عنها منذ بداية حكمه حتى وفاته، قولاً وعملاً، الجهاد لتحرير الأراضي المحتلة في الشام باسره (فلسطين، والأردن، وسوريا، ولبنان)، مع التشديد على القدس: ((والشام لاينتظم أمره بمن فيه، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لايمل الشر حتى يملوا، ورنا لايزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شد رأينا حسن الراي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويد كل مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده))[١٣٦].

ولقد ذكر عمادالدين الاصفهاني عن صلاح الدين الذي كان في طريقه لفتح بيت المقدس قوله: ((إن أسعدنا من الله على إخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا، وأي يدله عندنا إذا أيدنا. فإنه مكث في يد الكفر إحدى وتسعين سنة، لم يتقبل الله فيه من عباده حسنة، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القرون عنه متخلية، وحلت به الفرنج متولية، فما أدخر

الله فضيلة الا لآل أيوب، ليجمع لهم بالقبول والقلوب، وخص به عصر الامام الناصرلدين الله ليفضله به على الأعصار ولتفخر بـه مـصر وعـسكرها علـى سائر الأمصار))[١٣٧].

ولانظن أن احداً من الخلق يشذ عن الاجماع المجمع على صواب ما أسلفنا بحق صلاح الدين، انطلاقاً مـن اليقين الراسـخ والتأكد الجازم، المـبني علـى الثبات الثابت المرتكز علـى الحقـائق التاريخيـة الـتي تـأبى إلاّ الـشهادة بـالحق الحقيـــق، المتجـــسد في ان صـــلاح الـــدين عنـــدما وصـــل إلى القـــدس عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م) أقسم كما ذكر عمادالدين أيـضاً، أنـه: ((لايـبرح حتـى يـبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمـه، وتخطـو إلى زيـارة موضـع قـدم الـنبي(صلـى الله عليه وسلم) قدمه، ويـصغي الى صـرخة الـصخرة، وينـبغـي بالبـشرى بـشرى أسره الأسرة))[١٣٨].

وإذا كان صلاح الدين قد توصل في مـسيرتـه إلى ذروة في القيـادة والجهـاد، في استعادة جميـع فلـسطين والأردن، ومعظـم لبنـان الحـديث وبعـض سـوريا الحديثـة، فـإن نـشوة النـصر لم تنتـه عـن واجباتـه تجـاه الخليفـة العباسـي المستضيء بالله أولاً، الذي كان علـى اتـصال دائـم بـه المـستضيء بـالله، وثانيـاً الناصرلدين الله الذي ينـبئ بأعماله وبتحركاته وبجهاده الذي كـان يقـوم بـه باسمه. وقد اتبع بهذا سياسة نورالدين، كما تقيد فيه بتعليمـات الفقهاء في أصول شن الجهاد وطبيعة العلاقات بين الخليفة وغيره من الحكام المسلمين. ولعل الناصر صلاح الدين الحاكم الوحيد، ماعدا نورالدين، الذي تقيد بهذه التعليمات، لأنه آمن بها حتى وإن توجس الخليفة الناصر خيفة منه، وشعر بالغيرة من شهرته بعد فتوحاته، لدرجـة أنـه طلب منـه التخلي عـن لقب الملك الناصر. كما ان نشوة النصر لم تثنه عن الاتصال بـشعبه، كما رآه ابـن

شداد: ((عادلاً، رؤوفاً، رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي، يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً)).

وكان بحسب رأي ابن خلكان: ((مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة، كثير التواضع واللطف، ريباً من الناس، رحيم القلب، كثير الاحتمال والمدارات))[١٤٠]. وقد لايتسع المجال هنا للبحث في فتوحات صلاح الدين ومعاركه ضد الفرنج، لكننا اخترنا البحث حصراً في فتح حطين لأنه يمثل معركة من معارك التاريخ الحاسمة التي تجلت فيها خبرة صلاح الدين العسكرية وبراعته وشجاعته واستراتيجيته.

معركة حطين:

توج نصر السلطان صلاح الدين في حطين مسيرته، ووضعه في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين؛ كما أعاد إلى المسلمين الثقة بالنفس والكرامة التي كانوا قد فقدوها مايقارب القرن من الزمان، وبما انه قضى به على المملكة اللاتينية الأولى في فلسطين، واضعف الإمارات الشامية، فقد بوأه الغرب مكانة عليا بين أعدائه من دون الاستهانة ببطولته[١٤١].

لقد كانت معركة حطين[١٤٢] معركة تحرير فلسطين، لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى القدس وباقي فلسطين، ومعظم لبنان الحالي وسوريا الحالية، ومن ثم فهي أهم من معركة تحرير القدس؛ إذ لولاها لصعب استرجاع القدس، هدف صلاح الدين العسكري الذي هم على تحقيقه طوال مسيرته الجهادية. وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله: ((كانت

وقعة حطين مفتاح الفتوح الإسلامية وبها تيسر فتح بيت المقدس))[١٤٣]، وعدّها حلقة وسطى بين فتوحات نورالدين زنكي وركن الدين بيبرس في تعليقه، منذ أن استولى ملوك الفرنج على البلاد الساحلية، ((لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين، فرحم الله السلطان الناصر وقدس روحه، فلم يؤيد الإسلام بعد الصحابة رضي الله عنهم، برجل مثله ومثل نورالدين محمود بن زنكي رحمة الله عليهما، فهما جددا الاسلام بعد دوسه، وشيدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر ركن الدين بيبرس، وكان أمره أعجب إذ جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الاسلامية، وأيس الناس من انتعاش الملة، فبدد شمل التتار شذر مذر، وحفظ البلاد الاسلامية وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية))[١٤٤]. في حين عدّها غير ابن واصل أنها من أكبر المعارك التي خاضها المسلمون وأنها تعادل القادسية، التي فتحت طريقاً لقوات المسلمين والإسلام الى بلاد فارس. وقد تجلت عبقرية صلاح الدين الحربية والادارية والعسكرية في هذه المعركة التي طبق فيها خبرة أربعة وعشرين عاماً من الحرب المتواصلة مع الفرنج في المنطقة، عرف خلالها أساليبهم في القتال، وطبيعة تنظيماتهم وجيوشهم ورجالاتهم وأسلحتهم، حاربهم وجهاً لوجه أحياناً، وفاوضهم أحياناً أخرى. وتآمر عليهم كما تآمروا عليه، وانتصر عليهم كما انتصروا عليه. ولقد راعى في تطبيقه واعداده للمعركة الدرس القاسي الذي تعلمه من أكبر هزيمة له على يد الفرنج في معركة الرملة سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م)[١٤٥]، أي قبل معركة حطين بعشرة أعوام، وبرأيي تكاد تشبه معركة أحد حين خسر فيها المسلمون أمام مشركي قريش في (٣هـ/٦٢٤م)[١٤٦].

ان الاستغناء عن دقة حساب الجهد المبذول عند الطواريء غير الداخلة في الاعتبار كان له دوره في سير الاحداث، كما حدث في معركة الرملة، لذا طبق بعد هذه الهزيمة قول القاضي الفاضل في رسالة عنه إلى أحد الامراء: ((والغزوات تتصل ولاتنقطع، والغلبات على العدو باذن الله تسهل ولاتمتنع، وراية هذا الدين ترتفع ولاتنخفض، وأنوار هذه الملة تنبسط ولاتنقبض، ولافلت لنا ولله الحمد هذه النبوة عزيماً، ولا أحالت منا عن طلب الكافرين عزيماً، وما عدونا مادل الله سبحانه وتعالى ومازادهم الله إلا ايماناً وتسليما))[١٤٧].

ولابأس هنا من القول بأن بذور نصر حطين تعدو الى انحسار المملكة اللاتينية التدريجي، بدءاً بجهاد عمادالدين زنكي وابنه نورالدين، وقام صلاح الدين بعد ذلك بدورهم في أحداثه. كما تعود إلى عبقريته الفذة في ادارة المعركة. ولقد فطن المؤرخ وليم الصوري إلى خطر سيادة صلاح الدين في مصر وبلاد الشام قبل معركة حطين، ونبه إليه قائلاً: ((وصلاح الدين هذا الذي أشرنا إليه في تاريخه إنسان من أصل وضيع، لكنه يتحكم الآن في جميع هذه الممالك مصر وجميع بلاد الشام والجزيرة، لأن الحظ ابتسم له، فها هو الآن يستخلص من مصر والبلدان المجاورة لها أحسن نوعية من الذهب الخالص، ويحصل من المقاطعات التي تحت حكمه على خيالة ومشاة محاربين، من الرجال المتعطشين إلى الذهب)). ووصف المؤرخ نفسه وجهة نظر القادة اللاتين في المملكة حيال صلاح الدين بقوله؛ ((لقد كان هناك اجماع على أنه يجب بذل كل جهد ممكن لمعارضة ومقاومة هذا الرجل العظيم ويتقدم بسرعة من نصر الى آخر في سبيل الوصول إلى أعلى قمة

لارضاء طموحه، والشعور السائد في المنطقة أنه كلما ازداد صلاح الدين قوة ازداد عداء لنا))[١٤٨].

وإذا كانت معركة حطين لم تستغرق أكثر من يومين أو ثلاثة أيام، وهو مايجعلها من أقصر المعارك التاريخية الحاسمة، فانها تطلبت إعداداً كبيراً، وقد بدأ هذا الإعداد بعد معركة الرملة، واشتركت فيه القوى العسكرية والدينية والاعلامية، أما عبقرية صلاح الدين في هذا الاعداد فقد تجلت في توحيده الصفوف الاسلامية توحيداً عسكرياً، وسياسياً، ومعنوياً، وتوجيهها إلى هذا الهدف الأسمى، حتى أنه عندما استدعى العساكر من مصر والشام والجزيرة والموصل، وصلته من دون تأخير، بقادتها وراياتها وأسلحتها وجنودها، فوحد تنظيمها للمعركة. وتجلت عبقريته أيضاً في قدرته على شق الصف الفرنجي والتحالف مع أحد كبار رجالات الفرنج في الشام، والمملكة اللاتينية، وهو ريموند القومص(القمص) صاحب طرابلس، وبيروت، والجليل في فلسطين، وإقطاع زوجته اسكيفا(Eschiva) التي استقرت في حصن طبريا. فقد سهل ريموند للناصر صلاح الدين العبور إلى المملكة اللاتينية، من دون أن يدري أنه فتح له الطريق لتدمير هذه المملكة كما انعكست في عبقريته وعبقرية وزيره في ايجاد شبكة اتصالات ومخابرات متينة ضمن صفوف الفرنج. وقد قوى شبكة الارصاد والعيون والجواسيس بينه وبين الفرنج خلال معركة حطين، بحيث كانت أخبار تحركات الفرنج تصله بسرعة واستمرار وهو محاصر مدينة طبرية[١٤٩].

هذه بعض النواحي العامة التي تعكس عبقرية صلاح الدين في الاعداد الاستراتيجي البعيد المدى لمعركة حطين. أما تخطيطه التكتيكي المباشر، فيكشف عن قوة مقدرة فذة في التخطيط للمعركة وفي الشجاعة، ولابد لنا

في هذا المقام من الاشارة الى بعض الامور التي أدت الى نصره، وهي اختياره الأماكن الملائمة للمعركة، كالمناطق المحيطة ببحيرة طبريا، من الشرق والغرب، ليحمي ظهره ويعود أدراجه بسهولة في حالة الهزيمة. ثم انه استوعب الدروس التي تعلمها من هزيمة الرملة(١٥٠)، عندما ابتعد وعساكره عن قواعدهم وانتشروا في المدن التي تواجد فيها الفرنج وقراهم من دون علم بجغرافية المنطقة، فتاهوا فيها، الأمر الذي سهل للفرنج هزيمتهم، وأسر قسم كبير من العساكر. فحرص على أن لايتغلغل كثيراً في مناطق الفرنج، وأن لايأخذ معه في حملاته الاستكشافية سوى القليل من حرسه، تاركاً باقي الجيش يحمي مؤخرته، كما عمل على ان ينزل الفرنج من مناطقهم العالية في صفورية، مكان تجمعهم المشرف على الغور، الى الغور نفسه، في شهر تموز فأخرجهم من موقع حصين ملائم لهم إلى موقع لايلائمهم، ونقلهم من مناخ معتدل إلى جهنم. ولاعجب أن بعض الكتاب أطلق اسم وادي جهنم على هذه المنطقة. وكان هذا لم يكف، فحرص على أن يمنعهم حتى من التقرب الينابيع أو آبار المياه، ومن ثم شن عليهم حربين، حرباً بالسلاح وحرباً بالعطش، واستعمل طبيعة المنطقة الجغرافية ليضمن النصر. والى جانب هذه الترتيبات الاستراتيجية، فان الناصر صلاح الدين أشرف بنفسه إشرافاً كاملاً على إعداد قواته، فعدها ورتبها ونظمها صفوفاً معينة، وأغدق عليها بالاموال كيلا ينحرف بعض ذوي النفوس الضعيفة وراء عملية النهب والسلب، كما فعلوا في الرملة. واختار السلطان صلاح الدين بنفسه الكمائن والقناصة الذين قاموا بدور مهم في هزيمة الفرنج، إذ ظلوا يشاغلونهم ويقتنصونهم طوال الطريق بين حين وآخر أو تخطفهم عناصر اليزك الصلاحي، حتى أضعفوهم قبل

المعركة الرئيسة، وقضوا على الكثير من خيولهم. وقد عد المؤرخ ريموند سميل(R.C.Smail) تنكيل الكمائن بالفرنج بين صفورية وطبريا المعركة الاولى، وعدّها من نوع لم يعهده الفرنج قبل حطين(١٥١).

ولبيان وفهم دور السلطان صلاح الدين في معركة حطين، سنتحدث عن الأوضاع المؤدية الى هذه المعركة ونتائجها، معتمدين على مصادر عربية وأجنبية المتوافرة بين أيدينا.

تاسعاً/ صلاح الدين وتفكيك الجبهة الصليبية:

١- ريموند (القومص) وصلاح الدين:

من المألوف لدى الضالعين في شؤون العسكرية، أنه كانت وحدة الصفوف الفرنجية في المملكة اللاتينية قد بدأت رويداً رويداً تتشقق داخليا بعد موت الملك أموري، وولاية ابنه بلدوين الرابع الملك، إذ إن بلدوين هذا، على الرغم من كونه رجلاً قوي الارادة والعزيمة شهماً، كما يصوره المؤرخ وليم الصوري، فإنه كان مريضاً بالبرص، ضعيف البنية، وكثير الأوجاع والعلل، الأمر الذي دفع القيادات الفرنجية والإقطاعية، والقيادة الدينية أن تتنافس بشأن السلطة وتحاول إقصاءه في اثناء حياته. وعندما توفي سنة(٥٨١هـ/١١٨٥م)، اشتد الصراع بين هذه القيادات على الوصاية على خلفه الملك بلدوين الخامس، ابن أخت بلدوين الرابع، الذي كان صبياً في الخامسة من عمره، وانتخب ريموند، وصياً عليه، لكونه أكبر قادة الفرنج سناً وشأناً، على الرغم من اعتراض بعض الفئات على انتخابه. وكان بين المعارضين (Lusignan cuy of) زوج الداوية، وريموند (أرناط)(البرنس) صاحب

الكرك، وظل هؤلاء يسعون لسحب الوصاية من ريموند حتى نجحوا أخيراً في تحويل الملك من الطفل إلى أمه، وأوكلوا إليها اختيار الملك الجديد، لأنها لاتستطيع أن تحكم كأمرأة. وسلمت سيبيلا تاج الملك الى زوجها غي لوسينان وفق ما أراده المعارضون لريموند، على الرغم من أن غي هذا كان مهاجراً جديداً إلى المنطقة، قليل الاطلاع على الاوضاع وطبيعة العلاقات بين الفرنج والمسلمين، وقليل الخبرة والكفاءة بالسياسة[١٥٢].

لقد أثار هذا الانقلاب على ريموند، غضبه، فغادر عكا لاجئاً إلى طبريا، إقطاع زوجته إسكيفا، لكنه سرعان ماعلم بأن الملك الجديد غي جرده من إقطاعه في بيروت، وأخذ بعدها يطالبه بحساب الاعوام التي كان فيها وصياً على الملك المخلوع (بلدوين الخامس)، فخشي من حرب يشنها أعداؤه عليه في المملكة ويهاجمونه في طبريا، فيجردونه مما تبقى له من إقطاع أو ملك وتلفت حوله، فلم يجد سوى صلاح الدين معيناً له على أعدائه، فأرسل إلى صلاح الدين في دمشق رسولاً يعلمه بالمؤآمرة ضده ويطلب منه العون والحماية، وسعد وسرّ صلاح الدين بهذه الدعوة، فأرسل له بعض الفرسان والمشاة، والرماة المسلمين، وبعض الأسلحة، ووعده بأنه إذا هاجمه أعداؤه في أي صباح، فإنه صلاح الدين مستعد لأن يكون إلى جانبه في المساء وجمع الناصر صلاح الدين عساكره في بانياس استعداداً لأي طارئ، بينما حشد غي عساكره في الناصرة لمهاجمة ريموند[١٥٣].

ومايستحق ذكره هنا، أنه كانت أول فرصة سنحت لصلاح الدين للتدخل في شؤون المملكة اللاتينية، فاقتنصها واستغلها خير استغلال فشد أزر ريموند حتى اشتد أمره، واستقل بنفسه واستولى على جنسه[١٥٤]، كما يذكر عمادالدين، وكافأه صلاح الدين على طلب التقارب معه بأن اطلق من كان

عنده في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، وباين أهل ملته، وبث السرايا في بلادهم، فخافوه وحذروا مكره[١٥٥].

لقد عدّ الفرنج تحالف ريموند مع الناصر صلاح الدين خيانة كبرى للملكة، يجب أن يعاقب عليها، واتهموه بالتحول إلى الاسلام، وعزم ملكهم غي على التوجه إليه في طبريا ومعاقبته. بيد أن باليان الأقبليني، وهو من كبار فرسان المملكة، تدخل إليه طالباً منه التوقف عن التوجه الى طبريا، ومفاوضة ريموند بدلاً من ذلك، فوافق وارسل وفداً إلى طبريا لمفاوضته، ووضع ريموند شروطاً للتصالح مع الملك، أهمها إعادة بيروت إليه، لكن الملك غي رفض طلبه. ومع أن صلاح الدين كان متحالفاً مع ريموند، عدو الملك غي فإنه عقد هدنة مع الملك مدتها أربعة أعوام، إلا انه لم يكن بحاجة إلى هذه الأعوام الأربعة ليحقق أهدافه، فقد كانت الاحداث تجري بسرعة في مصلحته، وهو يستغلها خير استغلال. إذ إن تحالف ريموند مع صلاح الدين، أثار غضب ريموند(أرناط) حاكم الكرك، بصورة خاصة، الذي عدّ من أكثر أمراء الفرنج عداء للمسلمين لصلاح الدين، والذي كان هو نفسه على هدنة مع الناصر صلاح الدين، قام ريموند هذا بنقض هدنته مع السلطان صلاح الدين سنة(٥٨٢هـ/١١٨٦م)، وأوقف قافلة تجارية عظيمة مارة بأرض الكرك من مصر إلى الشام، وأخذها بأكملها، وقتل حراسها وأسر بعض الجند، كما قبض على من في القافلة من تجار وعائلات، وعلى أموالهم، فأرسل الناصر صلاح الدين إليه مؤنباً ومطالباً بإطلاق من في الأسر، لكنه ابى طلب صلاح الدين، لذا ((نذر السلطان دمه، وأعطى الله عهداً إن ظفر به أن يستبيح مهجته))[١٥٦]، أرسل صلاح الدين إلى الملك غي شاكياً من ريموند، ومطالباً بالنصح له بإعادة الأسرى والاموال التي استولوا عليها في القافلة ظلماً

وعـدواناً. ولبـى غـي دعـوة الـسلطان، لكنـه أخفـق في الـضغط علـى ريمونـد بإطلاق الاسرى والاموال[١٥٧].

سـبب هـذا الحـدث الغريـب تخوفـاً شـديداً بـين الفـرنج، وأثـار التـوتر في علاقـاتهم بـصلاح الـدين، فأسـرع بوهمنـد حـاكم أنطاكيـة، بعقـد هدنـة منفصلة مع السلطان، إما بطلب منه هـو، وإمـا بـدعوة مـن صـلاح الـدين في ربيع الأول عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م). أما ريموند فوسع اتفاقيته مـع صـلاح الـدين، مضيفاً إليها حماية منطقـة الجليـل. وبـذلك يكـون قـد فـتح لـصلاح الـدين الطريق بين الاردن وفلسطين[١٥٨].

ولما كانت هذه التحالفات ونقضها نقطة الانطلاق الأولى لمعركـة حطـين؛ ذلـك بـأن تحـالف الـسلطان مـع ريمونـد اتـاح لـه مجالاً للتـدخل في الـسياسة الفرنجيـة الداخليـة، ولاستكـشاف إمكانـات دخـول قواتـه المملكـة لجمـع المعلومات اللازمة للحرب، وللاعداد للمعركة الفاصلة، أما خلافه مع ريموند، فقد بـرز لـه نقض اتفاقيته معه ومع الملك، والهجوم علـى المملكـة اللاتينيـة. وكما أفلح صلاح الدين في شق الـصف الفرنجـي واحـداث شـرخ كـبير بيـنهم، فإنه كان قد نجح في توحيد الصفوف الإسلامية، وإعداد الجيوش، من مـصر إلى الجزيـرة فالموصل، معنوياً وعسكرياً للمعركـة الفاصـلة، حتـى أنـه عنـدما استدعاهم إلى المعركة سـنة(٥٨٣هـ/١١٨٧م)، وصـلوه مـن دون تـأخير أو تـردد بعددهم واسلحتهم الكاملة[١٥٩].

بمـا أن صـلاح الـدين حـدد سـنة(٥٨٣هـ/١١٨٧م) سـنة للجهـاد، فإنـه بـدأ الإعـداد لهـذا الحـادث الـذي أراده نـاجحـاً، فتوجـه في بدايـة تلـك الـسنة الى بُصرى في حـوران ليـستقبل الحجـاج، ويـضمن في الوقـت ذاتـه عـدم تحـرش ريمونـد بهـم، لأن التقـارير الـتي وصـلته أشـارت إلى تـربص حـاكم الكـرك

بالحجاج، ونجحت خطة صلاح الدين، إذ حالما علم ريموند بوجوده قريباً منه، تراجع الى حصنه، ومع أن الحجاج وصلوا في شهر صفر، فان السلطان ظل في المنطقة ينتظر وصول العساكر المصرية التي استدعاها للجهاد(١٦٠).

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين في بُصرى، طلب ابنه الأكبر الأفضل نورالدين علي، أن يتمركز في رأس الماء، وهو ميدان فسيح في حوران يبعد عشرين ميلاً عن درعا، كي تجتمع لديه العساكر القادمة من كل صوب وحدب للجهاد من مختلف المناطق في العالم الإسلامي، وحرك صلاح الدين جنوده باتجاه الكرك كي يموه أهداف حركته الحقيقية على الفرنج، ويخيف ريموند، أو حتى ليمنعه من الذهاب إلى المملكة اللاتينية، فراحوا يعيثون فساداً بالمنطقة، ويقطعون البساتين والكروم ويقتلعون الزرع. ثم قصد الشوبك، وفعل فيها مثلما فعل بالكرك. وفي هذه الاثناء وصل عسكر مصر، ففرقه على حصني الكرك والشوبك لمحاصرتهما. وظل صلاح الدين في الأردن شهرين من صفر إلى ربيع الثاني عام (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، وكان هدفه الأساس محاصرة المنطقة، تغطية للحشود التي كانت تتجمع حول ابنه الأفضل في رأس الماء(١٦١).

وعلى هذا الضوء، فإن صلاح الدين وقواته المتجحفلة كانوا يستعدون لخوض معركة فاصلة وحاسمة مع الفرنج، ولنعد قليلاً إلى المملكة اللاتينية لنتمكن ماكان يجري فيها رداً على تحركات صلاح الدين ونوايا جيشه.

عندما علم الملك بتحركات السلطان وعدم معرفة نواياه، عقد اجتماعاً عاجلاً في القدس في عام(٥٨٣هـ/في آذار ١١٨٧م)، حضره ممثلون عن الهيئات الاقطاعية والدينية، فنصح الجميع له بمصالحة ريموند، لأن المملكة لاتستغني عن خبرته العسكرية وخدماته الجليلة في حالة دخوله في حرب

مع صلاح الدين. وقال له بلدوين الابليني، حاكم الرملة: ((لقد خسرت أحسن الناس وأكثرهم حكمة في مملكتك، فإذا خسرت نصيحة كونت طرابلس(ريموند)، فإنك خسرت كل شيء))[١٦٢]، فوافق الملك على نصيحتهم وطلب من جيرار رئيس فرسان الداوية وعدو ريموند ورئيس الاسبتارية روجرز(Roger of Moulin)، وباليان الأبليني، وغو سيوس(Goscius)، بطريك مدينة صور، أن يتوجهوا شطر طبريا ويسعوا للمصالحة[١٦٣]. وفي ١٧ صفر عام(٥٨٣هـ/٢٩نيسان ١١٨٧م)، توجه من القدس وفد من عشرة فرسان من الاسبتارية الى طبريا، ومعهم باليان الأبليني وريموند صاحب صيدا، وتوقفوا في نابلس، فاشار باليان عليهم أن يسبقوه إلى الفولة(Lafeve)[١٦٤]، على أن يلتقى بهم في اليوم التالي، أي في ٣٠نيسان في الفولة[١٦٥].

لكن لسوء حظ باليان وفرسانه حينما كانوا في طريقهم صوب الفولة في اليوم التالي، كان ريموند في طبرية يستقبل وفداً مرسلاً من قبل السلطان، يطلب منه السماح لبعض رجالاته بدخول اراضيه في رحلة استكشافية. ولعل الناصر صلاح الدين اختار هذا الوقت المناسب بالذات ليعرقل التصالح بين ريموند وأعدائه، فوافق ريموند على مضض بعد دراسة طلب السلطان، لأنه كان مرتبطاً بشروط اتفاقيته مع صلاح الدين. واشترط ريموند على رجال صلاح الدين أن يدخلوا للمنطقة نهاراً ويغادروها مساءً، قبل حلول الظلام، وألا يؤذوا أحداً أو يتحرشوا بسكانها، فوافقوا على مطاليب ريموند.

ولم يكتف ريموند عند هذا الاجراء، بل أوعز وأرسل بدوره من يخبر سكان المنطقة، كما أغلق بوابات المدينة كي لايتحرش أحد بالمسلمين. وحالما علم بتوجه وفد المصالحة الفرنجي الى طبرية، أطلعه على اتفاقه الجديد مع ممثلي صلاح الدين، ومن هنا بدأت الاحداث والاوضاع تتأزم تأزماً شديداً

وتتحرك بسرعة هائلة، يحاول فيها كل من السلطان وملك الفرنج أن يكسب الوقت والمعركة في آن واحدا[١٦٦].

وليس غريباً ان ريموند كان يطل من حصنه في طبرية يوم ٣٠نيسان، فرأى سبعة الآف جندي من جيوش صلاح الدين بقيادة ثلاثة من أشهر كبار قادته الذين حاربوا الفرنج في الشام، وهم مظفرالدين بن زين الدين علي كوجك كوكبري، زوج أخت صلاح الدين الصغرى، وقايماز النجمي من مماليك نجم الدين أيوب على رأس بعض عسكر دمشق ويلدروم الياروقي على عسكر حلب، يمرون بحصنه كالبرق، متوجهين غرباً باتجاه المملكة اللاتينية. وفي الوقت ذاته كان باليان الأبليني يحث السير مع بعض فرسانه إلى صفورية ليلتقي الوفد الذي سينضم إلى المفاوضين من دون أن يرى مايخبئ القدر له من مفاجآت، فوصل صفورية وقت الظهر. وعندما أشرف باليان على صفورية كان يرى فراسان الإسبتارية، الذين سبقوه الى الصفورية، من بعيد وهم يتحركون حول الخيام، لكنه ما أن وصل وفرسانه الخيام حتى وجدوها خاوية. وطافوا فيها ينادون الفرسان، ولامجيب، وبعد بحث وجدوا جنديين فرنجيين على وشك الموت، ولم يشفق عليهما أحد[١٦٧].

غير أنه ظل عاثر الحظ واستغرب هو وجماعته اختفاء الفرسان، وانتظروا مدة ساعتين في المكان، ثم قرروا العودة إلى مدينة الناصرة، بيد أنهم رأوا فارساً جريحاً من فرسان الداوية يسرع تجاههم، فسألوه، ما الخبر؟ فأجابهم بأن كارثة وقعت له ولزملائه قبل الظهر، حينما كانوا في طريقهم إلى صفورية. وسبب الكارثة أن فرسان الداوية أصحاب قرية الفولة، تسلموا من ريموند رسالة يعلمهم ويأمرهم فيها بدخول عسكر صلح إلى المنطقة في ٣٠نيسان ٥٨٣هـ/١١٨٧م)، فاستعدوا بسرعة لمواجهتهم، ولحقوهم وهم يرون

خيـولهم عنـد عـين الجـوزة(Fontaine de Geisson)، في الـسهل، فباغتوهم، وكادوا يهزمونهم، لكن قايماز النجمي ثبت امامهم ثبات الرجال الأشداء، بينما التف حولهم التفافاً كاملاً كل من مظفرالدين كوكبري ويلدروم الياروقي فهزموهم شر هزيمة، وقتل خلقاً من خيالتهم وشجعانهم، ولم ينج سوى ثلاثة فرسان وصلوا الناصرة جرحى[١٦٨]. كان من بين القتلى مقدم الاسبتارية، أما مقدم الداوية فأفلت ((وكانت هذه النوبة بلانبوة والهبة بلاهبوة))[١٦٩]. أما عسكر صلاح الدين، فلم يكتفوا بمقتل الفرسان الفرنج، بل حملوا رؤوسهم على أسنة رماحهم، عائدين إلى مركزهم بسرعة شديدة عبر الاردن، بحيث لم يـر ريموند الذي كان يراقبهم، الرؤوس[١٧٠]. ولقد نجا باليان الأبليني وريموند صاحب صيدا، اللذان توليا المفاوضات بشأن تسليم القدس وجنوب لبنان فيما بعد[١٧١].

ولقد ندم ريموند على فعلته بالسماح لعسكر صلاح الدين بدخول أرض المملكة، وطلب من الملك غي المسامحة والمصالحة، على أن ينقض هدنته مع صلاح الدين ويتعاون مع الفرنج، لكن طلبه جاء متأخراً؛ وان سامحه الملك، فقد كان صلاح الدين في منطقة الكرك، يتابع أخبار حملته الاستكشافية في المملكة اللاتينية[١٧٢]، وعندما وصلته البشرى بالنصر، غادر الأردن مسرعاً في سير متواصل إلى أن وصل شعترا، في حوران، من أعمال دمشق، واجتمع إلى ابنه الافضل وشاهد جيوشه مجتمعة، ((فغصت بسيول الخيول الوهاد والذرى))[١٧٣]، وعرض جيشه إعداداً للمعركة الفاصلة التي كان ينتظرها منذ مدة، كان عدد القوات التي عرضها اثني عشر ألف فارس، ممن له الإقطاع والجامكية، علاوة على المتطوعة. وقد تجلت مواهبه العسكرية في

تهيئة العساكر للمعركة، فأشرف بنفسه على ترتيبها، وحدد المسؤولية لكل فرقة، ولكل فرد، كما قرر بنفسه أماكن الكمناء[١٧٤].

وعليه رتب السلطان صلاح الدين الجيش في عشترا على النحو الآتي، القلب، وكان هو عليه، والجناحين، فعين تقي الدين عمر، ابن أخيه وأحد كبار قادته على اليمين الميمنة، ومظفرالدين كوكبري على الميسرة، واختار هو بنفسه الجاليشية، طليعة جيش الرماة. وطلب من جنوده ألايتزحزحوا من أماكنهم المعينة والمحددة لهم من قبل القيادة العسكرية الصلاحية[١٧٥]، ثم خاطبهم قائلاً: ((إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عسكرنا، وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع أطلابنا، ومطالع أبطالنا، ومصارع أسنتنا، وشوارع أعنتنا، وميادين جردنا، وبساتين وردنا، ومواقف صروفنا، ومصارف وقوفنا، ومراعي مرامنا، ومجالي مجالنا))[١٧٦] وقسم صلاح الدين احمال النشاب والرماح، ثم توجه مع عسكره على الهيئة التي رتبها إلى طبريا[١٧٧].

بدأ صلاح الدين سيره يوم الجمعة ١٧ربيع الثاني(٥٨٣هـ/٢٦ حزيران ١١٨٧م)، وكان يقصد بوقعاته أيام الجمع ولاسيما أوقات الصلاة تبركاً بنداء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الاجابة[١٧٨].

فانطلق العسكر الى خسفين مسافة ١٣كم من عشترا، فوصلها يوم السبت ١٨ربيع الثاني(٥٨٣هـ/٢٧حزيران ١١٨٧م)، وباتوا فيها، ثم توجهوا إلى الأردن، حيث نزلوا في الاقحوانة، جنوب بحيرة طبريا، وخيموا عند قرية الصنبرة من النبرة، حيث من بقايا قصر أموي. وفي يوم الثلاثاء ٢١ربيع الثاني/٣٠حزيران توجه الناصر صلاح الدين نحو شمالي غربي قرية كفرسبت، تاركاً الأحمال والأزواد في الأقحوانة، ولقد اختار السلطان

كفرسبت بالذات لموقعها الجغرافي المهم نظراً لوفرة مياهها، ولعله اكتشفها قبل وصوله المنطقة هذه المرة، وقد كانت ملكاً لدير جبل طابور، عند منتصف الطريق بين صفورية وطبرية[١٧٩]. وكان من موقعه فيها يستطيع أن يكشف صفورية من أمامه وطبرية من خلفه، ويهدد في الوقت ذاته حركة الفرنج بينهما، وترك لنفسه طريقاً مفتوحة تمكنه من الانسحاب من جنوب شرقي طبريا إذا لزم الأمر. ومن كفرسبت، أخذ صلاح الدين يتجه غرباً، حيث الفرنج، قرب ينابيع صفورية، ليغريهم بالنزول إليه، لكنه أخفق مبدئياً، فراح يبحث عن مكان ملائم للالتحام بالفرنج في سهل لوبيا، قرب قرون حطين[١٨٠].

فالسلطان صلاح الدين كان ثابت اليقين بفضل سعة ادراكه، بأن القائد إذا تعرض لسوء والمعركة حام وطيسها، فإن ميزان القوى سيتحول لصالح من أحدث الاصابة وأوقعها، بقطب الرحى المتمثل في قائد الجيش المتحكم في سيرها، وهذا الانقلاب في الميزان بسبب اصابة القائد سيحدث البلبلة والاضطراب في صفوف جيش القائد المصاب، ويدب فيهم الهلع الباعث على افساح المجال للاختراق بعد أن يهم الكثيرون من الجند بالتفكير في الهروب سبيلاً إلى النجاة، وهذا العامل الهدام كافٍ وحده لسوق الهمم إلى التلاشي أحياناً بعد أن يسعى مفارقو الهمم الى الاختراق، بسبب جسامة صدى وقع الإصابة وتردده في الأرجاء والآفاق[١٨١].

وكان الناصر صلاح الدين يدرك تماماً هذه المرة، أن نصره لن يكون بالتوجه إلى الأعداء صعوداً، بل بإنزال الاعداء إليه ليقاتلهم بحسب شروطه لاشروطهم. فكان يسير ببعض جنوده كل صباح بحيث يراه الفرنج ويشرف عليهم: ((ويراميهم وينكي فيهم، ويتعرض لهم ويتعرضوا له، دون أن

ينجح))[١٨٢]، عندئذٍ غير خطته، فوجه نظره وقواته تجاه مدينة طبريا، وأحضر الجاندارية والنقابين والخراسانية والحجارين لحصارها، بينما انتشر بعض فرقه على شاطئ البحيرة، وظل باقي العساكر على هيئته في الصنبرة، وبعدما حاصر صلاح الدين طبريا هاجمها شر هجوم في ٢تموز (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، بضرب أسوارها، بينما كان النقابون ينقبون السور من أحد الأبراج، إلى أن فتحوا فجوة في سورها من الجنوب، فدخل وعساكره المدينة، لكنهم وجدوها خالية من الحماة، لأن حاميها إلتجأوا إلى الحصن الواقع في القسم الشمالي من المدينة، أما القلعة فامتنعت عليهم[١٨٣].

علاوة على التحرر من دوافع الخوف والوجل والشعور بالوهن والخجل، قرر أخيراً الملك غي التوجه صوب طبرية بدلاً من الانتظار في صفورية، فأوقع المملكة اللاتينية وجيوشها في فخ صلاح الدين، حين علم الأخير بتحرك الفرنج علق بقوله: ((لقد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا مانريد، ولنا بحمدالله الجد الجديد، والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذ صحت كسرتهم، وقتلت وأسرت أسرتهم، فطبريا وجميع الساحل ما دونها مانع، ولاعن فتحها وازع))، وغادر على جناح السرعة طبريا، تاركاً من يحفظ قلعتها، حيث انضم إليه باقي عساكره من مواقعهم التي تبعد نحو ١٠كلم في كرسبت. عندما علم الفرنج بسقوط طبريا ضجوا وأرادوا أن ينزلوا إليها، لكن ريموند نصح لهم بألا يتزحزحوا عن صفورية، لأنهم آمنون، في مكان مرتفع، يصعب وصول صلاح الدين وقواته إليه من دون خسائر فادحة، أو هزيمة شنعاء، ففي صفورية وفرة من المياه، عدا كونها في قلب المملكة اللاتينية، على مقربة من عكا والساحل، بحيث يصلها الإمداد بسهولة، لكن بعض الأمراء، ومن بينهم جيرار، رئيس الداوية،

وريموند(أرناط) صاحب الكرك، اعترض عليه واتهمه بالخيانة[١٨٤] وقد أورد ابن الاثير رواية تشابه الرواية الفرنجية عن نصيحة ريموند للفرنج بالبقاء في مرتفعاتهم، ناقلاً عن ريموند قوله: ((ان طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة مافعل، وبقيت القلعة وفيها زوجتي، وقد رضيت أن يأخذ صلاح الدين القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود. فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثاً، مارأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبريا لايمكنه المقام بها، فمتى أرقنا وعاد عنها أخذناها، وإن قام بها لايقدر على المقام بها إلاّ بجميع عساكره، ولايقدورن على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم، فيضطر الى تركها، فقال له(برنس) أرناط ريموند صاحب الكرك، قد أطلقت في التخويف من المسلمين، ولاشك انك تريدهم وتميل إليهم، وإلاّ ماكنت تقول هذا، وأما قولك انهم كثيرون، فإن الدار لايضرها كثرة الحطب، فقال ريموند، أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت، وان تأخرتم تأخرت، وسترون مايكون))، ويعلق ابن الأثير: ((فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم، فرحلوا عن معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر المسلمين))[١٨٦].

يتضح بجلاء من رواية إبن الأثير أن التقارير الواصلة إلى صلاح الدين عما يجري داخل معسكر الفرنج من قبل عناصره الأمنية من اليزك كانت دقيقة، بحيث سجلها ابن الاثير بطريقة مؤثرة. كما تدل على أن الفرنج لم يتوقعوا معركة حاسمة من جهة صلاح الدين، لأنهم لم يتعودوا على معارك هجومية حاسمة من جهة العساكر الاسلامية. لكن الناصر صلاح الدين برهن لهم أنه يريدها معركة حاسمة بجيوش موحدة، وقلوب متحدة، ومواقف متفقة، لاموزعة الأهواء كما كانوا قد تمنوا.

ومما ينبغي بيانه وايضاحه، بالقياس إلى ماذكره ابن الاثير، أنه عندما علم صلاح الدين بحركة الفرنج، جمع امراءه ومستشاريه واستشارهم، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء، وأن يضعف الفرنج بشن الغارات، وضرب الولايات مرة بعد مرة، وقال به بعض أمرائه، الرأي عندي أننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب، ونحرق وندمر ونسبي، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه، فإن الناس بالمشرق يلعنوننا، ويقولون: ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين، والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه، ونكف الألسن عنا، فقال صلاح الدين؛ الرأي عندي أن نلقي بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الامور لاتجري بحكم الإنسان ولانعلم كم بقي من أعمارنا، ولاينبغي أن نفرق هذا الجمع الا بعد الجهد الجهيد، ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها، وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر، وسار حتى خلف طبرية وراء ظهره، وصعد جبلها حتى قارب الفرنج ثم نزل بعد ذلك حيث هاجم طبرية(١٨٧).

ومع ما في رواية ابن الاثير من اضطراب وتشويه واتهام لصلاح الدين بالتعدي على المسلمين في محاربته آل زنكي في الموصل وحلب، فإنها تدل على تلكؤ بعض الفئات في جيش صلاح الدين عن القتال، وعلى اصرار السلطان صلاح الدين على خوض معركة أرادها حاسمة وفاصلة في التاريخ مع الصليبيين(١٨٨).

ان مايستحق الوقوف عنده، هو ان الفرنج غادروا صفورية يوم الجمعة ٣تموز ٥٨٣هـ/١١٨٧م)، الساعة الرابعة صباحاً، في أكبر جيش جمعوه، منذ تأسيس مملكتهم، متوجهين شرقاً نحو طبريا، وساروا في ثلاثة ترتيبات، المقدمة وعليها ريموند، والقلب وعليه الملك غي، والمؤخرة وعليها باليان

الأبليني، وأحاطوا أنفسهم بالرماة من أصل مزيج من المسلمين واليونان والفرنج.

ومما لاريب فيه ولاسبيل إلى جهله أو تجاهله، كانت خيالة الفرنج الثقيلة أكثر فرقهم تعرضاً للخطر، لأنه على الرغم من دروع الجنود الثقيلة، فإن الخيول كانت معرضة للضرب. ولقد أدرك صلاح الدين جيداً مع رماته هذا الضعف، فراحوا يضربون الخيول، ومن ثم قضوا على قسم كبير منها في أثناء سير الفرنج، ولم يترك المسلمون للفرنج مجالاً للراحة، بل بدأوا يناوشونهم منذ غادروا صفورية، يضربون ويختفون، ثم يظهرون ثانية. وكانت المسافة بين صفورية وطبرية ٣٠كلم، قطعتها عساكر الفرنج بمنتهى المشقة، وكانت تعاني الحر والعطش وسهام المسلمين ونشابهم. كان هم الفرنج خلال سيرهم أن يتوقفوا عند ينابيع الماء، فوجدوا أحدها عند جبل طرعان، فتوقفوا عنده، ولما لم يجدوا مايكفيهم من الماء تابعوا السير، ويبدو كما يذكر ابن الاثير، أن صلاح الدين كان قد أفنى مافي المنطقة من ماء الصهاريج[(١٨٩)].

وفضلاً عما مضى من الحديث فإن إبن شداد قد أشار إلى بعض المعارك التي حدثت في ذلك اليوم قائلاً: ((ولم يزل الحر يلتحم والفارس مع قرنه يصطدم، حتى لم يبق الا الظفر، ووقوع الوبال على من كفر، فحال بينهما الليل وظلامه، وجرت في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة، والأمور الجسيمة، مالم يحك عمن تقدم))[(١٩٠)].

وذكر ابن واصل ان العسكريين التقيا على سطح جبل طبريا الغربي يوم الجمعة، فسد صلاح الدين في وجوههم جميع الطرق الموصلة إلى طبرية[(١٩١)]، وأحاط البحيرة برجاله، سادا جميع الأبواب في وجه الفرنج، فحاول الفرنج

أن يصلوا مياه كفر حطين، لكن قوات صلاح الدين سدت أمامهم جميع المنافذ الموصلة إليها. فاضطروا إلى التوقف، من التعب والعطش في مسكنة، لكن توقفهم لم ينجهم من سهام المسلمين ورماحهم المتواصلة، وكانت عساكر صلاح الدين مخيمة عند كفر لوبيا، على بعد كيلومترين جنوب شرق جيش الفرنج، وكان المخيمان متقاربين، بحيث كان من الممكن على الطرفين أن يتبادلا الحديث(١٩٢).

تبين بما لايحتمل الالتباس، بشأن ماتقدم فيه الحديث، ان الفرنج باتوا ليلة السبت(مساء الجمعة) في ٣تموز عام (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، عند بركة مسكنة في حالة يرثى لها من العطش والتعب، ومع أمرهم وجدوا بعض الماء فيها، ولكنه لم يكفهم. وان روى بعضهم عطشه، فقد ظلت الخيول والدواب والكثير من العسكر عطشه، وعندما حطوا في مسكنة، كانوا يشاهدون رجال الناصر صلاح الدين يعبأون الماء في قرب الجلد على الجمال لتوزيعها على العساكر وتخزينها في الصهاريج، وذكر بعض المؤرخين الفرنج ان صلاح الدين طلب أن يصب الماء على الأرض لاغاظتهم(١٩٣). أما معسكر صلاح الدين، فقد كانت رائحة النصر تفوح فيه، وأكثر العساكر من التهليل والتكبير طوال الليل، ولم ينم صلاح الدين تلك الليلة، بل أمضاها في مراقبة الفرنج والاعداد للمعركة في اليوم التالي(السبت) ورتب في اثناء الليل الجاليشية، وفرق بينهم النشاب، وكان موقع مخيم صلاح الدين أفضل من الفرنج، لأنه أعلى منهم(١٩٤).

- أيام المعركة:

كانت عساكر صلاح الدين وجيش الفرنج متعادلة عدة وعدداً إلى حدما، لكن المسلمين بدأوا المعركة بمعنويات قوية، إذ باتوا ليلتهم مرتاحين ومستعدين للقاء ذاقوا طعم نصره منذ يوم الجمعة، وتوسموا النتيجة منذ غادر الفرنج صفورية. أما الفرنج فكانوا متعبين عطشين، وهوما أضعف قواهم ومعنوياتهم. كانت خطة الفرنج في البداية أن يصلوا الماء ويرووا أنفسهم ودوابهم قبل الالتحام، فهاجموا المسلمين أولاً في الصبح ليحتلوا الممر المؤدي إلى قرية حطين، حيث يضع الينابيع أو الآبار، وكان في مقدمتهم ريموند، الخبير بالمنطقة مع أبناء زوجته الأربعة، وريموند صاحب أنطاكية وعساكرها، أي عساكر فرنج الشام (طرابلس وأنطاكية) والجليل. لكنهم عندما وصلوا الممر وجدوه مسدوداً[١٩٥]، فحاولوا شق صفوف المسلمين. لكن الرماة راحوا يرمونهم بوابل من السهام. وبينما كان ريموند وجمعه يحاولون شق طريقهم إلى حطين، انفصلوا عن باقي الجيش، الذي كان يتبعهم، ووجدوا. أنفسهم محاطين بالمسلمين من عدة جوانب. وقد تم ذلك بموجب خطة مدبرة أعدها صلاح الدين، لمعرفته بان قوة الفرنج كانت بوجود شخصية ريموند بينهم. وبينما كان ريموند وجمعه محاطين بالمسلمين، كان باقي الجيش بقيادة الملك غي يستعد للحرب. وقد نظم جيشهم، بحيث تحمي كل فرقة منه الفرقة الأخرى، فعدا المقدمة التي انفصلت عنهم، كان المشاة يحمون الفرسان من النشابة، لأنهم مدججون بالدروع، وأصحاب الرماح يحمون المشاة، ووضع المشاة على الجوانب وفي

الأمـام، لكـي يهيئـوا للخيالـة التقـدم بحمايـة مـنهم، لأن الخيـل كانـت هـدف الرماة المسلمين الأول[١٩٦].

لقـد وقـف الملـك في القلـب مـع عـدد مـن الفرسـان المختـارين، وقـسم مـن الاسـاقفة يحملـون الـصليب، وهـم محـاطون بالمـشاة يتـبعهم فرسـان الداويـة والاسبتارية[١٩٧]، الذين كانوا سيبدأون المعركـة. وعنـدما بـدأ الالتحـام، هجـم الداوية بقيـادة جيرار، رئيـسهم، بقـوة، فقتلـوا بعـض المـسلمين، وتـسببوا في هـرب الـبعض، لكـنهم لم يواصـلوا نـصرهم هـذا، لأن المـشاة لم يتمكنـوا مـن مجاراتهم، ومن ثم، فبدلاً من أن يظل المـشاة في مراكـزهم في الجيش بقـرب الفرسان، تجمعوا كتلة واحدة وصعدوا تلة هـي أحـد قـرون حطـين. عنـدما رأى الملـك ذلـك ذعـر ذعـراً شـديداً، واحتـار أن يجـد موقفـاً يثنـيهم عـن مواقعهم، طالباً منهم أن يعودوا ليحملوا الصليب، فأجابوا قائلين: لانستطيع الحرب، فأرسل إليهم مرة أخرى مهدداً ومطالبـاً ايـاهم بـالعودة، فـأبوا، ومـع تمـرد المشاة أصبحت خيـل الفرسـان مكـشوفة، مـصرخة للمـسلمين، فـأدرك الفرسـان الداويـة والاسـبتارية والتركبوليـة أنهـم لايـستطيعون الـرد علـى ضربات صلاح الدين بمثلها، لأن عساكر صلاح الدين كانت محيطة بهـم مـن جميع الجهات، ترميهم بالسهام. وتقـدم هـؤلاء الفرسـان مـسافة قـصيرة، ثـم استنجدوا بالملك ليخفف الضغط عنهم، لكن الملك ومن معه كانوا مكشوفين، وعاجزين عن الحركة، لأنهم بدورهم فقدوا حماية المشاة أيضاً، فلم يتمكنوا من مساعدة الفرسان، وعندما رأى الملك بلبلة جيشه والفوضى الناجمة عـن ضغط المـسلمين المتواصل، قـرر أن ينـصب بعـض الخيـام، علـى أن يخـصص إحداها لتظليل الصليب، ولتكون مركز تجمع للفرنـج ونجح في نـصب خيمـة واحدة، وفي هذه الاثناء كان فرسان الاسبتارية والداويـة يحـاربون وحـدهم،

فتكبـــدوا خـــسائر فادحـــة. إذ إن المـــسلمين كـــانوا يـــضربونهم بالرمـــاح ويطعنـــونهم بالـــسيوف، ولاحـــظ ريمونـــد(القـــومص) مـــن مكانـــه الفوضـــى واختلاط الفـرنـج بأعـدائهم، فحاول أن يتراجـع لكنـه أخفـق، فلـم يـستطع العودة. فقد كان يسمع الفرنـج يـصيحون مطـالبين بعـضهم الـبعض بـالهرب نـاجين مـن ارض المعركـة: ((مـن كـان مـنكم يـستطيع الهـرب فليهـرب لأن المعركة ليست في جانبنا وحتى الهرب مستحيل))[(١٩٨)].

لقد التجأ في هذه الأثناء ستة من عساكر الفرنـج إلى الناصر صلاح الـدين فـارين مـن أرض المعركـة وأخـبروه حالـة الفـرنـج البائـسة، وصـدف وقـت التجائهم أن بطريك عكا، حامـل الـصليب جـرح والـصليب بيـده، فـسلمه إلى بطريك اللد، فأثر هذا الحادث في الفرنـج كثيراً ولاسيما في من هـم في سـاحة الوغى[(١٩٩)].

ومما ينبغي الإشارة إليه ، هو أن تقرير ومعلومات هؤلاء الفرنـج قـد شـد مـن عـزم الـسلطان صـلاح الـدين علـى اختـصار المعركـة وإنهائهـا، فطالـب العـساكر بالـصعود إلى التـل الـذي التجـأ الرمـاة إليـه، فقبـضوا علـى بعـضهم وقتلوا البعض، وفر آخرون بجلدتهم. أما ريموند، فعندما شاهد مايجري بـأم عينيه وكان يراقب عن كثب مايدور في المعركة ومايسفر عنها مـن النتـائج، وهو عاجز وحده عن عمل شيء بمعـزل عـن بـاقي الجيش، فقـد حـاول أن يتخلص بمهاجمة الجناح المقابل له بقيادة تقي الدين عمر، لكن تقـي الـدين فتح له الطريق عليه وعلى العساكر الـتي معـه، فكانـت هـذه أيضاً خـسارة كبرى للفرنـج، ومن علائم هزيمتهم. وقـد هـرب ريمونـد وقـت الظهـر، لكـن الفرسان الداوية والاسبتارية ظلوا يقـاتلون. فـأمر صـلاح الـدين ابـن أخيـه تقي الدين عمر أن يهجم مع خيالتـه علـى الفـرنـج، ونـشبت معركـة، أشـعل

خلالها بعض عساكر صلاح الدين، بأمر من صلاح الدين نفسه، كما يقال، النيران في الاعشاب الجافة، فحملتها الريح ودخانها باتجاه الفرنج، فهذه الحالة زادت الطين بلة في معاناتهم، وأثرت على معنوياتهم، وبالنتيجة أدت إلى هروب من بقي في أرض المعركة منهم إلى أحد قرون حطين، حيث تجمع المشاة، وبدأوا يراقبون مايجري من الاحداث والحوادث، بيد أنهم رأوا تقي الدين عمر يقبض على الصليب، فسقط في أيديهم. وكان ذلك أكبر خسارة تكبدوها خلال سير المعارك، وماكان منهم إلاّ تجمع بعض الفرسان ثابتين ومحيطين حول خيمة الملك، ومن موقعهم الجديد، فيمموا المسلمين باتجاه الناصر صلاح الدين، فأمر بهجوم معاكس، فاندفع المسلمون، وصعدوا التل، وهاجموا خيمة الملك ولم يكن يتوقع ذلك، فوقع ماوقع، وأنهوا المعركة وكان انتهاؤها بعد الظهر(٢٠١).

لقد وصف ابن الاثير هذه العملية الجبارة التي تظهر بوضوح القدرة البالغة أقصى المديات على تحمل الصعاب مهما كانت المشارب والمضارب من لدن السلطان صلاح الدين وجيشه في الوقعة الأخيرة حول خيمة الملك بقوله: ((حكي لي عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين، قال: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي. قال: فنظرت إليه وقد علته كآبة وتبدل وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح؛ كذب الشيطان، قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج عادوا والمسلمون يتبعونهم فصحت من فرحي هزمناهم، فعاد الفرنج، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي؛ ووقع ماوقع أولاً. وعطف المسلمون عليهم

فالحقوهم بالتل، فصحت أن أيضاً هزمناهم، فالتفت والدي إلي وقال: أسكت مانهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي وإذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه))[٢٠٢].

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات، ازدادوا عشطاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، وطرقوا كل باب من أجل هذا الغرض ولم يفدهم، لذا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة وكراهية وحقداً دفيناً للمسلمين، وأسروا أيضاً جمعاً غفيراً من الداوية، وجماعة مماثلة من الاسبتارية هنا وهناك في المعركة، وكثر القتل والأسرفيهم، فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لايظن انهم قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل سنة(٤٩١هـ/١٠٩٧م)، إلى الآن بمثل هذه الوقعة التي مرت عليهم[٢٠٣].

لقد كان السلطان صلاح الدين، في حرصه البليغ يجري جريان الدم في العروق، ومجرى النفس في النفس، لذلك سخر ورصد كل طاقاته وقدراته العسكرية في هذه المعركة الفاصلة والحاسمة في تاريخ المسلمين عصرئذ، نزل في خيمته بعد أن فرغ المسلمون من الفرنج، وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك الى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجاً، فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك، فشرب، فقال الناصر صلاح الدين[٢٠٤]؛ ان هذا الملعون، لم يشرب الماء بإذني فينال أمامي، ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعد عليه عوراته واساءاته وتجاوزاته بحق

المسلمين[٢٠٥]، وبعد أن درس حاله مع مستشاريه قام إليه بنفسه فضرب عنقه، وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما أخذ القافلة التجارية غدراً وعدواناً، ونقض العهد الذي قطعه للسلطان بعدم التحرش والتقرب من القوافل التجارية والحجاج، فلما أقر صلاح الدين قرار الاعدام وقطع رقبته، وسُحب وأخرج، ارتعدت فرائص الملك، ثم سكن جأشه وأمنه[٢٠٦]، وأما القمص(القومص) صاحب طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة، وصل إلى صور، ثم قصد طرابلس، ولم يلبث إلاّ أياماً قلائل حتى مات غيظاً وحقداً مما جرى على الفرنج وعلى دين النصرانية عامة[٢٠٧].

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمدالله والشكر له، والتكبير والتهليل، حتى طلع الصبح في يوم الأحد[٢٠٨].

فعندما أدرك القومص اشباح الخطر تحوم حوله، رأى إمارات الخذلان قد نزلت نزلة غير مسبوقة بأهل دينه، وقد أطنب ابن شداد في وصف المعركة بقوله: ((وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسّره، وأجراه على وفق ماقدره، فحملت الاطلاب الاسلامية من الجوانب، وحمل القلب، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين))[٢٠٩].

ومما ينبغي الاشارة إليه هروب القومص في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين، فنجا وحده، وأمن الاسلام كيده. واحاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وعاملوهم بالصفاح. وهزمت منهم طائفة هزيمة غزال، فتبعها أبطال أجناد المسلمين، فلم ينج منهم أحد، واعتصمت

الطائفة الأخرى بتل يقال له حطين، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه السلام وعلى سائر الانبياء، فضايقهم المسلمون مضايقة شديدة خانقة من كل الجهات، واشعلوا حواليهم النيران التي وقودها الحشيش، وقتلهم العطش وضاق بهم الأمر، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل المنتظر، فأسر مقدموهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان فيهم سلم وأسر من مقدميهم الملك جفري(غي)، والبرنس أرناط، وأخو الملك، والبرنس صاحب الشوبك، وابن الهنري، وابن صاحبة طبرية، ومقدم الداونة، وصاحب جبيل، ومقدم الإسبتار[٢١٠].

وأما الباقون من المقدمين فإنهم قتلوا، شر قتلة، وأما الأدوان فإنهم قسموا إلى قتيل وأسير، ولم يسلم منهم إلاّ من أسر، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه. ولقد قال لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمه فيه نيف وثلاثون أسيراً يجرهم وحده لخذلان وقع عليهم. أما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حيثهم. أما القومص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابته ذات الجنب فأهلكه الله بها. وأما مقدم الإسبتار والداوية[٢١١]، فإن السلطان صلاح الدين اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم[٢١٢].

وأما البرنس أرّناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبربه بالشوبك وقفل من الديار المصرية في حالة الصلح، فنزلوا عنده بالامان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال مايتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبلغ ذلك من قبل عيونه المبثوثين هنا وهناك، فحمله الدّين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله[٢١٣].

ولما فتح الله تعالى عليه بالنصر والظفر، جلس الناصر صلاح الدين في دهليز الخيمة، فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالاسرى جماعة بعد أخرى وبمن وحدوه من المقدمين[٢١٤].

أجل وما أن تم كل ذلك بحكمة السلطان، وعزيمة جيشه المقدام الذي لايهاب الموت استشهاداً في سبيل العباد والبلاد، حتى صافحت ذهنه فكرة الالتفات الى تنصيب وتثبيت الخمية، خيمة العز والكرامة، وجلس فرحاً مسروراً بفتحه المبين، شاكراً لما أنعم الله عليه، ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط، وناول الملك جفري شربة من جلاب بثلج[٢١٥]، فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان صلاح الدين للترمان: ((قل للملك، أنت الذي تسقيه، والأ أنا ماسقيته))[٢١٦].

وكان على جميل عادة العرب ومن ثم بعد مجيء الدين الاسلامي الحنيف، مع كريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل وشرب من مال من أسره أمِنَ. فقصد بذلك الجري على مكارم الاخلاق. ثم أمرهم بالمسير إلى موضع عين لينزلوا عنده، فمضوا وأكلوا شيئاً، ثم عاد فاستحضرهم، فلم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، واستخضرهم وأقعد الملك في الدهليز، واستحضر البرنس أرناط ومثل بين يدي السلطان، وأوقفه على مقال. وقال له: ((ها أنا أستحضرك لمحمد عليه الصلاة والسلام! ثم عرض عليه الاسلام، فلم يفعل، ثم سل النمجاه[٢١٧] وضربه بها، فحل كتفه، وتمم عليه من حضر، وعجل الله بروحه الى النار، فأخذ ورمى جثته على باب الخيمة[٢١٨]، فسكن جأشه وأمنه، تطبيقاً على شريعة الله تعالى[٢١٩] لأنه نقض العهد وأنطبقت

عليه هذه الآيـة: ((وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ))[٢٢٠].

وفوق كان ذلك شديد الحرص على المحافظة على الاسرى. فلما راى الملك تلك الصورة لم يـشكّ في أنـه يُثنـى بـه، فاستحضره السلطان وطيـب قلبـه، واحترم خير احترام، وقال: لم تجر عـادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك، وأمـا هـذا فإنه تجاوز حد الله وعباده، فجرى ماجرى[٢٢١].

أما القموص(القمص)، صاحب طرابلس، فإنه لما نجا مـن المعركة، وصل الى مدينة صور، ثم قصد طـرابلس، ولم يلبـث إلاّ أياماً قلائـل حتـى مـات، غيظـاً وحنقـاً ممـا جـرى علـى الفـرنج خاصـة، وعلـى ديـن النـصرانية عامة[٢٢٢].

ولما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج في حطين، أقام بموضعه بقيـة يومه، وأصبح يوم الأحد، فعاد إلى طبرية ونازلها، فأرسلت صـاحبتها تطلب الأمان لها ولاولادها وأصحابها ومالها، فأجابها إلى ذلك، فخرجت بـالجميع، فوفى لها، فسارت آمنة مطمئنة، ثم أمر بالملك وجماعة من الاسرى فارسلوا إلى دمشق، وأمر بمن آسر من الداوية والاسبتارية أن يجتمعوا ليقتلهم[٢٢٣].

هوامش الفصل الأول:

(١) ابـن خلكـان: وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان، تحقيـق: احـسان عبـاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م، ١٤٠/٧، ويـذكر ابـن خلكـان في روايـة أخـرى أن شـاذي كـان صديقاً لبهروز منذ كانا معاً في دوين، وأن بهروز ولاه قلعة تكريت، التي تولاها نجم الدين بعده. ابن خلكان: وفيات ١٣٩/٧-١٤٠.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق، ٢٥٦/١.

(٣) ابن الاثير: التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية الموصل، تحقيق: عبـدالقادر أحمـد طليمات، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣م، ص٤٣-٤٤.

(٤) بهروز: لفظ أعجمي، ومعناه يوم جيد، على التقديم والتأخير على عـادة كـلام العجم. ينظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ١٤١/٧.

(٥) دزدار قلعة: وهو لفظ أعجمي معناه حافظ القلعة، وهو الـوالي، ودزه بـالعجمي القلعة، دار: الحافظ. ينظر: ابن خلكان: نفسه، ١٤٢/٧.

(٦) ابن الاثير: الكامل، ٢٠٠/٥؛ ابن واصل: مفـرج الكروب، ٧/١-٨.

(٧) ابن خلكان: المصدر السابق، ٢٥٦/٧.

(٨) نفسه، ١٤٣/٧.

(٩) بعلبك: مدينة تقع في سوريا.

(١٠) ابن خلكان: المصدر السابق، ٢٥٧/٧.

(١١) ابن الاثير: الباهر، ص١٢٠.

(١٢) ابن الاثير: الكامل، ٣٤٥/٩.

(١٣) ابن خلكان: المصدر السابق، ١٣٩/٧-١٤٠.

(١٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ٢٥٩/١٢.

(١٥) ياقوت: البلدان، ١٥١/٣؛ ابن الاثـير: البـاهر، ص١١٩؛ ابـن خلكـان: وفيـات، ١٣٩/٧-١٤٠؛ أبوشـامة: الروضـتين، ج١، ق١، ٣٣١/١؛ ابوالفـداء: المختـصر في اخبـار البـشر، ٤٧/٣؛ القرمـاني: أخبـار الـدول، ص٤؛ ابـن تغـري بـردي: النجـوم الزاهـرة، ٤/٦؛ الدياربكري: تاريخ الخميس، ٣٨٧/٢؛ أحمد العرشي: بلوغ المرام، ص٤٠-٤١؛ أحمـد كسروي: شهرياران گمنام، ٢٢/٢؛ محمـد أمـين زكـي: مـشاهير الكـرد، ١/١؛ دريـد عبدالقادر نوري: سياسة صلاح الدين، ص٦٢-٦٣؛ محسن محمد حسين: أربيـل في العهد الاتابكي، ص٣٦؛ والجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص٦٨؛

Minorsk: Studies in Caucasian history, p.168;

عبدالعزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، ص٣٣.

(١٦) ابن خلكان: المصدر السابق، ١٤٠/٧.

(١٧) ديوان المتنبي، ص١٠٥.

(١٨) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص١١٤-١١٥.

(١٩) ابن الاثير: الباهر، ص١١٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ٢٥٥/١؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ١٤٠/٧-١٤١.

(٢٠) ابن خلكان: نفسه، ١٤١/٧.

(٢١) ابن قلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٦٩-٢٧٠.

(٢٢) ابن خلكان: المصدر السابق، ١٤٤/٧-١٤٥.

(٢٣) نفسه، ١٤٥/٧.

(٢٤) ابن الاثير: الباهر، ص٥٩، ١١٩-١٢٠؛ أبوشامة: الروضتين، ٨٧/١.

(٢٥) ابوشامة: نفسه، ٨٦/١.

(٢٦) بهاءالدين بن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٤٦؛ أبوشامة: المصدر السابق، ٥٣٤/١.

(٢٧) أبوشامة: نفسه، ١٢/٢-١٣.

(٢٨) ابن قلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٣-٣٠٠.

(٢٩) نفسه، ص٢٩٧-٣٠٠.

(٣٠) ابن الاثير: الكامل، طبعة بيروت، ٢٠٠٩م، ٦٧/١٣-٦٨.

(٣١) نفسه، ٦٨/١٣ومابعدها.

(٣٢) نفسه، ٦٧/١٣-٦٨.

(٣٣) سورة التوبة: الآية/ ١١١.

(٣٤) ابن الاثير: الكامل، ٦٨/١٣.

(٣٥) ابوشامة: المصدر السابق، ١٣/٢ ومابعدها.

(٣٦) ابن قلانسي: المصدر السابق، ص٢٩٨-٣٠٠ ومابعدها.

(٣٧) ابوشامة: المصدر السابق، ١٣٥/١.

(٣٨) ابن الأثير: الباهر، ص٨٩؛ والكامل، ٣٥٤/٩؛ أبوشامة: المصدر السابق، ١٣٩/١.

(٣٩) ابن الأثير: الكامل، ٣٠٤/٩.

(٤٠) نفسه، ٣٠٣/٩-٣٠٤.

(٤١) ابن قلانسي: المصدر السابق، ص٢٩٨-٣٠٠؛ ابن الأثير: الباهر، ص٨٩؛ أبوشامة: المصدر السابق، ١٣٤/١-١٣٩.

(٤٢) ابوشامة: نفسه، ١٤٤/١.

(٤٣) ابن الاثير: الباهر، ص١٢٠.

(٤٤) ابن خلكان: وفيات، ١٤٥/٧.

(٤٥) ابوشامة: المصدر السابق، ٢٥١/١.

(٤٦) نفسه، ٢٥١/١.

(٤٧) يذكر أبوشامة، نقلاً عن ابي طي، أن صلاح الدين ولي شحنة دمشق والديوان أياماً، ثم استقال وعاد إلى حلب بسبب واقعة وقعت بينه وبين صاحب الديوان، أبي سالم بن همام، فأنفذ نورالدين زنكي وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطاف به في دمشق. ينظر: أبوشامة: المصدر السابق، ٢٥١/١-٢٥٢؛ ويراجع:
Andrew S.Ehrekreutz saladin (Albany, state university of New York, 1972, pp.32-38.

(٤٨) ابن الاثير: الكامل، ١٧٢/١٣ ومابعدها.

(٤٩) نفسه، ١٧٣/١٣ ومابعدها.

(٥٠) عبدالمنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٦م، ص٣٨٩-٣٩٠-٤١٤.

(٥١) المقريزي: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: علمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، لجنة احياء التراث، ١٩٧٣م، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٥٣-١٦٢، ١٧٥.

(٥٢) المقريزي: المصدر السابق، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٥٣) نفسه، ص٢٧٤.

(٥٤) نفسه، ص٢٧٧؛ كان شاور قد عرض على أسدالدين شيركوه مبلغ(٥٠) ألف دينار في مقابل انسحابه من القاهرة، لكن بعد أن قدم الملك أموري لنجدة شاور وحاصر أسدالدين في بلبيس، قرر أسدالدين المصالحة مع شاور، فدفع له مبلغ ثلاثين ألف دينار. المقريزي: نفسه، ص٢٧٥، ٢٧٧.

(55) Ehrenkreutz, op.cit, p.37.

(٥٦) ابن الاثير: الكامل، ١٣/١٧٢-١٧٤.

(٥٧) النوادر السلطانية، ص٣٦.

(٥٨) ابن خلكان: وفيات، ٧/١٤٦.

(٥٩) بلبيس: مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الشام. ياقوت: البلدان، ١/٤٦٧.

(٦٠) المقريزي: الخطط، طبعة المعهد الفرنسي، ١٩١٣م، ج٢، ق١/١٥.

(٦١) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/١٧٢؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ٧/١٤٧؛ ابوشامة: الروضتين، ١/٣٣٣؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٢٦؛ محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص٣٩؛

Lane pool, Saladin, p.82.

(٦٢) محسن محمد حسين: نفسه، ص٣٩.

(٦٣) حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية من أعمال حلب. ينظر: ياقوت: المصدر السابق، ٢/٢٠٥.

(٦٤) محسن محمد حسين: نفسه، ص٣٩.

(٦٥) نفسه، ص٣٩.

(٦٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٥/٣٤٨.

(٦٧) ابن شداد: النوادر، ص٣٨.

(٦٨) نفسه، ص٣٦؛ ابوشامة: المصدر السابق، ١/٣٣٧؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ٧/١٤٧.

(٦٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/١٨٨-١٨٩؛ الباهر، ص١٣٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ٢/٣٢٢؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢/٣٦٤؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ٧/١٤٧؛ ابن واصل: مفرج، ١/١٤٨؛ ابن الوردي: المختصر، ٢/١٠٢؛

Stevenson: W.B: The crusader in east, combridge, 1907, p.191.

(٧٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/١٨٩؛ الباهر، ص١٣٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ١٩٥٢، ١/٢٦٨-٢٦٩؛ ابن واصل: مفرج، ١/١٥٠-١٥١؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م، ص١٦٩-١٧٠؛

محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٤٠؛ حسن حبشي: نورالدين والصليبيون، ص١١٤.

(٧١) حسن ابراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٣٠٤؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٤٠.

(٧٢) الكرك: قلعة حصينة جداً في طريق الشام من نواحي البلقاء في جبالها. ياقوت: البلدان، ٢٥٢/٤. ينظر: يوسف درويش غوانمة: امارة الكرك الايوبية، المملكة الهاشمية، عمان، ١٩٨٠م، ص١٠٥.

(٧٣) الشوبك: قلعة حصينة في اطراف الشام بين عمان وايلة. ياقوت: البلدان، ٣٧٠/٣.

(74) William of Tyre, Ahistory of Done beyond the sea, tr. By C.A. Babcock and A.C. Kwey (New York: Columbia university press, 1943, vol.11, pp.317-318.

(75) Ibid: op.cit, pp.317-318.

(٧٦) شحنة من فيهم الكفاية لضبط شؤون البلاد من أولياء السلطان. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٥-١٩٥٦، ٢٣٤/١٣.

(٧٧) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤م، ص٣٥١.

(٧٨) ابن الاثير: الكامل، ١٩٨/١٣-١٩٩؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ٢٦٩/٨؛ ابوشامة: الروضتين، ٣٦٦/٢؛ قاضي شهبة: الكواكب، ص١٧٢؛ ابن خلدون: العبر(تاريخ ابن خلدون)، مطبعة الكتاب اللبناني، ٤٤٨/٥؛ المقريزي: إتعاظ، ١٨٩/٢-١٩٠.

(٧٩) ابن الاثير: الباهر، ص١٣٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ٣٥٠/٥؛ ابن قاضي: الكواكب، ص١٧٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٤٠.

(٨٠) ابن الاثير: الكامل، ١٩٨/١٣-١٩٩.

(٨١) ابن شداد: النوادر، ص٣١. وينظر: ابن الاثير: المصدر السابق، ١٩٨/١٣-١٩٩.

(٨٢) المقريزي: إتعاظ، ٢٩٣/٣-٢٩٤.

(83) William of Tyre, op.cit, vol.11, p.343.

(٨٤) ابن العديم: زبدة الحلب، ٣٢٢/٢؛ ابن تغري: النجوم، ٣٤٩/٥.

(٨٥) ابن خلكان: وفيات، ١٤٨/٧؛ ابوشامة: الروضتين، ٤٣٥/١؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٢.

(٨٦) ابن الاثير: الكامل، ٢٠١/١٣-٢٠٢؛ الباهر، ص١٣٧؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٤١.

(٨٧) الغز: هو اللفظ العربي الذي كان يطلقه العرب على القبائل التركية. ينظر: ابن الفقيه: البلدان، ص٣٦. يراجع: أحمد عبدالعزيز محمود: الامارة الهذبانية الكردية في اذربيجان وأربيل والجزيرة الفراتية من (٢٩٣-٦٥٦هـ/٩٠٥-١٢٥٨م)، مؤسسة موكرياني، أربيل، ٢٠٠٠م، ص١١٨هامش (٢١٨).

(٨٨) المقريزي: المصدر السابق، ٢٩٣/٣-٢٩٤.

(٨٩) ابن الاثير: الكامل، ١٩٧/١٣؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٦١٩/٢؛ ابن تغري: النجوم، ٣٥٠/٥؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٣؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق: حسن محمد الشماع، ٢٢/٤؛ الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، ١٩٧٣م، ٣١١/١؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٤١.

(٩٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٩٧/١٣؛ الباهر، ص١٣٨؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٣٩٢/٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٤٢.

(٩١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٢٢/٤.

(٩٢) ابن الاثير: الباهر، ص١٣٩.

(٩٣) نفسه، ص١٣٩.

(٩٤) ابن خلكان: المصدر السابق،١٤٨/٧-١٤٩.

(٩٥) ابن شداد: النوادر، ص٣٩.

(٩٦) ابوشامة: المصدر السابق، ٣٩٣/٢-٣٩٤.

(97) Stanley lane-poole, Saladin and fall of kingdom of Jerusalem (Beirut khayyat, 1964, p.49.

(98) Hamilton A.R. Gibb: The Rise of saladin in Hamilton A.R. Gibb, Saladin in Islamic history, Edited by yusuf Ibish (Beirut, The Arab Institute for Research and publishy, 1974, p.105.

(99) Ihrenkkeutz, op.cit, p.51.

(١٠٠) المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، دار الطباعة المصرية، القاهرة، ١٨٥٣م، ٣٦٦/٢.

(١٠١) المقريزي: اتعاظ، ٣٠٢/٣-٣١٠.

(١٠٢) ينفرد ابن اياس بقوله بن شيركوه صلب الوزير شاور على باب القاهرة، لكونه اشار بحرق مدينة الفسطاط. ينظر: بدائع الزهور، ٦٨/١.

(١٠٣) ابن شداد: النوادر، ص٤٠؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري، ص١٧٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ٢٧٨/٨.

(١٠٤) يقول ابن كثير: ان نورالدين محمود لام عين الدولة الياروقي على معارضته لتولي صلاح الدين منصب وزارة مصر بعد عمه اسدالدين. ينظر: البداية والنهاية، مطبعة السعادة، مصر، القاهرة، ١٩٣٢م، ٢٥٧/١٢؛ ويراجع لمزيد من المعلومات: ابوشامة، الروضتين، ٤٠٧/٢؛ ابن تغري: النجوم، ١٨/٦.

(١٠٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص٤٠؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ١٥١/٧.

(١٠٦) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٠٤.

(١٠٧) ابن الأثير: الكامل، ١٣/١٩٨-٢٠٠.

(١٠٨) نفسه، ١٣/٢٠١-٢٠٢.

(١٠٩) نفسه، ١٣/٢٠٠-٢٠١.

(١١٠) نفسه، ٢٠١/١٣.

(١١١) ابن خلكان: وفيات، ١٤٣/٧.

(١١٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/١٩٨-٢٠١.

(١١٣) نفسه، ١٩٦/١٣ومابعدها.

(١١٤) ابوشامة: الروضتين، ٣٦٧/١.

(١١٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٠٠/١٣ ومابعدها.

(١١٦) نفسه، ١٣/٢١٧-٢١٩.

(١١٧) ابوشامة: المصدر السابق، ١/٥٢٤-٥٢٥.

(١١٨) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/٢٢٠-٢٢١.

(١١٩) نفسه، ١٣/٢٢٠-٢٢١.

(١٢٠) نفسه، ٢٣١/١٣.

(١٢١) نفسه، ٢٤١/١٣.

(١٢٢) حوران: كورة واسعة من اعمال دمشق من جهة القبلة. ياقوت: البلدان، ٣١٧/٢.

(١٢٣) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٤١/١٣ ومابعدها.

(١٢٤) الاصفهاني: البرق الشامي، ص٣٦-٤٢.
(١٢٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٦٨/١٣.
(١٢٦) نفسه، ٢٧٠/١٣-٢٧١.
(١٢٧) نفسه، ٢٩٤/١٣.
(١٢٨) نفسه، ٣٢٥/١٣ ومابعدها.
(١٢٩) سورة الفتح: الآية/ ١ و ٢.
(١٣٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٨٣/١٤-٣٨٤.
(١٣١) ابن شداد: النوادر، ص٢٧٤-٢٧٥.
(١٣٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٨٤/١-٣٨٥.
(١٣٣) نفسه، ٣٨٩/١٤.
(١٣٤) رنسيمان: الحروب الصليبية.
(١٣٥) سورة الحجرات: ٦.
(١٣٦) ابوشامة: المصدر السابق، ٦٢٣/١.
(١٣٧) عمادالدين الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد منصور صبح، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص١٢٢.
(١٣٨) نفسه، ص١٢٤.
(١٣٩) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٢٤.
(١٤٠) ابن خلكان: وفيات، ٢٠٧/٧.
(١٤١) ابن الاثير: الكامل، ٣٢٥/١٣ ومابعدها.
(١٤٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٢.
(١٤٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ١٨٨/٢.
(١٤٤) نفسه، ١٩٨/٢.
(١٤٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٦٨/١٣-٢٦٩؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص١٢١.
(١٤٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣١/٢.
(١٤٧) عمادالدين الاصفهاني: البرق الشامي، تحقيق: مصطفى الحياري، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان، ١٩٨٧م، ٤٣/٣.
(148) William of Tyre, op.cit, vol.11, p.408.
(١٤٩) ابن الاثير، المصدر السابق، ٣٢٣/١٣-٣٢٥.

(١٥٠) نفسه، ١٣/٢٦٨-٢٦٩.

(١٥١) نفسه، ١٣/٣٢٥-٣٢٦؛
R.C. Smail, Cansading war fare 1097-1193 (Cambridge, university, press, 1956, p.196.

(١٥٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/٣٠٧.

(153) Marshall. W. Baldwin Raymond- III, of Tyipolis and the fall of Jerusalem 1140-1969, p.83; Steven Runciman, Ahistory of 1187 (Amsterdam: Adolf M.Hakkert, Harper 1965, vol.11, pp.450-451.

(١٥٤) عمادالدين الاصفهاني: الفتح، ص٦٨.

(١٥٥) ابن واصل: مفرج، ٢/١٨٥.

(١٥٦) نفسه، ٢/١٨٥.

(157) Baldewin, op.cit, pp.86-87; Runciman, op.cit, pp.450-451.

وينظر لمزيد من التفاصيل: ابن الاثير: الكامل، ١٣/٣٢٠؛ ابوشامة: الروضتين، ٢/٢٥٩؛ المقريزي: السلوك، ١/١١٧.

(158) Runciman, op.cit, pp.450-451.

(١٥٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/٣٢١ ومابعدها؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٢/٨٠-٨١.

(١٦٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/٣٢١-٣٢٢؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢/١١.

(١٦١) العماد الاصفهاني: الفتح، ص٥٨-٦١.

(162) Baldewin, op.cit, p.87.

(163) Ibid, p.90.

(١٦٤) الفلولة: بلدة بفلسطين من نواحي الشام.

(١٦٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/٣٢٩ ومابعدها.

(١٦٦) نفسه، ١٣/٣٢٧؛ Baldewin, op.cit, p.90

(١٦٧) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/٣٢٢.

(168) Runciman, op.cit, pp.451-453.

(١٦٩) العماد الاصفهاني: الفتح، ص٦٣.

(170) Runciman, op.cit, pp.453-454.

(١٧١) ابن الاثير: الكامل، ١٣/٣٢٣ ومابعدها.

(١٧٢) العماد الاصفهاني: المصدر السابق، ص٦٣.

(١٧٣) نفسه، ص٦٣.

(١٧٤) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٣/١٣ ومابعدها.

(١٧٥) نفسه، ٣٢٣/١٣-٣٢٤.

(١٧٦) العماد الاصفهاني: المصدر السابق، ص٧٠.

(١٧٧) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٣/١٣ ومابعدها.

(١٧٨) نفسه، ٣٢٥/١٣؛ ابن شداد: النوادر، ص٧٥؛
Benjamin Z, Keder, The Bettle f Hattin Revisited in the horns of hattin, Ed. By B.Z. keder (London: Varlorum 1992, pp.193-194; Joshua prawer, crusader in stitutions (Oxford: clarendom press, 1980, pp.490-492.

(١٧٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٣/١٣.

(١٨٠) نفسه، ٣٢٥/١٣-٣٢٦؛
Saladin: The politics of the holy war (Cambridge university press, 1988, pp.256-257.

(١٨١) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٣/١٣-٣٢٥.

(١٨٢) العماد الاصفهاني: الفتح، ص٧٢-٧٥.

(١٨٣) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٥/١٣-٣٢٦.

(184)mRunciman, op.cit, p.455.

(١٨٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٧/١٣.

(١٨٦) نفسه، ٣٢٧/١٣.

(١٨٧) ابن شداد: النوادر، ص١٤٠.

(188) Keder, op.cit, pp.194-198; Prawer, op.cit, pp. 490-493.

(١٨٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٥/١٣-٣٢٧؛ ابن شداد: النوادر، ص١٥٢-١٥٤.

(١٩٠) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٢-١٥٥؛ ابن واصل: مفرج، ١٨٩/٢.

(١٩١) ابن واصل: نفسه، ١٨٩/٢.

(192) Prawer, Baldewin, op.cit, p.119.

(١٩٣) ابن واصل: المصدر السابق، ١٨٩/٢.

(١٩٤) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٦/١٣.

(195) Baldewin, op.cit, p.119.

(١٩٦) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٦/١٣؛ Ibid, op.cit, p.122

(١٩٧) ابن الاثير: نفسه، ٣٢٦/١٣.

(198) Baldewin, op.cit, pp.124-125.

(١٩٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٦/١٣-٣٢٧.

(٢٠٠) نفسه، ٣٢٦/١٣-٣٢٧؛ Baldewin, op.cit, p.129

(٢٠١) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٧/١٣.

(٢٠٢) نفسه، ٣٢٧/١٣-٣٢٨؛ Baldewin, op.cit, p.129

(٢٠٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٢.

(٢٠٤) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٧/١٣.

(٢٠٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٦.

(٢٠٦) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٧/١٣.

(٢٠٧) نفسه، ٣٢٧/١٣؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٤-١٥٦.

(٢٠٨) ابن الاثير: الكامل، ٣٢٥/١٣؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٧.

(٢٠٩) ابن الاثير، ٣٢٥/١٣-٣٢٧؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٢-١٥٤.

(٢١٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٧/١٣.

(٢١١) نفسه، ٣٢٦/١٣-٣٢٧.

(٢١٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٦.

(٢١٣) نفسه، ص١٥٦.

(٢١٤) نفسه، ص١٥٦.

(٢١٥) الجلاب، لفظة فارسية، گل-آب(گولاو باللغة الكردية) تعني ماء الورد. ينظر:
ابن منظور: لسان العرب والمعرب للجواليقي، ص١٠٦. وفسر دوزي في معجمه:
Dozy, Suppl-aux Dict Arab, "Leaudans laquelle on alaisse trempe les raisain secs;
وينظر: ابن شداد: النوادر، ص١٥٦، هامش رقم(٤).

(٢١٦) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٧/١٣؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٦.

(٢١٧) النمجاه: لفظة فارسية، نيمجه، تعني خنجراً مقوساً يشبه السيف القصير، ويقال فيها النمجا أو النمشا. ينظر معجم دوزي: Supplaux Dict Arab

(٢١٨) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٧/١٣.

(٢١٩) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٧.

(٢٢٠) سورة التوبة، الآية: ١٢.

(٢٢١) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٧.

(٢٢٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٢٧/١٣.

(٢٢٣) نفسه، ٣٢٧/١٣.

الفصل الثاني

العناصر السكانية

أدت العناصر السكانية اسهاما فعالاً مهماً في تحديد مصير دولة صلاح الدين وأمنها، لأنها اعتمدت على أجناس وأعراق شتى منذ بداية تكوينها، ولهذا السبب فان هذه العناصر وجدت نفسها في مواقع متقدمة في الدولة، فتوافر لها مجال أوسع للتدخل في الأمور السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والعمرانية[١].

١- الكرد:

ومن هذه العناصر الكرد الذين انخرطوا للعمل في مؤسسات الدولة العسكرية وهيآتها الادارية، وقسم منهم انضم في سلك العساكر النظامية[٢] أيام العصر العباسي الأول[٣]، وتسلموا إقطاعات أو جاميكات[٤]، ضمن تشكيلات جيش بعض الامراء العباسيين، ثم استمروا في هذا السلك في العمل ضمن الامراء والقادة الزنكيين[٥] والارتقيين[٦]، نظراً للمزايا القتالية المتوافرة فيهم كعيشة التقشف والخشونة والقدرة على احتمال الاسفار والقتال[٧]. وقد وصفهم الحسن بن عبدالله العباسي بأن ((فيهم الشجاعة والنجدة والحمية فرسانهم وراجلتهم))[٨]. وقد وصف أحد المؤرخين الكرد

الـذين قـاتلوا مـع الأمـير المـشطوب الهكـاري في جـيش صـلاح الـدين سنة(٥٦٤هـ/١١٦٨م) بـ((اقتال[٩] القتال وأجادل[١٠] الجلاد)).

وليس غريباً على صلاح الدين بعد أن قضى على الجيش الفاطمي[١١]، باحلال عناصر الجيش المذكور، فأحل الكرد والترك، محل السودان والأرمن والبربر[١٢].

وذكر ابن اياس ان صلاح الدين أزال ماكان في بلاد مصر من العساكر الملفقه، وكانوا مابين الصقالبة[١٣] والكدانة والمصامدة[١٤] من البربر، والأرمن وشناترة العرب والعبيد السود، فقضى أو أبعد تلك العناصر جميعاً، واتخذ عساكر الكرد من بني جلدته[١٥].

وتشير الروايات التاريخية ان صلاح الدين قد اعتمد على الفرقة الأسدية التي اضطلعت بدور واضح في تسلمه منصب الوزير عام (٥٦٤هـ/١١٦٨م) بعد وفاة عمه اسدالدين شيركوه، وكان عدد أفرادها لايقل أيامئذٍ عن خمسمائة فارس، وقد شكلت هذه الفرقة نواة جيش صلاح الدين في مصر؛ ونمت هذه الفرقة تدريجياً، إلى أن أصبحت مؤسسة عسكرية انجبت امراء وقادة كبار من الطراز الأول، منهم جاولي الأسد، وابنه حسام الدين ابن تمرتاش ابن جاولي[١٦]، وسيف الدين يازكوج[١٧] وارسلان بغا، وسنقر الوشاقي الأسدي[١٨]، وقايماز النجمي[١٩] وغيرهم.

لقد وثب باطني على صلاح الدين عام(٥٧١هـ/١١٧٥م) بهدف اغتياله، الا ان وجود أحد أمراء الأسدية والذي يدعى يازكش[٢٠]، تمكن من افشال المخطط المرسوم له ومن ثم قتله[٢١].

والمستحق ذكره هنا، ظهور فرقة أخرى، على مسرح الاحداث عرفت باسم الصلاحية، وكانت من خواص صلاح الدين وانيطت قيادتها بالأمير

أبي الهيجاء السمين الهذباني[٢٢] وهؤلاء يعدون أنفسهم قريبين من السلطان، وهم حماته وحماة سلطته، ضد من يحاول الانتقاص منها أو الانتفاض ضدها أو الاخلال بامنها، وظهرت بين هذه الفرقة نخبة من القادة الامراء منهم فخرالدين جهاركس الناصري، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري وغيرهما[٢٣].

ومن المعروف ان صلاح الدين كردي النسب ينتسب إلى القبيلة الروادية[٢٤]، وهي بطن من بطون الهذبانية[٢٥]، وكان جيشه اقطاعيا، يترأس كل أمير عشيرته في حروبه[٢٦]، لذا عليه اعتمد السلطان بلاخوف على الكرد في تشكيلات مؤسسات دولته، ولاسيما في المؤسسة العسكرية التي تعد العمود الفقري في حسم المعارك والصراعات الداخلية، إذ برز دورهم جلياً في الدفاع عن أمنها في أثناء حصار مدينة عكا ضد الصليبيين سنة(٥٨٦هـ/١١٩٠م)، وكان يقودهم الأمير المشطوب الهكاري(٢٧)، ومعه مجموعة من العشائر الكردية، كالهكارية[٢٨]، والزرزارية[٢٩]، والمهرانية[٣٠]، وتمكن هذا القائد المجاهد رفع معنويات المحاصرين، ولولا وجوده، لدب الاضطراب واختل الوضع العسكري والأمني فيها[٣١].

٢- العرب:

في الواقع ان صلاح الدين لم يكتف بالكرد في تكوين دولته، فبحسب الروايات التاريخية، نجد ان عمه اعتمد على قبائل عربية كانت تقطن مصر والشام، ولاسيما الاشراف الجعفريون والطلحيون والقرشيون[٣٢] من مدن الجيزة وقوص[٣٣].

فقد سار صلاح الدين على خطى عمه في ادخال العرب المصريين الى جيشه، فتقاطرت جماعات كثيرة من العربان(البدو) عليه، فأحسن التعامل معهم، فلجأ إلى رصد مكافآت مالية سخية للعرب العاملين معه في المؤسسة العسكرية والأمنية لحماية السلطة الصلاحية في بلاد مصر[٣٤].

يذكر إبن الأثير انخراط العنصر العربي في جيش صلاح الدين وتعاظم اسهام رجالاتهم في تثبيت دعائم الأمن في البلاد، في كثير من الاحداث، كما حصل عام(٥٨٥هـ/١١٨٩م)، إذ وصل إلى العرب، خبر خروج فئة من الفرنجة للاحتطاب، فبادروا إلى نصب كمائن لهم في منعطفات النهر، فلما خرج جمع من الصليبيين جرياً على ماعتادوا على عادتهم، حمل عليهم العرب حملة رجل واحد فقتلوا منهم عدداً كبيراً، حملوا رؤوس بعضهم إلى صلاح الدين فكافأهم بالخلع والثياب والاموال[٣٥].

وأدرك صلاح الدين خطورة موقف العرب الجذام وكان موقعهم يقع بين مدينة القاهرة وعقبة إيلة، حيث زاد عدد قواتهم النظامية المقاتلة(٧٠٠٠)فارس. قد اثار مخاوف السلطان، فطفق يفكر جلياً في تضييق الخناق عليهم تدريجياً، فخفض عددهم إلى الف وثلاثمائة فارس، وكذلك خفض مقدار ماكانوا يأخذونه من المال إلى العشر؛ أي إلى مائة ألف دينار. وهذا مافعله مع العرب الثعالبة أيضاً، مما جعلهم هم والجذاميين ((يمتعضون ويلوحون بالتحيز إلى الفرنج))[٣٦].

لقد تنامى دور بعض القبائل العربية الأخرى في بلاد الشام، وبانت نواياها غير الحميدة، التي لاتنم الا عن الشرور المتولدة من الحقد والضغائن والبغضاء، لاضرام نار الفتن والنزاعات، واحداث الشغب، لاسيما قبيلة بني عباد، الذي خدموا الصليبيين وصاروا مصدر قلق ومتاعب للجيش

الصلاحي، وكانت تقطن منطقة صرخد الملاصقة لمنطقة حوران من أعمال دمشق. أقدموا سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) على شق عصا الطاعة، فكتب صلاح الدين إلى نورالدين زنكي[٣٧]، ان يسكنهم ((اقليماً ويقطعهم اقطاعاً ليقطعهم عن الكفر وبلاده))[٣٨]. ويقصد بذلك تعاون هؤلاء مع الصليبيين، لأنهم يشكلون خطراً على المنطقة الواقعة بين مصر والشام، لأنهم يعرفون ((خبر طرقها ومناهجها))[٣٩].

أخيراً لابد من الاشارة الى وجود جماعات من العرب المتعاونين مع صلاح الدين في بلاد مصر والشام، لمحاربة العناصر المخربة وتطهير شبه الجزيرة كلها منهم، ولاسيما المستقرون في الوديان ومعابر الطرق ومسالكها، حيث ساندوا السلطان في تشييد قلعة في قلب شبه الجزيرة عرفت باسم قلعة الجندي[٤٠]، ولم يقف تعاونهم عند هذا الاجراء، بل ساعدوا السلطان في بناء برج بالسويس يتسع لعشرين فارساً، ورتب فيه المقاتلين الأشداء[٤١]، لكف أيدي العناصر المخربة من العربان عن العبث بأمن العباد والبلاد. هذا ولاننسى ان بعض القبائل العربية شاركت مشاركة فعاله رغبة في الجهاد مع صلاح الدين ضد الصليبيين[٤٢].

٣- الترك:

لم يخل حكم صلاح الدين من العنصر التركماني، لوجود أعداد غير قليلة منهم ضمن تشكيلات الجيش السلطاني، وقيامهم بأدوار كبيرة وبارزة ضد الصليبيين، والشاهد على مانتطق به، هو ان صلاح الدين أرسل التركمان الأوج مع رجالاته الموثوق بهم والمعتمد عليهم للوقوف بوجه

الحملة الالمانية المتوجهة شطر أرض بلاد الشام عام(٥٨٦هـ/١١٩٠م)[٤٣]، وكان ينفق عليهم بسخاء[٤٤].

والواقع أننا نجد ان العناصر التي كانت محل ثقة السلطان ويعتمد عليها، في الأيام الشدائد، هي نفسها بدأت بزرع الفتنة بين الكرد والتركمان في ديار الجزيرة ودياربكر وخلاط والموصل والشام سنة (٥٨١هـ/١١٨٥م)، ودامت سنين، بعد ان قتل من الطرفين خلق كثير، الى ان تمكن الأمير مجاهد بن قايماز القيام بوساطة بينهما وجمع رؤساء وزعماء الكرد والتركمان، واصلح بينهم، ومنحهم الاموال واعطاهم الخلع والاثواب، فاستطاع بحكمته وفطنته من قطع دابر الفتنة[٤٥].

ويعطينا كل من ابن الأثير[٤٦] واليافعي[٤٧] رواية تاريخية، تتضمن اتفاق معظم الامراء من الكرد والتركمان في المجلس الاستشاري الذي كان يترأسه صلاح الدين للدفاع عن القدس، حين تعرضت للغزو الصليبي عام(٥٨٧هـ/١١٩١م). ولكن الموقف الذي تم الاتفاق عليه سرعان ماتبدل، ويبدو في المحصلة النهائية، أن العداء المستحكم والمستشري بين الكرد والترك في الجزيرة والشام وغيرها من المناطق لم ينته حتى بعد إتفاق الطرفين عام(٥٨١هـ/١١٨٥م)، بل استمرت حالات العداء، لأن ((الأكراد لايدينون للاتراك، ولا الاتراك يدينون للاكراد))[٤٨].

٤- المغاربة(البربر):

ومهما يكن من الأمر إن هناك عناصر أخرى لاتتوافر عنها معلومات شافية وكافية في بطون الكتب، كالمغاربة، غير نتف قليلة من الأخبار والمعلومات المستقاة من بعض المصادر التاريخية، التي تذكر إلى ان هؤلاء

كانوا جزءاً من الفرقة العسكرية المؤيدة والمساندة للحكم الصلاحي في بلاد مصر والشام وأقاليم ومدن أخرى في عصر صلاح الدين، لاسيما ضمن تشكيلات الجيش الاسلامي ابان حصار مدينة عكا الذي دام سنتين تقريباً(٥٨٥-٥٨٧هـ/١١٨٩-١١٩١م)، نظراً لوجود الثقة الكاملة بهم من الناحية الأمنية واخلاصهم لمهنتهم العسكرية.

ويذكر المؤرخ المقريزي، بان المغاربة هم كانوا يديرون شؤون الحمامات الخاصة بالجيش الصلاحي في أثناء حصار عكا الطويل الذي دام العامين تقريباً[٤٩].

٥- الأرمن:

وهناك عنصر آخر لايتوافر عنه سوى اشارة متفرقة، كالأرمن، فان ظهورهم يعود بالأساس الى عهد الخليفة الفاطمي المستنصر الفاطمي(٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م)، الذي لم يتمكن من انهاء حالة الفوضى والاضطرابات والمشكلات التي أصابت بلاد مصر بعد مقتل ناصرالدولة بن حمدان، واستشرت فيها[٥٠]، حتى فقد الخليفة كل سيطرة له عليها، وبدأ يتقلص نفوذه وينحصر داخل القصر، بينما تقاسمت فرق الجند أقاليم الدولة في البحيرة والاسكندرية[٥١].

لذا عقد الخليفة المستنصر أمله في تحقيق ذلك على قائد أرمني، كان يتولى عكا في ذلك الوقت، يعرف ببدر الجمالي[٥٢]، فكاتبه سراً عن طريق الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر بن المغرب، يطلب إليه القدوم عليه لاصلاح حال البلاد، وقد رحب بدر بهذه المبادرة والدعوة[٥٣]، وقد قدم من عكا في مائة مركب مشحونة بالأرمن ونزل بتنيس، وقيل دمياط، قاصداً

صوب قليوب. وما ان وصل إلى مدينة القاهرة[٥٤]، حتى قضى فيها على رؤوس الفتنة حين قلده المستنصر الوزارة، وبدأ الأرمن ينخرطون في الجيش منذئذ. ويعد وفاة بدر الجمالي في جمادي الأولى سنة(٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، ظهرت ثورات وبدأت ضغوطات العسكر التي أجبرت الخليفة الفاطمي على حصار الأفضل بن بدر الجمالي وتعيينه مكان أبيه[٥٥]. وهكذا استقرت العناصر الأرمنية في مصر بعد تثبيت الأفضل الاعمال المصرية. ولقد عد الأرمن مصدر استتباب الأمن والأمان في الجيش الصلاحي بعكس غيرهم من المتسببين في احداث القلاقل والاضطرابات الأمنية هناك[٥٦].

أما الروم فكان لهم حظ كبير في أيام صلاح الدين، بعد ان كانوا جماعة غير ذات بال، وكان لها تأثيرها في الحياة الاجتماعية والسياسية والجوانب الأخرى، وقد أدت الحروب والمعارك التي دارت رحاها بين المسلمين والبيزنطيين إلى أسر عدد قليل منهم، وبعد مضي مدة من الأسر تم استرقاقهم، وعلى اثر ذلك انتشرت ممالك الروم من رجال ونساء وأخيراً غلمان في منازل الخلفاء والاغنياء أيضاً، هذا في الوقت الذي نجد فيه ان بعض الخلفاء في هذا العصر[٥٧]، ولدوا لأمهات روميات، ونذكر من بين هؤلاء المستنجد بالله أبا المظفر بن المقتفي(ت ٥٦٦هـ/١١٧٠م) وأمه ام والد اسمها طاووس، وقيل نرجس رومية[٥٨] والناصرلدين الله أحمد ابا العباس بن المستضيء أمرالله (ت٥٧٥هـ/١١٧٩م) وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد[٥٩].

وهؤلاء الروم كما نفهم ونستشف من المصادر التاريخية، قلما أخلوا بأمن البلاد أو شاركوا المعارضة زمن صلاح الدين، واستقروا في حارتين[٦٠] في القاهرة[٦١]، إذ توجهت أنظارهم إلى مزاولة الاعمال الحرفية والتجارية دون الانخراط والتفاعل السياسي في الدولة.

- الأمن الخاص للناصر صلاح الدين:

لكي لاينفرط عقد الأمن الخاص، فقد أولى السلطان صلاح الدين عنايته الكاملة لأجله، وطرق كل باب يضمن له تحقيقه، ودبر لكل شأن ماينسجم معه ولايتنافر قطباه، وهذا ما فعله فيما يخص الوظائف الحساسة التي تحفظ صلاح الدين وتحافظ على أمنه مثل وظيفة **الحجابة**، إذ اتخذ جماعة من الحجاب في قصره وخارجه[٦٢]، ووفر لهم البيوتات التي اتخذت مكاناً لمراجعات من يطلبون الاذن بالدخول على السلطان[٦٣]. إذ يعد الحاجب ركناً من أركان الدولة لايمكن الاستغناء عنه[٦٤]، في ادارة أمور القصر[٦٥]، وهو موضع ثقة صلاح الدين واستشارته مقبولة في الأمور المهمة. فالحاجب كان بمثابة صلة الوصل بين السلطان والوزير، وعلى الأخير تنفيذ الأوامر واعلام صلاح الدين بالاخبار الواردة من قبل مرسليها[٦٦].

وكانت مهمة الحجابة أمنية صرفة بغيتها القصوى حماية السلطان لا في الحياة السياسية والعسكرية، بل في حياته الطبيعية أيضاً[٦٧]، ولما كان الناس يكثر تهافتهم عليه، فقد أخذ يدنيهم ويدنو منهم ويتحبب إليهم، ولكنه سرعان ما تخلى عن عادته مضطراً، فامتنع واحتجب، بل زاد على ذلك اجراء تفتيش دقيق للتأكد من كونه مسلحاً أو اعزل، وقد اتخذ قرار الاحتجاب بهذه الصرامة، بسبب تعرضه للاعتداء من طائفة الحشاشين مرتين، مرة في حلب على جبل جوشن[٦٨] عام(٥٧٠هـ/١١٧٤م)، وأخرى في اعزاز قرب حلب أيضاً عام(٥٧١هـ/١١٧٥م)[٦٩]، فاحتجب عن العامة تقريباً تحوطاً، وصار يضرب حول سرادقه سرادقات من الخشب المعقود المغطى

باللبد، وكأنها الاسلاك الشائكة في وقتنا الحاضر، والحراس الخاص يحيطون بها من كل جانب[٧٠].

وكان الحجاب يصاحبون السلطان مصاحبة ظله له في الحل والترحال[٧١]، ليكونوا رهن الاشارة عند الضرورة، فيقومون بتنفيذ مايكلف بهم، نظراً لتعقد الحياة السياسية والعسكرية، ومن هؤلاء الحجاب على سبيل الحصر لا القصر، الحاجب خليل الهكاري، الذي كان يشغل هذا المنصب عند السلطان صلاح الدين سنة(٥٨٥هـ/١١٨٩م)[٧٢].

وازدادت مرتبة الحاجب أهمية مع مرور الزمن، للثقة الكبيرة التي كان يوليها السلطان له، اشار المؤرخ الحنبلي، أن رجلاً يدعى مبارزالدين سنقر الحلبي[٧٣] من الامراء المصريين، أراد الدنو من موكب صلاح الدين، بقصد رفع المظلمة إليه، الا أن الحاجب أخذها بنفسه كي لايقترب منه بحجة المظلمة ثم يتطاول ويعتدي عليه[٧٤].

علاوة على هذه الشدة والحذر والحيطة، كان الحجاب يدققون في طعام السلطان للتثبت من صلاحية تناوله خوفاً من كونه مسموماً زيادة في التحوط الأمني وإيغالاً في حياة صلاح الدين[٧٥].

ويتضح مما تقدم ان منصب الحاجب يتصل اتصالاً مباشراً بأمن صلاح الدين والدولة عموماً، ذلك ان أي صاحب غير مؤتمن يمكن ان يسبب شرخاً كبيراً في هيبة الدولة الصلاحية[٧٦].

وتلي وظيفة الحاجب وظيفة أخرى لايستهان بدورها على صعيد أمن السلطان، وهي وظيفة الخادم الذي له أثر كبير في حماية حياة صلاح الدين وتوفير الاطمئنان له، إذ يكلف بأخطر مهمة تتوقف عليها حياته، وهي اعداد الطعام له ولضيوفه الذي يحقق سلامته أولاً ومن ثم ضيوفه ثانياً

عند تناولهم الطعام والشراب[٧٧]، ومن هؤلاء الخدام، مسعود بن محمد بن طاهر النيسابوري المتوفى سنة(٥٧٨هـ/١١٨٢م)[٧٨].

وهناك رواية تاريخية يوردها أحد المؤرخين على هذا النحو: ((كنا مع صلاح الدين يوم الجمعة في الحادي عشر من شهر شوال عام(٥٨٧هـ/١١٩١م)، وقد ركب لغزو بلاد الفرنج، وجمع معه عسكراً كثيراً وافراة من الجنود، فلم يزلوا يجدون في السير حتى وصلوا الى حيث الملاقاة، فاسروا وقتلوا من الصليبيين خلقاً كثيراً، ثم عادوا من الغزو))[٧٩]، إذ جاء الخادم الى صلاح الدين وأسر بوفاة الملك المظفر، حيث أمر بالايعاز الى أخيه الملك باحضار الامراء والقادة العسكريين أن يحضروا بين يديه، أمر خادمه باخلاء المكان ومن غير المطلوب حضورهم، وابعاد الجنود عن خيمته، فاخرج صلاح الدين كتاباً، وفضه وبدأ يقرأه ووقف عليه، والدموع تترقرق في عينيه، حتى شاركناه في بكائه من دون معرفة سبب بكائه، ثم ذكر انه يتضمن وفاة الملك المظفر، وقال: ((المصلحة كتم ذلك، واخفاؤه لئلا يصل إلى العدو، ونحن منازلوه))[٨٠]. وقد دفن بارض مدينة حماه تحاشياً لاستغلال الخبر عند اشاعته بين العامة من جهة وقيام المناوئين باستثماره وتوظيفه شر توظيف ضد السلطة الصلاحية[٨١].

ولاشك في ان قرب الخادم من صلاح الدين وملازمته اياه طيلة الوقت يتيح له الفرصة، لان يرتكب أعمالاً ضد مؤسسة الدولة، لاسيما إذا لقي دعماً من جماعة ذات نفوذ كبير تتعارض طموحاتهم واطماعهم مع سياسة السلطان صلاح الدين، كالسودان[٨٢]، وبعض بقايا الفاطميين[٨٣]، وغيرهم، ولهذا السبب، فقد كان صلاح الدين يقطعهم أراضي تدر عليهم موارد تمنعهم من التعاون مع أشخاص متآمرين كمؤتمن الخلافة والكنز والشيخ

سنان، بالاستغواء للأخذ بشغاف قلوب البعض وخطف بعض الابصار عن رؤية الحرب، فتكون سلطة صلاح الدين وقود نيران الطمع والجشع الماديين[٨٤].

وبما ان الناصر صلاح الدين كان يصب كل اهتمامه على توفير الأمن لدولته، فانه لم يكتفِ بالحجاب فحسب، بل استعان بفئة أمنية أخرى تتجسد بالحراس الذين كانوا يوآزرون الحجاب على تحقيق غاية السلطان الأمنية، وارضاء احساسه بالأمن والطمأنينة وإزالة جدار الخشية من ذهنه، فالحرس قوة عسكرية تتولى حراسة صلاح الدين وحاشية، وحماية داره والسير في موكبه[٨٥]، وتنفيذ أوامره[٨٦]، وتسند مسؤولية الموكب إلى أمير نقابة الجيوش[٨٧]، وهو واحد من الحراس، يقتصر واجبه على حراسة السلطان صلاح الدين في الموكب والسفر[٨٨].

ومما لاريب فيه في ان هؤلاء الحراس كانوا يضعون مصلحة السلطان وحياته، وتنفيذ أوامره وقراراته فوق كل اعتبار، حتى إذا تعارض ذلك مع مصالح ذويهم وأهليهم، لقد أفرد صلاح الدين رعاية خاصة، بهدف اجتياز الحوادث باطمئنان وسلام، متخذاً حراسه من الاسدية يقودهم أبوالهجياء السمين[٨٩]، المعروف عنه الشجاعة والقدرة على المقاومة والصمود تحت أي ظرف كان، ويبدو ان صلاح الدين قد فضل أن يكون هناك فرقة أخرى اضافية لحراسته بدلاً من الاسدية[٩٠]، عرفوا بالصلاحية[٩١]، وكان أكثريتهم من الكرد، وواجبهم الأساسي هو حماية السلطان من الأخطار التي قد تحدق به، كالذي حدث له مع الحشاشين في بلاد الشام عامي(٥٧٠-٥٧١هـ/١١٧٤-١١٧٥م)[٩٢]، وكذا حين حصل لصلاح الدين عام(٥٨٤هـ/١١٨٨م)[٩٣]، حين توجه إلى جهة العدو الصليبي، ولم يكن معه سوى حلقته الخاصة من الحرس، التي

كانت تنتقل معه عند انتقاله من مكان الى آخر كما حدث بين تل الخروبة(٩٤) وتل كيسان(٩٥) وشفرعم(٩٦).

وهذا يظهر بجلاء ان السلطان صلاح الدين كان دقيقاً غاية الدقة في التعامل مع اختيار الحراس لهذه المهمة الأمنية، فقد اختار أياز الطويل، الذي كان بمثابة الحرس الشخصي للسلطان، لتولي هذه المهمة الحساسة، وكان يحمل دبوساً يزن أكثر من رطل(٩٧) من الحديد، وقد قتل في حصار عكا عام(٥٨٧هـ/١١٩١م)(٩٨)، وحزن عليه السلطان(٩٩) حزناً شديداً لكونه حلقة من حلقات الدرع الواقي له، وحريصاً أشد مايكون عليه الحرص على حياة صلاح الدين.

فضلاً عما ورد، فان هناك روايات وأحداثاً، تدل على اهتمام صلاح الدين بالجانب الأمني لنفسه، لاسيما وقت الاعداد والاستعداد لخوض المعارك التي تفرض عليهم من قبل الصليبيين.

وماعدا ذلك من الوظائف، فالاشارة الى وظيفة أمنية عسكرية أخرى تفرض نفسها في هذا السياق، وهي وظيفة الجاندار(١٠٠)، وهم فئة من الرجال الذين كانوا تابعين للسلطان، وهذه الوظيفة هي أن صاحبها، يستأذن للداخلين أمر الدخول على السلطان، فيدخل أمامهم إلى الديوان(١٠١)، وهذه الوظيفة كغيرها من الوظائف أمنية بلاريب، والدليل على ذلك عدم السماح بالدخول عليه إلاّ بعد الأذن، ومع ذلك كان ينبغي عليه الوقوف مدة، وإذا مااختلج في نفسه شيء بان على وجهه وانعكست المضمرات على مسلكه فتنكشف هويته ويحدد مصيره أثر ذلك ويتميز الجاندار بالاخلاص والثقة التامة من السلطان صلاح الدين. وفي حالة انعدام هذه الثقة، فان الجاندار كان يستطيع تسبب الأذى مباشرة للخليفة بنفسه أو بمن يدخلهم

عليه، ولقد تولى هذه المهمة زمن الناصر صلاح الدين عبدالقادر الحلبي، نقيب الجاندارية في عام(٥٨٧هـ/١١٩١م)[١٠٢]، وما من ارتياب في هذه الوظيفة، لو عهدت إلى رجل غير مؤتمن، لكانت مسببة الخطر للسلطان ومن معه، وتهديد أمن الدولة الصلاحية وسلامتها.

وهناك حلقة أمنية أخرى تضاف إلى سلسلة الاجراءات والتحوطات الأمنية، تتصل وتلحق بسابقاتها، وهي وظيفة المقاصير[١٠٣]، ومن الواضح أن الشراسة والعداوة والحقد الدفين والكراهية المشحونة، قد أطلت برأسها عبر أساليب واشكال شتى، حتى شملت المساجد والجوامع التي لم تكن مكاناً آمناً للسلطان صلاح الدين، إستغل أعداؤه اداء فريضة الصلاة للايقاع به[١٠٤]، لذلك فان الناصر صلاح الدين، قد نسج على منوال اسلافه بعد مجيئه إلى السلطة، في اتخاذ المقاصير الكبيرة، التي هي مكان يصلي فيه، وهي مصنوعة من الحديد داخل قلعة الجبل[١٠٥]، وبعد اداء فريضة الصلاة، ينصرف إلى قصره أو إلى خارج المسجد[١٠٦]. ونحن لانرى خلاف ذلك إذ ان باطن الأمر يوحي بأن السلطان صلاح الدين قد أقدم على هذا الفعل توخياً لسلامته ودرءاً للخطر المحتمل، إذ أخذ الدروس والعبر بما لحق بالامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١٠٧] وغيره من الخلفاء الذين قضوا حتفهم في سبيل الله، وهم يؤدون فرائض الصلاة، وهذا مادفعه إلى هذا التحوط الأمني.

وأما مايتصل بالمطبخ السلطاني، فكان له الأثر الكبير في حمايته وتوفير الاطمئنان له، وكان الخادم عادة يقوم باعداد الطعام الذي لايشك في سلامته صلاح الدين عند تناوله[١٠٨]. وكان مطعم السلطان يرتبط بقصره مباشرة عن طريق دهليز في مصر والشام[١٠٩]، وفي حالات الترحال والتجوال في أثناء سير المعارك يكون قريباً عن خيمته، وقد احتاط السلطان لنفسه، لئلا يقع

ضحية في المكيدة، مـن خـلال دس السم في الاطعمـة والأشـربة المعدة لـه[١١٠]، لذلك فان المأكولات والمشروبات المعدة له، كانت تخضع لرقابة أمنيـة شـديدة وصارمة، ودقيقة من قبل الاطباء الامناء المختصين[١١١].

وتشير روايات تاريخية مختلفة إلى أن بعض اعضاء الأجهزة الأمنيـة سـواء كانـت عـسكرية أو أمنيـة للدولـة، كانـت تتفـق سـراً ضـمن صـفقة ماليـة أو وظيفية مع أحد مسؤوليها الكبار في الدولة الصلاحية، للتخلص مـن بعـض كبار أو رموز قادتها لسبب أو آخر، عن طريق السم، إذ يعطى للخشص المراد بطـرق مختلفـة ومتفننـة ومتقنـة تمـام الاتقـان، فقـد اسـتعملت الـسموم في الحلل والخلع والهدايا المقدمـة الى اسـدالدين شـيركوه عـم صـلاح الـدين أيـام الخليفة الفاطمي العاضد[١١٢].

علاوة على ماسبق، كان الشراب وسيلة قتل أيضاً، كما وقع لمحمد شيركوه بن شادي صاحب مدينة حمـاه، قيـل ان الـسلطان صـلاح الـدين كلـف رجـلاً يدس السم عن طريـق منادمتـه لـه، فلمـا أصبحوا في غـدهم، لم يـروا ذلـك النـديم وهـو الناصـح بـن العميـد[١١٣]، ولكـنني أسـتبعد بـل وأنفـي مثـل هـذا الفعل يصدر من الناصر صلاح الدين لأنه ليس مـن شـيمته ولامـن اخلاقـه القيام بمثل هذه الاعمال، لاسيما مـع شـخص مـن بـني جلدتـه، وهـو بـريء تماماً من الصاق هذه التهمة به.

توالـت حلقـات الاجـراءات الأمنيـة الأخـرى لتحـصر في نطاقهـا القـصور الخاصة بالسلطان ورجالاته، للحيلولـة دون اتاحـة الفرصـة للمناهضين مـن مهاجمتها والاخلال بأمنها. هي مسألة الحـريم الـتي تـدخل ضـمن تحوطـات الأمن الخاص بالسلطان[١١٤].

ومما يستحق عدم طيه وتغليفه بحجب الغفلة، هو ان الناصر صلاح الدين أولى اهتماماً خاصاً عندما كان يتخذ أكثر من أمرأة واحدة[١١٥]، ولاسيما بعد بناء القلعة على جبل المقطم في مصر عام(٥٧٢هـ/١١٧٦م)، التي أفرد للحريم فيها بيوتاً خاصة، وفر لهن الحماية اللازمة من خلال تخصيص أبواب أو دهاليز أو مسالك خاصة لهن في القلعة، غايتها توفير الأمن لهن وقطع الطريق عن الوصول إليهن[١١٦]، وابقائهن خارج دوائر المكاره وضمن حماية رجالات القصر، خشية من أسرهن أو اختطافهن، بهدف الانتقاص من سلطة السلطان والنيل من هيبتها[١١٧]، لذا أمر صلاح الدين بعد الاستيلاء على قصر الخليفة الفاطمي العاضد بهاءالدين قراقوش عام(٥٦٧هـ/١١٧١م)، بنقل حريم العاضد إلى موضع أمين في القصر، ثم جرى نقلهن إلى مكان أكثر أمناً وأماناً بعد اعلان الدولة الصلاحية[١١٨].

- أمن الرعية(العامة):

لكي لاينفرط عقد أمن الدولة العام، فقد أولى السلطان صلاح الدين كل اهتمامه لأجله بهذا المضمار، وطرق كل باب يضمن له تكريسه وترسيخه، كي لايهتز إذا هبت عليه نكب الرياح العاتيات، ودبر لكل شأن ماينسجم معه ولايتنافر قطباه، وهذا مافعل بالقياس إلى الوظائف الحساسة التي تحفظ الدولة، وتحافظ على ديمومتها، مثل وظيفة ولاية العهد، التي تعد من العوامل الفعالة في استتباب واستمرار واستقرار الحكم[١١٩]، إذ لم يكد صلاح الدين يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى شق كثير من الامراء المحيطين والمقربين منه عصا الطاعة، ليقدموا ويفضلوا مصالحهم الشخصية والذاتية بشتى السبل، ولو كلف ذلك الخروج والانحراف عن مسار الدين الاسلامي

والاستنجاد بالصليبيين. وعلى الخصوص بعد وفاة شيركوه، ولم تنته هذه الممارسة إلأ بعد زوال حكمهم[١٣٠].

لقد تناول صلاح الدين الأمر بحنكة متسمة بالامتياز، تجسمت في القضاء على هذا العامل الذي كان مختفياً إلى حد بعيد خلال مدة حكمه، إذ استطاع هذا القائد البارع الفذ بامكانياته القيادية والريادية الفريدة في عصره، بسبب سعة صدره وذكائه وبصيرته وحلمه ومرونته في التعامل والشفافية مع الاحداث من أن يستوعب معظم المناهضين ويضمهم تحت لوائه وتجنيب اخوانه المسلمين فتناً واحداثاً غير محببة[١٣١].

ومن معالم نفاذ البصيرة ذات الارتكاز على العبقرية، حاول السلطان قبل وفاته ان ينظم شؤون دولته بنفسه، وجعل أمرائه وقادته وخاصته يرضون بالحل الذي وضعه لهم، ومن منطلق وجوب الحذر من الأنسياق الى مالايجب الانجرار إليه، فقد أثر السلطان المضي في اتمام اركان دولته، تلافياً لما قد ينجم عنها من المساس بأمنها، أعلن نصوص وصيته السياسية في عام(٥٨٢هـ/١١٨٦م)[١٣٢]، التي تقضي بأن تكون ولاية عهد مصر لابنه الملك العزيز[١٣٣] وان يستقر الشام لابنه الملك الأفضل، في الوقت الذي تسنم الظاهر غازي ابن صلاح الدين سنة(٥٨٢هـ/١١٨٦م) ولاية مدينة حلب، ولاننسى الاشارة الى ان محمود بن تقي الدين عمر قد استمر على ماكان بيده من البلاد هنا وهناك وهي، حماة[١٣٤] والمعرة[١٣٥] ومنبج[١٣٦] وقلعة نجم[١٣٧]، وزاده السلطان كلاً من ميافارقين، وحران والرها وسميساط وخلاط عليها[١٣٨]. حصل الملك الأمجد بن تورانشاه على بعلبك، وأصبحت حمص من نصيب الملك مجاهدالدين بن ناصرالدين[١٣٩]. وليس خافياً ان السلطان كان خائفاً من أخيه العادل، لذا قسم البلاد بين أبنائه وأخوته[١٣٠]،

لقد أقدم على هذه الخطوة الكريمة لأن حياته تخطو رويداً رويداً شطر تسليم الأمانة إلى صاحبها الكبير المتعال، وتدرج المؤتمن في مدارج الدنو صوب المنون، الذي لايبقي ولايذر ولايدع أحداً من جنس البشر، إلاّ يذيقه كأسه ويضع فاصلاً بين دنياه وأخراه، بنقله من الأولى إلى الأخرى. بيد ان آمال واحلام صلاح الدين لم تتحقق إذ خالف ابناؤه واخوته ماخطط لهم وأوصى به، بل حاول كل منهم أن يتوسع على حساب الآخر(١٣١).

وبما ان السلطان صلاح الدين قد خضع لهذا الناموس الالهي الحق، ولا مناص من أن يخطفه، ليلحق بموكب الشهداء الخالدين في عليين، لم ينس صلاح الدين يوماً ما أعطاه من عظيم الأهمية في صفوف أصحابه وأنصاره، لدرء الأخطار عن الأمة الاسلامية والدولة الصلاحية. وقد اقتضت سنة المستخلف عند الناصر صلاح الدين، ان يكون المستخلف رجلاً يمت إليه بصلة القرابة والنسب، كأن يكون ابنه أو أخاه أو ابن أخيه أو خاله لاسباب أمنية بحتة(١٣٢)، وإذا كان المستخلف من صلب عائلته صغير السن، وغير قادر على تدبير الأمور بالشكل المطلوب، فان السلطان يعين وصياً يتسم بالخبرة للقيام بارشاد المستخلف القاصر، كما حصل مع ابنه العزيز عثمان إذ غدا وصياً بوصاية من ابن أخيه تقي الدين عمر صاحب حماه عام(٥٨٠هـ/١١٨٤م)(١٣٣). كما يحدث الاستخلاف عند مغادرة صلاح الدين مقر عمله، كما جرى عام(٥٦٨هـ/١١٧٢م)، حين توجه من بلاد مصر صوب قلعة الكرك، مستخلفاً اياه نجم الدين أيوب على ديار مصر بجميع أعمالها(١٣٤). وكذلك حصل عام(٥٧٠هـ/١١٧٤م) عندما استخلف أخاه سيف الاسلام طغتكين على قلعة دمشق(١٣٥)، ولم تمض إلاّ سنة واحدة على استخلاف

سـيف الاسـلام حتـى كلـف بالاسـتخلاف أخـاه شمـس الدولـة بدمـشق عام(٥٧١هـ/١١٧٥م)، حيث تأهب صلاح الدين لحرب الافرنج[١٣٦].

فالاستخلاف احد أعماله الجليلة المنجية من الانشقاق والشقاق، إذ ان الحسم الآتي من ذلك السلطان أو الأمير المرتقب، يؤدي إلى سلامة عصا الطاعة من الخدش، عن طريق عمل المعنيين على انتقاء الأصوب لأمر الاستخلاف الذي يوطد ركائز الأمن والأمان ساعتئذ، ويوفر بفضل حنكة وذكاء صلاح الدين كثيراً من المشكلات، منقذاً أرواحاً كثيرة من ان تزهق تحت خيمة الأمن، المثبتة أوتادها والراسخ المتين عمادها في أرض صلبة، سعت عليها مواكب المسلمين نحو الانتصارات الباهرة فيما بعد.

لقد تواصلت أنشطة الناصر صلاح الدين ومساعيه الجليلة بقصد تطوير النظم الادارية، زيادة في خلق الاجواء والظروف الميسرة لشؤون الرعية والمستجيبة لمتطلباتهم ومستلزماتهم الحيوية المتجددة من حين لآخر، فاعتمد منصباً جديداً في ادارة دفة الحكم، والحرص على توطيد الأمن لها، بل لجأ إلى استحداث وظيفة أخرى، الا وهي وظيفة النيابة[١٣٧]، للتعاون مع السلطان على ادارة شؤون الدولة، في حالة خروجه للقتال مع الصليبيين ومن إلتف حولهم أو حذا حذوهم، أو في حالة سفره إلى خارج دولته، ففي هذه الحالة يحكم الشخص نيابة عنه، ويدير البلاد في أثناء غيابه لحين عودته[١٣٨]. ويأتي في مقدمة وصدارة من استنابهم صلاح الدين الملك العادل عام(٥٧٣هـ/١١٧٧م)[١٣٩]، الذي عينه نائباً له على بلاد مصر. وفي السنة ذاتها بعث تقي الدين ابن أخيه إلى أرض الكنانة(مصر) ليكون نائباً عنه[١٤٠]، بعد عزل العادل. بينما حظي الأمير المشطوب الهكاري[١٤١] بالاستنابة على مدينة عكا في الاعوام(٥٨٥-٥٨٧هـ/١١٨٩-١١٩١م). هذا ولاننسى

ان عزالدين بن جورديك من النواب المستنابين من قبل السلطان على بيت المقدس عام(٥٨٨هـ/١١٩٢م)[١٤٢].

لقد كان حرصه بالنائب متعلقة كل التعلق بالناحية الأمنية، وكان مبلغ هذا الحرص البليغ يجري جريان الدم في العروق، ومجرى النفس في النفس، لأنـه كـان باسـتطاعته فعـل الكـثير ضـده إذا ماكـان يحمـل أفكـاراً مغـايرة ومضادة ومخالفـة للسلطان، إذا أراد القيـام علـى خلعـه أو التـآمر عليـه، إذا توافرت له الظروف بالتعـاون مـع جهـات معاديـة، فانـه كـان بمقـدوره قلـب المعادلة ضد صلاح الدين ودولته، ولهذا فان الناصر صلاح الدين حرص كل الحرص على ان يكون النواب، ممن يثق بهم تمام الثقة، لكون السلطان اعلـم الناس وأوسعهم إدراكاً[١٤٣]، لما لهذه الوظيفة من مردود ايجابي عنـد اعمالهـا، وسلبي في حال اهمالها.

فبناء على ما اسلفنا نقول ان هـذه الوظفيـة البالغـة الحساسية، المؤثرة عى ادامة تطلعات الدولة الصلاحية وديمومتها نحو الخير العميم، ومع ذلـك ان السلطان لم يترك النـواب عـن مراقبـة دقيقـة، مـن قبـل خـواص عيونـه ورجالات أمنـه[١٤٤].

وماجاز انسحاب آثاره الأمنية على النائب يجوز أن تنـسحب علـى الـوزير بقدر أو آخر أيـضاً، فـالوزير مـنـصب كـان يلعـب دوراً أمنيـاً بـارزاً لارتـباطـه المباشر بالسلطان وبالناس أيضاً، لـذا كـان يـدقق مـن يليـق لهـذا المنـصب[١٤٥]، فالوزير في عهد صلاح الدين كان يتصف بصفة السكرتير والمستشار والموظف الاداري في آن واحد. وتتحدث المصادر التاريخيـة عـن الـوزارة في عهـد صلاح الدين بصورة عامة، لاسيما بعد أن تعاظم شأن دولته، فراح يعمل من أجل توطيد أركـان الدولـة الـصلاحية، فتـشير الروايـات إلى ان نـصرالله أبـا الفـتح

الصيفي بن القابض، كان وزيراً للسلطان الملك الناصر دون الاشارة الى سنة ومكان توليته الوزارة[(١٤٦)]. ففي عام(٥٨٨هـ/١١٩٢م)، مات القاضي المؤتمن بن حاسيبويه[(١٤٧)]، وزير الملك الظاهر صاحب حلب ابن الملك الناصر صلاح الدين، وكذلك ورد اسم وزير آخر هو جمال الدين الفياض وزير الظاهر المتوفى في العام المذكور نفسه[(١٤٨)].

وهناك رواية تاريخية يوردها أحد المؤرخين ان ابن الفياض، وهو نظام الدين محمد ابن الحسن بن الاصفهاني الذي كان وزيراً صالحاً ورعاً قديراً وفاضلاً وكريماً ووساطة خير عند صلاح الدين توفي عام(٦٠٧هـ/١٢١٠م)[(١٤٩)]. هنا تكمن أهمية كون الوزير موثوقاً به ومؤتمناً عند السلطان، ومخلصاً للدولة الصلاحية، وتنتفي فيه روح النفعية والذاتية والانتهازية والوصولية، ويكون جزءاً من مؤسسة الدولة.

ومن المعروف انه كان باستطاعة الوزراء، تهديد أمن العباد والبلاد، عند فقدان الوفاق بينهما، وهذا مادفع بعدد من الملوك الايوبيين إلى سحب الثقة من وزرائهم بفترات معينة ثم خلعهم عندما يتبين لهم، ان هؤلاء قد استغلوا صلاحياتهم لمنافعهم الخاصة، أو لمصلحة من يؤيدونه من المخالفين والمناهضين لسياسة الدولة الصلاحية الايوبية. الغنية عن البيان، يمكن ان نقرر بلا تردد هنا، ان المعلومات التي وصلتنا من بطون الكتب التاريخية وغيرها عن الوزارة وملحقاتها في ظل حكم الناصر صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة واليمن، تبقى ناقصة، لان تلك المصادر في رواياتها لم تقدم لنا روايات متكاملة متتابعة عن الاشخاص الذين استوزروا في تلك الحقبة، وطبيعة الاعمال التي مارسوها[(١٥٠)].

وماجاز إطلاق آثاره الأمنية على الوزارة يجوز إطلاقه على القضاء، بقدر أو آخر، فالقضاء من أهم المؤسسات في المجتمعات الحضارية، لكونـه المسؤول الأول عـن تطبيـق القـوانين وقواعـد الـشريعة الـسمحاء لمعالجـة الأحـوال الشخصية والمعاملات، وارساء مبادىء العدالة التي هي أساس الحكم الصالح، فأعمال القضاة تتصل عادة بالناس جميعاً، ولاتقتصر على فئة خاصة أو طبقـة معينـة، وان عدالـة القـضاء تـوفر الاسـتقرار والطمأنينـة في الحيـاة الدينية والسياسية والاجتماعية(١٥١) لاسيما في بلاد مصر والشام والجزيـرة والـيمن، الـتي بلـغ فيهـا النـشاط شـأواً بعيـداً، فلـولا القـضاء الـضامن للعـدل والانصاف، لأختل أمن المجتمع وساد بالمقدسات والمقـدرات، فهـو المسؤول عـن اشاعة الأمن على جميع أصعدة الحيـاة، لأن الأمـن يلـبي طموحـات النفـوس العطشى إلى الاستقرار والطمأنينة(١٥٢). وعلى هذا فقد ازدادت أهميـة القـضاء وكثـرت اعمـال القـضاة وتنوعـت إلى درجـة دفعـت الـسلطات الـصلاحية، إلى وضع شكل هرمي للقضاة، من حيث المراتـب والتـسلسل(١٥٣)، ويتربـع القاضـي على قمة سلطنة القضاء في بلاد مصر والشام والأقاليم الأخرى(١٥٤).

فلما تولى صلاح الدين الحكم جعل جُل اهتمامه ينصب باصلاح القـضاء، وعـين لهـذا المنـصب قـضاة ذوي سمعـة رفيعـة، مـن أجـل أن يعيـد الأمـن والاطمئنان والاستقرار والسكينة إلى قلوب الناس(١٥٥)، الـذين روعـوا بـالحرب أيـام فتنـة الكنـز والـسودان وعمـارة الـيمني وقاضـي العـويرس(١٥٦)، لـسنوات كثيرة واشـاعت الفوضـى بيـنهم. فأسـند هـذه المهمـة إلى القاضـي صدرالدين عبـدالملك دربـاس الهـذباني الكـردي الـشافعي عـام(٥٦٦هـ/١١٧٠م)، وعينـه في منصب قاضي القضاة في ديار مـصر(١٥٧)، فجعـل صـدرالدين القـضاة في سـائر

الديار المصرية شافعيي المذهب، كما التزم الصلاحيون بتعيين قضاة لمدن الشام واليمن(١٥٨).

ثم تولت هذا المنصب عناصر أخرى مثل قاضي القضاة محي الدين بن الزكي الدين بن محمد بن يحيى المعالي محمد بن علي القرشي الذي ينتهي نسبه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه قاضياً على دمشق عام(٥٨٨هـ/١١٩١م)، وقد قضى نحبه سنة(٥٩٨هـ/١٢٠١م)، وكان ذا فضائل كثيرة في الفقه والأدب(١٥٩).

وظهر قضاة بارعين أيام صلاح الدين، خدموا القضاء، وأفتوا في القضايا الشرعية وقد أدوا هذا الواجب، ليس حصراً ضمن مدنهم وانما خارجها، وهذا يعني ان دائرة القضاء كانت واسعة للفقيه الاسلامي، وله حرية الاختيار في العمل والاقامة.

ولم يكن الصلاحيون أقل اهتماماً بالقضاء والقضاة عن الخلفاء العباسيين والامراء البويهيين والسلاطين السلاجقة وأخيراً عن الدولة الفاطمية، فظهر في ظلهم قضاة حكموا في بلاد السلطان صلاح الدين أمثال أبي لقاسم نصير بن المظفر محمد بن يعقوب الذي عين قاضياً في مدينة سنجار(١٦٠)، للنظر في الخصومات وفضها، على أساس الحسم لصالح العدل بحسب الشرع الاسلامي.

ولاننسى الاشارة الى أن صلاح الدين، قد عين أحمد بن مدرك بن الحسين بن حمزة بن الحسين قاضي حماة سنة(٥٧١هـ/١١٤٧م)، واتسم بمكانة رفيعة عند السلطان ونال تقديره، توفي سنة(٥٨٧هـ/١١٩٠م)(١٦١)، وفي الحقبة نفسها تولى القضاء مع المتقدم ذكره قاضٍ آخر، وهو أمين ابوالقاسم بن حبيس، الذي قضى نحبه في ٢١شهر رمضان سنة(٥٨٦هـ/١١٨٩م)، ونال

الاستحسان من لدن السلطان صلاح الدين، وشارك في فض وحل المنازعات بين سكان مدينة حماة[١٦٢]، هذا وقد تولى بهاءالدين بن شداد قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف[١٦٣].

وبسبب أهمية مركز القضاء لدى السلطان، كان يُطلب من القاضي حضور المجلس الخاص الذي يعقده صلاح الدين بين حين وآخر، للنظر في الشؤون الرسمية والدينية للدولة، وكذلك للبت في المسائل الخاصة التي تتعلق بشؤون الناس واحوالهم. لذلك ارتأى صلاح الدين الاستعانة بصاحب المظالم لتقوية الجهاز العسكري والأمني معاً، ومد شبكة إلى أرجاء الدولة كافة، لسد الثغرات بالسرعة الممكنة، ومن حق صاحب المظالم أن ينظر في الدعاوى التي تقام ضد ابناء الولاة والامراء والقضاة. وكان السلطان ناصراً للضعيف والمظلوم على القوي، ويجلس يومين في الاسبوع هما الاثنين والخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء والادباء، ويفتح الباب للمتخاصمين، ويشجع المتظالمين على أن يقدموا دعاواهم بأنفسهم، وفي مختلف الظروف من دون تقيد بالزمان والمكان على السواء، وكثير ماكان أصحاب المظالم يواجهونه في الشوارع، سواء أكان راجلاً أم فارساً، وهذا الأمر شجع المتظلمين على الجهر بالشكوى التي كانت تمس خواصه وأمن السلطة أحياناً. ولم يتوقف ويكتفِ اسهامهم عند هذا الحد بل بنى صلاح الدين داراً للنظر في المظالم سماها دار العدل. فقد كان السلطان ادارياً من الطراز الأول يسوس الناس بالعدل، مستقبلاً جميع مايعرض عليه من القصص كاشفاً ماينتهي إليه من النتائج بعد التدقيق في المظالم واضحى يجمع القصص في كل يوم يفتح باب العدل، ولم يرد قاصده المعاني من أية حادثة من الحوادث وصار يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار، ويوقع

على كل قصة بما يفتح الله على قلبه من الاحكام الصائبة، ويكشف المظلمة عن كل شخص يقدم إليه طلب الاسعاف، وخير دليل على ذلك هو ان رجلاً من أهل دمشق قد استغاث به يقال له ابن زهر على تقي الدين ابن أخيه، فاوعز الناصر صلاح الدين إلى رجالات حرسه الخاص باحضاره، ولما مثل بين يديه، بادره مستنطقاً اياه بشأن الشكوى، وما أن أدلى باقواله إليه، حتى انبرى شاهدان يشهدان عليه وهما مقبولا الشهادة، وبعد التأكد من المظلمة، وكان السلطان قد وكل القاضي أبا القاسم أمين الدين قاضي قضاة حماة للنظر في المخاصمة والمنازعة، فحضر الشاهدان وأقاما البينة عليه بعد دعوى الوكيل المخول بموجب الوكالة الصحيحة، فلما ثبتت صحة الوكالة، أمر أبوالقاسم بمساواة الخصم فساواه، وكانت هذه الطريقة من خواص السلطان، وهكذا تجري المحاكمات بحسب القانون والشرع الاسلامي، وينجم عنها انفاذ الحكم العادل، لتصبح عبرة لذوي الاعتبار من أولي الابصار وغيرهم(١٦٤).

وهكذا كان القضاء في عهد السلطان صلاح الدين يشكل صمام الأمان لأصحاب الحوائج والمتظلمين، فيخرجون وهم راضون عن السلطة بعد ان كانوا قبل أن يدخلوا على السلطان ومن ثم الولوج في قاعة المحكمة يحملون في نفوسهم الكثير من الشكوى وعدم الرضى(١٦٥).

وكلما واكبنا مواكب مآثر السلطان صلاح الدين، رأينا مسار المواكب حاملاً بتراث ضخم وجليل قدمه هذا الهمام الى الاسلام والمسلمين، ليفتخر ايما افتخار بتيجان ثمينة فاقت حدود التكهن الرافضة للتصور، فالمفاخر الكثيرة في الكم والفريدة في النوع، أكثر من أن تحصى، ولكن مع كثرتها الكاثرة، نجد الاقتصار على ايراد نموذج منها يغني عن التواصل معها،

ومواصلة الحديث عنها، ويدلي بالشهادة الحقة على مابذله في سبيل نشر رسالته في الافاق والأمصار وأرجائها، ذات التأثير على الاستقرار وتكريس السلطة، دزدار القلعة[١٦٦]، (حاكم القلعة)، وهو من المناصب المعروفة والمهمة زمن صلاح الدين، والكلمة فارسية يقصد بها ماسك القلعة[١٦٧]، أو المحتفظ بالقلعة، كما يسمى أيضاً بنائب القلعة أو صاحبها، وقد جهزت وعدت مخزناً لعتاد وذخائر العسكر، وتتولى حراستها جماعة خاصة باشراف دزدار القلعة[١٦٨]، ومن واجباته تجديد أبنية القلعة وترميمها بين حين وآخر، ومعرفة اخبار العدو وترصدها حراستها من كيدهم وغدرهم[١٦٩]، ومن واجبه أيضاً حماية البلد، عندما يدركه أو يداهمه الخطر، وهذا ماحصل عام(٥٧٦هـ/١١٨٠م)[١٧٠].

ويحدثنا ابن الاثير في احدى رواياته التاريخية عن سرخك متولي قلعة حارم عام(٥٧٩هـ/١١٨٣م)، وهو من المماليك النورية، استغل فرصة بعد السلطان صلاح الدين عن منطقة القلعة، فبدأ ينشط بين جنوده في القلعة وخارجها يؤلب قلوبهم على السلطة الصلاحية، يبغي الانقلاب عليهم، فشرع بعمله هذا شيئاً فشيئاً لتنفيذ مايجيش في صدره، حتى اتصل بالصليبيين سراً، واتفق معهم ان يسلم اليهم القلعة، بيد ان رجالات أمن صلاح الدين المبثوثين بين أجناده في القلعة وخارجها هنا وهناك قد عرفوا بخيوط المؤامرة، وكانوا يرصدون ويتابعون حركاته المخيفة أولاً باول ونصبوا له كميناً إلى أن وقع في الشرك الذي لم يكن يتوقعه وأودعوه السجن، وأوصلوا أخباره فوراً إلى السلطان لخطورة الموقف، بعد ان وكلوا رجالاً أشداء من خواصهم الموثوق بهم لمراقبته في السجن خوفاً من هروبه، وما ان أطلع صلاح الدين على أخباره وما أقدم عليه من هذا العمل الشنيع،

حتى أمر بابقائه رهن الاعتقال، إلى أن يتم البت في قضيته، فأوعز السلطان إلى خواصه بايصال قضيته إلى القضاء، بغية التحقيق معه لينال جزاءه العادل على قدر الذنب الذي اقترفه بحق اخوانه في الدين[(١٧٠)].

لقد كان صلاح الدين مفعماً بالدلالات المشجعة على الثبات والصمود بوجه المعادين، إذ من الغني عن البيان، ان وجود الغطاء العسكري والأمني ضروري في كل زمان ومكان، لأية أمة من الأمم، وبدون هذا السلاح الحيوي الفعال المتجسم في ثبات الغطاء العسكري للقلعة، تكون قواته عرضة للنكبات ونهبا للعوادي ودواعيها.

تعد وظيفة **ناظر الديوان**، وظيفة في غاية الأهمية من الناحية الأمنية للسلطان، ويعد صاحبها من أجل موظفي الديوان، فله حق النظر على جميع الدواوين، وله العزل والولاية ومن بين يده تخرج الاوراق لتعرض على صلاح الدين، لذا كان يدقق في اختيار من يليق بهذا المنصب، لارتباطه المباشر بالسلطان، والناس معاً على السواء، وله الحق في انتداب المترسلين لطلب الحساب والحث على طلب الاموال ومطالبة أرباب الدولة الصلاحية ولايعترض[(١٧١)] من قبل أحد في تنفيذ عمله، فهو المسؤول الأعلى عن كل مايجري في الديوان، ويرجع إليه كل مايخرج من الديوان، ويرجع إليه أمور جميع الموظفين العاملين في الديوان، ولابد من توقيعه الرسمي على جميع مايصدر منه من أوراق رسمية، فضلاً عن احاطته بجميع مايرد عليه من أوراق ديوانية خارجية[(١٧٢)].

ولكي يبقى السقف الأمني لديوان الناظر محفوظاً ومصوناً، في أعقاب مابذل من أجل رفعة الاسلام من قبل السلطان من جهد عظيم، لايجحد اثاره أحد، مهما حاد عن الحق والحقيقة، لذا تولى وظيفة ناظر الديوان في

مدينة حلب أيام صلاح الدين، ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقي، عام(٥٨٣هـ/١١٨٥م)[١٧٣]، وتولى القاضي الأسعد ابوالمكارم أسعد بن الخطير أبي سعيدة بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة ابن أبي مليح المصري الكاتب الشاعر الذي، كان ناظر الديوان بالديار المصرية، ونظم سيرة السلطان صلاح الدين، ونظم كتاب كليلة ودمنة[١٧٤]. أما في الجزيرة، فقد تولى ديوان ميافارقين في عهده، محمد بن علي بن شعيب بن الدهان فخرالدين ابوشجاع اللغوي وهو ضليع في اللغة والحساب وحل الزيج[١٧٥]، وقدم الموصل من بغداد وارسل من قبل البيت الاتابكي وفدأ إلى مقام السلطان صلاح الدين، وعاد إليهم بخفي حنين ولم يقض بماسير وكلف فيه، فتغيروا عليه، فانقلب راجعاً إلى صلاح الدين، فولاه على اثر ذلك الرجوع النظر في ديوان ميافارقين، وحثه السلطان على اقامة العدل والانصاف واشاعتهما بين أهالي ميافارقين، كي لايبقى أحد يمسه الغبن، فيحس بهضم حقوقه، الا انه لم ينجح فيما كلف به، لذا لم يتسع له المقام فيها، فرحل الى مدينة دمشق ثم إلى مصر عام(٥٨٦هـ/١١٩٠م)، وبقي متنقلاً حتى استقر في العراق، مات فيه سنة(٥٩٠هـ/١١٩٣م)[١٧٦].

ومن الأمور الأمنية الأخرى ذات التأثير على استقرار وتكريس السلطة الصلاحية، الاستيفاء وهي وظيفة رئيسة يترتب على متوليها النظر في ادارة أمور الدولة المالية، ومراقبة الموظفين[١٧٧]، وتنبيههم إلى جباية الأموال في مواعيدها المحددة[١٧٨]، وكان عليه أيضاً القيام بجولات تفتيشية يتفقد خلالها شؤون حسابات الدولة[١٧٩]، وتلي هذه الوظيفة الوزارة من حيث الأهمية الادارية[١٨٠]، ولما كانت اختصاصات المستوفي خطيرة وكثيرة، فلابد من توافر جملة من الشروط لمن يتولاها، كأن يكون شخصاً معروفاً بحسن

السيرة، عارفاً بأسرار المعاملات وأساليبها ليناط به حفظ أموال الدولة، وكان من واجبه أيضا الاشراف على حسابات الدولة الصلاحية وتدقيقها وضبط الأموال المتعلقة بالجيش وادارة ديوان الاستيفاء[١٨٠].

ففي مدينة حلب كان الوزير نصرالله بن جهيل أبو محمد الحلبي ابن القفطي وزير الملك الناصر يجلس في مقر وزارته يتفقد الاشغال يحضر النظار والمستوفين كل يوم صباحاً إلى خدمته ويقصدون بين يديه ويرتبون ويفصلون القضايا ويتحدثون الى ساعة جيدة ومتأخرة ويشير إليهم بالتوجه إلى مستقرهم، وبعد تفرق الموظفين نرى المستوفين كل واحد منهم على باب خزانته، ولكل منهم معاملات معلومة يلازمون أشغالهم بالحسابات إلى نصف النهار فينصرفون إلى منازلهم[١٨١].

كانت الدواوين من المؤسسات الرئيسة للنظام الأداري، ومهمة رئيس الديوان تكاد تشبه إلى حدما مهمة الوزير في الوقت الحاضر. ويعرف الموظف المختص بصاحب ديوان الرسائل والانشاء[١٨٢]، ويعاونه عدد غير قليل من الموظفين في تمشية الامورالمتعلقة بالديوان الصلاحي[١٨٣]، ومهمته هي تحرير الرسائل السياسية والعسكرية ومراجعة الرسائل الرسمية التي ترده من الأمراء والملوك والخليفة العباسي، ووضعها في الصيغة النهائية[١٨٤]. ثم كتابة أجوبتها في ضوء مايقرره السلطان صلاح الدين بعد توقيعها بختمه[١٨٥]، وكان يختار لتولي هذا الديوان عادة اديباً وكاتباً بارعاً باعتباره المرآة التي تعكس مستوى الدولة الصلاحي الأدبي، كثيراً مايرسل في مهمات سرية وسياسية بما يمتلكه من قوة الاقناع والتأثير[١٨٦].

ويحدثنا الحنبلي[١٨٧] في احدى رواياته إلى أن خطيب المزة[١٨٨]، قد زور كتاباً على السلطان صلاح الدين عام(٥٧٧هـ/١١٨١م) من دون عرضه عليه،

عـن طريـق صـاحب ديوانـه، وتمثـل هـذا التزويـر في تـصوير زيـادة في جامكيتـه[١٨٩]، وبعـد افتـضاح أمـره للسلطان، اختفـى اثـره وطـال اختفـاؤه، فتجمعت حوله الاخبار، ولقد احتار الخطيب بعد أن أقدم على هذه الفعلة اليتيمة، أين يذهب ويتوارى عن الانظـار، فاضطر إلى تغـيير مـسار حركاتـه وسـكناته وأسـاليب اختفائـه، لكـن فـروخ شـاه أراد الايقـاع بـه شـر الايقـاع، بتشديد أمر المراقبـة والخنـاق عليـه، ورصـد حركاتـه بدقـة متناهيـة، ممـا اضطر في الهروب إلى بلاد مصر خوفاً منه، واستجار بالسلطان صلاح الـدين، فأجـاره، ثـم عطـف عليـه ووقـع لـه توقيعـاً بمـا طلـب ولم يخيبـه، فانجـاه وأخلصه فيما وقع فيه من الاخطاء وكان ينتظـر المـصير المحتـوم الـذي كـان الخطيب يتوقعه من الأمير فـروخ شـاه، فلولا شمولـه بعطـف وشـفقة وكـرم السلطان لسعي إلى الهلاك إليه[١٩٠].

وهناك عدد آخر مـن الوظـائف الاداريـة، وكانـت تـشكل جـزءاً مهمـاً مـن الجهاز الاداري الصلاحي، واكتفت المصادر في الاشارة المقتضبة حولها أو مجرد الإشارة إلى ذكر اسمها ولفظها، ومنها، مقدم الاحـداث ومهمتـه التحـدث علـى ديوان المواريث الحشرية ممـن يمـوت ولاوارث لـه، أو لـه وارث يـرث ميراثـه، وعندها تصبح تركته ملكاً للدولة.

- صلاح الدين واستحكاماته في مصر والشام والجزيرة:

لقد شهدت ساحات بـلاد مـصر ومـدنها وقـصباتها وريفهـا أحـداثاً مهمـة اثارتها العناصر السكانية المعارضة هنا وهناك لحكم صلاح الـدين بعـد وفـاة عمه اسدالدين شيركوه، ومنها بعض الجماعـات، الـتي الحقـت اضـراراً كـبيرة جمة بأمن مصر وسلامتها[١٩٢]، بيد أن صلاح الدين استطاع من القضاء على

هذه الصراعات والفتن والقلاقل العرقية والمذهبية، وتطلب منه ذلك تعاملاً وتفاعلاً خاصاً مع هذا الوضع الصعب، بانت فيه مهارته العسكرية الفائقة وخبرته الأمنية الواسعة وبفضل عقليته الفذة، تمكن أن يحافظ على وحدة البلاد وحماية العباد والبلاد[١٩٤].

وليس غريباً إذا قلنا أن صلاح الدين قد نذر نفسه للجهاد في سبيل الله، وأمضى وصرف معظم حياته فيه، وذاع صيته وانتشرت أخباره، وقد وجد ان هذا الأمر يلزمه مغادرة أرض مصر، والتوجه نحو بلاد الشام لقتال الصليبيين[١٩٥]، بعد أن استطاع من ضبط أمن مصر، وأدرك بشكل جيد، ما أصاب الوحدة الاسلامية من التصدع، وطمع الفرنج في الاملاك الاسلامية، وانه ليس في استطاعته وهو في مصر، ان يناوئ ويقارع بل يقاوم الصليبيين، مما اضطر أن يبعث برسالة خطية إلى الخليفة العباسي ببغداد عام(٥٧١هـ/١١٧٥م)، تتضمن الاشارة إلى مابذله من جهود مضنية ليل نهار لخدمة الخلافة العباسية، وبما قام به من جهاد وقتال ضد العدو الصليبي أيام نورالدين محمود زنكي، مثل فتح مصر، واليمن بقيادة أخيه الملك تاج البوري[١٩٦]، والنوبة[١٩٧]، وغيرها[١٩٨]. فضلاً عن تأمين الطريق إلى الحجاز واليمن واخماد الفتن الداخلية في مصر[١٩٩]، وانه ليس بمقدوره منازلة الصليبيين لفتح بيت المقدس، وهو في مصر التي تبعد مئات الأميال عن بلاد الشام[٢٠٠].

وعليه في ظل هذه الظروف والأحوال، لايمكن للسلطان صلاح الدين الاعتماد على قوات مصر وحدها، في الوقت الذي تحولت الاستراتيجية الصليبية إلى التركيز عليها. بل يحتاج إلى المزيد بل المزيد من قوات الأقاليم والامصار الاسلامية الأخرى، لتوسيع رقعة دولته الناشئة، لتشمل

الرها[٢٠٢](اوذيسة) والرقة[٢٠٣] وحران[٢٠٤] ونصيبيين[٢٠٥] وحماة[٢٠٦]، وسنجار، وجبلة[٢٠٧]، وصفد[٢٠٨]، وصهيون[٢٠٩]، وعين تاب[٢١٠]..الخ ضمانا لمقاومة ومقاتلة الصليبيين بشتى الطرائق وجميع الخيارات المتاحة وطردهم من المدن الاسلامية مهما كلف الأمر وغلت التضحيات[٢١١].

ولما كان صلاح الدين عرف بعد أن تولى الوزارة في مصر، انه كان اداريا وقائداً عسكرياً مرناً مع الأمراء وعنيداً مع أعدائه، اكتسب الخبرة في المراكز القيادية الحساسة التي أسندت إليه بحكم موقع أبيه وعمه في سدة الحكم، وأظهر قدراً كبيراً من الشجاعة والصبر ولاسيما في أثناء حصاره في الاسكندرية[٢١٢].

ولقد حانت للسلطان صلاح الدين فرصة ذهبية لتحقيق مايصبو إليه، حين وافاه خبر وفاة ابن نورالدين الملك الصالح اسماعيل (ت٥٧٧هـ/١١٨١م). وبعد أن تلقفت الاسماع النبأ وذاع بين الناس، وقع الفوضى والاضطراب والقلاقل في معظم مدن بلاد الشام، فقد بادر الأرمن إلى العبث والفساد في المناطق التي ينزلون بها، فضلاً عن تقاتل الامراء فيما بينهم[٢١٣]، وإيثار كل منهم الاستعانة بالسلاجقة أو الفرنجة أو أية قوة أخرى على صاحبه[٢١٤]، فادرك صلاح الدين خطورة الموقف، فاسرع سرعة البرق إلى حصر زمام المبادرة بيده الكريمتين، فباغتهم بهجوم مباغت في ٥ محرم عام(٥٧٧هـ/١١٨١م)، تاركا أرض كنانة مصر متوجها صوب بلاد الشام[٢١٥]، واختار مدينة دمشق هدفاً له، واستطاع ضمها إليه، حيث سارع جنود المدينة العمل تحت لوائه الانقياد التام لأوامره، وهذا الموقف قد سهل لصلاح الدين أمر التوجه والزحف بجيشه الذي يضم في صفوفه بين مايضم المصري والشامي من العرب والكرد والترك ومن التف حول قيادته، لاخضاع

سائر المنطقة لنفوذه، عبر سلسلة عمليات، من خلال فتحها أو التصالح مع سكانها، ابتداءً بآمد[٢١٦] في أقصى الشمال إلى دمشق، التي من ورائها حوران ومصر، ومن مدينة الموصل إلى أقصى الشرق ماراً بحارم[٢١٧]، وطرابلس[٢١٨]، وبيروت[٢١٩]، حتى أقصى المغرب[٢٢٠].

وعليه لم يبق أمام صلاح الدين، إلا أن يزحف بقواته المتجحفلة تحت رايته على الموصل ويحصرها عام(٥٨١هـ/١١٨١م)[٢٢١]، نظراً لمكانتها ولاهميتها في توحيد كلمة المسلمين واستعادة بيت المقدس من جهة، فضلاً عن ان الاستيلاء عليها كان يؤمن الشرق الاسلامي العربي ضد الصليبيين من جهة أخرى[٢٢٢]، ثم نجد السلطان قد انصرف عنها مؤقتاً بعد أن توسط الخليفة العباسي[٢٢٣]، ولكنه عدل عن فكرته وتوجه صوب حلب[٢٢٤] ومنها إلى سنجار[٢٢٥]، لتسوية المشاكلات مع سكانهما، فتحقق له ما أراد فيهما، وما كان من الخليفة العباسي المستضيء إلاّ أن يقر لصلاح الدين لما ضم من ممتلكات جديدة لدولته[٢٢٦].

وبعد أن انضمت مصر والشام الجزيرة وغيرها إلى دولة صلاح الدين بدأت مدنها وأريافها رويداً رويداً تتعرض لهجمات الأعداء الحاقدين والمارقين، الذين يطمعون في السيطرة عليها، لنهب ثرواتها والتحكم بها[٢٢٧].

لقد امتدت دائرة الصراع الاسلامي والصليبي، وكانت الاستراتيجية الرئيسة المتبعة لدى الجانبين تقوم على أساس تسخير كل الطاقات المتوافرة والامكانات المادية والبشرية المتاحة، وحشدهما للفوز بالانتصارات الساحقة بها، وهذا ما أكسب الصراع والنزاع أشد ضراوة وقسوة، وقد تبنى الطرف المعادي طريقة ناجحة وجديدة وسليمة إلى حدما أثبتت جدارتها وصوابها بمرور الزمن، تمثلت في بناء عدد غير قليل من القلاع والحصون والمباني

العمرانية على شكل ثكنات عسكرية في الأراضي التي يتم الاستيلاء عليها، وركزوا ووظفوا جُل طاقاتهم العسكرية والحربية والادارية في ساحات بلاد الشام، وكانت هذه الحصون والاستحكامات الحربية ملاذاً آمناً وملجأ حصيناً لهم ولأسرهم، ومن يعيش معهم يومئذ، ومما لايمكن إهماله هو أنه قد انتفع المسلمون بهذه الاستحكامات التي أقامها العدو الصليبي على بلاد المسلمين بعد تحريرها من قبضتهم، لاغراض أمنية وآخرى حياتية بعد مدة من الزمن، لذا توجه معظم أنظارهم وأفكارهم نحو الاكثار منها بشكل أو آخر، ليس حصراً في ساحة بلاد الشام، فحسب بل في جميع الأقاليم والامصار والمدن والثغور التي وقعت تحت نفوذهم وسيطرتهم، فحاولوا وجاهدوا توظيفها من أجل ضمان أمنهم الشخصي أولاً، فضلاً عن سلامة وأمن المناطق التي استلزمت الضرورة بقاءهم فيها ردحاً من الزمن ثانياً، وصار لزاماً على المعنيين والمسؤولين عن هذا الجانب الحيوي والعسكري تزويد وترفيد هذه التحصينات المنتشرة على طول وعرض بلاد الشام يميناً وشمالاً، بما تحتاجه من الذخائر والمؤن والمستلزمات العسكرية من الأسلحة والآلات الحربية والملابس، والدواب، وكذلك الاعلاف[٢٢٨].

ولقد أدرك صلاح الدين جلياً ان بلاد الشام باتت محاطة باخطار جسيمة تهدد أمنها ووحدتها، لحاجتها الماسة لبناء وترميم التحصينات الدفاعية، التي تحافظ على سلامتها[٢٢٩]، وبدأ شغله الشاغل في هذا المجال، لذا عمد إلى اتخاذ بعض الاساليب الفطنة الذكية لكسب ثقة امراء المدن والاقاليم أولاً ثم ثقة سكانها، ثانياً، إذ اجبرته ظروف ومستجدات جديدة، ظهرت على الساحة السياسية والعسكرية، على أن يولي عناية كبيرة ورعاية فائقة بأمن بلاد الشام أولاً والديار المصرية ثانياً، وما كان منه الا أن يقوم

بتشييد وترميم بعض القلاع[٢٣٠]، والحصون والابراج[٢٣١] والابواب[٢٣٢] المحكمة والاسوار[٢٣٣] والخنادق[٢٣٤]، والجسور والقناطر[٢٣٥] والربايا والمسالح[٢٣٦]، وبنيت بشكل محكم وغلب عليها طراز الشكل المستدير على القلاع بدلاً من المستطيل على الطراز البيزنطي، لأن الأول أثبت مقاومة ومتانة أكثر من الثاني في جميع النواحي، وتكمن أهميتها في الرصد والمراقبة، وقد خصصت فيها مساحات لجلوس رجالات الجيش في أثناء تأدية أعمالهم[٢٣٧]. أما الابراج المنتشرة في الطرق بين بلاد الشام وديار مصر، فلها أثرها البالغ في حماية الحجاج والقوافل التي كانت تتعرض بين حين وآخر لعمليات السلب والنهب من قطاع الطرق وقراصنة الفرنج[٢٣٨].

وقد بلغت عناية صلاح الدين بأبواب المدن والقلاع حداً مهماً، ألزمه وضع الحراسة المشددة على الأبواب، ثم التمعن في احكام صنعها من المواد التي تصمد أمام ضربات النار، فلا تقوى على التأثير فيها، وغالباً ماكانت تصنع من الحديد، اذ لايستطيع غلقها أو فتحها إلاّ مجموعة من الرجال الأشداء[٢٣٩]، وشمل اهتمامه بابواب القلاع، حلب، ودمشق، وطرابلس، وصيدا[٢٤٠]، وبيت المقدس[٢٤١]، تأكيداً لحرصه ومتابعة لشؤونها العسكرية[٢٤٢] والمدنية[٢٤٣].

واللافت للانتباه هنا هو، ان اهتمام صلاح الدين لم يقتصر على التحصينات التي سبق ذكرها، بل شملت الاسوار من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض[٢٤٤]، والاسوار هي جدران عالية تحيط بالمباني من كل جانب، تحفظها ابراج ومعاقل على امتدادها[٢٤٥]، كما في القاهرة، والقدس ودمشق، وحلب وقوص[٢٤٦] وعيذاب[٢٤٧]، لتحقيق هدفين هما توخي البلاد وحمايتها من الاعداء[٢٤٨].

ومـن التـدابير العـسكرية والأمنيـة الـتي اتبعهـا صـلاح الـدين في حروبـه، حفر الخنادق حول أسوار المدن والمعسكرات، تاركاً فيها ممرات أو أبواباً يقـف عليهـا المقـاتلون مـن الفرسـان والرمـاة لحمايتهـا مـن هجمـات الاعـداء[٢٤٩]، ولايخفى ان هذا الـنمط مـن الاسـتحكامات الـسعكرية الـتي عـدت مـن البنـاء الذي يوجبه الشرع الاسلامي، وكان يفي بحاجة سكان المدينـة، ويعمـل علـى اسـتتباب الأمـن فيهـا، حيـث رأى الـسلطان ضـرورة احاطـة سـور القـاهرة، بخندق عميق حفر واديه وضيقت طرقاته[٢٥٠]. بـشكل يتنـاسـب مـع المكانـة السياسية والعسكرية، وهذا الاجراء بحد ذاته يسهل عملية رصد الخندق من قبل رجالات الجيش ليلاً ونهاراً، تخوفاً من الأخطار الخارجية التي تشن من حين لآخر مـن الأعـداء والطـامعين الـذين يقفـون بوجـه جميـع المخططـات الصليبية ومن علـى شاكلتهم ضـماناً لاسـتتباب الأمـن في بـلاد المـسلمين[٢٥١]. ولم يقتصر الأمر حفر الخندق على مدينة القـاهرة، بـل اقتـضت الـضرورة العـسكرية في عهـد صـلاح الـدين حفـر خنـادق حـول المـدن في بـلاد الـشام والثغور الجزرية[٢٥٢]، كمرعش[٢٥٣] وأذنـة[٢٥٤]، ودمشق[٢٥٥] وحلـب[٢٥٦] وحـصن منصور وقلعة بهسني[٢٥٧]، التي كانت كفاءتها الحربية والقتالية تكفـي لـصد هجمات وغارات الصليبيين، ويبدو ان صلاح الدين كان يتوقع في كـل لحظـة هجوم الفرنجة عليه، لـذا كـرس معظـم جهوده وطاقاتـه لتحـصين دفاعـات هذه المدن، لترسيخ وشائجها العـسكرية والأمنيـة معـاً، وشـد بعـضها بـبعض، عن طريق زياراته المتكررة لها بين فينة وأخرى، والوقوف على احتياجاتهـا الحربية والادارية والخدمية، بقصد معالجتها، لـضمان الأمـن العـسكري فيهـا بشكل دائم[٢٥٨].

وهناك حلقة أخرى بالغة الأهمية تضاف إلى الوسائل العسكرية والأمنية، التي اتبعها صلاح الدين في حقبة حكمه، واقتضت الحاجة إليها تمثلت في **الجسور والقناطر**، لأهمية كلا العاملين في التحكم والضبط بالجانب العسكري والأمني للمدن التي تتخللها القنوات المائية والانهار، بالجسور والقناطر تربط بين أجزائها، فبفضلها أصبح الارتباط بين احيائها وسككها ودروبها وشوارعها ارتباطاً عضوياً يسهل الاتصال ويجعله سهلاً. فضلاً عن جمالية المياه في هذه القنوات والانهار لامتاع المشاهدين في أثناء مشاهدتهم لها[٢٥٩].

هذا ولاننسى أن كثيراً ماكانت تنشأ عن هذه التحصينات اهداف أخرى، تتجلى في أهميتها العسكرية والأمنية[٢٦٠]. ويمكن من خلالها حصر المياه واستخدامها كوسائل دفاعية، فأمر صلاح الدين عام(٥٧٦هـ/١١٨١م)، بمد جسر مؤلف من السفن لربط البرجين اللذين كان يتحكمان في أمن مدينة دمياط، مستهدفاً حمايتها عسكرياً أولاً، إلى جانب كونه وسيلة لسهولة وتنقل المواطنين ثانياً، وكان بمثابة نقطة تفتيش لكشف هوية المطلوبين ثالثاً[٢٦١].

وأما **القناطر** فكانت بمثابة عناصر ربط بين الطرق البرية في أرباض المدينة المتصلة بمجاوراتها، إذ حرصت السلطة الصلاحية على معرفة أوضاع السكان وموقفهم منها، فقد عينت موظفين مختصين، يقفون على القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام[٢٦٢] تأدية للمهام الأمنية والعسكرية المرادة، فضلاً عن مساعدة بعضهم البعض في أوقات الازدحام والازمات أو هجوم الاعداء فيتم قطعها لعزل المدينة عن المهاجمين[٢٦٣]. ومن المدن التي اهتم بها صلاح الدين واشتملت على القنطرة لشدة الحاجة إليها هي مدينة صور،

التي فيها قنطرة تعد من عجائب الدنيا ويشكل طرفها مايمكن عده قوساً عند النظر إليه، وليس في جميع بلاد الشام قنطرة أعظم منها، وظل السلطان يأمر باصلاحها كلما اقتضى وضعها الاصلاح اللازم(٢٦٤).

وفضلاً عما سبق ذكره، فان هناك اشارات وصلت إلينا، تخص الربايا والمسالح، فالاول عبارة عن اسلوب تعبوي عسكري وظيفتها أمن وحماية الجند الذين يتخذون موضعاً في مكان عالٍ ينظرون خلاله إلى المارة ممن يمربها(٢٦٥). ولهذا كانت لها أهمية كبيرة ولاسيما في الأراضي الجبلية، إذ تكون الرؤية محدودة، ووضع الربايا على رؤوس المرتفعات المحيطة. بالمعسكر والجيش ضروري جداً، لتأمين الحماية لهما(٢٦٦)، ومعرفة جميع تحركات العدو، عند نزول الجيش في موضع من مواضع المستقرين، فانهم يسارعون خشية على نفسهم إلى إقامة الربايا على المرتفعات أو على رؤوس المضائق، تتولى حراسة المعسكر ليلاً ونهاراً(٢٦٧).

أما المسالح فيطلق على كل حامية عسكرية صغيرة مستعدة لتقديم مهام مزدوجة منها أمنية، أو حفظ الهدوء والسكينة في المدينة وضواحيها، وهي تتواجد عادة على مفارق الطرق ونقاط العبور المهمة وتشبه الربايا في دورها العسكري والأمني على حد سواء، وتتركز مهمة القائمين عليها، تفتيش المارين، والتأكد والتثبت من عدم وجود من يعارض الدولة الصلاحية بينهم(٢٦٨).

وهناك حلقة أخرى لابد من اضافتها إلى سلسلة الوسائل الدفاعية التي كان صلاح الدين لايتردد من الأهمية تمثلت في الحسك الشائك وهو قطع حديدية صغيرة، لها شوكات، كيفما وقعت على الأرض، برزت منها شوكة واحدة، وكان ينشرها حول المعسكرات والمدن والمسالك والخنادق، ليكون

عنصراً مانعاً وعصياً لتقدم العدو صوب هذه الأماكن، فإذا سار عليها، تعلقت تلك الشوكات المتناثرة هنا وهناك بحوافر الخيل والبغل، ودخلت فيها، ولم يقتصر الأذية على الحيوانات، بل شمل كذلك أرجل المشاه فتعيقهم عن الحركة باتجاه الجهة المرادة[٣٦٩].

هوامش الفصل الثاني:

(١) أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص٤٠.

(٢) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، الطبعة الثانية، أربيل ٢٠٠٣م، ص٤٥.

(٣) الدواداري: الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٦٦.

(٤) الجامكية: وهي لفظ فارسي الأصل، تعني الراتب المقرر منح لمن يخدم في دواوين السلطان. ينظر: القلقشندي: صبح، ٥/٣، ٥١٩؛ عبدالرحمن زكي: السلاح في الاسلام، طبعة دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥١م، ص١٨.

(٥) ابن شداد: النوادر، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٦) نفسه، ص٢٢٩-٢٣٠؛ هاملتون جب: صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الاسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣م، ص١٧١.

(٧) نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي، ص٢٩.

(٨) اثار الأول في ترتيب الأول، ص١٤٧؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٤٦.

(٩) اقتال: القتِل: المثل والنظير في قتال غيره، والقتل: الخبير بالشيء. ينظر: العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٤٤٢، هامش رقم(١).

(١٠) اجادل: جمع أجدل وهو الصقر: العماد الاصفهاني، نفسه، ص٤٤٢، هامش رقم(٢)؛ نسرين محمود علي: الأمن في مصر وبلاد الشام في عهد الناصر صلاح الدين، ص٦٣، هامش رقم(٧).

(١١) محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٢-٦٣.

(١٢) المقريزي: الخطط، مطبعة أوفسيت، ٩٤/١.

(١٣) الصقالبة: وهم جنس من الخلق يجلب منهم الخدام. ابن خلكان: وفيات، ٢٧١/١.

(١٤) المصامدة: وهي قبيلة مشهورة من البربر تقطن بجبال درن المتآخمة لمراكش. ناصر خسرو: سفرنامة، ص٩٤.

(١٥) ابن اياس: بدائع الزهور، ٧٠/١؛ أمين الخولي: الجندية والسلم، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٥؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٦٧.

(١٦) ابن الاثير: الكامل، طبعة دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ٣٠٤/٧.

(١٧) نفسه، ٣٠٤/٧.

(١٨) نفسه، ٣٠٤/٧؛ ابن خلكان: وفيات، ١٧٠/٧-١٧١.

(١٩) ابوشامة: الروضتين، ٤٣٨/١؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج١، ق٢/٥٦.

(٢٠) ابن خلكان: المصدر السابق، ١٧٠/٧-١٧١.

(٢١) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٦١/٧.

(٢٢) نفسه، ٣٧٨/٧؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٩٧.

(٢٣) أبوشامة: الروضتين، ٢٠٩/٢؛ ابن خلكان: وفيات، ١٨٠/١.

(٢٤) الروادية: وهي بطن من بطون القبيلة الهذبانية الكردية تقطن أنحاء اذربيجان وأربيل والجزيرة الفراتية. ينظر: ياقوت: البلدان، ١٥١/٣؛ ابن الاثير: الباهر، ص١١٩؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٣٢١/١.

(٢٥) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٨، ق١/٤٢٠؛ ابوشامة: الروضتين، ٢٠٩/٢.

(٢٦) العماد الاصفهاني: الفتح، ص٤٤٢؛ ابن الاثير: الكامل، ٣٧٨/٧.

(٢٧) الهكارية: نسبة إلى قبيلة الهكارية الكردية التي كانت تمتلك عدداً من المعاقل والحصون والقرى في بلاد الموصل من جهتها الشرقية. ابن خلكان: المصدر السابق، ٣٤٥/٣.

(٢٨) الهكارية نسبة إلى منطقة هكاري الواقعة في القسم الشرقي من بلاد اناضول تركيا. ينظر: محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٩.

(٢٩) الزرزارية: بطن من بطون القبيلة الهذبانية الكردية، وحددت مناطق سكناهم في جبل جنجرين وملازگرد وفي سنجار. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ١٣٥٩هـ، ابوالفداء: المختصر، ١٧٨/٢-١٧٩.

(٣٠) المهرانية: تعد احدى بطون القبيلة الهذبانية الكردية كانت تقطن في منطقة المروج جنوب الموصل. ينظر: ابن المستوفي: تاريخ اربل، تحقيق: سامي الصقار، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م، ٣٦٨/٢-٣٦٩؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ٢٤٢/٣.

(٣١) ابن شداد: المصدر السابق، ص١١٠؛ ابن واصل: مفرج، ٢٩٥/٢.

(٣٢) ابوشامة: المصدر السابق، ٤٢٥/١؛ المقريزي: البيان والاعراب، ص٢٢.

(٣٣) محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٣.

(٣٤) الحنبلي: شفاء القلوب، ص١٦٠.

(٣٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٦٥/٧؛ ابن خلدون: العبر، ٦٢٤/٩.

(٣٦) المقريزي: السلوك، ١٦١/١؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦١.

(٣٧) البنداري: سنا البرق، ١٢٥/١؛ ابن واصل: مفرج، ٢٢٤/١-٢٢٥؛ القلقشندي: نهاية الارب في معرفة انساب العرب، تحقيق: علي الخاقاني، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٨م، ص١٣٤.

(٣٨) البنداري: المصدر السابق، ١٢٥/١؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٣٥/٧-٣٣٦.

(٣٩) عبدالله سعيد محمد الغامدي: صلاح الدين والصليبيون، مكة المكرمة، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٤٥.

(٤٠) نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري، ص٣٤.

(٤١) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٨، ق٢٩٣/١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٧٢/١.

(٤٢) صالح بن يحيى: كتاب تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٩م، ص٩٠؛ ابراهيم طرخان: النظم الاقطاعية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٣٢؛ نسرين محمود علي: الأمن في مصر وبلاد الشام، ص٧٥.

(٤٣) ابن شداد: النوادر، ص٢٢٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٩٨.

(٤٤) شاكر مصطفى: صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٨م، ص٣٦٦.

(٤٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣١٥/٧؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٧١؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٧٧.

(٤٦) الكامل، ٣١٥/٧.

(٤٧) مرآة الزمان، ٣١٧/٣؛ السيد الباز العريني: الشرق الأدنى، ص١٦٠.

(٤٨) ابن شداد: المصدر السابق، ص٢١٧؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٨، ق٤١٦/١؛ ابوشامة: الروضتين، ١٩٩/٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٧٠/٤؛ المقريزي: الخطط، ٣/٣ و ٢٩/٤؛ قدري قلعجي: صلاح الدين، ص٢٠٣.

(٤٩) المقريزي: السلوك، ٩٤/١؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٥.

(٥٠) المقريزي: المقفى، ٣٩٥/٢-٣٩٦؛ ابن حجر: رفع الأصر، ٢٠١/١.

(٥١) النويري: نهاية الارب، ٢٧٥/٢٨؛ المقريزي: المقفى، ٣٩٦/٢؛ الخطط، ١٣١/١.

(٥٢) بدر الجمالي: مملوك ارمني من أصل نصراني في اغلب الظن، كان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار فعرف لذلك ببدر الجمالي. وبدا حياته والياً على دمشق سنة(٤٥٥هـ/١٠٦٣م). ينظر: ابن الصيرفي: الاشارة إلى من نال الوزارة، ص٩٤-٩٧؛ ابن القلانسي: ذيل، ص١٢٧-١٢٨؛ ابن ظافر: أخبار الدولة، ص٨١؛ ابن الاثير: الكامل، ٢٣٥/١٠-٢٣٦؛ ابن ميسر: أخبار، ص٢٨-٣٠؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ٤٤٨/٢-٤٥٠؛ النويري: نهاية الارب، ٢٣٤/٢٨-٢٣٦؛ الدواداري: كنز الدرر، ٤٣٥/٩؛ الصفدي: الوافي، ٩٥/١؛ المقريزي: المقفى، ٣٩٤/٢-٤٠٢؛ الخطط، ٣٨١/١-٣٨٢؛ الاتعاظ، ٣٢٩/٢؛ ابن حجر: رفع الأصر، ١٣٠/١-١٣٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ٢٠٤/٢؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص٢٠٩.

(٥٣) المقريزي: المقفى، ٣٩٥/٢-٣٩٦.

(٥٤) النويري: المصدر السابق، ٢٧٥/٢٨؛ المقريزي: المقفى، ٣٩٦/٢؛ الخطط، ٣٨٢/١.

(٥٥) ابن ميسر: أخبار، ص٥٤.

(٥٦) ابن واصل: مفرج، ٩٨/٢-٩٩؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٨٥.

(٥٧) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الاسلامية في المشرق، ص٧٢-٧٣، هامش رقم(٤).

(٥٨) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٤٤.

(٥٩) نفسه، ص٤٤٨.

(٦٠) المقريزي: الخطط، ٣١٥/١.

(٦١) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٨٦، هامش رقم(٤)؛
Hitti Philip: History of the Arabs, p.355.

(٦٢) احمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص٢١٧؛ نسرين محمود علي: الأمن في مصر والشام، ص١١٩.

(٦٣) ابن خلدون: العبر(تاريخ ابن خلدون)، ٢٤٣/١؛ حسن ابراهيم: النظم الاسلامية، القاهرة، ١٩٣٩م، ص١٤٧.

(٦٤) ابن الربيع: سلوك الممالك في تدبير الممالك، تحقيق: ناجي التكريتي، بيروت، ١٩٨٧م، ص٧٤.

(٦٥) ابـن الجـوزي: المنـتظم، مطبعـة دار المعـارف العثمانيـة، الهنـد، ١٣٥٧هـ، ٨٤/٩؛ أبوزيد شلبي: تاريخ الحضارة الاسلامية، مطبعة الاستقلال الكبرى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٠٢.

(٦٦) ابن الجوزي: المصدر السابق، ٨٤/٩؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٢٠.

(٦٧) ابن أبي الربيع: سلوك، ص١٦٠؛ ادريس سليمان محمد: نظام الحجابة في الدولة العربية الاسلامية، دراسة مقارنة، ٤١-٤٤٧هـ، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٩م، ص٧٥.

(٦٨) ابن الاثير: الكامل، ٢٥٣/٧؛ ابوشامة: الروضتين، ٢٣٩/١؛ ابن تغري: النجوم، ٢٧/٦.

(٦٩) ابن الأثير: المصدر السابق، ٢٦١/٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص٣٦٧.

(٧٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٦١/٧؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٢١.

(٧١) الصابي: رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤م، ص١٦؛ أحمد عبدالعزيز محمود: المرجع السابق، ص٢٢٠.

(٧٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٦٦/٧.

(٧٣) ابن واصل: مفرج، ٢٥٠/٣؛ الحنبلي: شفاء، ص٥٦، هامش رقم(٣).

(٧٤) ابن واصل: المصدر السابق، ص٢٠٥؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص٦٥.

(٧٥) ادريس سليمان: نظام الحجابة، ص٨٦.

(٧٦) نفسه، ص٨٦؛ أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن، ص٢٢٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٢٣.

(٧٧) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٦م، ج٢، ق٧٦/١؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٢٥.

(٧٨) السبكي: طبقات، ٣٠٩/٤؛ الذهبي: العبر، ٢٣٥/٤.

(٧٩) ابن شداد: النوادر، ص١٩٧-١٩٨؛ اليافعي: مرآة، ٣١٤/٣.

(٨٠) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٩٧-١٩٨.

(٨١) أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن، ص٢٢٦؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٢٤.

(٨٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٠٣/٧-٢٠٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ١٧٤/١-١٧٥؛ ابن كثير: البداية، ٢٥٧/١٢.

(٨٣) ابن الاثير: المصدر السابق، ٧/٢٣٩-٢٥٣.
(٨٤) نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٣٦.
(٨٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ١٩٣/٤.
(٨٦) الصابئ: ابوالحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم: الهفوات النادرة، تحقيق: د.صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٧م، ص١٢٤؛ د.أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن، ٢٢٤.
(٨٧) وهم ثلاثة نفر أكبرهم يعبر عنه بنقيب النقباء. القلقشندي: صبح، ١٩٣/٤.
(٨٨) المصدر نفسه، ٢٢/٤.
(٨٩) هاملتون جب: صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الاسلامي، حررها يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣م، ص١٥٥؛ كازنوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٣٠؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٢٩.
(٩٠) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٨، ق٤٢٨/١؛ الدواداري: كنز الدرر، ٢٠٠/٧.
(٩١) القلقشندي: صبح، ٥٢/٤.
(٩٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٥٣/٧، ٢٦١؛ الحنبلي: شفاء، ص٩١-٩٢؛ قدر قلعجي: صلاح الدين، ص٥٩؛
Cahen: Lasyris du Norda lepogue des croisades, pp.428-429.
(٩٣) ابن الاثير: المصدر السابق، ص٣٥١.
(٩٤) تل الخروبة: حصن بسواحل الشام مشرف على عكا. ياقوت: البلدان، ٣٦٢/٢.
(٩٥) تل كيسان: موقع في مرج عكا من سواحل الشام. ياقوت: نفسه، ٤٣/٢.
(٩٦) شفرعم: قرية كبيرة بينها وبين عكا ثلاثة أيام. نفسه، ٣٥٣/٣؛ ينظر: ابن الاثير: المصدر السابق، ص٣٧٠/٧-٣٨٤.
(٩٧) الرطل: يساوي اربعمائة وثمانية غرامات بمقاييسنا العصرية، فالرطل يساوي ستمائة درهم، والدرهم يساوي أربعمائة وستين فلساً. القلقشندي: المصدر السابق، ١٨٧/٤-١٨٨؛ د.أحمد عبدالعزيز محمود: الامارة الهذبانية الكردية، ص١٤٩.
(٩٨) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٨، ق٤٠٩/١.
(٩٩) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٣٢/٢؛ الحنبلي: شفاء، ص١٧١.

(١٠٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ٧/٣٧٠-٣٨٤؛ الباهر، ص٨١، هامش رقم(٢)؛ القلقشندي: المصدر السابق، ٤/٢ و ٥/٤٥٩. ويبدو ان حسن محمد الشماع محقق كتاب تاريخ ابن الفرات، يرى ان هذا التعريف غير دقيق، فإن كلمة جاندار، فارسية مركبة من(جان) أي روح و(دار) أي مالك معناها مركبة، أي الحافظ أو المدافع عن حياة السلطان. ويلازمه ويقوم بتمشية أموره اليومية. يراجع ابن الفرات: تاريخ، مج٤، ج١٨/٢، هامش رقم(٦٠). وأرى كباحث ان كلمة جاندار هي كردية المنشأ والأصل، وجان(گيان) هي كلمة كردية معناها روح، ودار تعني مسؤول، ومدافع عن السلطان.

(١٠١) ابن الاثير: الباهر، ص٨٢، هامش رقم(٢).

(١٠٢) ابن الفرات: المصدر السابق، مج٤، ج١٨/٢، هامش رقم(٦٠)، نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٣١.

(١٠٣) معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ المقصورة. ينظر: الثعالبي: لطائف المعارف، تحقيق: ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٥.

(١٠٤) مهدي قادر خضر: الأمن في مصر في العصر الأيوبي، ص٧٤.

(١٠٥) القلقشندي: صبح، ٦/٤.

(١٠٦) محمد عبدالستار عثمان: المدينة الاسلامية، مراكز الكتب الثقافية، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٨م، ص٢٤٠.

(١٠٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، دار بيروت، ١٩٩٠م، ٢/١٥٥.

(١٠٨) ابن تغري بردي: النجوم، ٣٦/٢.

(١٠٩) ناصر خسرو: سفرنامة، ص٦٤، ١٠٨.

(١١٠) الدواداري: كنز، ١٧١/٧.

(١١١) العمري: المصطلح الشريف، ص١٤٣.

(١١٢) الحنبلي: شفاء، ص٤٨-٤٩.

(١١٣) ابن خلكان: وفيات، ١٧٣/٧.

(١١٤) أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد، ص٢٣٢.

(١١٥) عادل زيتون: تاريخ المماليك، دمشق، ١٩٩١م، ص١٤٠؛ أحمد عبدالعزيز: المرجع السابق، ص٢٣٢.

(١١٦) أبوالفداء: تقويم البلدان، ص٢٩٣؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٣٦.

(١١٧) كازنوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٧٠.

(١١٨) ابـن الاثـير: المـصدر الـسابق، ٢١٧/٧؛ ابـن المـستوفي: تـاريخ إربـل، ٣٧٠/٢-٣٧١؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٤٩٤/١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ٩٥/٢.

(١١٩) أحمد عبدالعزيز محمود: المرجع السابق، ص١٥٣.

(١٢٠) محمـد سـيد الكـيلانـي: الحـروب الـصليبية وأثرهـا في الأدب العربـي في مـصر والشام، د.ت، ص٤٣.

(١٢١) العمـاد الاصـفهاني: الـبرق، ١١٠/٣؛ مجهـول: مخطوطـة تاريخيـة عـن الدولـة الأيوبيـة ورقة(١٧) نسخة مصورة عن نسخة مكتبـة الأوقـاف بالموصل بـرقم ١٧/١ زيواني.

(١٢٢) ابـن واصـل: مفـرج، ١٧٩/٢؛ الـسيد البـاز العـريني: الـشرق الأدنـى في العـصور الوسطى، ص١٢١، ١١٤.

(١٢٣) ابن الاثـير: المـصدر الـسابق، ٤٠٥/٧؛ اليـافع: مـرآة، ٣٤٢/٣؛ الغـساني: العـسجد، ٢٢١/٣-٢٢٢.

(١٢٤) ابن الاثير: المصدر السابق، ٤٠٦/٧؛ الغساني: العسجد، ٢٢١/٢-٢٢٢.

(١٢٥) المعرة: مدينة مشهورة من اعمال حمص بـين حلـب وحمـاه. يـاقوت: البلـدان، ١٥٦/٥.

(١٢٦) منبج: وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة بينها وبـين حلب عـشرة فراسخ، أي حوالي(٦٠)كلم. ينظر: ياقوت: نفسه، ١٥٦/٥.

(١٢٧) قلعة النجم: وهي قلعة حصينة، مطلة على نهـر الفـرات فـوق الجبـل بينهـا وبـين منـبج أربعـة فراسـخ أي (٢٤)كلـم تقريبـاً. يـاقوت: نفـسه، ٣٩١/٤؛ الغساني: العسجد، ٢٢١/٢-٢٢٢.

(١٢٨) خـلاط: البلـدة العـامرة المـشهورة وهـي قـصبة في أرمينيـة الوسـطى. يـاقوت: المصدر السابق، ٣٨١/٢.

(١٢٩) ابن واصل: المصدر السابق، ٣٧٥/٢-٣٨٧؛ اليافعي: مـرآة الجنان، ٣٤٢/٣.

(١٣٠) الدواداري: كنز، ١٢٣/٧-١٢٥؛ ابن الفرات: المصدر السابق، مـج٤، ج١١٢/٢، ١١٣، ١١٦، ١١٨.

(١٣١) ابن واصل: المصدر السابق، ١٢/٣، ٤٦.

(١٣٢) ابن واصل الحموي: تجريد الأغاني، تحقيق: طه حسن وابراهيم الابياري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨م، ق١، ج١/٣٩٤.

(١٣٣) ابن واصل: مفرج، ١٧١/٢؛ الباز العريني: الشرق الأدنى، ص١١٤.

(١٣٤) ابن الاثير: الكامل، ٢٣٦/٧.

(١٣٥) نفسه، ٢٥٢/٧-٢٥٣؛ ابن شداد: النوادر، ص٥٢؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ١٢٨/٢.

(١٣٦) ابن شداد: المصدر السابق، ص٥٢.

(١٣٧) السيوطي: حسن المحاضرة، ١٧٨/٢. وكان نائب السلطان الممنوحة له صلاحيات واسعة يستثنى منها اسناد ولاية المناصب الجليلة. وكان يدعى كافل الممالك أو السلطان الثاني. ينظر: حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية، ١٩٦٢م، ص١٦٨؛ محمود ياسين: الايوبيون، ص٣٢٢-٣٢٣.

(١٣٨) سوادي عبد محمد: امارة الموصل في عهد بدرالدين لؤلؤ، بغداد، ١٩٧١م، ص١٧٥.

(١٣٩) ابن الاثير: الكامل، ٣٠٥/٧؛ اليافعي: مرآة، ٣٢٨/٣.

(١٤٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٠٥/٧؛ اليافعي: المصدر السابق، ٣٢٨/٣.

(١٤١) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥٢-١٥٣؛ ابوشامة: الروضتين، ١٨٦/٢؛ ابن كثير: البداية، ٣٩٩/٧.

(١٤٢) ابن الاثير: الكامل، ٣٩٩/٧.

(١٤٣) ابن واصل الحموي: تجريد الأغاني، ق١، ج١/٣٩٤؛ سوادي عبد محمد: امارة الموصل في عهد بدرالدين لؤلؤ، ص١٧٥؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٤٧.

(١٤٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ١٧٩/٢؛ حسن ابراهيم: النظم الاسلامية، ص١٦٨.

(١٤٥) الصابيء: رسوم دار الخلافة، ص١٢٩؛ محمود ياسين: الايوبيون، ص٣٢٤؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٤٨.

(١٤٦) سبط ابن الجوزي: مرآة، ٤١٤/٨-٤١٥؛ الحموي: التاريخ المنصوري، ص٢١٠؛ محمود ياسين: الايوبيون، ص٣٢٤.

(١٤٧) الحموي: التاريخ المنصوري، ص٢٠٢؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٢٤.

(١٤٨) الحموي: نفسه، ؛ محمود ياسين: نفسه.

(١٤٩) ابن العديم: زبدة الحلب، ١١٣/٣؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٢٥.
(١٥٠) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٤٩-١٥٠.
(١٥١) صالح أحمد العلي: ادارة بغداد ومركزها، مقال مستل من مجلة سومر، بغداد، ١٩٦٧م، مج(٣٣)، ص١٣٩؛ أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن، ص١٦٧ ومابعدها.
(١٥٢) صالح أحمد العلي: المرجع السابق، ص١٣٩؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٥٠.
(١٥٣) عبدالرزاق الانباري: منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية منذ نشأتها حتى نهاية العصر السلجوقي، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٣٩؛ عبدالعزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي، بيروت، ١٩٦٠م، ص٥٨.
(١٥٤) وكيع: أخبار القضاة، بيروت، د.ت، ٣٥٢/٣؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٥١.
(١٥٥) ابن واصل: مفرج، ١٩٨/١؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ١٩٢/٤-١٩٣؛ الحنبلي: شفاء، ص٢١٠.
(١٥٦) ابن واصل: المصدر السابق، ١٩٨/١؛ المقريزي: الخطط، ١٩٢/٤-١٩٣.
(١٥٧) ابن واصل: المصدر السابق، ١٩٨/١؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص٢١٠.
(١٥٨) ابن تغري بردي: النجوم، ١٩٦/٥؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص٤٧.
(١٥٩) ابن خلكان: المصدر السابق، ٢٢٩/٤-٢٣٦؛ ابن شداد: الاعلاق، ق٧٧/٣؛ الذهبي: العبر، ٢٠٥/٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى، دار الاحياء العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، ٦٩/٤؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ٨٩/٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات، ٣٣٧/٤.
(١٦٠) العماد الاصفهاني: البرق، ٥٠/٥-٥١.
(١٦١) سبط ابن الجوزي: مرآة، ٤١٣/٨؛ ابن الفرات: تاريخ، مج٢، ج٢٤٩/٢؛ محمود ياسين: الايوبيون، ص٣٤٣.
(١٦٢) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ٤١٣/٨؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٤٣.
(١٦٣) ابن خلكان: المصدر السابق، ٨٧/٧-٨٨.
(١٦٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٣-١٤.

(١٦٥) مـسكويه: تجـارب، ٥٢٧/٣-٥٢٨؛ حمـدي عبـدالمنعم: ديـوان المظـالم، نـشأته وتطوره واختصاصه مقارناً بالنظم القضائية الحديثة، دار الشروق، بـيروت، ١٩٨٣م، ص٧٩-٨٠؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٦٠-١٦١.

(١٦٦) ابن تغري: النجوم، دار الكتب العربية، القاهرة، ١٩٣٦م، ٥/٦؛ سلام حسن طـه: جزيرة ابن عمـر في القـرنين الـسادس والـسابع الهجـريين، رسـالة ماجـستير، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٨٩م، ص٦٠.

(١٦٧) نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٦١؛ اسماعيل شكر رسول: الامارة الشدادية الكرديـة في بـلاد آران، مؤسـسة موكريـاني للطباعـة والنـشر، أربيـل، ٢٠٠٠م، ص١١٨.

(١٦٨) ابـن خلـدون: العـبر، ٢٤٠/٥؛ ولمزيـد مـن المعلومـات يراجـع: محمـد التـونجي: المعجم الذهبي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩م، ص٢٦٢.

(١٦٩) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٩٥-٩٦.

(١٧٠) ابن الاثير: الكامل، ٢٠٧/٧، ٣٠٣؛ ابن خلدون: العبر، ٥٧٩/٩.

(١٧١) المقريزي: الخطط، ٤٠٠/١.

(١٧٢) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٢٩٨.

(١٧٣) ابوشامة: الروضتين، ٤٧/١، ٧١؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٧٦.

(١٧٤) القفطي: ابناء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق: محمـد أبـي الفـضل، دارالكتـب المصرية، القاهرة، من سنة(١٩٥٠-١٩٥٥م، ١٩١/٣-١٩٢؛ ابن كثير: البداية، ١٣٠/١٣؛ الـسيوطي: بغيـة الوعـاة، القـاهرة، ١٩٦٤م، ١٨٠/١؛ محمـود ياسـين: المرجـع السابق، ص٢٣٦؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٧٠.

(١٧٥) ابـن خلكـان: وفيـات، ٢١٠/١-٢١٣؛ الـصفدي: الـوافي، ١٦٤/٤؛ ابـن تغـري: النجـوم، ١٣٦/٦، ١٣٩؛ الذهبي: العبر، ٢٧٤/٤؛ ابن العماد: الشذرات، ٢٠٤/٤.

(١٧٦) القفطي: المصدر السابق، ١٩١/٣-١٩٣؛ السيوطي: بغية، ١٨٠/١.

(١٧٧) القلقـشندي: صـبح، ٣٠/٤؛ حـسن الباشـا: الالقـاب، ١٠٨٤/٣-١٠٨٥؛ سـعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة، الطبعـة الثانيـة، القـاهرة، ١٩٧٦م، ص٤٧؛ د.نـافع توفيـق العبـود: الدولـة الخوارزميـة نـشأتها، علاقتهـا مـع الدولـة الاسـلامية، نظمهـا العـسكرية والاداريـة(٤٩٠-٦٢٨هـ/١٠٩٧-١٢٣١م)، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٦٧م.

(١٧٨) ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٠١؛ السيوطي: بغية، ١٨٠/١؛ محسن محمد حسين: اربيل في العهد الاتابكي، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦م، ص٣٢٠.

(١٧٩) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٥م، ص١٩٧.

(١٨٠) ابن خلكان: المصدر السابق، ١٥٠/٤؛ عباس اقبال: وزارت در عهد السلاطين برزك سلجوقي، تحقيق: محمد تقي دانش ويحيى زكار، انتشارات، دانشاه، طهران، ١٣٣٨هـ/١٩١٩، ص٤.

(١٨١) عباس اقبال: المصدر نفسه، ص٢٦؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مطبعة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٩٥٤-١٩٦١م، ٤٢٨/١؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٣٧؛ أحمد عبدالعزيز محمود: الامارة الهذبانية الكردية، ص١٣٤.

(١٨٢) حسام الدين السامرائي: المؤسسات الادارية في الدولة العباسية خلال فترة(٢٤٧-٣٣٤هـ/٨٦١-٩٤٥م)، مكتبة دار الفتح، دمشق، ١٩٧١م.

(١٨٣) عبدالنعيم محمد حسنين: سلاجقة ايران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٦٢.

(١٨٤) حسام الدين علي غالب النقشبندي: اذربيجان(٤٢٠-٦٥٤هـ/١٠٢٩-١٢٥٦م) دراسة في أحوالها السياسية والحضارية، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٤م، ص٤٠٢؛ د.أحمد عبدالعزيز: المرجع السابق، ص١٣٢.

(١٨٥) عبدالنعيم محمد حسنين: المرجع السابق، ص١٦٢؛ سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي، ترجمة: رياض رأفت، مكتبة المملكة العربية، القاهرة، ١٩٣٨م، ص٢٥٨.

(١٨٦) ابن خلدون: المقدمة، ص٢١٥؛ عباس اقبال: وزارت، ص٣٠؛ موسى مصطفى ابراهيم: سنجار، ٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦١م) دراسة في تاريخها السياسي والحضاري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامع صلاح الدين، ١٩٨٩م، ص١٦١.

(١٨٧) الحنبلي: شفاء، ص٩٨.

(١٨٨) المزة: قرية كبيرة في وسط بساتين دمشق. ياقوت: البلدان، ١٢٢/٥.

(١٨٩) القلقـشندي: صبح، ١٤٠/٣، ١٤١، ٥١٩؛ عبـدالرحمن زكـي: الـسلاح في الاسـلام، طبعة المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥١م، ص١٨؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٧٢.

(١٩٠) الحنبلي: المصدر السابق، ص٩٨.

(١٩١) القلقشندي: المصدرالسابق، ٣٣/٤.

(١٩٢) بـدر محمـد فهد: تـاريخ العـراق في العصر العباسي الأخير، مطبعـة الارشاد، بغداد، ١٩٧٣م، ص١٤٩؛ د.محمود ياسين: الأيوبيون، ص٧٣٨.

(١٩٣) ولـيم صـوري: الحـروب الـصليبية، مطـابع الهيئـة المـصرية، القـاهرة، ١٩٩٥م، ١٣٠/٣-١٣١؛ مهدي قادر: الأمن في مصر، ص٢٥.

(١٩٤) ابن قاضي شبهة: الكواكب الدرية، ص١٤٧.

(١٩٥) كريزويل: وصف قلعة الجبل، الهيئة العامة المصرية للكتـاب، القـاهرة، ١٩٧٤م، ص٣٢؛ كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٣٢؛ كارل بروكلمان: تـاريخ الشعوب الاسلامية، ص٣٦٠.

(١٩٦) أبوشـامة: الروضـتين، ٢٠٨/١-٢٠٩؛ ابـن واصـل: مفـرج، ٢٢٩/١؛ ابـن الـوردي: تتمة، ١٢٥/٢؛

Casanova: Les Derniers, pp.415-445.

(١٩٧) ابن العـبري: تـاريخ مختـصر الـدول، ص٢١٨-٢١٩؛ ابـن واصـل: المـصدر الـسابق، ٢٣٧/١-٢٣٨؛ أحمد عبدالجواد: صلاح الـدين الأيـوبي، مؤسـسة الخـانجي، د.ت، ص٨٨.

(١٩٨) ابن تغري بردي: النجوم، ٣١/٥-٣٢؛ ارنست باركر: الحروب الصليبية، ص١٧٣.

(٢٠٠) محمود ياسين: الايوبيون، ص٧١.

(٢٠١) ابـن تغـري بـردي: المـصدر الـسابق، ٣٤٧/٥؛ عبـدالعزيز سـيد الاهـل: المرجـع السابق، ص٥٠-٥١.

(٢٠٢) الرها: مدينـة بالجزيـرة بين الموصل والشام. ياقوت: البلدان، ١٠٦/٣.

(٢٠٣) الرقة: وهي مدينة مشهورة علـى الفـرات في سـوريا. يـاقوت: المـصدر الـسابق، ٢١٦/٣.

(٢٠٤) حران: وهي مدينة على طريق الموصل والشام والروم. ياقوت: نفسه، ٢٣٥/٢.

(٢٠٥) نصيبين: وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام. ياقوت: البلدان، ٢٨٨/٥.

(٢٠٦) حماه: مدينة يجري أمامها نهر العاصي بينها وبين حمص يوم واحد. ياقوت: نفسه، ٣٠٠/٢.

(٢٠٧) جبلة: الموضع الذي كانت فيه الوقعة المشهورة بين نجد الشريف والشرف. نفسه، ١٠٥/٢.

(٢٠٨) صفد: مدينة في جبال المطلة على حمص بالشام. نفسه، ٤٣٦/٣.

(٢٠٩) صهيون: موضع قريب من بيت المقدس. نفسه، ٤٣٦/٣.

(٢١٠) عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وانطاكية، نفسه، ١٧٦/٤.

(٢١١) جيمس رستون: مقاتلون في سبيل الله، صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٢م، ص٤٧.

(٢١٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٨٧/٧-٢٩٠؛ ابن واصل: مفرج، ج١١٥/٢-١١٧-١١٨.

(٢١٣) ابن واصل: المصدر السابق، ١١٥/٢-١١٧؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٧٨.

(٢١٤) ابن الاثير: الكامل، ٢٨٧/٧-٢٩٠؛ ارنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهر، ١٩٦٠م، ص١٧٢؛
Baldewin: The crusdes, p.453.

(٢١٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٨٨/٧-٢٩٠.

(٢١٦) آمد: مدينة من اعظم مدن دياربكر وأجلها واشهرها قدراً وذكراً. ياقوت: البلدان، ٥٦/١.

(٢١٧) حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية. ياقوت: البلدان، ٢٠٥/٢.

(٢١٨) طرابلس: مدينة على شاطيء البحر المتوسط. ياقوت: نفسه، ٢٥/٤.

(٢١٩) بيروت: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام(المتوسط) من اعمال دمشق. ياقوت: نفسه، ٥٢٥/١؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ٣١٩/٧ ومابعدها؛ ابن خلدون: العبر، ٥٧٩/٦.

(٢٢٠) محمود ياسين: الايوبيون، ص٧١ومابعدها؛ عبدالعزيز سيد الأهل: أيام، ص٨٨.

(٢٢١) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٨١/٧؛ ارنست باركر: الحروب، ص١٧٤-١٧٥؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص١١٦؛
Baldewin: Ibid, p.453.

(٢٢٢) ابن واصل: المصدر السابق، ١١٥/٢-١١٨؛
Wiet. G: LEGEPT Arab, Historie detention egyptienne paris, 1937, p.319.

(٢٢٣) ابن واصل: المصدر السابق، ١٢٠/٢-١٢٢.

(٢٢٤) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ١٦٥/٥؛ ابن شداد: النوادر، ص٥٨-٦٠؛ ارنست باركر: المرجع السابق، ص١٧٣.

(٢٢٥) ابن الاثير: المصدرالسابق، ٢٨٨/٧-٢٨٩؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٥٧.

(٢٢٦) نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٨.

(٢٢٧) ابن الاثير: المصدر السابق، ٤٠٣/٧-٤٠٤؛ ابن خلدون: العبر، ٣٧٤/٩-٣٧٥؛
Stevenson. W.B: The crusaders in the East combridge 1907, p.230.

(٢٢٨) ابن خلدون: المصدر السابق، ٧١٢/٩؛ بيتر فارب: بنو الانسان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٠م، ص١٣٩.

(٢٢٩) ابن أبي الربيع: السلوك المالك، ٧٦٤/٢.

(٢٣٠) نظير سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص٢٠؛ بيتر فاب: الانسان، ص١٣٩؛ لمزيد من التفاصيل يراجع: نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٩.

(٢٣١) نظير سعداوي: المرجع السابق، ص١٠٦؛ كازانوفا: تاريخ ووصف، ص٤٤؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٦٣٢/٣.

(٢٣٢) المقريزي: البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق: د.عبدالحميد عابدين، الناشر عالم الكتب، ١٩٦١م، ص٢٦. لمزيد من التفاصيل يراجع: الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٣٦؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٦؛ مهدي قادر: الأمن في مصر، ص٤٣؛ محمد عبدالستار: المدينة الاسلامية، ص١٨؛ كازانوفا: تاريخ ووصف القلعة، ص٩٠.

(٢٣٣) القزويني: اثار البلاد، ص٧-٨؛ ابن الارزق الفارقي: بدائع، ص٧٦٤. ولمزيد من المعلومات يراجع: ابن جبير: رحلة، ص١٠٦؛ ياقوت: البلدان، ٤١٣/٤، ٢٨٥/٢-

٢٨٦؛ نظير سعداوي: التاريخ، ص٩٢؛ قدري قلعجي: أيام، ص٢٧٦؛ محمد عبدالستار: المدينة، ص٣٠٠؛
Dozy. R: Supplement aux dictionaries Arabs, librairie, du libnan beyrouth, 1968l;
شاكر مصطفى: المدن في الاسلام، ٤٣٦/١-٤٣٧؛ علي بيومي: قيام الدولة الايوبية في مصر، القاهرة، ١٩٥٢م، ص٢٣٧.

(٢٣٤) المقريزي: الخطط، ٢١٥/١؛ السلوك لمعرفة الدول، ١٨١/١، ١٨٦. ويراجع: القزويني: المصدر السابق، ص١٨٣، ١٨٩؛ ابن واصل: مفرج، ١٩٩/١؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص١٩٥؛ الأوسي: تفريج الكروب في تدبير الحروب، تحقيق: سكانلون، مطبعة المعارف، منشورات الجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٦١م، ص٦٠؛ أحمد عبدالجواد: صلاح الدين، ص٥٣؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٥٤-٥٧.

(٢٣٥) ابن خلكان: وفيات، ٩١/٤؛ القلقشندي: صبح، ٢٤/٤؛ المقريزي: السلوك، ١١١/١؛ الخطط، ٢١٥/١. ويراجع: شاكر مصطفى: المرجع السابق، ٥٠٧/٢-٥٠٨؛ محمد عبدالستار: المرجع السابق، ص١٩٥؛ محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص٣٣٧، عبدالرحمن زكي: القاهرة تاريخها واثارها، ص١٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٥٧-٦٠.

(٢٣٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبي الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ١٦٠٧/٣؛ ابن تيمية: السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، دار الكتاب العربية، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٧٩؛ خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، ص٧١. ويراجع لمزيد من المعلومات: الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، تحقيق: مطبع مرابط، جامعة القاهرة، ١٩٦٩م، ص٣٢؛ جهادية القرهغولي: العقلية العربية، ص١٧٢؛ بسام العسلي: فن الحرب، ٣١٠/١؛ نهاد عباس: تدابير الأمن العسكري في صدر الاسلام، ص٤٠؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٦٠-٦٢.

(٢٣٧) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص٣٢؛ جهادية القرهغولي: العقلية العربية، ص١٧٢.

(٢٣٨) ياقوت: البلدان، ١٢٨/٥-١٢٩؛ خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر الاموي، بغداد، ١٩٨٦م، ص٤٠؛ جهادية القرهغولي: المرجع السابق، ص١٧١؛ احمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد، ص١٩٧؛ بسام العسلي: فن الحرب، ٣١٠/١؛ نهاد عباس: تدابير الأمن العسكري، ص٤٠.

(٢٣٩) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٣٦؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٦.

(٢٤٠) صيدا: وهي مدينة على ساحل بحر الشام(المتوسط) من أعمال دمشق شرقي صور. ياقوت: المصدر السابق، ٤٣٧/٣؛ ويراجع: ناصر خسرو: سفرنامة، ص١٤-١٥.

(٢٤١) نسرين محمود علي: الأمن في مصر وبلاد الشام في عهد الناصر صلاح الدين، ص٤٣.

(٢٤٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٩٧.

(٢٤٣) نسرين محمود: المرجع السابق، ص٤٣.

(٢٤٤) القزويني: اثار، ص٧-٨؛ محمد عبدالستار: المدينة، ص١٣٥.

(٢٤٥) ابن أبي الربيع: سلوك، ص٢٩-٣٠؛ ابن جبير: رحلة، ص١٠٦؛ الباز العريني: الشرق الأدنى، ص٢١١-٢١٢.

(٢٤٦) قوص: مدينة كبيرة كانت قصبة في صعيد مصر. ياقوت: معجم البلدان، ٤١٣/٤.

(٢٤٧) عيذاب: بلدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر). ياقوت: نفسه، ١٨٥/٢؛ ويراجع: المقدسي: المصدر السابق، ص١٩٧؛ ناصر خسرو: المصدر السابق، ص١١-١٥؛ ابن جبير: المصدر السابق، ص٨، ١٨٢، ٢١٢؛ القزويني: المصدر السابق، ص١٨٣-١٨٩.

(٢٤٨) ابن الازرق الفارقي: بدائع، ص٧٦٤.

(٢٤٩) المقريزي: السلوك، ٦٣/١؛ الأوسي: تفريج الكروب في تدبير الحروب، ص٦٠؛ خالد جاسم: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، ص٥٨.

(٢٥٠) المقريزي: المرجع السابق، ص٥٥.

(٢٥١) نسرين محمود: المرجع السابق، ص٥٥.

(٢٥٢) الحسن بن عبدالله: آثار الأول في تاريخ الدول، ص١٩٣؛ عبدالرؤوف عون: الفن الحربي في صدر الاسلام، دار المعارف، بمصر، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٥٩.

(٢٥٣) البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م، ١/٢٢٤-٢٢٥.

(٢٥٤) محمد بن الشحنة: الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٩م، ص٨١.

(٢٥٥) القزويني: المصدر السابق، ص١٨٩.

(٢٥٦) نفسه، ص١٨٣.

(٢٥٧) ابن الاثير: الكامل، ٧/٢٣٤؛ جهادية القره‌غولي: العقلية، ص١٧١-١٧٢.

(٢٥٨) الظاهري: زبدة، ص٣٦؛ ابن اياس: بدائع، ص٥٦.

(٢٥٩) محمد عبدالستار: المرجع السابق، ص١٩٥.

(٢٦٠) مهدي قادر: الأمن في مصر، ص٦٦.

(261) Wiet: LEGPTE, p.318.

(٢٦٢) ابن خلكان: وفيات، ٤/٩١٠.

(٢٦٣) القلقشندي: صبح، ٤/٢١.

(٢٦٤) ياقوت: البلدان، ٣/٤٢٣؛ القزويني: المصدر السابق، ص٢١٧.

(٢٦٥) الطبري: تاريخ، ٣/١٦٠٧.

(٢٦٦) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص٧٩؛ خالد جاسم: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، ص٧١.

(٢٦٧) الهرثمي: مختصر، ص٣٢؛ جهادية القره‌غولي: المرجع السابق، ص١٧٢.

(٢٦٨) ياقوت: المصدر السابق، ٥/١٢٨-١٢٩؛ خالد جاسم: تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر الأموي، ص٤٠؛ أحمد عبدالعزيز محمود: المرجع السابق، ص١٩٧؛ جهادية القره‌غولي: المرجع السابق، ص١٧٢؛ بسام العسلي: فن الحرب، ١/٣١٠.

(٢٦٩) الحسن بن عبدالله: آثار، ص١٩٢؛ الأوسي: تفريج، ص٦١.

الفصل الثالث

الجيش الصلاحي

١- الجيش الصلاحي البري:

أشرنا إلى أن الاحداث الخطيرة التي عاشتها مصر منذ الحملة الشامية-النورية، أسهمت اسهاماً فعالاً في نشوء الجيش الأيوبي، الذي أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن مصر، سواء في عهد وزارة شيركوه وصلاح الدين، أو بعد القضاء على الخلافة الفاطمية سنة(٥٦٧هـ/١١٧١م). ويضم الجيش اعداداً كبيرة في العادة، وله تنظيم خاص لتسهيل توجيهه نحو تنفيذ المهام العسكرية، وتمكينه من المشاركة الفعلية في الدفاع عن البلاد، وتعجز عن حمايتها الشرطة والحراس، لانقاذ الدولة من التهديد الخارجي المباشر وغير المباشر، فضلاً عن الهدف الأساس لتلك الجيوش الذي تمثل الجهاد في سبيل الله وقتال الصليبيين[١].

هذا وقد تطورت ونمت وتوسعت قدرات هذا الجيش إلى حد كبير، بحيث وصل إلى مرحلة من القوة والامكانية، استطاع الوقوف والصمود أمام الهجمات الصليبية والصقالبة والبيزنطية ودحرها الواحدة تلو الأخرى وردها إلى جحورهم، فضلاً عن المساهمة في قمع الحركات والتمردات المناوئة للحكم الصلاحي، الناشيء في الداخل[٢].

ولاغرابة إذا قلنا لم يكن لصلاح الدين، جيش، ولكن كانت له جيوش تتبعه هذه الحقيقة يجب أن نفهمها أولاً لنستطيع ادراك مدى قوتها وحدود مهارتها وعمقها العسكري، فالإمارات التي توحدت تحت يديه الكريمتين، كان لكل أمير فيها سواء منهم من أبقاه أميراً أو من خصه بإقطاع إمارة من أقاربه أو من الأبعدين أما القواد فهم عبارة عن: جيشه الخاص الذي يشرف عليه بنفسه وينفق عليه بنفسه من ريع اقطاعه. فإذا احتاج صلاح الدين إلى الجند لمعركة إستدعى إليه من الامراء من يحتاج معونته لينضم إليه هؤلاء الامراء الاتباع ويعودون بعد المعركة بجيوشهم إلى اماراتهم(٣).

ويتألف جيش صلاح الدين عادة من المشاة والفرسان والبحرية، وكانت فرق الفرسان تكلف بواجبات عسكرية وأمنية متعددة على طول البلاد وعرضها، فضلاً عن الحماية في أثناء التنقل والمبيت، فكانوا يكلفون قوة كافية من الفرسان بالسيطرة على قمم الجبال ومضائقها ومعها الطرق والمسالك المهمة ومصادر المياه(٤)، للحيولة دون مداهمة الجيش المتقدم، أما في الليل فانهم يدورون دوراناً منتظماً حول المعسكر لحراسته غير بعيدين عنه(٥). في حين كان قسم من الفرسان يكلفون بحراسة القوافل التي تحمل الذخائر والمؤن والعتاد والاعلاف والمياه، في أثناء تنقلها من منطقة الى أخرى، ويسمون بالبذرقة أو الخفارة(٦). فضلاً عماسبق، كانت توضع جماعة أخرى من الفرسان الاكفاء الاشداء على ميمنة الجيش وميسرته في الطرق، لتكون وقاية لهم من أي اعتداء قد يقع عليهم من العدو المتربص لهم في كمائن مخفية، ولمنع الخصم من اختراق صفوفهم، وليس لهؤلاء واجب مكلفون به غير مهاجمة معسكر العدو والاجهاز عليه، وهو في عقر معسكره، ومن ثم الاستيلاء عليه(٧)، مما يفسح المجال مع اعطاء الفرصة

لبقية الجند المنضوين تحت لواء هذا الجيش الصامد، الصابر، العنيد في دفاعه والتزمت بمواقفه الشجاعة ضد العدو لملاحقة فلوله ومطاردته بكل الطرائق والوسائل الممكنة، هذا ولاننسى أنه يسند إلى الفرسان واجب ملاحقة العدو المدحور أيضاً مطاردة لاتعرف الشفقة سبيلاً إليه، وفي حالة ظهور بوادر تؤكد تقهقر وهزيمة العدو من ساحة المعركة في الأفق، فانهم كانوا يطاردونه بقوة الفرسان الاحتياط المعدة مسبقاً لهذا الغرض وتسمى هذه القوة بالمدد[٨].

وتذكر الروايات التاريخية انه كان جيش صلاح الدين يتألف من الكرد والعرب الذين يشكلون عصب جنده وأمرائه، وبات من الضروري أن نعرف حجمه، ومن ثم مستواه القتالي بشكل عام عصرئذ، فقد أشار المؤرخ المقريزي نقلاً عن القاضي الفاضل كبير مستشاري صلاح الدين، قوله: في مستهل سنة(٥٦٧هـ/١١٧١م)، في أعقاب القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، جرى عرض عسكري ضخم لهذا الغرض اشترك فيه مختلف صفوف الجيش الصلاحي، بأسلحتها وخيولها وعدتها وخيولها الحربية في القاهرة، ومن ضمنها الطواشية[٩]، والقراة غلامية[١٠]. وقد دعي الى مشاهدة هذا العرض رسل ووفود البيزنطيين والصليبيين وممثل الخلافة العباسية في بغداد، وكان عرضاً عسكرياً ضخماً وفخماً، شاركت المواكب فيه، موكباً اثر موكب، وطلباً بعد طلب[١١]، واستمر العرض العسكري إلى أن قضى النهار كله، ودخل العرض ضيفاً على الليل دون أن يقبل العرض على الانتهاء، وكان عدد الاطلاب المشتركة يقدر بـ(١٤٧) في حين بقي(٢٠)طلباً خارج نطاق الاشتراك في هذا العرض العسكري. وبدأ صلاح الدين بتوزيع الجوائز والعطايا السخية على المتميزين منهم[١٢].

ومن الصعب أن نذكر أرقاماً محددة ومضبوطة بعدد المقاتلين والاجناد تحت إمرة صلاح الدين في معاركه المختلفة، فقد كان لكل معركة أعدادها المناسبة، وقلما تنطبق أعداد معركة على أخرى، كما أن المؤرخين قد اعتادوا أن يقدروا الأعداد تقديراً تقريبياً، وقد يزيدون أو ينقصون لاعتبارات معينة لاعلاقة لها بالواقع الذي يمر فيه الجيش الصلاحي، ومع ذلك فيمكن أن نجد فيما يرون من الأخبار ميزاناً أو مقياساً يعطينا فكرة هي أقرب مايكون إلى الصحة(١٣). ومن ذكر مايذكره المقريزي عن جيش صلاح الدين الذي صار تعداد الخيالة فيه ستة عشر ألف فارس تقريباً، ولم يبين عدد الطواشية وعدد القره غلامية الذين كانوا في الجيش، واكتفى بالقول إن اكثر ما في الاطلاب هم كانوا من الطواشية. ولانغفل أن له دواباً من عشرة رؤوس إلى مادونها مابين فرس وبرذون وبغل وجمل وله غلام يحمل سلاحه(١٤).

والملاحظ ان صلاح الدين بعد عشر سنوات من العرض العسكري المذكور، أي في عام(٥٧٧هـ/١١٨١م)، قام بعملية احصائية جديدة لقوة جيشه، بعد أن دخل في حملات ومعارك عدة وماحصل في بلاد الشام ومصر من تطورات، وأثرت على مكونات وقدرات وحجم هذا الجيش وخبراته ومهاراته، منها ارسال حملة إلى بلاد اليمن وانيطت قيادتها إلى أخيه شمس الدولة توران شاه بن أيوب سنة(٥٦٩هـ/١١٧٤م)(١٥)، ثم الانزال الواسع لقوات الصليبيين في نهاية عام(٥٦٩هـ/١١٧٤م) على الاسكندرية(١٦)، فضلاً عن قيام ثورة الكنز في عام(٥٧٠هـ/١١٧٥م) في مصر(١٧)، وكذلك قيامه بحملة واسعة إلى بلاد الشام، ومامني جيشه من خسائر في معركة الرملة المعروفة(١٨).

وعليه فإن كل هذه الاحداث وغيرها، قد سببت في انخفاض عدد جند صلاح الدين ودوابه، إلا أنه سرعان ماستطاع من سد هذا النقص، ويظهر ذلك من الأرقام الجديدة التي ذكرها المقريزي نقلاً كذلك عن مستجدات القاضي الفاضل، حيث استقرر عدد الجيش سنة(٥٧٧هـ/١١٨١م)، على(٨٦٤٠)فارساً؛ منهم الامراء(١١١)أمير و(٧٩٧٦)[١٩] طواشياً و(١٥٥٣)قره غلامياً، والمستقر لهم جميعاً(٣٦٧٠٦٠٠)[٢٠] دينار. هذا بيما لم يدخل المقريزي ضمن هذه الاحصائية فئات كثيرة منها ((المولون من الاجناد(العاطلون عن العمل العسكري)، وكذلك العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة وهم من بني جذام الكنعانيين، وكان عددهم في سنة(٥٦٧هـ/١١٧١م) يقدر(٧)آلاف فارس، ثم استقر عددهم على(١٧٠٠)، ومنهم العسقلانيون(العساقلة) الذين كانوا مسجلين من قبل في ديوان مصر، وارزاقهم أقل من الطواشية[٢١]، ومن القره غلامية. وكذلك الكنانيون والمصريون والفقهاء والعلماء والصوفية والقضاة[٢٢]، ولايقل مجموع نفقات هؤلاء عن مليون دينار[٢٣].

هناك مايشير بشكل واضح، أن صلاح الدين في الحقبة الأولى من استلامه الحكم، كان ينفق المال على الجيش وتشكيلاته بسعة كبيرة، وأن هذا الانفقاق المفرط قد تقلص تدريجياً، نتيجة لانخفاض أو تقليل عدد الجند فيه، فضلاً عن ارتياب نورالدين في هذه النفقات الهائلة الضخمة وأبدى مخاوفه وشكوكه من نوايا الناصر صلاح الدين، وطلب منه قبل موته بيان حساباتها وتقديم القوائم بكشوفاتها ومصارفها. ومع ذلك فإن حساباتها وتقديم القوائم بكشوفاتها ومصارفها. ومع ذلك فإن مؤسسة عسكرية ضخمة بهذا الحجم كانت في نظر صلاح الدين ضرورية جداً، لأن التهديد

الصليبي والبيزنطي كان قائماً على الدوام، وعلى مايبدو شكل هذا أساس الوحشة بين نورالدين زنكي وبينه؛ لأن نورالدين كان يرى بحسب وجهة نظره، ضرورة الانفاق على العسكر الشامي المواجه للعدو، وليس انفاقه على جيش احتياطي بعيداً عن ميدان وساحة المعركة الأساسي[٢٤].

ولقد أدرك صلاح الدين جيداً انه لم يكن بوسعه أن يسهم كافة قواته المصرية في حملاته المقبلة في بلاد الشام، فالضرورة العسكرية والأمنية كانت تقتضيان ترك جزء منها في بلاد مصر للدفاع عنها، إذا تعرضت لعدوان خارجي مباغت، أو حركات وتمردات مناوئة، كالتي حدثت في أعوام (٥٦٩هـ/١١٧٢م)، (٥٧٠هـ/١١٧٣م)، (٥٧٢هـ/١١٧٦م). فيذكر أحد المؤرخين: ((أن صلاح الدين حين عاد إلى الشام وغادر مصر للمرة الأولى في محرم(٥٧٨هـ/مايس ١١٨٢م)، استصحب نصف العسكر، وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر))[٢٥]. نظراً لأن مصر خرجت لتوها من محن وأحداث قاسية متعاقبة حصلت خلال أقل من سنة ولاسيما النصف الثاني من(٥٦٩هـ/١١٧١م) وبداية (٥٧٠هـ/١١٧٤م)، كادت أن تعصف بالحكم الأيوبي فيها[٢٦]، وهي على التوالي مؤمراة عمارة اليمني[٢٧] والانزال الصليبي على الاسكندرية[٢٨]، وثورة الكنز بالصعيد[٢٩]. في وقت كان بعث جزءاً من قواته إلى بلاد اليمن، فضلاً عن وفاة نورالدين زنكي في شوال سنة(٥٦٩هـ/١١٧٤م)، وانقطاع مساعداته العسكرية إلى مصر[٣٠].

وصار من الأمور المألوفة والضرورية لدى صلاح الدين أن يكون لديه قوتان، قوة مصرية مهمتها صد عدوان خارجي محتمل، فضلاً عن قيامها بقمع حركات وتمردات مناوئة في داخل مصر[٣١]، ثم قوة أخرى شامية تحت تصرفه المباشر، وهي التي كانت ترافقه في تحركاته العسكرية،

ومركزها دمشق، وضمت إلى هذه القوة بالدرجة الرئيسة قوات جيش نورالدين زنكي، باستثناء مدينة حلب التي لم يتم ضمها إلى دولة الناصر صلاح الدين إلاّ في أعقاب وفاة صاحبها الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين محمود، بنحو سنتين، أي في محرم سنة(٥٧٩هـ/مايس ١١٨٣م)، وكان الصالح قد رحل من دمشق إلى حلب إثر وفاة والده، بعد إلحاح امراء والده عليه وهو كمشتكين، وكان الأخير قد استحوذ على حلب وعلى الملك الصالح الذي كان في الحادية عشرة من عمره في أثناء وفاة أبيه[٣٢].

وهنا نرى وجوب ايراد ملاحظة جديرة بالاهتمام، تقتضي الوقوف عندها، وهي إن الناصر صلاح الدين لعل المناسبة الوحيدة التي استدعى فيها الجيش المصري برمته كانت بعد الانتصارات التي أعقبت حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، حين أرسل في اثر: ((من بقي من العسكر))[٣٣] في مصر عند أخيه الملك العادل وأمره بالمسير فوراً وبدون تأخير إلى مواجهة الصليبيين في بلاد الشام، بعد أن اطمأن على وضع مصر الداخلي والخارجي[٣٤].

ونرى ان صلاح الدين شرع بعد وصوله إلى بلاد الشام، يكسب ود بقايا الجيش الزنكي في دمشق وحماه وحلب وغيرها من المدن الشامية التي فتحها واحدة بعد الأخرى، وجعل منها جيشاً شامياً قوي الارادة والامكانية العسكرية أثبت جدارته في ساحات القتال مع الصليبيين، تابعاً له يلازمه في كل تحركاته. أما الوحدات المصرية التي قدمت معه فإنه أعادها إلى بلاد مصر لترتاح، لأنه لم يعد بحاجة إليها يومئذٍ[٣٥].

كان جيش صلاح الدين يضم بين وحداته، الجاويش[٣٦]، فقد استعان بجماعة عسكرية استخباراتية مهمتها، قائمة على توفير الأمن والنصر لجيشه، وهو ينادي العسكر في الجيش[٣٧]، مهمته تتركز في النداء واستنفار

الجند للقتال بشحذ الهمم مع رفع معنوياتهم الجهادية، وهو قريب الموضع من السلطان، فكل مايصدر عنه من أوامر من مقره العسكري، يبلغها بصوت عالٍ مسموع إلى عموم الجيش، كما حصل في معركة عكا سنة(٥٨٥هـ/١١٨٩م)[٣٨]، حين لاحظ صلاح الدين حركة العدو، أوعز إلى الجاويش، أن ينادي في الجيش يطلب الاستعداد التام وشعاره الذي كان يردده في مثل هذه المواقع ((ياللاسلام وعسكر الموحدين))[٣٩]، فركب على اثر ذلك المسلمون مركب القتال. والملاحظ ان مهنة النداء قد ظهرت بشكل جلي ووضوح بعد معركة حطين سنة(٥٨٣هـ/١١٨٧م)[٤٠].

وكانت عناية الناصر صلاح الدين قائمة على توفير الأمن لجيشه، فقد استعان بفرقة مكونة من الجنود والمراقبين، عرفت باسم طلائع[٤١] العسكر، وكان ينبغي على عناصرها؛ جمع كل المعلومات الخاصة بتحركات ونوايا العدو وعدده وعدته وانظمته المعمول بها، هذا فضلاً عن طبيعة الأرض التي قد تدور فيها رحى القتال، ومن الصعب لأية قوة عسكرية تريد الخوض في أية معركة من المعارك، تحقيق النصر فيها، مالم تعتمد بشكل خاص على الطلائع، التي عادة تتقدم على تشكيلات الجيش الصلاحي في السير للقتال، وتأخذ على عاتقها التقاط الأخبار وجمعها ومن ثم فرزها وتدقيقها جيداً، وتزويد الجيش الصلاحي بها، تجنباً للوقوع في أي مأزق قبل اشتعال أوار المعارك مع العدو[٤٢].

وليس غريباً إذا قلنا أن صلاح الدين أشرف بذاته على العمليات الاستطلاعية في كثير من الأحاديين[٤٣]، كما حدث عام(٥٧٢هـ/١١٧٦م)، حين خرج السلطان مستطلعاً أخبار العدو، وكان الصليبيون قد شيدوا سرأ حصناً منيعاً على الجيش الصلاحي، عرف بمخاضة بيت الاحزان[٤٤]، وقام افراد

جيشه من المستطلعين بخطف اثنين من عناصر الحصن، وجرى استجوابهما[٤٥]، وانتزاع جميع المعلومات العسكرية منهما، وبعد جمع واستكمال المعلومات الاستخبارية الضرورية، قرر السلطان الهجوم على الحصن بشكل مباغت، وتمكن الجيش الصلاحي من اقتحام الحصن والاستيلاء عليه ومن ثم تخريبه، واطلقوا ماكان فيه من أسرى المسلمين. وماينطبق على هذا الحصن ينطبق على الكرك عام(٥٨٠هـ/١١٨٤م)[٤٦]، ومعركة حطين عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م)[٤٧].

لم يتمكن الناصر صلاح الدين الاستغناء عن عنصر استخباراتي أمني عرف باليزك[٤٨]، وهم جماعة الاستكشاف التي تبعث الى جهة العدو، قبل توجه الجيش الصلاحي نحوه، واجبها ايصال المعلومات العسكرية الاستخباراتية الى قيادة جيش السلطان بالسرعة الممكنة، بهدف التعرف على مايفعله العدو عن كثب، مع رصدها وجمعها داخل معسكرات الاعداء وارسالها الى مركز القيادة أو المجلس الحربي الصلاحي[٤٩].

ويعطينا بعض المؤرخين المعاصرين للناصر صلاح الدين تفصيلات عن دور اليزك ومهمات كثيرة يقومون بها[٥٠]، وأصبح تزويد المعلومات احدى تلك المهمات، ونظراً لأهمية وخطورة دور اليزك، جعل صلاح الدين قيادة اليزك، في خيرة امراء جيشه، امثال الملك العادل أخي السلطان[٥١]، وعزالدين جورديك[٥٢]، وجمال الدين فرج[٥٣]، فكل من هؤلاء له نوبته في هذا المجال[٥٤].

ومن الحوادث والوقائع التاريخية التي يتبين عن اسهام اليزك، ماحصل في ١٧جمادي الأولى سنة(٥٨٤هـ/١١٨٨م)[٥٥]، بعد وصول قوات الجانبين الاسلامي والصليبي الى عكا[٥٦]، إذ حدثت مناوشات ومعارك بينهما، وحدث

شيء لم يكن بالحسبان عند الجيش الصلاحي، كانت عناصر اليزك تنقل إلى السلطان، أخبار مايقوم به الصليبيون من حفر الخندق وبناء السور يومياً، ولاسيما بعد ان نقلت القيادة الصلاحية مقرها من تل العياضية[٥٧]، إلى الخروبة[٥٨].

وكان اليزك مستمراً في اداء مهمته الاستخباراتية بلا كلل ولا ملل، ومايكلف بتنفيذ عمليات إختطاف أفراد العدو، وهذا ماحدث في رجب عام(٥٨٥هـ/١١٨٩م) في عكا[٥٩]، وفي ١٧رمضان سنة(٥٨٧هـ/١١٩١م)[٦٠].

ومن ضمن الأخبار التي التقطها اليزك، وضمتها التقارير المرفوعة إلى السلطان، قيام الصليبيين بقتل أسرى المسلمين في سوح الوغى[٦١]، وصحة مضمون هذه الرواية باشارة ابن شداد الآتية: ((احضروا أساري المسلمين... واوثقوهم بالحبال واحملوا عليهم، حملة الراجل الواحد، فقتلوهم صبراً، وضرباً بالسيف واليزك الاسلامي يشاهدهم، ولايعلم ماذا يصنعون لبعدهم عنهم، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقفهم))[٦٢].

ومن المهام الاستخباراتية التي نفذتها فرقة اليزك هي الكمائن، كما وقع في ٣شوال عام(٥٧٦هـ/١١٩٠م)، أيام كان الملك العادل قائداً لفرقة اليزك، فقد قرر نصب كمين للعدو، وقد تحقق به قتل وأسر الكثير منهم[٦٣].

والشيء نفسه ينطبق على الأمير بدر الدين ولدرم الياروقي عندما تسلم مسؤولية قيادة فرقة اليزك، في جمادي الأولى سنة(٥٨٨هـ/١١٩٢م)، إذ خرجت عناصر شجاعة وكفوءة في هذه الفرقة، لنصب كمائن لقوات الفرنج اسفر عن قتل أميري قيادي من الجيش الصليبي[٦٤].

لم يغفل السلطان في استعمال وسائل وطرق عسكرية وأمنية خاصة أخرى، تضمن له الهيمنة على مواقف العدو، من هذه الوسائل العسكرية

المتبعة، التجسس[٦٥] الذي يعد نوعاً من انواع العمل الاستخباري، هدفه البحث والحصول على المعلومات المتعلقة بشخص أو جماعة ما أو دولة، ونقلها بطرق سرية خاصة من مكانها الى مكان آخر لتلافي الاخطار التي قد تقع بها الدولة[٦٦].

ويعرف پيرهوني التجسس بأنه؛ الفعل الذي يحصل عليه الشخص أو يحاول ان يحصل عليه من معلومات سرية بطريقة ما، فيسلمها لدولة أخرى. ولما كان الهاجس الأمني والاستخباري لصلاح الدين، هو الحفاظ على حياته وحماية دولته والقضاء على كل من يتوجس ويسبب خطراً على سلامته وسلامة دولته. فانه واصل بث العيون والارصاد في صفوف جميع شرائح الناس ولاسيما بين الفلاحين في الجهة الشمالية من عكا، ليتأكد مما كانوا يعملون تجاه الصليبيين، فقد كانوا يمدون الجيش الصليبي بكميات وفيرة وكافية من الحبوب واللحوم، وعندما كشف عن هذا الأمر، فرض الاجراءات العسكرية اللازمة، لايقاف هذه العملية المخربة التي تؤدي ايقافها من قبل السلطان الى القضاء على القوة الصليبية في المنطقة الداخلية، بطريقة مزج التجويع بالقتال، فلايمكن لجيش العدو أن يتحمل هذين الامرين معاً. مما أدى هذا الأمر أيضاً إلى مغادرة الملك ريتشارد، يافا والزحف نحو مدينة الرملة، بسبب تخلخل الوضع الأمني الذي انتشر في صفوف جيشه، بفضل هذه المعلومات التجسسية التي حصلت عليها العيون والارصاد، جعل السلطان ضرورة هدم الحصون والقلاع، قبل وصول الفرنج الزاحفين نحوها، حفاظاً على أمن الدولة وسلامة صلاح الدين في آن واحد[٦٧].

وليس عجباً إذا قلنا ان الصليبيين كان لهم أيضاً جواسيس في صفوف جيش صلاح الدين، يرفدونهم بالاخبار سراً(٦٨)؛ ومما يؤيد صحة هذا الرأي فشل جيش السلطان في حصار مدينة صور(٦٩)، بسبب وجود عناصر اسلامية خائنة تعمل في صفوف الجيش الصلاحي، لصالح الفرنج، فقد أشار (Crousset)(٧٠) إلى أن الاسطول التابع لجيش الناصر صلاح الدين قد تحطم بالكامل قبالة صور بسبب خدعة حربية قتالية لم يكن في حسبان صاحب صور قد دبرها (كونراد مونتغرات) بالتعاون مع أحد الخونة من المسلمين.

ومن الحوادث التاريخية الأخرى أنه قد جرب الصليبيون حظهم مرة أخرى، بإرسال الجواسيس بين صفوف العسكر الصلاحي، لمعرفة نواياه وتحركاته وخططه، وعدد قواته وعدته واسلحته وذخائره، ولما أراد صلاح الدين عزمه في الهجوم المباغت على مدينة يافا عام(٥٨٨هـ/١١٩٢م)(٧١). لم يكن النصر حليفه هذه المرة، لأن خبر هذا الهجوم سرعان ماتسرب ووصل إلى الملك ريتشارد قلب الأسد، من قبل بعض التجار الكبار الذين كانوا يتجسسون في جنح الليل تحت ذريعة مهنة التجارة في حين كانوا مكلفين من قبل الفرنجة بالعمل لصالحهم خلال مدة تواجدهم في المدن الاسلامية(٧٢)، وحين تناهى هذا الخبر إلى مسمع ريتشارد، بادر إلى الانسحاب بشكل منظم إلى خارج مدينة يافا، لأخذ احتياطاته الدفاعية لصد هذا الهجوم(٧٣).

ومن الاساليب التي اتبعها جيش صلاح الدين لاستقصاء الأخبار العسكرية اسلوب التنكر، وهو الاسلوب الذي لولاه لفشلت مهمة التجسس(٧٤)، ويحدثنا ابن الاثير في رواية ان بهاءالدين قراقوش متولي مهمة مدينة عكا،

حرر كتاباً بخط يده إلى السلطان في الأول من شهر شعبان عام(٥٨٦هـ/١١٩٠م)، أيام حصار عكا[٧٥]، يطلعه فيه على أحوال المدينة، وانه لم يبق عندهم من الارزاق والذخائر، إلاّ مايكفيهم إلى ليلة النصف من شعبان، فكتب صلاح الدين على اثره إلى والي الاسكندرية، يأمره بارسال الذخائر والاقوات واللحوم وكل مايحتاجونه من الحاجات وغيرها مما اجبر صلاح الدين أن يبحث عن طرائق أخرى لمعالجة الموقف المتأزم والحرج في عكا، فاضطر إلى أن يراسل نائبه بمدينة بيروت في الأمر نفسه، وما ان وصل إليه أمر السلطان، إلا وما كان من النائب الا أن يسير بطسة[٧٦] كبيرة مملوءة بكل مايريدونه، واستدعى رجالاته العسكرية عاونهم اليزك في هذا المجال بان يتنكروا بزي الفرنج[٧٧]، ولم يكتف عند هذا الحد، بل كلفهم وأمرهم أن يرفعوا على البطسة الصلبان، فلما وصلوا إلى مدينة عكا، لم يشك فيهم الفرنج قط، وتصوروا انها لهم، فلم يعترضوها، فلما رست في ميناء عكا، سار المسلمون إليها وفرحوا بالخبر وعرفوا بما فيها من المؤن والذخائر والتي جاءتهم من الاسكندرية[٧٨].

ومن باب قطع الشك باليقين ودفعاً للالتباس، لم يعرف التاريخ الاسلامي مثيلاً لصلاح الدين إلاّ ماندر، على صعيد الحيطة والحذر، وتلافياً للوقوع في الخطأ وشرك الاعداء، إذ كان يحذر كل الحذر من الإقدام على أية خطوة عسكرية أو مدنية بمفرده، ومن دلائل الاستمساك بعروة الحذر، استشارته الدائمة والمستمرة لأهل العلم والفهم ورجالات الدين والعسكر في مجالسه الخاصة، منطلقاً من كون رأي الجماعة خير من رأي الفرد، وايماناً منه، بان المشورة لقاح العقل، فالعقل المنفرد مهما كان حذراً، فإنه دائماً لايأتي بالثمرة المرجوة، كما تسفر عنها العقول المجتمعة للبت في أمرما،

وجاء حرصه على هذه السمة المربحة ذات المجتنى اليانع من حيث المردودات الحسنة حث دينه عليها منذ ان نزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وانطلاقاً منه، على انه مبدأ يأبى أن يحيد منه، ومن شدة الحرص على التمسك بالمشورة والاطمئنان إلى ظلالها كان يشاور أولى البصائر على ظهور الخيل، في ترحاله مرتدياً ثوب الجهاد، أما في حله فحدث ولاحرج، حيث أورد بعض المؤرخين في ثنايا كتبهم، نموذجاً يثبت تشاورهم وهم ممتطون متون الجياد في سبيل اعلاء كلمة الله بالجهاد، وكثيراً ماكان الاجتماع يضم مالايقل عن عشرة من القواد العسكريين على صهوات جيادهم، وهم منطلقون بها شطر الهدف السامي، وهو تحقيق النصر على من سواهم، فإذا أسفر التشاور عن رأي سديد تشم منه رائحة العواقب المحمودة، مضوا فيه إلى غايته، وكل ذلك مرده إلى أن المشورة ركن أساس من أركان نجاح الاعمال[٧٩]، وإذا علمنا أن القرآن العزيز ينص في مواطن منه على أهمية المشورة، وعدم صرف النظر عنها، كقوله عزوجل في تنزيله الحكيم: ((وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ))[٨٠]، وبنبراسه اقتدى الرسول صلى الله عليه وسلم، واتحف حقل المشورة بنفحات عبقه من أقواله من قبيل ماورد في كتب الحديث، لحث المسلمين على التزام المشورة ومن ذلك قوله: ((المشاورة حصن من الندامة وأمن من الملامة))، وقال أيضاً: ((الدواء أمن من الاعداء))[٨١].

ولقد شكل صلاح الدين مجلساً حربياً عسكريا شبيها بما يطلق عليه اليوم رئاسة هيأة أركان الجيش، لتوجيه سياسة الحرب والاتفاقات والمعاهدات فضلاً عن ادارة شؤون البلاد، ويضم المجلس عدداً من الامراء

والقادة العسكريين البارزين(٨٢) والمشهورين على الصعيد العسكري، أمثال الملك المظفر تقي الدين عمر(ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م)(٨٣)، والأمير ضياء الدين عيسى الفقيه الهكاري(ت ٥٨٥هـ/١١٨٩م)(٨٤)، والأمير المشطوب الهكاري(ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م)(٨٥)، ومستشاره الخاص الحكيم القاضي عبدالرحيم البيساني(٨٦)، وقاضي العسكر أيضاً بهاءالدين ابن شداد، المؤرخ(ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)(٨٧)، وكاتب الانشاء المعروف بعمادالدين الكاتب(ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)(٨٨)، وقادة آخرين مثل أبي الهيجاء الهذباني الكردي صاحب إربل(٨٩)، وأمير الاسطول المصري حسام الدين لؤلؤ(٩٠)، وحسام الدين أبي الهيجاء السمين(ت ٥٩٤هـ/١١٩٧م)(٩١)، وبهاءالدين قراقوش(ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠)(٩٢)، وعزالدين جورديك النوري(ت ٥٩٤هـ/١١٩٧م)(٩٣)، كما ضم المجلس أبناء القائد صلاح الدين الكبار مثل الأفضل والظاهر، والعادل(٩٤).

وكان صلاح الدين، إذا استوى عنده الرأي بدأ القتال(٩٥)، ولكن كان لكل من اعضاء مجلسه له حق ابداء الرأى بحرية وصراحة تامتين(٩٦)، ومع هذا التعامل والتفاعل مع مجلسه، فان رأى السلطان له الأرجحية على ماعداه أحياناً، لاسيما إذا كان نصيبه وحظه من الصواب أوفر من غيره، وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يكن مستبداً يوماً برأيه الشخصي، إذا مالت الغلبة لصواب الطرف الذي ليس فيه السلطان، وعلى أي حال فان صلاح الدين كان يقيم الاعتبار كله لآراء غيره، ولو لم يكن الأمر كذلك لما استشار القادة والامراء، ولاستغنى عنهم ولم يرجع إليهم(٩٧).

ولعل أول اجتماع عقده مجلس صلاح الدين، كان في شهر محرم عام(٥٦٧هـ/١١٧١م)، حين عزم نورالدين زنكي لاخراج صلاح الدين من مصر، عقد الاجتماع واستشارهم السلطان عن نوايا الزنكي، دعى تقي

الدين عمر إلى اشهار السلاح بوجهه، في حين كان رأي والد السلطان تمثل في تهدئة الخواطر والتصرف بحكمة تثير الإعجاب[٩٨].

وفي معرض سياق الحديث عن أهمية ومكانة المجلس الاستشاري، ينبغي ان نذكر حادثة حصن بيت الأحزان، حيث أخذ السلطان مشورة قواده العسكريين سنة(٥٧٥هـ/١١٧٩م)، عندما تحصن الصليبيون فيه وجعلوه يشكل مصدر خطر على الجيش الصلاحي، ويهدد مصير الدولة الايوبية، فطرح صلاح الدين على العدو هدمه، لقاء مبلغ مائة ألف دينار فأبوا ((فلما رأى السلطان ذلك، جمع الامراء من أصحابه وأولي الأمر والمشورة))[٩٩]، وأخبرهم بالموقف وطلب منهم الرأي، فكان رأيهم زيادة المبلغ. ولم يقرر بعد السلطان في رأيه بعد أخذ موافقة ومشورة مجلسه، إلا بعد أن كتب الى تقي الدين عمر، الذي كان في حماة أيامئذٍ، وطلب منه أن يبدي رأيه في المسألة ذاتها، فقال: رأيي هو صرف المبلغ على الاجناد وحثهم على الجهاد، والعمل من أجل تخريب الحصن، فامتثل السلطان لرأي ابن أخيه، فكان النصر للجيش الأيوبي، وتم تخريب بيت الأحزان، وأصبح البيت فعلاً حزناً على الصليبيين[١٠٠].

وكذلك استشار السلطان أصحابه في المجلس الاستشاري، للتباحث حول ماينبغي فعله مع الموصل، بعد أن بعث صاحبها الاتابك عزالدين مسعود سنة(٥٨١هـ/١١٨٥م)، وفداً من نساء البلاط لوضع حد للقتال الدائر بين الطرفين، الا ان المجلس رأى ضرورة الاستمرار على محاصرة المدينة وتشديد الخناق عليها، حتى الاستسلام أو السقوط عسكريا[١٠١].

وينبغي الاشارة إلى أن المجلس قد اجتمع مراراً وعقد جلسات متعددة، ضماناً لسلامة الموقف العسكري وأمن الدولة الصلاحية، منها في أثناء حصار

الفرنج لعكا في ٢٩شعبان سنة(٥٨٥هـ/١٣تشرين الثاني ١١٨٩م)[١٠٢]، وكذلك حين وصل الأمير الصليبي الكندهري في شهر جمادي الآخرة سنة(٥٨٦هـ/١١٩٠م)[١٠٣]، إلى الرملة في طريقه شطر عسقلان، خصص السلطان جلسة لهذا الغرض، بعد ان استشار القواد والامراء فيما ينبغي عمله لمواجهة الاخطار التي تفضي بالضرورة إلى وقوعهم في شرك العدو ودوامات العنف والقتال المتواصل معهم، فاتفق المجلس على الشروع في تخريب المدينة، ولولا هذا القرار الشجاع والصائب الذي اتخذه المجلس، لوقع الجيش الصلاحي فيما لاتحمد عقباه، وتعرضت دولته لمصير غير محمودة النتائج وفي العواقب الوخيمة.

لقد استثمر صلاح الدين البريد في المجال العسكري استثماراً موفقاً، لأنه من الفنون الاستخباراتية والأمنية ذات التأثير البالغ في إستقرار الجيش، ولهذا نرى ان حاجة العسكر الدائمة إلى معرفة الأخبار والمعلومات الاستخباراتية عن العدو، من حيث عدد جنوده، وتسليمه ودوابه والطرق والمسالك التي يسلكها، فضلاً عن الخطط التي يضعها، وهكذا نرى ان دور البريد جلي التأثير، فلولاه، لكانت الأيدي تكبل بأصفاد العجز، لخفاء كثير من الاسرار التي تتحكم بسير المعارك ورسم نتائجها، فالبريد هو الذي أطلق الأيدي في أسر الجهل بما سيحدث بحكم الافتقار الى ماينبغي توافره من المعلومات التي تقرر النتيجة. كل هذه الأمور فرضت على السلطان العناية بامور البريد، فازدادت أهميته من الناحية الحربية، حتى صارت المحطات البريدية تقام في بعض الطرق والمضائق الفرعية المهمة وخصص عدداً من الدواب والركاب من الأكفاء والمتمرسين ضماناً لسعة إيصال الاخبار والرسائل[١٠٤].

ولامفرّ من الاشارة إلى أهمية البريد في السنوات(٥٨٥-٥٨٧هـ/١١٨٩-١١٩١م)، وتتمثل في نشاط رجالات الأمن عندما فرض الصليبيون الحصار الخانق على ميناء عكا، وعلى الرغم من هذا الاجراء الصارم على المدينة، فقد تمكنوا من الحصول على أخبار العدو، حيث تصل إليهم ساعة فساعة إلى الصبح، إذ إستخدموا جميع السبل البريدية المتاحة كافة للاتصال بالمقاتلين المحاصرين من قبل الفرنج، للاطلاع على أحوالهم وأوضاعهم الصعبة المملوءة والمحفوفة بالاخطار جمة، فكان السلطان يتصل بهم عن طريق حمام الزاجل الطائر والسباحين[١٠٦]، كما حصل مع عيسى العوام عام(٥٨٥هـ/١١٨٩م) في حصار عكا الذي سبح بحراً لإيصال الرواتب الى الجيش المحاصر الذي كان يعاني من شحة المال[١٠٧]، فاضحى البريد والحالة هذه دعامة مهمة من دعائم الأمن العسكري في ارجاء بلاد السلطان[١٠٨].

ولم يهمل صلاح الدين استخدم حمام الزاجل[١٠٩] لتبادل المعلومات العسكرية المهمة بين سفنه وجيوشه البرية في أثناء الحروب على الوجه الأخص[١١٠]، لما يتمتع به هذا النمط من الحمام من الذكاء والسرعة الفائقة في المناورة والطيران، هذا وقد التفت السلطان إلى ربط بلاده طولاً وعرضاً بشبكة من الخطوط البريدية الهوائية المحكمة، بغية نقل الأخبار المهمة السريعة من والي صلاح الدين، وقد أنشأت لها مراكز وابراج خاصة بها، وخصص لها موظفون يقومون باداء اعمالهم خير أداء، يعرفون بالبراجين أو الخفراء، تتمثل وتنحصر اعمالهم في الاعتناء والتدريب والاستقبال لهذه الحمامات.

هذا ولاننسى ان جيش صلاح الدين كان يأخذ معه حمام الهدف منه للاتصال بأية جهة أو مكان يقتضي الحال الاتصال أو يبغي طلب المعونة

العـسكرية أو البـشرية وتأمينهـا في أسـرع وقـت ممكـن، كمـا جـرى عام(٥٧٤هـ/١١٧٨م)(١١١)، وحدث حـادث مـشابه في وقعـة مخاضـة بيـت الاحـزان عام(٥٧٥هـ/١١٧٩م)(١١٢)، إذ جاءت بطاقة الطير الـتي جلبت إلى مدينـة دمـشق، تبشر بانتصار الجيش الصلاحي على الصليبيين.

فضلاً عماسبق ذكره فإن البريد لم يكن غـافلاً عـن أيـة شـاردة أو واردة، بل كان يطبق بأذرعه على كل شيء يتجاوز الأخبار السياسية ونقل الاخبار اليوميـة للرعيـة، الـتي تتعلـق بـبعض جـرائم القتـل والـسرقة والوفـاة(١١٣)، وترسل عادة من قبل العيون والارصاد(١١٤) إلى الجهات المختصة المعنيـة لاتخاذ المواقف الأمنية العسكرية اللازمة بشأنها(١١٥).

ومن باب الاستدلال على مانقوله نـشير إلى ان البريـد تمكنـه مـن متابعـة أيـة خلـل مـن مبتـداه الى منتهاه في احـدى الـضيعات لم يفلـت مـن قبـضة صاحب البريد ورجالاته، بل اعلم بـه الـسلطان، بعـد التـدقيق والتحقيـق إلى أن يستقر الرأي على ما يـؤل إليـه الأمـر ايجابيـاً، وهكـذا فـان البريـد في أيـام صـلاح الـدين كـان متتبعـاً كـل الزوايـا الخاصـة بشخـصيات العمـال والـولاة، والقـادة العـسكريين والقـضاة وغيرهـم مـن القـائمين علـى شـؤون الدولـة الصلاحية المختلفة، وتجلى ذلـك في ابـلاغ الـسلطان، حـين أبلـغ عـن جماعـة الأكراد، أوعز بقطع أخبازهم(١١٦)، لأنهم كانوا السبب المباشر في هزيمة جيش صلاح الدين عند الرملة(١١٧).

لايستغرب احد إذا قيل ان اليد تستمد قوتها من الساعد والبنـان، وعليـه نجد ان جيش السلطان تصطحب معه فرقة هندسـية، تقـوم بمهمـات أمنيـة عـادة، والهندسـية لم تقـل دورهـا عـن دور هـذين العـضدين المـوآزرين لليـد القوية، التي غالباً تطلب هـذا الـصنف معرفـة كافيـة بـشؤون قتـال الاسـوار

والقلاع والخنادق[١١٨]، ونصب المعدات الحربية القتالية الثقيلة، كالمجانيق والاقواس، وتشييد الجسور والقناطر ونسفها عند انتفاء الحاجة إليها، وردم الخنادق وبناء السرادقات وحفر الابار وانشاء الصهاريج، وتغيير مجاري الانهار، مع اتخاذ الاجراءات الضرورية التي تطلب من فرقة الهندسة العسكرية الاحتياط والتحوط، فان كانت النتائج خيراً نالت الدولة نصيبها، وان كان غير ذلك، هبت الهندسة لدرء مخاطرها[١١٩].

وفي معرض سياق الحديث عن أهمية الفرقة الهندسية، ودورها في جيش السلطان، فقد انبرى في أثناء حصار صلاح الدين لمدينة الموصل عام(٥٨١هـ/١١٨٥م)، أنه عجز عن احراز النجاح والنصر العسكري عليها، على الرغم من تكرار محاولاته بشتى الوسائل المتوافرة والمتاحة أيامئذ، نظراً لمتانة أسوارها واستحكاماتها العسكرية المتقنة والتحصينات الأمنية المذهلة، التي لايمكن اختراقها بسهولة، لذلك لم يكن مستغرباً، فاقترح عليه بعض رجالات أمنه الخاص به، لاختيار اسلوب تعطيش سكان الموصل، بتحويل مجرى نهر[١٢٠] دجلة بأن له عظيم الشأن وبليغ الأثر، ولم يقف السلطان عند خواصه فحسب، بل عرض الفكرة على الفقيه العالم فخرالدين الدهان البغدادي، وكان يعد مهندس زمانه، فضلاً عن الكفاءة والأهلية اللتين تميزانه، فقال هذا الأمر ممكن ولايتعذر، بيد أن صلاح الدين عدل عنه، لصعوبة تنفيذه بسبب ضخامة تكاليفه مع ضيق الوقت[١٢١].

وفي مجال سياق الحديث عن الجيش الصلاحي، ماقيل عن الدور الأمني والعسكري للفرقة الهندسية، الذي ينبغي قوله عن اعلام دولة صلاح الدين، من حيث التأثير والفعالية في نفوس المقاتلين في أثناء اشتداد وطيس الوغى، فانزال الاعلام أو انعدامها في القتال مع العدو، يفضي بلا أدنى إلى مجال

للريب إلى خلق نوع من الخلخلة والقلاقل في صفوف الجنود، مما ألزم السلطان جيشه بنشره في أثناء سير المعارك مع العدو، وحملها كما يحمل معه الأسلحة والاعتدة ويحاسب على ذلك إذا لم تحمل وتنشر بين صفوف الجنود قبل أن يهيمن عليها الأعداء، ويمكن اقتباس الشاهد التاريخي، على مثل هذه الاعمال من بيت مجتزأ من قصيدة على ماحققه عسكر صلاح الدين على الصليبيين عند حصن بيت الاحزان[١٣٢] عام(٥٧٥هـ/١١٧٩م)، إذ هنأه الشاعر بذلك الفتح المبين واصفاً اياه قائلاً:

وما رجعت اعلامك الصفر ساعة إلى أن غدت أكبادها ترجف[١٣٣]

ومما يعزز رواية أبي شامة ماذكره القلقشندي، حين أشار إلى ان علم الدولة الصلاحية ((كان عبارة عن راية عظيمة من حرير أصفر، مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان))[١٣٤].

- الاقطاع:

يمثل الاقطاع في عهد الناصر صلاح الدين جزءاً من ممارسة إدارية أقدم عليها سلاطينهم وملوكهم، ولما كانت دولتهم قائمة على التوسع باتجاه الشام والجزيرة ومصر واليمن، استوجب معه تعيين الموظفين الإداريين فيها من الامراء والولاة والوزراء والقضاة والجند وأصحاب الدواوين، وغيرهم من الموظفين الآخرين، وأصبح على هؤلاء الموظفين، قبض رواتبهم من الدولة الصلاحية فعوضوهم عنها بطريقة أخرى سهلة، وهي توزيع الاقطاع في العصر السلجوقي[١٣٥]، واختص بهذا الاقطاع الامراء الكبار من الاسرة الصلاحية وكبار الموظفين كالولاة والشحن وقادة الجيش[١٣٦]، وهو شبيه إلى حدما للاقطاع الذي كان موجوداً عند دول المنطقة كالاراتقة والاتابكة،

وجعل المقطع له مسؤولاً عن ارسال موارد إقطاعه إلى خزينة الامارة بعد أن يأخذ نصيبه منها[١٣٧]. كما كان هدف صلاح الدين من وراء توزيع الاقطاع مشابهاً إلى حدما لأهداف السلاجقة والخوارزمية والذي تمثل في توفير المال اللازم لتعمير البلاد، وتوفير القوى الحربية المنظمة، وايجاد شيء من اللامركزية لضبط أمور الدولة، ويسمى هذا النوع من الاقطاع بالاقطاع الإداري[١٣٨].

انه لمن القول الصائب والصحيح والإنصاف البالغ، مبلغ الجدير به، ان نقول لم توجد مميزات عامة لنظام الاقطاع العسكري الصلاحي، بل كان يجب على امراء صلاح الدين المقطعين، بأن يكرسوا ٢/٣ثلثي واردهم من الاقطاع لصيانة الفرسان و١/٣الثلث الخاصة لمصروفاتهم الشخصية، والاقطاعي الصلاحي، كان يتسلم إقطاعين مختلفين، إقطاعاً خاصاً لحاجاته الشخصية وإقطاعاً من أجل إطعام قطعاته وحمايتها، وكانت عقودهم الإقطاعية تحت كل واحد منهم بأن يحمي عدداً ممكناً من الفرسان ومالكي الاقطاعات الصغيرة وتكون مايسمى الحلقة الخاصة التي تحارب في وقت المعركة في الوسط، أما الاقطاعات الأميرية فتمثل الجناحين[١٣٩].

ومضافاً إلى ما مضى فيه الحديث، فان الحقيقة تقال بأنه استطاعت الدولة الصلاحية أن تحمي الفلاحين والمزارعين ضد الأسياد الاقطاعيين، واستمرت في تحديد الضرائب التي يدفعها الفلاحون إلى الأسياد الاقطاعيين.

أما اسماء المقطعين لهم في العهد السلطان صلاح الدين فهم:

١- الأمير شهاب الدين محمد بن تكش الحارمي مقطع له مدينة حماه عام(٥٧٠هـ/١١٧٤م)[١٣٠].

٢- الأمير مظفرالدين بن زين الدين مقطع له الرها عام(٥٧٧هـ/١١٨١م)[١٣١].

٣- الأمير حسام الدين أبوالهيجاء السمين مقطع له نصيبين(٥٧٨هـ/١١٨٢م)[١٣٢].

٤- الأمير علم الدين سليمان بن جندر مقطع له عزاز عام(٥٧٩هـ/١١٨٣م)[١٣٣].

٥- الملك المجاهد أسدالدين شيركوه بن الملك ناصرالدين محمد مقطع له حمص وبلادها عام(٥٨١هـ/١١٨٥م)[١٣٤].

٦- الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب مقطع له حماه ومنبج والمعرة وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها عام(٥٨١هـ/١١٨٦م)[١٣٥].

٧- الأمير سيف الدين بن علم الدين مقطع له بغراس[١٣٦].

٨- الأمير سيف الدين بن علم الدين مقطع له عزاز عام(٥٨٧هـ/١١٩١م)[١٣٧].

٩- الملك المنصور محمد بن الملك تقي الدين عمر مقطع حماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم عام(٥٨٧هـ/١١٩١م)[١٣٨].

ومع ماسبق ذكره فان معرفتنا للاقطاع الصلاحي لاتزال ناقصة غير متكاملة الجوانب، وذلك للنقص الواضح في المادة التاريخية، ولاسيما فيما يتعلق بنظمه وتطبيقاته العملية، كنسبة الضرائب المستحصلة وطبيعة العلاقة بين المقطع من الملوك والامراء والجند من جهة وبين الأمراء والفلاحين والمزارعين من رعايا الاقطاع من جهة أخرى، كما تبقى الجوانب الأخرى غامضة كعلاقة القطعين لهم بالفتح مع المقطع(بالكسر) من

السلاطين والملوك، ولكن مما لاشك فيه انهم كانوا مسؤولين أمامه بتقديم المساعدات المالية والعسكرية كلما دعا داعي الجهاد والحاجة لذلك[١٣٩].

وأخيراً فان الادارة الصلاحية استطاعت أن تستوعب جميع نظم المنطقة المعمول بها قبلهم أو المعاصرة لهم، كما تمكنوا تكييف بعضها بحسب ظروفهم وبيئتهم، الا أنها بقيت تؤدي إلى نفس الهدف والمعنى الذي تؤديه نظم المنطقة، كما اتسمت بدقة التنظيم ولاسيما من ناحية احتوائها على عناصر ذات كفاءة ومقدرة، أثبت رجالها قدراتهم على العمل والابداع بدون كلل، ممايدل دلالة واضحة على رقي نظام إدارتهم[١٤٠].

٢- البحرية الصلاحية:

لقد اعتمد صلاح الدين على وسائل متعددة لحماية الدولة من المخاطر، واتخذ بعض اجراءات جريئة وفريدة وحاسمة، لانشاء قوة بحرية كاملة البنيان، قادرة على الدفاع عن أمن الدولة، عن طريق تحصين الثغور المصرية والشامية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، نظراً لما يفرضه الجهاد البحري مع الصليبيين، علماً ان راكب البحر كان يواجه مخاطر جسيمة، فضلاً عن مخاوف العدو، مع عدم تمكن المقاتل البحري من الفرار بسهولة ممكنة مع مايحدث في البر[١٤١].

وقد استمر إهتمام السلطان بالبحرية حتى أثمرت الجهود المبذولة لتحسين مستوى اداء القوة البحرية عن نتائج ايجابية ساهمت في استتباب نوع من الاستقرار في عموم الديار الصلاحية، وسجلت انتصارات باهرة هنا وهناك على القوة البحرية الفرنجية التي دخلت إلى مياه البحر الأحمر

عام(٥٧٨هـ/١١٨٣م)، بهدف الوصول إلى الحرمين الشريفين، إذ تمكن لؤلؤ الحاجب، ان يتصدى بحزم وقوة لهم، ويرد كيدهم[١٤٣].

لقد زار صلاح الدين مدينة دمياط مرتين الأولى(٥٧٢هـ/١١٧٦م)[١٤٤] والثانية سنة(٥٧٧هـ/١١٨١م)[١٤٥]، وكان معه أولاده كل من الأفضل علي والعزيز وعثمان، وقرر ان يرتب المقاتلين على البرجين فيها، مع تخصيص خمسمائة دينار لعمارة سور المدينة، والنظر في السلسلة التي تمتد بين البرجين[١٤٦]، وخصص أيضاً لعمارة سور مدينة تنيس، مبلغاً قدره ثلاثة آلاف دينار[١٤٧].

ومما لايرقى الارتياب إليه ويتعذر التردد في قبوله، مايذكره أحد المؤرخين، بان الناصر صلاح الدين، أمر خلال زيارته الثانية لمدينة الاسكندرية، سنة(٥٧٢هـ/١١٧٦م): ((... بتعمير الاسطول، وجمع له من الاخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب، أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد مايحتاج الاسطول إليه وشحنه بالرجال، وولي فيه أحد أصحابه... وأمر صاحب الاسطول أن لايبارح البحر ويغزي إلى جزائر البحر))[١٤٨].

ولعل من المناسب درج اهتمام صلاح الدين، بتحصين المدن الساحلية في بلاد الشام أيضاً، إذ قام في عام(٥٨٤هـ/١١٨٨م) بزيارة تفقدية لمدينة عكا، وأمر خلالها بتجديد أسوارها وأبراجها، بتعمير الاسطول وتقويتها، وكلف بالأمر إلى الأمير بهاءالدين قراقوش، الذي أكمل ماكلف به من قبل السلطان[١٤٩].

وقد استمر السلطان في متابعة سير العمل في ديوان الاسطول، وقام بزيارات ميدانية بين فينة وأخرى، للمدن الواقعة على خط المواجهة

العـسكرية مـع العـدو، كالاسـكندرية (٥٧٢هـ/١١٧٦م)[١٥٠]، وعكـا عـام(٥٨٤هـ/١١٨٨م)[١٥١]، وبعـد معرفـة صـلاح الـدين بتعـاظم دور البحريـة وتأثيرها على الوضع العسكري في الجيش الأيوبي، أمـر بزيـادة مخصصات واقطاعـات البحـارة، مـع زيـادة عـدد المراكـب، واصـلاح مـايمكن إصـلاحه منها[١٥٢]، وأصبحت منـارة مدينـة الاسكندرية مركـزاً مهمـاً لرصـد تحركات العدو البحرية، وشرع في اتخاذ جملة من اجراءات أمنية صارمة في الموانيء والأماكن الاستراتيجية كالبحر الأحمر(القلزم) الذي منع السفن الأجنبية من الدخول إليه[١٥٣]، بأي شكل من الأشكال، فضلاً عن وضع بـرج السلسلة عنـد فم نهر دمياط لمنع دخول المراكب إليها[١٥٤].

ومما لانزاع فيه ان الايوبيين قد حققوا نجاحاً بـاهراً وملحوظاً في مجال القوة البحرية، وانتشرت المصانع على طول البلاد وعرضها، منهـا في المقـس، دميـاط، رشـيد، الاسـكندرية، قـوص، الفـسطاط، والمنـصورة[١٥٥]، وتنوعـت القطع بحسب حاجـة الدولـة الصلاحية ومتطلبـات البحريـة إليهـا، فـالقطع الصغيرة كانـت ترافـق الكبيرة لحمايتها السفن التجاريـة منهـا، وكانـت ذات تأثير فعال على نمو وازدهار التجارة وزيـادة القـوة الاقتـصادية للدولـة، كمـا استخدمت الصغيرة للهجمات السريعة الخاطفة[١٥٦]، في حين استعملت الكبيرة لنقل السلع والبضائع أو المؤن العسكرية الثقيلـة وبكميـات كـبيرة[١٥٧]، ولعـل آخر الانتصارات التي حققها القوة البحرية الايوبية، يتمثل بالانتصار الـذي حققه الايوبيون سنة(٦٤٨هـ/١٢٥٠م) على الفرنـج وتمكنوا من الاستيلاء على ثمانين سفينـة واثنتين وثلاثين قطعة أخرى[١٥٨].

وقد تنامت القوة البحرية الصلاحية لدرجـة انهـا أجـبرت الاعـداء، علـى الانسحاب من الكثير من المواقـع الحـساسة، وسـاد الأمـن والاسـتقرار في أغلـب

المدن الساحلية بفضل يقظة القوة البحريـة وفعالياتها المستمرة. فقـد ذكـر لنا ابن شداد ماكان يختلج في صدر صلاح الدين حين التقى معه ذات يوم في حوار مستفيض دار بينهما، قال فيه السلطان: ((في نفـسي أنـه متـى مايـسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قـسمت الـبلاد، وأوصيت وودعـت، وركبـت هـذا البحر إلى جزائرهم، اتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض مـن يكفـر بالله أو أموت))(١٥٩).

يتبين لنا من خلال هـذا الـنص، ان صـلاح الـدين جعـل الاهتمـام بـالقوة البحرية من أولويات عملـه الجهادي، وأنـه أراد تتبـع الغـزاة إلى عقـر دارهـم ومحاربتهم في بلادهم مثلما حاربونا في بلادنا.

هـذا ولاتمـدنا المـصادر التاريخيـة بالمعلومـات الوافيـة عـن المراتـب(١٦٠) العسكرية في البحرية الصلاحية، وكل ما استقيناه من المعلومات، هو إشارات متناثرة في بطون الكتب التي تخص بعـض الالقـاب والمصطلحات والـتي مـن خلالها نستدل على وجود عدد من المراكب البحرية.

ويجـدر بالـذكر أن أحـد المـؤرخين اشـار إلى بعـض المراتـب البحريـة الـصلاحية ومنهـا رتبـة مقـدم، الـتي تعـد مـن أعلـى الرتـب العـسكرية في البحريـة الايوبيـة، لاسـيما في أثنـاء حـصار عكـا عـام(٥٨٥هـ/١١٨٩م)، قولـه: ((لقـد وصـل الاسـطول المـصري ومقدمـه الأمـير لؤلـؤ، وكـان شـهماً شـجاعاً مقداماً خبيراً بالبحر والقتال...))(١٦١).

ولم تقتصر المراتب البحرية الصلاحية على المقدم فقط، بل كانت هناك مراتب أخرى كالرئيس جاءت من خلال روايتين احداهما تقـول: ((... فلمـا جاء اسطول السلطان إلى صور استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهـم المـسلمون وقاتلوهم براً وبحـراً، فبينمـا هـم في أحلى ظفـر وأهنـأ ورد وصـدر إذ ملـك

الفرنج خمسة من شواني المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبدالسلام المغربي ومتوليه بدران الفارسي...))[١٦٢].

وأما الرواية الثانية فقد أشار إليها ابن خلدون حين حدد مهام وواجبات رئيس الاسطول ومفادها: ((كل اسطول يرجع نظره... إلى رئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف وأمر إرسائه في مرفئه...))[١٦٣].

ومن المراتب البحرية الأخرى بعد الوظيفتين السابق ذكرهما، هي مرتبة متولي الاسطول، الذي أشار إليها أبوشامة في احدى رواياته قائلاً: ((... فلما جاء أسطول السلطان الى صور... ومتوليه بدران الفارسي...))[١٦٤].

ومن باب الحفاظ على عدم انفراط عقد الموضوع، فلابأس من الاشارة إلى آخر الرتب البحرية في الدولة الصلاحية الاسطولي، وهو العسكري الذي يعمل في البحر، وكان الناس يقدرون مكانة هؤلاء الخاصة ويسمونهم: ((المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس))[١٦٥].

وليس عجباً إذا قلنا ان المصادر التاريخية لاتسعفنا بمعلومات وافية ومباشرة عن التنظيمات البحرية الصلاحية، ومن النظم البحرية التي لايستبعد وجودها وتطبيقها من قبل قيادة البحرية الايوبية، نظام تعبئة[١٦٦] الاساطيل التي كانت تشبه في سياقاتها البحرية، تعبئة الجيوش البرية إلى حدما، إذ كانت السفن تقسم إلى قلب وجناحين ومقدمة وساق، أو تصطف السفن على هيئة نصف دائرة، حتى إذا ماحاول العدو الاقتراب منها فحاصرته واحاطت به وحطمته، وفي بعض الاحايين كانت سفن الاسطول تقف صفوفاً مستقيمة لتنطح مراكب العدو باللجام[١٦٧] مباشرة وتغرقها، أو جذبها بواسطة الكلاليب[١٦٨].

ومن النظم البحرية الأخرى، هي وظيفة الحسبة، والقائم عليها يسمى المحتسب(١٦٩)، كان من وظائفه في الاسطول، هو مراقبة المراكب قبل شحنها وانطلاقها نحو بغيتها المقصودة، وله صلاحية أن يتصدى لمقدمها ورؤسائها كلما دعت الحاجة إليها.

وقد اشارت المصادر التاريخية إلى ان رجال البحرية الصلاحية، لم يهملوا استخدام حمام الزاجل، لتبادل معلومات عسكرية مهمة بين سفنها واسطاليها، لاسيما في أثناء الحروب، نظراً لما يتمتع به هذا النوع من الحمام من ذكاء وسرعة في الطيران، واهتدائه إلى عشه مهما بعدت بها المسافة(١٧٠)، جرى استخدامه حين وصلت الأخبار إلى صلاح الدين الذي كان نازلاً بفاقوس، بوصول الحملة الصقلية المشتركة إلى الاسكندرية عام(٥٦٩-٥٧٠هـ/١١٧٣-١١٧٤م)(١٧١).

واسترشاداً بمانجم عن الاحداث وتمحيصاً للوقائع عن النظم البحرية الصلاحية، يظهر لنا رجالات قادة أكفاء كانوا يقودون البحرية في عهد صلاح الدين، وخاضوا الكثير من المعارك الجهادية التي أبلوا فيها بلاءً حسناً في الدفاع عن ديار الاسلام ومقدساته، والحاق الخسائر الجسيمة بالصليبيين. ومن أبرز هؤلاء القادة هم كل من الحاجب حسام الدين لؤلؤ عام(٥٧٨هـ/١١٨٢م) الذي تصدى للهجوم الصليبي الذي وقع على قلعة ايلة والحجاز(١٧٢). وكذلك يعقوب الحلبي الذي كان قائداً للاسطول الصلاحي في بيروت في أثناء حصار عكا عام(٥٨٧هـ/١١٩٦م)، والمتسم بالشجاعة النادرة، حين قال: ((والله لانقتل إلا عن عز ولانسلم إليهم من هذه البطسة(السفينة) شيئاً))(١٧٣).

وذكـرت لنـا المـصادر التاريخيـة اسمـاء قـادة بحـريين آخـرين هـم، جمـال الـدين محمـد بـن أركـكـز[١٧٤] الـذي كـان قائـداً لإحـدى الـسفن الحربيـة الـتي شاركت في حصار مدينة عكا سنة(٥٨٦هـ/١١٩٠م). وكذلك عبدالسلام المغربي، الذي تولى قيادة الاسطول الصلاحي في أثناء حصار صور والشيء نفسه يقال عن رفيقه بدران الفارسي عام(٥٨٦هـ/١١٩٠م) في الحصار نفسه[١٧٥].

علـى الـرغم مـن ان المـصادر لاتمـدنا بمعلومـات بخـصوص الرواتـب والمخصصات التي كانت تدفع لافراد البحرية الصلاحية، الا ان صلاح الـدين لم يغفلهم، فقد قرر سنة(٥٦٧هـ/١١٧٢م)، رفع رواتب البحارة إلى ثمان ونصف الدينار(٨,٥ دينار) من رواتبهم، أي بزيادة ٢٠٪ تقريباً[١٧٦]. وكان الهدف مـن هـذه الزيـادة تـشجيع النـاس علـى الالتحـاق والانخـراط بـصفوف البحريـة الصلاحية والخدمة في الاسطول[١٧٧].

أما فيما يخص ملابس رجال البحرية الصلاحية، فقـد ذكـر المقريـزي في أيام السلم، كان رؤساء السفن يلبـسون الـشقق[١٧٨] الاسـكندراني والكلوتـات[١٧٩] والمناديل[١٨٠] السوسية والفوط[١٨١] والحرير.

ونظراً للحاجة الماسة للجيش الصلاحي الى دور صناعة السفن مـع طـول الـسواحل البحريـة الـتي تطـل عليهـا الدولـة الايوبيـة فأقتـضت الـضرورة العسكرية والامنية إلى اقامة عددٍ من دور صناعة السفن منها، كدار صناعة الجزيـرة(الروضـة) الـتي تقـع في نهـر النيـل[١٨٢]، ودار صـناعة مصر(الفسطاط)[١٨٣]، ودار صناعة المقس[١٨٤]، ودار صناعة الاسكندرية[١٨٥]، ولابـأس مـن الاسـتعانة بالاشـارات التاريخيـة، فيمـا يتعلـق بالـسفن الـتي استخدمت في عهد السلطان صلاح الدين، منها:

١- الشيني: وقد عرّفه الزبيدي بقوله: ((المراكب المعدة للجهاد في البحر، والجمع شواني لغة مصر أيضاً))[١٨٦]. وتعد الشواني من أقدم السفن تاريخياً، وكانت من أهم القطع التي يتألف منها الاسطول الصلاحي[١٨٧].

٢- الطريدة: جمعها طرائد، وهي من المراكب المهمة المستخدمة في العصور الوسطى، تعد مركبة حربية، تشبه إلى حدما الصهاريج الكبيرة، وتتميز عن غيرها من السفن، لحملها الحيوانات بما فيها الخيول والجياد، وانها تتسع لحمل أربعين فرساً[١٨٨] وقد وصفها الزبيدي بقوله: ((انها سفينة سريعة السير والجري))[١٨٩].

٣- الحراقة: هي كلمة مفردة، جمعها حراريق وحراقات، وهي سفن فيها مرامي النيران، وتخصص لها مواقع خاصة في السفينة نفسها[١٩٠]. ويعبر إسمها عن الوظيفة التي حددت عملها اساساً وهو إحراق سفن العدو، بالاعتماد على مادة النفط المستخدمة فيها، ثم اغراقها وتدمير مايمكن تدميرها[١٩١]. يذكر المقريزي في احدى رواياته إلى ان السلطان صلاح الدين أقدم في عام(٥٧٧هـ/١١٨١م)، على إنشاء أربع حراريق بصناعة دار مصر، ثم ارسالها إلى بلاد اليمن[١٩٢].

٤- البطسة أو البطشة: من المراكب الكبيرة في البحرية الصلاحية، وهي سفينة عظيمة الحجم كثيرة الأشرعة[١٩٣]، وكانت غالباً ماتستعمل لنقل الازواد والذخائر والميرة، ومايحتاج إليه الجند من المعدات والاعتدة الحربية[١٩٤]. وكذلك لها القدرة على نقل (٧٠٠)مقاتل تقريباً في وجبة واحدة كما حصل في أثناء حصار مدينة عكا عام(٥٨٦هـ/١١٩٠م)[١٩٥].

٥- المسطح: نوع من المراكب الحربية الكبيرة ذات الحجم والشكل يكاد يشبه البطسة تماماً[١٩٦].

٦- الحمالة: لاتقل عن أخواتها السابقات في المهام التي كانت تناط بها وقت السلم والحرب على السواء، وكانت تستعمل في عمليات نقل المؤونة وأفراد واللوازم التي يتطلبها رجال الاسطول الصلاحي(١٩٧).

٧- الشلندي: وهي مركب حربي كبير مسطح، وفي الأصل كانت مخصصة لنقل المقاتلين والأسلحة والسلع. وكان لهذا النمط من المراكب أهمية لاتقل عن الشواني والحراريق(١٩٨). وقد أشار إليها العماد الاصفهاني في المعارك البحرية التي دارت رحاها مع الاسطول الصليبي في الدفاع عن مدينة عكا إبان حصارها(٥٨٦هـ/١١٩٠م)، قائلاً: ((وصل الاسطول... ظاهراً خميسه... تأثراً بالأسد عريسه، في شوان للعدو شائن وشلنديات لشله وفله ضوامن...))(١٩٩).

٨- البركوس(٢٠٠) أو البركوش: تعد نوعاً آخر من سفن الاسطول الصلاحي، وهي من المراكب الصغيرة، كانت تستعمل لركوب الجند وعامة الناس(٢٠١)، ولقد استأمنها صلاح الدين لأعدائه من الفرنج الذين كانوا قد تركوا صفوف الصليبيين بسبب الجوع والخوف، وولوا شطر المعسكر الصلاحي، في أثناء حصار عكا عام(٥٨٦هـ/١١٩٠م)، ولقد اشار العماد الاصفهاني الحوار الذي دار بينهم وبين السلطان هذا نصه: ((نحن نخوض البحر في براكيس، ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فإنها لهم في ذلك وأعطاهم بركوساً وهو المركب الصغير، فركبوا فيه، وظفروا بمراكب العدو))(٢٠٢).

٩- الأعزازي: نوع آخر من المراكب التي كانت موجودة في تلك الحقبة الزمنية، وهي سفينة صغيرة الحجم، ذات الطابع العسكري والتجاري على السواء(٢٠٣).

١٠- العشيري: نوع آخر من انواع السفن التي دخلت في صفوف السفن والمراكب الصلاحية بغية الحفاظ على الأمن البحري، وهي سفينة ضخمة الحجم والشكل والقوام، مصنوعة من الالواح الخشبية غالية الاثمان[٢٠٤]، وكانت تتكون عادة من طابقين، ففي العلوي يجلس الرئيس والمسؤول عن السفينة، وفي السفلي، كان يتمركز الملاحون، إذ يقومون بالجذف ليسير المركب[٢٠٥]. وهناك انواع أخرى من السفن منها المرمة[٢٠٦] والجلاسة[٢٠٧].

لايختلف القاصي والداني في ان الجيش لايمكن تعزيزه، مالم يتسلح رجالاته بالمعدات المطلوبة لتنفيذ هذه الغاية، استرشاداً بقوله جل وعلا: ((واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)). وعلى هذا كان لابد للسلطة الصلاحية أن تتوصل بالشرطة والجيش والعناصر الأمنية الأخرى بما فيها رجال البحرية لتثبيت الأمن واشاعة الطمأنينة بين أرجاء الدولة الأيوبية.

وفي عهد صلاح الدين استعملت الجيوش، في حروبها البرية والبحرية أنواعاً متعددة من الأسلحة للهجوم والدفاع، منها الأسلحة الخفيفة كالسيوف والأقواس، والرماح، والدروع، والنشاب، واللتوات[٢١٠] والدبابيس[٢١١]، والترس[٢١٢]، والكلاليب، والباسليقات[٢١٣]، والتوابيت[٢١٤] واللجام، ومنها الأسلحة الثقيلة كالدبابة[٢١٥]، والمنجنيق[٢١٦]، والعرادة[٢١٧]، والقذائف النارية والبارودية وغيرها[٢١٨]، ومنها الأسلحة الثابتة، كالحصون[٢١٩] والخنادق[٢٢٠]، والحسك الشائك[٢٢١]، فلم تعد الأسلحة الصلاحية مقتصره على أسلحة اليد التقليدية، أي التي كانت تستخدم من قبل الفرد المحارب، بل أدخلت النار في قوام اسلحة الرشق، لقذف العدو بها، فقد توصل المعنيون بشأن هذه الصناعات الى صنع نوع من القنابل أو قوارير النفط، التي هي عبارة عن

قـدور يجعـل فيهـا الـنفط، ثـم يرمـى بهـا علـى الحـصون والقـلاع المـراد احـراقها[٢٢٢].

وقد استعمل جيش السلطان صلاح الدين النار في مناسبات متعددة سواء كـان في قـذفهم أو في دكهـم الحـصون والقـلاع والمـدن الـتي يحتلـها[٢٢٣] الصليبيون، فقد أحرقوا بقذائفهم دبابة ابن ملك الالمان الهائلة، وكذلك احرقوا بالمستحضرات التي ركبها ابن عريف النحاسي الدمشقي، ابراج العدو التي نصبوها على أسوار عكا في ٢٨ربيع الأول عام(٥٨٦هـ/١١٩٠م)[٢٢٤].

أما مصادر تموين الجيش أيام صلاح الدين، فقد كان كل إقليم يوفر المؤن والذخائر اللازمة لعساكره في حالة السلم والحرب، وكان الجيش يؤمن مؤنتـه مـن المنـاطق الـتي يـستولي عليهـا أيضاً، لاسيما إذا علمنـا ان معظـم الجيش الصلاحي اعتمد على وسائط ووسائل بطيئة[٢٢٥]، تنقل بواسطتها قافلة خاصة، تحمل الذخائر، والملابس، وكانت تسير في وسط القوات العسكرية عادة، من أجل حمايتها من مهاجمة الأعداء لها، ولاسيما في حالة سيرها في مؤخرة الجيش، ولكن إذا أراد الله أمراً هيأله أسبابه، كالذي وقع لقافلة جيش السلطان عام (٥٨٤هـ/١١٨٨م)[٢٢٦]. وكذلك حين استولى أرناط- رينالددي شايتون على قافلة تجارية سنة(٥٨٢هـ/١١٨٦م) يرافقها عدد كبير من الرجال والنساء، فضلاً عن هيمنته على أموالها، فقام بقتل العديد من المرافقين لها، مع أسر الباقين من الرجال والنساء، وزجهم في سجون تعيسة، وأساء معاملتهم ورفض الطلب برد الأموال والأنفس، وقد أثار ذلك استياء وحفيظة صلاح الدين الذي نذر على نفسه قتله وقد تحقق نذره حين وقع أسيراً بين يديه[٢٢٨].

لقد وصف الرحالة الفيلسوف والطبيب عبداللطيف البغدادي سنة(ت ٦٢٩هـ/١٢٢٩م) السوق الذي كان يرافق صلاح الدين في حصاره لعكا وصفاً واضحاً، فقال: ((إنه ذو مساحة فسيحة، فيه(١٤٠) دكاناً للطباخين يملك واحدهم مايقارب(٢٨)قدراً يتسع كل قدر لرأس غنم واحد، وعدد الدكاكين سبعة الآف كل واحد منها يعادل مئة من دكاكين المدينة، وكان منها دكاكين لبيع البز القديم والجديد. وكان ترافق العسكر الحمامات وهي بسيطة، عبارة عن سور من القماش والحصير وحفرة، وكان عدد الحمامات أكثر من ألف فيحضرون ذراعين فيخرج الماء، ثم يجعلون الحوض من الطين ويسترونه بالحطب والحصير، ويقطعون حطباً من البساتين حولهم ويجمعون الماء في قدور...))[٢٢٨].

هوامش الفصل الثالث:

(١) صالح أحمد العلي: بغداد مدينة السلام، ١/١٢٤-١٢٥؛ أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد، ص١٨٩؛ د.نسرين محمود: الأمن في مصر وبلاد الشام في عهد صلاح الدين، ص١٧٣.

(٢) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص٦٦.

(٣) شاكر مصطفى: صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، ص٣٥٩.

(٤) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص٣٢؛ نعمان ثابت: الجندية في الدولة العباسية، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٥٦م، ص٤٢؛ فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٦م، ٢/٣٠٦.

(٥) الهرثمي: المصدر السابق، ص٣٢.

(٦) ابن دريد: جمهرة اللغة، مطبعة المجلس، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الدكن، ١٣٤٥هـ، مادة البذرقة والخفارة.

(٧) الهرثمي: المصدر السابق، ص٣٤-٣٥؛ خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، ص٣٩.

(٨) الهرثمي: المصدر السابق، ص٣٩؛ نعمان ثابت: الجندية، ص١٣٦.

(٩) الطواشية: هم مختارون من فئات راقية، وصار بعضهم قواد في جيش صلاح الدين. نظير سعداوي: التاريخ الحربي، ص١١٠. وهنا معنى آخر هو الخدام الخصيان. ينظر: القلقشندي: صبح، ٣/٤٧٧؛ ابن تغري: النجوم، ١٥/١٢؛ حسن الباشا: الالقاب، ص٣٨٢.

(١٠) القره غلامية: تعني هذه الكلمة بالتركية ولد أسود، ولعلها كانت تطلق على السودان، وهي أقرب إلى الصحة، لأن كلمة قره باللغة التركية تعني الأسود، ثم تطورت هذه الكلمة وصارت تطلق فيما بعد على باقي الفرسان الذين هم دون مستوى الطواشي. ابن مماتي: قوانين، ص٣٥٦؛ المقريزي: الخطط، ١/١٦.

(١١) الطلب: وجمعه أطلاب كلمة كردية أو ربما تركية كما ذكرها المقريزي ومعناها الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال. وتطلق ايضاً على قائد المائة، وكذلك السبعين، وكان أول استعمال لهذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين.

ابـن واصـل: مفـرج، ٥٩/٢، هـامش رقـم(٣)؛ المقريـزي: الـسلوك، ٢٤٨/١، هـامش رقم(٥)؛ محسن محمد حسين: الجيش، ص١٠٢، هامش رقم(٣).

(١٢) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين، المطبعة الشرقية، بغداد، ١٩٤٥م، ص١٣٣؛ ابـن الجوزي: المنتظم، ٣٥/١٠، ٥٨، ١٥٧.

(١٣) شاكر مصطفى: صلاح الدين، ص٣٦١.

(١٤) المقريزي: الخطط، ١٦/٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦١.

(١٥) ابن شداد: النوادر، ص٤٦؛ ابـن خلكان: وفيـات، ٣٠٦/١؛ الروضـتين، ٥٥١/٢؛ ابـن كثير: البداية، ٢٧٣/١٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٧.

(١٦) ابن شداد: المصدر السابق، ص٤٧-٤٨؛ ابن واصل: مفرج، ١٦/٢-١٧.

(١٧) ابن شداد: المصدر السابق، ص٤٧-٤٨؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ١٦٥/٧.

(١٨) البنـداري: سـنا الـبرق، ٤١٤/١؛ ابـن الأثـير: المـصدر الـسابق، ٢٥٠/١٣، ٢٦٨؛ ابـن واصـل: المـصدر الـسابق، ٦٠/٢؛ الـذهبي: العـبر، ٢١٦/٤؛ محـسن محمـد: المرجـع السابق، ص٦٧.

(١٩) شاكر مصطفى: صلاح الدين، ص٣٦٧.

(٢٠) المقريزي: الخطط، ٨٦/١.

(٢١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص٣٦٢-٣٦٣.

(٢٢) نفسه، ص٣٦٣؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٧.

(٢٣) المقريزي: المصدرالسابق، ٨٦/١.

(٢٤) نفسه، ٨٦/١؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص٣٦٣.

(٢٥) ابوشامة: الروضتين، ٢٧/٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٨.

(٢٦) البنداري: سنا، ١٤٧/١-١٤٩؛ ابـن الاثـير: المصدر السابق، ٢٥٠/١٣ ومابعـدها؛ ابـن واصل: المصدر السابق، ٢٤٣/١-٢٤٥؛ محسن محمـد حـسين: المرجـع الـسابق، ص٦٨-٦٩.

(٢٧) البنداري: المصدر الـسابق، ١٤٧/١-١٤٩؛ ابـن الاثـير: المـصدر الـسابق، ٢٥٠/١٣؛ ابـن واصل: المصدر السابق، ٢٤٣/١-٢٤٥.

(٢٨) البنداري: المصدر الـسابق، ١٦٩/١-١٧٥؛ ابـن الاثـير: المـصدر الـسابق، ٢٤٨/١٣؛ ابـن شداد: المصدر السابق، ص٤٨-٤٩؛ ابن واصل: مفرج، ١١/٢-١٦.

(٢٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٥٠/١٣؛ الباهر، ص١٥٨؛ ابوشامة، الروضتين، ٥١٨/٢.

(٣٠) سبط ابن الجوزي: مرآة، ٣٣٣/٨-٤١٥؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٨/٢، ٢٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ٢٦/٣؛ المقريزي: السلوك، ٦١/١.

(٣١) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ٣٣٣/٨-٤١٥؛ ابن العديم: المصدر السابق، ٢٦/٣؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٩.

(٣٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص٥٩؛ ابن العديم: المصدر السابق، ٦٦/٣؛ أبوشامة: المصدر السابق، ٤٢/٢.

(٣٣) ابن الاثير: الكامل، ٣٢٥/١٣ ومابعدها؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٩.

(٣٤) محسن محمد حسين: نفسه، ص٦٩.

(٣٥) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ٣٣٣/٨-٤١٥؛ ابن العديم: السابق، ٢٦/٣.

(٣٦) الجاويش: في الأصل الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر، ثم اطلق على مقدمة القلب في الجيش، أو على الطليعة منه. القلقشندي: صبح، ٨/٤.

(٣٧) القلقشندي: المصدر السابق، ٨/٤.

(٣٨) المقريزي: السلوك، ٨٧٠/١، هامش رقم(٢).

(٣٩) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٩٠؛ أبوشامة: المصدر السابق، ١٤٤/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٣٢٦/٢؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٧٨.

(٤٠) العماد الأصفهاني: الفتح، ص٢٣٥؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٩٨، ١٠٩، ١٤٧، ١٥٩؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٢٩٥/٢؛ محسن محمد: المرجع السابق، ص١٥٧.

(٤١) الطليعة: التي يطلع من الجيش يبعث لمطالعة أخبار العدو. ابن منظور: لسان العرب، ٣٢٧/٧.

(٤٢) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٨٠.

(٤٣) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص٤٩؛ تفريج، ص٥٢.

(٤٤) ياقوت: البلدان، ٥١٩/١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ٣٥٤/٨.

(٤٥) العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ١٤٨/٣-١٥٢؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ٣٥٤/٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٧٢/٢.

(٤٦) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٠٧/١٣-٣٠٨.

(٤٧) نفسه، ٣٢٥/١٣ ومابعدها؛ وينظر: دريد عبدالقادر: سياسة صلاح الدين، ص٢٨٥؛

Rose bault charlies. T: Saladin prince of chivalary London, 1930, p.182;

نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٨١-١٨٢.

(٤٨) اليزك: مصطلح فارسي معناه الطلائع، وهم جماعة الاستكشاف التي ترسل إلى جبهة العدو، قبل توجه الجيش نحوه، فالمهمة التي يقوم بها محاربو اليزك، كانت جزءاً من نظام الاستخبارات، واجبها ايصال المعلومات العسكرية إلى قيادة جيش صلاح الدين بالسرعة الممكنة. أدي شير: الالفاظ الفارسية المعربة، بيروت، ١٩٠٨م، ص١٦٠؛ محمد التونجي: المعجم الذهبي، بيروت، ١٩٦٩م، ص٦١٩؛ ويراجع: ابن واصل: مفرج، ٣٨/١، هامش رقم(٣).

(٤٩) العماد الاصفهاني: الفتح، ص ص٣٢٥، ٤٨٢، ٤٩٢، ٥٢٨، ٥٣٥؛ ابن شداد: النوادر، ص ص٨٣، ٩٨، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٧، ١١٤؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢٠٣/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٤٠٢/٢.

(٥٠) الهيثم الأيوبي والآخرون: الموسوعة العسكرية، الوجيز في الحروب، بيروت، ١٩٧٧م، ص١٣٠-١٣١؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٨٥-١٨٦.

(٥١) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٩٢.

(٥٢) نفسه، ص٢١٧، ٢٣١؛ أبوشامة: المصدر السابق، ٢٠٣/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٤٠٢/٢.

(٥٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص٢٣٦.

(٥٤) نفسه، ص١٨٢.

(٥٥) محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص١٨٧؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٨٦؛

Quatermere: Histoire dessutanns, Mamluk, paris, 1840, vol.I, p.225.

(٥٦) العماد الاصفهاني: الفتح، ص٢٨٩؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٩٨؛ أبوشامة: المصدر السابق، ١٤٠/٢؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٥٢/٢-٥٣؛ هارولد لامب: شعلة الاسلام، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٧م، ص١٥٤.

(٥٧) تل العياضية: هو تل مشرف على عكا. ابن شداد: النوادر، ص١٠٨.

(٥٨) الخروبة: حصن بسواحل بحر الشام(المتوسط) مشرف على عكا. ياقوت: البلدان، ٣٦٢/٢؛ ابن الاثير: الكامل، ٣٧١/١٤.

(٥٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٨٧/١٤.

(٦٠) نفسه، ٣٨٨/١٤-٣٨٩.

(٦١) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٨٧-١٨٨.

(٦٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٧٤؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص١٩٠.

(٦٣) العماد الأصفهاني: الفتح، ص٤٥١؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص١٤٧.

(٦٤) أبوشامة: المصدر السابق، ١٩٧/٢؛ ابن واصل: مفرج، ج٣٨٢/٢-٣٨٣؛ ابن الفرات: تاريخ، مج٤، ج٦٥/٢-٦٦.

(٦٥) الهيثم الأيوبي: الموسوعة العسكرية، بيروت، ١٩٩٧م، ٢٥/١؛ نسرين محمود علي: صاحب الخبر في العصر العباسي رسالة ماجستير، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، ١٩٩٩م، ص١٣٥.

(٦٦) نسرين محمود علي: صاحب الخبر في العصر العباسي، ص١٣٥.

(٦٧) ابن واصل: مفرج، ٣٧٥/٢-٣٧٩؛ جيمس رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٤٨-٣٤٩؛ نسرين محمود: الأمن في مصر وبلاد الشام، ص١٩٤.

(٦٨) زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ١٩٥٨م، ص١٦٣؛ شاخت وبوزورث: تراث الاسلام، الكويت، ١٩٨٨م، ٣٣/١-٣٤.

(٦٩) صور: مدينة مشهورة من ثغور المسلمين، وهي مشرف على بحر الشام(المتوسط). ياقوت: البلدان، ٤٣٣/٣.

(70) Histoire Des croissdeset du Royaume france de Jerusalem, paris, 1935, pp.211-212.

(٧١) ابوشامة: المصدر السابق، ٢٠٠/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٣٩٣/٢.

(٧٢) ابن شداد: النوادر، ص٢٢٩؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢٠٢/٢.

(73) Barbers Richard: The Devils corown, Book club associate, London, 1987, p.108; نسرين محمود: الأمن، ص١٩٥ .

(٧٤) نسرين محمود علي: صاحب الخبر، ص١٥٥.

(٧٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٧١/١٤-٣٧٢.

(٧٦) بطسة: بطشة: من المراكب الكبيرة في البحرية الأيوبية، وهي سفينة عظيمة الحجم كثيرة الأشرعة، وقد يصل عددها في البطسة الواحدة إلى أربعين أشرعاً. الحموي: تاريخ، ص٤٠؛ سعاد ماهر: البحرية، ص٣٣١.

(٧٧) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٧٨/١٤-٣٧٩.

(٧٨) نفسه، ٣٧٨/١٤-٣٨٠؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص١٣٥.

(٧٩) نسرين محمود علي: الأمن، ص١٩٨.

(٨٠) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٨١) الراغب الأصفهاني: محاضرة الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت، ١٩٦١م، ص٢٨-٣٠.

(٨٢) نەبەز مجيد أمين: المشطوب الهكاري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٩١م، ص٢٨٨.

(٨٣) محسن محمد حسين: المشطوب الهكاري، سيرة مجاهد، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج٨/٣٠٨.

(٨٤) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، حلي المغرب، تحقيق: حسني نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٩٢؛ اليافعي: مرآة، ٣٩٨/٣؛ ابن كثير: البداية، ٢٩٧/١٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣٤٤/٤.

(٨٥) ابن شداد: النوادر، ص١١٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ٢٧٨/٨؛ ابن خلكان: وفيات، ١٨٣/١؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢٢٤/٢.

(٨٦) شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق، ص٢١٤؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، ٢٨/٩؛ اليونيني: المصدر السابق، ٢٢٤/٢؛ ابن الفرات: تاريخ، مج٤، ج٢٨/٢؛ ابن قاضي شهبة: الطبقات الشافعية، اعتنى بتصحيحه وعلق عليه عبدالعليم خان، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٠٧.

(٨٧) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، قسم مصر، تحقيق: محمد بهجت الأثري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٤م، ٣٥/١؛ ياقوت: الأدباء، ١٨/١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم، ١٥٧/٦.

(٨٨) ابن الساعي: الجامع المختصر، ٦٤/٩؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ٤٤٦/٢-٤٤٧؛ الاسنوي: طبقات المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٤-١٦.

(٨٩) ابن خلكان: المصدر السابق، ٢٦٤/٥، ١٥٣/٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ٤٨٦/١؛ ابن خلدون: العبر، ٢٢٩/٤؛ سعيد الديوهجي: تاريخ الموصل، ٩١/١-٩٢.

(٩٠) حسام الدين لؤلؤ: هو قائد الاسطول المصري في البحرية الايوبية. ابن شداد: المصدرالسابق، ص١٣٨؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٣٧/٢؛ الذهبي: الدول الاسلام، ٦٦/٢.

(٩١) ابوالهيجاء السمين: كان من خواص صلاح الدين وانيطت اليه قيادة الفرقة الصلاحية. ينظر: أحمد عبدالعزيز محمود: الامارة الهذبانية الكردية، ص٦٦؛ السيد الباز العريني: الشرق الأدنى، ص١٦٥؛ محسن محمد حسين: الجيش، ص١٩٧.

(٩٢) بهاءالدين قرقوش: هو أبوسعيد عبدالله بهاءالدين قرقوش الاسدي، نسبة إلى الأسدالدين شيركوه، لأنه كان من كبار مماليكه ثم خدم صلاح الدين وتولى زمام أمر القصر، وناب عنه في بعض المناسبات. ينظر: ابن خلكان: وفيات، ٩١/٤-٩٢.

(٩٣) عزالدين جورديك النوري: من الأمراء الاتراك الكبار في جيش نورالدين محمود، ثم دخل في خدمة صلاح الدين واحتفظ بمكانته الكبيرة بين الامراء في الجيش الأيوبي توفي سنة(٥٩٤هـ/١١٩٨م). ينظر: ابن تغري: النجوم الزاهرة، ١٤٣/٤.

(٩٤) محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص١٩٧؛ نسرين محمود علي: الأمن، ص٢٠٠.

(٩٥) نەبەز مجيد: المشطوب الهكاري، ص٢٨٨.

(٩٦) محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص١٩٧-١٩٨؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٠١.

(٩٧) محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص١٩٣-١٩٨؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٠١.

(٩٨) ابن الاثير: الكامل، ٢٢٠/١٣-٢٢١؛ الباهر، ص١٥٨-١٥٩؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٥١٩/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٢٢١/١-٢٢٢.

(٩٩) الأيوبي الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه(ت ٦١٧هـ/١١١٠م): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، دار

الهنا، طبع عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٢٤؛ محسن محمد: المرجع السابق، ص١٣٦.

(١٠٠) البنداري: سنا البرق الشامي، ٣٣٣/١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٨٠/٢؛ ابن كثير: البداية، ٣٠٣/١١-٣٠٤.

(١٠١) ابن العديم: زبدة، ١٨/٣؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٦٤/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ١٧٠/٢-١٧١.

(١٠٢) العماد الأصفهاني: الفتح، ص٣٢٢-٣٢٤؛ ابوشامة: المصدر السابق، ١٤٦/٢؛ ابن الفرات: تاريخ، مج٤، ج٢٢/٢.

(١٠٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص٣٣١؛ ابن شداد: النوادر، ص١٣١؛ نسرين محمود: الأمن، ص٢٠٤.

(١٠٤) خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، ص١١٨؛ ابوزيد شلبي: تاريخ الحضارة الاسلامية، ص١٤٥؛ فتحي عثمان: الحدود الاسلامية، ٣٠٥/٢.

(١٠٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٤٨.

(١٠٦) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص٢٢٣؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص١٣٥-١٣٦؛ ابوشامة: المصدر السابق، ١٦٢/٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٠٨.

(١٠٧) ابن الفرات: المصدر السابق، مج٤، ج٥/٢؛ الحنبلي: الانس الجليل، ٣٦٣/١.

(١٠٨) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٢٠؛ قدري قلعجي: صلاح الدين، ص٣٨١.

(١٠٩) ابراهيم أحمد العدوي: الحمام الزاجل في العصور الوسطى، مجلة تاريخية مصرية، القاهرة، ١٩٤٩، العدد(١)، مج١٣٢/٢.

(١١٠) محسن محمد حسين: الجيش، ص١٨٠؛ نهبهز مجيد أمين: الاستخبارات الأيوبية في عهد صلاح الدين، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٩٧م، ص٣٠٧.

(١١١) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٧٥/١٣.

(١١٢) ابوشامة: المصدر السابق، ٦/٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢١٠.

(١١٣) القلقشندي: صبح، ٣٩١/٤؛ شاكر مصطفى: المدن في الاسلام، ٦٢٣/٢.

(١١٤) الشيزري: النهج السلوك في سياسة الملوك، القاهرة، ١٣٢٦هـ، ص٨٩، ١٠٦؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢١٠.

(١١٥) القلقشندي: المصدر السابق، ٣٩١/٤؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ٦٢٣/٢.

(١١٦) أخباز أي أقطاع. ابن شداد: النوادر، ص٢٤٥؛ المقريزي: السلوك، ٨٥/١.

(١١٧) محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٦٧.

(١١٨) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص٥٦؛ الأوسي الانصاري: تفريج الكروب، ص٦٠.

(١١٩) نهاد عباس الجبوري: تدابير الأمن العسكري، ص٢٣٥.

(١٢٠) أبوشامة: الروضتين، ٦٣/٢؛ ابن واصل: مفرج، ١٦٧/٢.

(١٢١) ابن واصل: المصدر السابق، ١٦٧/٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص١٦٣.

(١٢٢) بيت الاحزان: بلد بين دمشق والساحل، سمي بذلك لانهم زعموا انه كان مسكن يعقوب أيام فراقه ليوسف. ياقوت: البلدان، ٥١٩/١.

(١٢٣) ابوشامة: المصدر السابق، ١٢/٢؛ ابن واصل: مفرج، ٨٤/٢.

(١٢٤) القلقشندي: صبح، ٧/٤؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٢١٥.

(١٢٥) نافع توفيق العبود: الدولة الخوارزمية، ص٢٣٧؛ محمود ياسين: الايوبيون، ص٣٥٠.

(١٢٦) ابراهيم علي طرخان: النظم الاقطاعية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١١-٤٧؛ الباز العريني: الشرق الأدنى، ص١٩٢.

(١٢٧) سوادي عبد محمد الرويشدي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، اطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٣١١.

(١٢٨) الباز العريني: المرجع السابق، ص١٩٢؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٥٠.

(129) The Journal of the roual Asiatic society, p.431. (Artayubid feudalism).

(١٣٠) ابوشامة: المصدر السابق، ٦٤٠/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٢٤/٢.

(١٣١) ابن واصل: المصدر السابق، ١١٧/٢؛ النويري: نهاية، ١١٦/٢٦.

(١٣٢) النويري: المصدر السابق، ١١٥/٢٦.

(١٣٣) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ص١٤٩.

(١٣٤) ابن واصل: المصدر السابق، ١٧٥/٤؛ الغساني: العسجد، ١٩٢/٢-١٩٣.

(١٣٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٤٨.

(١٣٦) نفسه، ص٢٣٦.

(١٣٧) نفسه، ص٢٤٨؛ ابن الفرات: تاريخ، مج٤، ج٢/٣٧٩.

(١٣٨) نفسه، ص٢٤٩.

(١٣٩) محمود ياسين: الايوبيون، ص٣٥٦-٣٥٧.

(١٤٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٦٤/١٢؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٥٧.

(١٤١) ابن الازرق الفارقي: بدائع السلك، ص١٥٧.

(١٤٢) كان رجلاً أميناً من غلمان القصر، خدم السلطان صلاح الدين كمقدم للاسطول. ينظر: الذهبي: العبر، ١٢٣/٣-١٢٤.

(١٤٣) العماد الأصفهاني: البرق شامي، ٦٩/٣-٧١؛ الفتح، ص٣٤٠.

(١٤٤) أحمد عبدالجواد الدومي: صلاح الدين الأيوبي، بيروت، د.ت، ص٥٢؛ كامل أسود قادر: البحرية الايوبية(٥٦٤-٦٤٨هـ/١١٦٨-١٢٥٠م)، رسالة ماجستير، كلية الاداب، جامعة صلاح الدين، ٢٠٠٢م، ص٣٥.

(١٤٥) ابوشامة: الروضتين، ٢٦٨/١؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٣٥.

(١٤٦) المقريزي: الخطط، ٢١٥/١؛ السلوك، ١٨٦/١.

(١٤٧) المقريزي: الخطط، ١٨١/١؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٣٦.

(١٤٨) ابوشامة: المصدر السابق، ٢٦٩/١.

(١٤٩) ابن واصل: مفرج، ٢٥٣/٢؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٣٧.

(١٥٠) ابن كثير: البداية، ٢٣٠/١٢؛ جب: صلاح الدين، ص١٤٢؛ الباز العريني: مصر في عصر الأيوبي، ص١٧٩.

(١٥١) ابن واصل: المصدر السابق، ٢٥٣/٢.

(١٥٢) نفسه، ٢٥٣/٢؛ مهدي قادر خضر: الأمن في مصر في العصر الأيوبي، ص٩٣.

(١٥٣) ابن واصل: المصدر السابق، ٢٥٨/٢؛ ايليسيف: الشرق الاسلامي، ص٤٦٢؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص٩٣، هامش رقم(٤).

(١٥٤) ميخائيل عواد: المآصر في بلاد الروم والاسلام، بغداد: ١٩٤٨م، ص٣٨؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص٩٣، هامش رقم(٥).

(١٥٥) المقريزي: السلوك، ٣٣٣/١؛ محمد جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الاسلامية، ص١٣٤؛ محمد أمين زكي: الدول والامارات الكردية، ص٢٣٤.

(١٥٦) المقريزي: المصدر السابق، ٤٥/١.

(١٥٧) ابن واصل: مفرج، ٧٧/٢.

(١٥٨) المقريزي: الخطط، ١٩٤/٢؛ رنسيمان: الحروب الصليبية، ٤٦٣/٣؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص٩٣.

(١٥٩) ابن شداد: النوادر، ص٢٢؛ ابوشامة: الروضتين، ٢٢٢/٢.

(١٦٠) كامل أسود قادر: المرجع السابق، ص٤٢.

(١٦١) ابن الاثير: الكامل، ٣٦٩/١٣؛ ابن واصل: مفرج، ٣٠٥/٢.

(١٦٢) ابوشامة: المصدر السابق، ١١٩/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٢٤٤/٢.

(١٦٣) المقدمة، ص٢٥٤؛ اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار، ص١٦؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٥٤.

(١٦٤) ابوشامة: المصدر السابق، ١١٩/٢؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٥٣-٥٤.

(١٦٥) المقريزي: الخطط، ١٩٤/٢.

(١٦٦) التعبئة: تعني مجموع الاعمال التي يقوم بها القائد العسكري في مجال تحشيد القوات في ميدان المعركة وسوقها إلى خطوط القتال، أو تنسيق قواته للرد على هجمات العدو والانتصار عليه. محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص١٤٣.

(١٦٧) اللجام: من معدات السفن الحربية، وهي أداة من حديد طويلة محدودة الرأس، تدخل في أسفلها خشبة كالقناة بارزة في مقدمة السفينة يقال لها الاسطام. فتصير اللجام كأنها سنان بارزة لطعن المراكب بها. ينظر: العباسي: آثار الأول، ص١٩٧؛ عبدالرؤوف عون: الفن الحربي في صدر الاسلام، ص١٦٧؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص١١١.

(١٦٨) الكلاليب: تتكون عادة من سلاسل حديدية تنتهي رؤوسها بخطاطيف ويلقيها جنود البحر المكلفين بهذه المهمة نحو العدو عند الاقتراب منها بمسافة معينة في وضع كمائن لها بغية الايقاع بها. ينظر: العباسي: المصدر السابق، ص١٩٧؛ الهروري: التذكرة الهروية، ص٨٤، هامش رقم(١)؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص١٠٩.

(١٦٩) الحسبة: الماوردي: الاحكام السلطانية، تحقيق: رشيد الجميلي، بغداد، ١٩٨٦م، ص٣٦٢؛ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، القاهرة، ١٩٤٦م، ص٦؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٥٦.

(١٧٠) الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، بيروت، ١٩٦٩م، ٢٥٨/٢؛ الدميري: حياة الحيوان الكبرى، بيروت، د.ت، ٣٥٨/١.

(١٧١) ابن واصل: المصدر السابق، ٢٤٧/٢؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٥٧.
(١٧٢) ابوشامة: المصدر السابق، ٣٧/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ١٣١/٢؛ المقريزي: السلوك، ١٩٠/١.
(١٧٣) ابن شداد: النوادر، ص١٦١؛ ابوشامة: المصدر السابق، ١٨٤/٢؛ ابن الفرات: تاريخ، مج٤، ج٢/٦-٧.
(١٧٤) ابوشامة: المصدر السابق، ١٨٢/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٣٤٨/٢.
(١٧٥) ابوشامة: المصدر السابق، ١١٩/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٢٤٤/٢.
(١٧٦) المقريزي: الخطط، ٧٢/٢؛ أسمت غنيم: الدولة الأيوبية والصليبيون، الاسكندرية، ١٩٨٨م، ص١٣٤؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٦٤.
(١٧٧) الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص١٧٥؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٣٣٤.
(١٧٨) الشقق: عرفها اللغويون بأنه نوع من الثياب السبيبة المستطيلة. الرازي: مختار الصحاح، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٤٣؛ ابن منظور: لسان العرب، ١٨٤/١٠.
(١٧٩) الكلوتات: وهي غطاء للرأس صفراء اللون تستخدم بدل العمائم، وتسمى أيضا كلفة وكلفتاه، يقول البعض بأنها من أصل لاتيني، ويقول آخرون أنها معربة عن الفارسية. ينظر: القلقشندي: صبح، ٣/٤، هامش رقم(٢)؛ رينهات دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١م، ص٣١٣.
(١٨٠) المنديل: قماش مصنوع من القطن، استخدم لعدة أغراض منها كحزام حول البطن أو لبسه حول الرقبة أو لمسح الوجه به. ينظر: دوزي: المرجع السابق، ص٣٣٥-٣٣٨.
(١٨١) الفوط: ثوب قصير غليظ يكون مئزراً، ويلف بها الوركان ويشد طرفاها في وسطه، وكانت تجلب من السند. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، بيروت، ١٩٨٤م، ٣٧٨/٣؛ دوزي: المرجع السابق، ص٢٧٦.
(١٨٢) أحمد مختار العبادي بالاشتراك مع السيد الباز العريني: تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص٢١٨؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٨٢.

(١٨٣) المقريزي: الخطط، ١٨٥/٢-١٩٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٣٣٩؛ احمد مختار: المرجع السابق، ص٢١٩.

(١٨٤) المقريزي: الخطط، ١٩٥/٢؛ حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية، ص٢١٥؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص٨٦.

(١٨٥) أبوشامة: المصدر السابق، ٢٦٩/١.

(١٨٦) تاج العروس، بيروت، د.ت، ٢٥٧/٩.

(١٨٧) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٣٤٠؛ الحموي: تاريخ الاسطول العربي، ص٣٤؛ سعيد عبدالفتاح عاشور وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، الكويت، ١٩٨٦م، ص١٩٤.

(١٨٨) ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٣٩؛ ابن واصل: مفرج، ١٢/٢.

(١٨٩) تاج العروس، ٤٠٨/٢.

(١٩٠) الزبيدي: تاج، ٣١٢/٦.

(١٩١) العماد الاصفهاني: الفتح، ص٣٨٨.

(١٩٢) المقريزي: السلوك، ١٨٦/١.

(١٩٣) الحموي: تاريخ الاسطول الحربي، ص٤٠؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الاسلامية وآثار الباقية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٣٣١.

(١٩٤) العماد الاصفهاني: المصدر السابق، ص٣٤٠؛ سيعد عبدالفتاح عاشور وآخرون: المرجع السابق، ص١٩٥.

(١٩٥) العماد الاصفهاني: المصدر السابق، ص٤٨٦.

(١٩٦) الحموي: المرجع السابق، ص٤١؛ سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٣٦٨.

(١٩٧) سعاد ماهر: نفسه، ص٣٤٠؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص١٠٠.

(١٩٨) ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٤٠؛ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص١٣٦؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص١٩٥.

(١٩٩) الفتح القسي، ص٣٨٧.

(٢٠٠) البركوس: ذكرها البستاني، بأنها ضرب من السفن بين البريق والفرقاطة، معرب. محيط المحيط، بيروت، ١٩٨٧م، ص٣٧٠؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص١٠١.

(٢٠١) سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٣٤.

(٢٠٢) الفتح القسي، ص٣٨٧.

(٢٠٣) ابن مماتي: المصدر السابق، ص٣٤٠؛ سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٣٢٩.

(٢٠٤) كامل أسود: المرجع السابق، ص١٠٣.

(٢٠٥) عبداللطيف البغدادي: كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق: أحمد غسان سبانو، مطبعة خالد بن الوليد، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٣م، ص٧١.

(٢٠٦) المرمة: جمعها مرمات، نوع من السفن التجارية الكبار التي تجوب البحار والمحيطات. الحموي: المرجع السابق، ص٥٧؛ سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٣٥٦.

(٢٠٧) الجلاسة: وهي نوع من السفن الحربية الكبيرة، تسير بالشراع والمجاذيف، وهي أثقل وأقوى من سفينة الشيني. ينظر: سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٣٦٨؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص١٠٤.

(٢٠٨) سورة الانفال: آية(٦٠).

(٢٠٩) أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص٢٦٧.

(٢١٠) اللتوت: مفردها اللت، وهي الفأس العظيمة معرب. أدي شير: معجم الالفاظ الفارسية المعربة، ص١٤١. وهي عمد من الحديد، ولها رؤوس مستطيلة الشكل مضرسة مصنوعة أيضاً من الحديد، وكثيراً ماتكون مقبض هذه اللتوت متكونة من الخشب المحكم التدوير. ينظر: الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوار، عني بتحقيقه ونشره، كلودكاهين، بيروت، ١٩٤٨م، ص١٥؛ عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٦٥.

(٢١١) الدبابيس: لم تكن تختلف عن اللتوت إلاّ في بعض جوانبها البسيطة، ومنها مايخص رؤوسها التي غالباً ماتكون مدورة مضرسة. ينظر: أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الاسلامية، ص١٤٠.

(٢١٢) الترس: وهو الآلة التي يتقي بها الضرب والرمي عن الوجه والصدر. ويصل ارتفاعها إلى مستوى قامة الرجل، وهي مستديرة الشكل من الأعلى ومدببة من الأسفل، وقد تكون مبتورة من الأدنى، وتسمى في هذه الحالة بالجنويات. ينظر: الطرسوس: المصدر السابق، ص١٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٣١٥.

(٢١٣) الباسليقات: وتتكون من سلاسل مصنوعة من الحديد، وغالباً ماكانت تستخدم في القتال على سطح السفن عند الاشتباك مع العدو. ينظر: العباسي: آثار، ص١٩٦؛ سعاد ماهر: البحرية، ص٢٠٣؛ جرجي زيدان: التمدن الاسلامي، ٢١١/١؛ كامل أسود: المرجع السابق، ص١١٠.

(٢١٤) التوابيت: وهي صناديق ذات تكوينات خاصة، وتكون مفتوحة في أعلى السواري، ويصعد إليها الرجال قبل الاشتباك مع العدو، ولايمكن كشف مواضعهم وعدد رجالاتهم. ينظر: العباسي: المصدر السابق، ص١٩٦؛ الحموي: تاريخ، ص٧٠؛ سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٢٠٣؛ ابراهيم أحمد العدوي: قوات البحرية، ص١٧٨.

(٢١٥) الدبابة: هيكل ضخم من الخشب السميك قاعدته مربعة الشكل وجوانبه مغطاة بقطع من الجلد أو اللبود لحماية الجند الذين يعملون داخلها. ينظر: العباسي: المصدر السابق، ص١٩٢.

(٢١٦) المنجنيق: وهو آلة قاذفة استخدمها الفينيقيون قديماً، وعنهم أخذها اليونان، وبواسطتهم انتشرت إلى بقية المناطق فاستخدمها الفرس، ثم العرب المسلمون. ينظر: العباسي: المصدر السابق، ص١٩١؛ ينظر: صلاح حسين العبيدي: منجنيق من الحضر، مجلة سومر، مجلد٣٢، ج١، ص٥٩٥؛ عبدالرؤوف عون: الفن الحربي، ص١٥٦.

(٢١٧) العرادة: وهي آلة أصغر من المنجنيق تلقى بها الأحجار الى مسافاة بعيدة، وتستعمل لهدم الاسوار والحصون أو ضرب المعسكرات أو الجند المهاجمين. خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، ص٥٤؛ عبدالرحمن زكي: السلاح، ص٤٠-٤١.

(٢١٨) ابن شداد: النوادر، ص٣٦، ٤٢؛ عبدالرحمن زكي: المرجع السابق، ص٣٦؛ خالد جاسم الجنابي: المرجع السابق، ص٥٤.

(٢١٩) احسان هندي: الحياة العسكرية عند العرب، دمشق، ١٩٦٤م، ص١٢٩.

(٢٢٠) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص٥٦؛ خالد جاسم الجنابي: المرجع السابق، ٥٨.

(٢٢١) العباسي: آثار، ص١٩٢؛ الأوسي الانصاري: تفريج، ص٦١؛ الطرطوسي: تبصرة، ص٢٠.

(٢٢٢) القلقشندي: صبح، ١٤٥/٢؛ العباسي: المصدر السابق، ص١٩٢؛ خالد جاسم: المرجع السباق، ص٥٥.

(٢٢٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ٤٠٤/٨.

(٢٢٤) العماد الأصفهاني: الفتح، ص٣٧؛ ابن الاثير: الكامل، ٣٧٤/١٤؛ ابن شداد: النوادر، ص١٣١؛ سبط ابن الجوزي، ٤٠٢/٨.

(٢٢٥) الحنبلي: شفاء القلوب، ص١٦٧-١٦٨.

(٢٢٦) ابن شداد: المصدر السابق، ص٨٧؛ ابن واصل: مفرج، ٢٥٦/٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص١٣٦؛ كرفان محمد أحمد: الملك الاشرف موسى بن عبدالملك العادل الأيوبي، دوره وأثره في الدولة الأيوبية، ٥٧٦-٦٣٥هـ/١١٨٢-١٢٣٧م، رسالة ماجستير، الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٩٩م، ص٨٥؛ نسرين محمود علي: الأمن، ص٢٢٤.

(٢٢٧) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٨، ق٣٨٩/١؛ رنسيمان: الحروب الصليبية، ٨١٦/٢.

(٢٢٨) المقريزي: السلوك، ٩٤/١؛ شاكر مصطفى: صلاح الدين الفارس المجاهد، ص٣٦٧-٣٦٨.

الفصل الرابع

علاقة الناصر صلاح الدين بـ:

أ- الخلافة العباسية:

اتـسمت العلاقـات الدبلوماسـية بـين صـلاح الـدين والخلافـة العباسـية في بغداد بالنشاط والحيوية في ظل العلاقات المتينة بين الجانبين، وعلى الرغم من مرورها في بعض الأحيان بالفتور، بيد أنها لم تصل إلى حـد الانقطـاع أو التـصادم، بـل ظـل مـستمراً عـن طريـق تبـادل الرسـل والـسفراء مـن قبـل الطرفين، نظراً لوجود التهديـدات الـتي كانـت تواجـه صـلاح الـدين في بـلاد الـشام مـن أخطـار الغـزو الـصليبي والحركـات الاسماعيليـة المناوئـة للـسلطة الصلاحية، فضلاً عن الاطماع الشخصية لبعض الامـراء[١].

ولم تـرد المـصادر الاسـلامية التأريخيـة، أيـة أخبـار عـن اصـطدام الجـيش الصلاحي بالسلطة العباسية، وخير دليل علـى ذلـك، ارسـال الـسلطان صـلاح الـدين الـسفير شمـس الـدين ابـا المـضاء الى الخليفـة المستـضيء بـأمرالله سنة(٥٦٧هـ/١١٧١م) لتهنئته بتوليه الخلافة وأظهر الولاء والاحترام لـه ولمقـام الخلافة العباسية محملاً بالهدايا وأسمى آيات التقدير والاكرام[٢].

تشير بعض الروايات التاريخية إلى ارسال صلاح الـدين عـام(٥٧٠هـ/١١٧٤م) وفداً إلى بغداد يحمل كتاباً بعد وفـاة نورالـدين زنكـي(٥٦٩هـ/١١٧٣م)، أوضـح

فيه سياسته المتمثلة بسعيه المتواصل لتوحيد بلاد الشام واليمن والمغرب والجزيرة، بعد أن صور له أوضاع البلاد المضطربة، وقيام الفرنج باعتداءاتهم المتكررة على مدن بلاد الشام، كما بين في كتابه دوره في انهاء الدولة الفاطمية عام(٥٦٧هـ/١١٧١م)، واعادة الخطبة في الديار المصرية إلى الخلفاء العباسيين، وطلب من الخليفة أن يقلده ((مصر وبلاد الشام وكل ماتشتمل عليه البلاد النورية ومايفتح باسم العباسيين على يد عساكره))[٣].

ولقد راعى الخلفاء العباسيون هذه الضرورات والامور، لذا استجاب لطلبه وأرسل إليه أحد سفرائه عام(٥٧٠هـ/١١٧٤م)[٤] حاملاً إليه بالتشريفات والتقليد والتفويض، ما أضفى على حكمه لهذه المناطق الصفة والصبغة الشرعية أمام امراء المسلمين والصليبيين[٥].

وتحدثنا كتب التاريخ ان الناصر صلاح الدين انتبه واهتم بالعلاقات الاجتماعية ولاسيما الاعياد والتعازي، فحين وردت أخبار وفاة والدة الخليفة المستضيء بأمرالله سنة(٥٧٥هـ/١١٧٩م) أرسل عبدالسلام بن عصرون كسفير له إلى بلاط الخلافة لتقديم تعازي السلطان إليه[٦].

وفي عام(٥٧٥هـ/١١٧٩م)، توفي سيف الدين غازي أمير الموصل[٧]، واضطربت أحوال الموصل وكذلك تكررت اغارات الحلبيين على مناطق نفوذ صلاح الدين بعد اتصالهم بالاسماعيليين والصليبيين[٨]، فبعث السلطان كتاباً إلى الخليفة العباسي، طالباً منه موافقته على ضم حلب وماحولها، فاستجاب لطلبه وأرسل إليه كلاً من شيخ الشيوخ صدرالدين أبي القاسم عبدالرحمن وشهاب الدين بشير الخادم بالتفويض والتقليد الجديد في السنة ذاتها،

فاطمـأن صـلاح الـدين لقـرار الخليفـة وأمـر أن تكـون الخطبـة في الأراضـي التابعة له للخلافة العباسية وأن ترفع الرايات السود فيها[٩].

ومن البراهين الأخرى التي يمكن اقامتها على إيلاء الناصر صلاح الـدين كل الاهتمام بالسفارات، منها عودة سفارة القاضي ضياءالدين الشهرزوري إلى الخلافة العباسية سنة(٥٨٥هـ/١١٨٩م) بعد انتصاره في عكا. وحمل السفير الصلاحي معه الهدايا وبعض الاسرى الصليبيين وصليب الصلبوت، علاوة على التحف والنفائس، وما ان دخل بغداد حتى سلم الهدايا إلى الخليفة العباسي وسط استقبال كبير من قبل المسؤولين في الدولة وأهالي بغداد[١٠].

وكما بعث بعد معركة حطين عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م)، سفيره شمس الـدين أبا المضاء إلى الخليفـة الناصر، يبشره فيها بفتح بيت المقدس لإظهار هيبة الخليفة ومكانته في العالم الاسلامي[١١].

وفي أوائل صفر سنة(٥٨٥هـ/١١٨٩م). وبعد سنتين وثلاثة أشهر من فتح القدس، ومن كتاب العتب الذي أدرك الخليفة الناصر سعي الوشاة فيه، عاد يواصل السلطان صلاح الدين بمنتهى الرضى، فوصل رسول خاص من دار الخلافة يبلغه كما هي العادة الجارية دوماً للخلفاء العباسيين مع أتباعهم وولاتهم البارزين بإعلان الخطبة على المنابر، وهو عدة الدين أبونصر محمد ابن الخليفة الناصر، فابتهج صلاح الدين بالرسول ضياءالدين ابن سكينة، فتلقّاه يوم دخوله دمشق مع أولاده في يوم مشهود، واعطاه العهد بذلك، وأمر بأن يخطب لولي العهد بعد أبيه على منابر مصر والشام وجميع دار السلام، وبأن ينقش اسمه على السكة، وخطب له بدمشق في ١٣صفر، ونثر الدنانير على الناس، وندب لجواب الرسالة القاضي ضياءالدين الشهرزوري، وسُيرت معه الهدايا والتحف مع تابع ملك القدس وأسارى

الفرنج، وقد جاءت الرسالة في ثلاث صفحات كلها تهنئة واستبشار، ومن جملة التهنئة إبلاغ الخليفة أن يطمئن إلى قيام صلاح الدين بواجب الجهاد إلى أن ((يظهر الحق ببطلان الباطل ويغرق البحر بحر المجر الجرار جيش صلاح الدين، ماتخلف من ساحات الساحل، فلم يبق به من المدن المنيعة إلاّ صور وطرابلس ومعالم الكفر بهما في هذه السنة بعون الله تدرس. وأما أنطاكية فانها بالعراء منبوذة الاتجاه، لأنها مأخوذه، وحدود العزائم عند انقضاء هدنتها مشحوذة. وقد خرج الخادم، يعني صلاح الدين نفسه، ليدخل البلاد ويستأنف الجهاد...))[١٢].

هكذا نشطت السفارة والعلاقات وقفزت إلى الامام قفزات نوعية، ساهمت في تقوية العلاقة بين السلطان صلاح الدين والخلافة العباسية، وبقيت تتوافد حتى وفاة السلطان الناصر صلاح الدين عام(٥٨٩هـ/١١٩٣م)[١٣].

فقد أولى صلاح الدين اهتماماً خاصاً بالخلافة، وكان لعقيدته السنية دورها في تكوينه الروحي، فالخلافة العباسية كانت قد أضحت في هذا العصر في مستوى من القداسة الروحية يعادل مستوى القداسة البابوية فيما يخص الفرنج الكاثوليك، صحيح أن كل متمرّد منذ القرن الثالث الهجري، كان يقتطع من أرضها قطعة تكبر أو تصغر، ولكن نادراً ما استغنى أحد المتمردين أو المناوئين عن رضى الخليفة، لأنه بحكم استقرار شرعيته خلال القرون صار مصدراً للشرعية عند كل مغتصب، وقد بلغ إيمان الناس بقدسية هذه الخلافة وخلودها درجة اعتبارها جزءاً من نظام الكون الإلهي. وحين سقطت بغداد بيد المغول بعد سبعين سنة تقريباً من وفاة صلاح الدين؛ خشي الناس من انهيار النظام الكوني، ومن طلوع الشمس من المغرب، فلاعجب إذا كان صلاح الدين على هذا الإيمان بها، وكان يوالي دون

انقطاع الكتابة لها بكل أمر منذ خدمها الكبرى بإلغاء الخلافة الفاطمية في مصر عام(٥٦٧هـ/١١٧١م)، وحتى وفاته كأن يعتبرها شاهداً أمام الله بأنه قام بأوامره وعبدهُ أكثر من غيره بالجهاد في سبيله، وكان لايرى العبودية إلاّ لهذا المقام القدسي، ويقبلُ عتبه ولومه حتى في بعض الأمور التافهة التي لاتستحق أن تسأل عليها، لأنه يعده السلطة الأولى والوحيدة في العالم، ورضاها من رضى الله، ويعد فتوحاته لها أنها تتم ببركتها، ولقد عبّر عن ذلك مرات كثيرة، وفي كتاب فاضلي أرسله من حارم بعد فتحها، قال: ((وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عبادالله، والطاعة لخليفة الله، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا منحها، والله يعلم أنه لايقاتل لعيش ألين من عيش، ولالغضب من نزق أو طيش، ولايريد إلاّ هذه الأمور التي توسم أنها تلزم، ولاينوي إلاّ هذه النية التي هي خير مايسطر في الصحيفة))[١٤].

فهو نموذج من البطولة، مزيج من النفس الطيبة، والخلق المتين، والورع الديني، والشجاعة المتناهية، والرحمة الانسانية.

وبصرف النظر عما يحاول لوح الخليفة الناصر من حر النار إلى قرصه، وما يُظهر فيه من الاشادة بنفسه وادعاء ماليس له، فإن شهادة الاعداء قبل الاصدقاء لصلاح الدين واضحة وضوح الشمس بالولاء والطاعة والرضى من الخليفة عنه، بعد أن وسوست السعايات والوشايات والأحاديث في صدر الخليفة الناصر ماوسوست[١٥].

ومن البراهين التي ترتفع عن النقض والانتقاض وتسلم بلاموار به، كتاب ذكر نصه القلقشندي بتقليد صلاح الدين سلطنة الجزيرة والشام ومصر يلقبه فيه الخليفة الناصر، ((بالملك الأجل السيد صلاح الدين ناصر السلام،

عمادالدولة، جمال الأمـة، فخرالملة، صفي الخلافة، تـاج الملوك والسلاطين، قامع الكفر والمشركين، قاهر الخوارج والمرتدين، عزالمجاهدين، ألب غازي يوسف بن أيوب أدام الله علوه على هذه السجايا مقبلاً...الخ))[١٦]. فان ما أسبغ على الناصر صلاح الدين من الصفات التي تزيد على العشرين، لايدل إلاّ على التعظيم والرضى من قبل الخلافة له.

الغني عن البيان هو ان ولاء صلاح الدين للخليفة الناصر، وهو تنازله عن شهرزور للخليفة ترغيباً له من دعم الجهاد للصليبيين؛ وحين غضب امراؤه ولاموه، حتى العماد الاصفهاني الكاتب، بذريعة أن ذلك سيجعل أمراء الجزيرة الذين طلبوها من قبل يغضبون. قال لهم السلطان الخليفة ملك الخليقة وهو مالك الحق والحقيقة، فإن وصل الينا، يبدو أنه وعد بذلك، أعطيناه هذه البلاد، فكيف شهروزر؟[١٧].

لقد إتسم صلاح الدين بالفطنة والذكاء والحنكة والدهاء وشدة الباس وعدم الخشية من الطواريء، ولايتحرك حركة إلاّ قد كتب بذلك إلى بغداد، والعماد الاصفهاني، يذكر أنه يوم فتح القدس كتب سبعين كتاب بشارة، كل كتاب بمعنى بديع، فمنها الكتاب الى ديوان العزيز ببغداد.

ويذكر عزالدين بن شداد في احدى رواياته عن الايوبيين قائلاً: ((ان الايوبيين خانوا وسلموا القدس مجاناً للصليبيين))؛ فالمؤرخ الحصيف يريد ان يكون صلاح الدين مسؤولاً عن عمل قام به ابن أخيه بعد موته بأربعين سنة، وهو تعسُف في الحكم. ومن ذا الذي يدافع عن أعمال خلفاء صلاح الدين؟ وما الذي يعد ميتاً في قبره مسؤولاً عن خيانات من جاء من أسرته

بعده بأربعين أو خمسين سنة؛ إلا أن يكون غرضه هو تجريحه، وسحق سمعته بالحق، قال تعالى: ((وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ))[١٩].

وعلى صعيد ذي صلة أنه يؤخذ على صلاح الدين أنه اتخذ من ابن ميمون اليهودي الأندلسي طبيباً له. وينسى أن نصف الأطباء في ذلك العهد كانوا من الذميين، وأنه لم يكن طبيب صلاح الدين الوحيد، فأمراض السلطان كثيرة، ويأخذ عليه أنه أغضى بعد إسلامه عن عودته لليهودية، وانما أغضى بفتوى شرعية. وأنه لم يحاسب واصمّ أذنيه عن كتابه(دليل الحائرين)، الذي يشكك في عقيدة الخلود الجسمي، وينسى أن اليهود كانت لهم كنائسهم وربابنتهم في بغداد العباسيين وفي قاهرة الفاطميين وفي الامارة والدويلات الاسلامية الأخرى على السواء، وكان منهم وزراء في هذه الدول أيضاً. فالتسامح الإسلامي كان يشملهم، فما يطلب من صلاح الدين لايطلب من الفاطميين والآخرين! هذه الأمور ندعها مع ذلك لأنها هامشية وثانوية لاتستحق الرد أو التعليق[٢٠].

وما لايحتمل الاختلاف هو وصول رسول من الخليفة الناصر إلى صلاح الدين في شوال سنة(٥٨٣هـ/١١٨٧م) ، في العتب على ((أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت، وسعايات في السلطان عثت في الاحوال وتشعثت))[٢١]. وأنها كانت رسالة خشنة شديدة فيها غلظة، ولقد عرض صلاح الدين الرسالة على أكابر جماعته ليروا رأيهم.

وعلى الرغم من أن جماعة صلاح الدين علقوا على الرسالة قائلين، بحسب مايذكره الاصفهاني في نفسه: ((إن الخليفة نسب حقك إلى البطلان ورميت بالبهتان، ولمحت طاعتك بعين العصيان، فكيف... ألفت وما أنفت،

واعتبت لما عوتبت...))[٢٢] فقد تقبل صلاح الدين الرسالة بصدر سمح على عادته الدائمة دون أن يثور كغيره من القواد، ولاننسى أنه منذ أن ألغى الخلافة الفاطمية كان يرسل الرسائل المتتالية، يخبر فيها دار الخلافة بما يستجد لديه، لاخوفاً ولاتملقاً، ولكن ولاءً ورعاية لهذه القمة الدينية، التي تجمع المسلمين ولو بالشكل والإسم.

ادراكاً منه بأن الحركة ولود، والسكون عاقر، أرسل صلاح الدين رسالة إيضاح، ونفي للسعايات والوشايات، قائلاً: ((أما فتحنا مصر، وقد باضت بها بيضة الدعيّ وفرخت. أما استأنفنا بها تاريخ الدولة العباسية، بعد أن كانت سنين بسداها أرخت؟ أما استخلصت اليمن وللدعي بها داع، وللهدى فيها ناعٍ، وللضلال فيها راع...))[٢٣]، وفيها من اللين المراوغة الكثير، وهي عتب مقابل نصوصها. وذلك بدوره نابع من طيبة صلاح الدين المعتادة، وخلقه الواضح المعروف بالملاينة وتجاوز الاساءة لاسيما مع الخليفة العباسي.

ومما يمكن تجنيده في معسكر الدلائل التي تشهد لعظمة صلاح الدين، قد منح له لقب الناصر أو الملك الناصر من قبل الفاطميين، ولقب بالسلطان على العادة الفاطمية الدارجة سنة(٥٦٥هـ/١١٧٠م)[٢٤]، وأن الخليفة الناصر اتخذ هذا اللقب لنفسه سنة)٥٧٥هـ/١١٨٠م) عند خلافته، أي بعد صلاح الدين بعشر سنوات، فهو الذي أخذ اللقب عنه، وليس العكس، ولكن السعاية لاتقف عند حد.

ب- سلاجقة الروم:

تعد بداية تأسيس دولة سلاجقة الروم إلى سنة(٤٧٠هـ/١٠٧٧م)[٢٥]، حتى شرعوا في التوسع على حساب ممتلكات الروم وكان يقودهم عزالدين قلج

ارسلان الثاني(٥٥٠-٥٨٥هـ/١١٥٥-١١٩٢م)، حيث دخلوا في معركة عنيفة شديدة معهـم تمكنـوا مـن الحـاق هزيمـة نكـراء بـالجيش الرومـي قـرب ميريوكيفـالون[٢٦] شمـال غـرب مدينـة قونيـة وبـدأوا يهمـون بالتوجـه في التوسـع نحـو الجنـوب لـضم حـصني(رعبـان وكيـسوم)[٢٧] الـذي كـان يفـتح الطريق للتدخل في شؤون بلاد الشام، وقد إستغل الفتور الذي كان موجوداً بين صلاح الدين والملك الصالح اسماعيل بعد وفاة والد الأخير.

ولم يكتف عزالدين قلج عند هذا الحد، بل بدأ بإرسال موفده إلى صلاح الـدين طلـب منـه الحصنين المـذكورين، ومـا أن أطلـع الـسلطان علـى طلـب عزالدين، استشاط غضباً فتوترت العلاقات بين الجانبين.

حاول قلج ارسلان سنة(٥٧٦هـ/١١٨٠م) الهجوم علـى حـصن كيفـا، مـستغلاً النـزاع العـائلي بـين نورالـدين محمـد بـن قـر أرسـلان أمـير حـصن كيفـا[٢٨]، وخروجه عن طاعة قلج ارسلان، لـذا قـرر الأخير ارسـال حملـة عـسكرية سريعة وخاطفة لتأديبـه أولاً ومـن ثـم الاسـتيلاء علـى ممتلكاتـه، فاسـتجار بالسلطان صلاح الدين[٢٩]، فاضطر الأخير إلى مساندته بعـد طلـب اسـتجارته به، وبعد ان ادرك قلج ارسلان تـدخل الـسلطان لمـساعدة أمـير حـصن كيفـا، اعتذر وارسل فوراً وفداً رسمياً إلى مقام صلاح الدين، وبعـد اجـراء اتـصالات كـثيرة مـن قبـل اطـراف النـزاع في جمـادي الأولى سـنة(٥٧٦هــ/تـشرين الثـاني١١٨٠م)(٣٠)، اسـفرت المفاوضـات الى تقـديم نورالـدين صـاحب حـصن كيفا الولاء لصلاح الدين وقلج ارسلان على السواء[٣١]، وانتهـت بعـد ان تعهـد عزالدين قلج الوقوف بوجه الأرمن الذين كانوا يتطاولون بـين حـين وآخـر على ممتلكات الدولة العباسية[٣٢].

ج-الاتابكة:

الاتابكة هم من المماليك الاتراك الذين كانوا لدى السلاطين السلاجقة، وأوكلت إليهم مهمة الاشراف أو الوصاية على الامراء السلاجقة الصغار من أبناء السلاطين أو الملوك، الذين أرسلوا من ابائهم لحكم الأقاليم أو المدن المختلفة المقطعة لهم هنا وهناك ضمن الحدود الجغرافية الواقعة تحت سيطرتهم، وأصبحت ظاهرة الاتابكيات مظهراً من مظاهرأ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، لاسيما بعد مرور عصر السلاجقة الكبار الذي ندر ان وجد أمير سلجوقي فيه إلاّ ومعه أتابك. ومع ضعف دولة السلاجقة الكبار وانقسامها ازداد دور هؤلاء الاتابكة وضوحاً من خلال تدخلهم في السياسة وخلق المنافسات والصراعات بين الأمراء، فكل أتابك يحاول ايصال الأمير الذي في عهدته الى مركز أعلى في الدولة، لما في ذلك من تحقيق لمصلحته الخاصة. فبدأوا برسم طموحات الامراء ووضع الخطط لهم لتحقيقها، وعلى الرغم من ان بعض الامراء رفضوا ان يكون ألعوبة بأيدي اتابكتهم فنحوهم جانباً أو قتلوهم. فان الغالبية بقيت ذات أثر فعال في تحريك الامراء ومن ثم الاحداث. وهنالك مجموعة من هذه الفئة الأخيرة لم تكتف بتحريك الامراء والجلوس وراءهم أو عند اقدامهم. بل سرعان ما استلموا زمام امور اقطاعات امرائهم بعد موتهم أو مقتلهم واستقلوا بها فاصبحوا هم الحكام الحقيقيين لها(٣٣).

لقد كان هناك عدد من الاتابكيات، وقد غلب انتشارها في القسم الغربي من الدولة السلجوقية؛ في بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصغرى واربل والموصل والعراق بوجه الخصوص. كما ظهر عدد منها في فارس وكرمان

وتفاوتت في اذربيجان ولورستان. وقد تفاوتت مساحات هذه الاتابكيات مع القوى المجاورة، لذا ارتأينا أن نتحدث عن[٣٤] الاتابكية الزنكية التي تعد من أكبر الاتابكيات قاطبة، وأهمها من حيث دورها الذي لعبته في تاريخ المنطقة، لاسيما بضعف موقفها العسكري تجاه الفرنج في أعقاب وفاة نورالدين محمود زنكي سنة(٥٦٩هـ/١١٧٣م)، تولى الملك الصالح اسماعيل الذي كان صغير السن وسار على نهج أبيه منفذاً مخططاته، ولكن لايفهم تدبير شؤون الحكم، فعمل أعداؤه على التورط والتلاعب بمقدرات الرعية والدولة، مما اضطر في نقل مركز الدولة النورية من دمشق إلى حلب[٣٥].

ليس خافياً ولاعجيباً إذا قلنا ان خطط صلاح الدين الاستراتيجية كانت تهدف إلى ضم حلب إلى حكمه لذا بعث لهذا الغرض جيشاً كبيراً لضمها، فاتهموه بالغزو على إمارة حلب، مما إضطره عمله هذا إلى ارسال السلطان صلاح الدين الأمير عزالدين جورديك سفيراً أوفداً يمثله في التفاوض إلى سعدالدين كمشتكين[٣٦] أتابك حلب، وما أن زاره السفير حتى أقدم كمشتكين على اعتقاله وتعذيبه ثم إيداعه في الجب(البئر) التي كان قد وضع فيها أولاد ابن الداية[٣٧]، وهذه الخطوة (إعتقال المبعوث) غير سليمة وغير مستحبة في العرف الديني والاجتماعي والدبلوماسي، لذا قرر صلاح الدين في تشديد الحصار على كل من حلب والموصل سنة(٥٧٠هـ/١١٧٥م)، وضيق الخناق عليهما لاسيما مدينة حلب، ولما طال الحصار، راسله صاحب حلب على ان يكون له مابحوزته من بلاد الشام ولهم مابأيديهم منها، وبعد استلم السلطان العرض وقلب الأمر، وافق على ذلك، وكان من ضمن بنود الصلح اطلاق سراح مبعوثه وأولاد ابن الداية، ورحل السلطان من حلب بعد

أن فك الحصار عنها يمم وجهه شطر مدينة حماه في العشر الأول من شوال في العام ذاته[٣٨].

ولم تدم تلك الاتفاقية بين الطرفين، ولاسيما بعد تأثير صاحب الموصل على الحلبيين وتمكنه من استمالة قلوبهم للتحالف الثاني ضد الناصر صلاح الدين، ومما يلاحظ انهم خالفوا وخانوا بنود الاتفاقية، حيث أقدموا في التآمر على السلطان[٣٩]، مما اضطر الأخير إلى تولي حصار حلب بنفسه عام(٥٧٢هـ/١١٧٧م)، فضايقهم وضاق بهم الأمر، فأرسل على اثر ذلك الملك الصالح اسماعيل مبعوثه إلى صلاح الدين لاجراء الصلح معه، بعد مشاورة السلطان مجلسه الحربي، الذي ناقش القضية، فوافق على اجراء المصالحة معهم، شريطة أن تكون حلب وأعمالها من نصيب الملك الصالح، في حين تكون حماه إلى مصر بحوزة الناصر صلاح الدين[٤٠].

وفي أعقاب وفاة سيف الدين غازي أمير الموصل في ٣صفر سنة(٥٧٦هـ/١١٨٠م)، تولى أخوه عزالدين مسعود، الذي أرسل الشيخ الفقيه فخرالدين أباشجاع بن الدهان البغدادي سفيراً عنه إلى السلطان صلاح الدين، طالباً منه الاحتفاظ بممتلكات ماكان بيد أخيه، فمالبث ان وافق السلطان على الطلب جملة وتفصيلاً تحقيقاً للقصد المراد من قبل صاحب الطلب للحصول على الموصل[٤١].

وليس غريباً إذا قلنا ان مدينة الموصل تعرضت للحصار الثالث من قبل السلطان صلاح الدين في سنة(٥٨٢هـ/١١٨٦م)، بسبب تمادي أميرها في سياسة ركوب الرأس، ومناطحة صخرة الدولة الصلاحية الصلبة، فلها القدرة على المقاومة والصمود مهما بلغت قوة التحدي، إيثاراً لنزعة الثأر على الاحتكام إلى التعقل، لاسيما إذا كانت نسبة الخسائر ترتقي إلى حدودها العليا والارباح

تحاكي الصفر، بسبب انعدام القدرة على الثبات في ساحات النزال في اثناء احتدام المنازلة، فلم يخرجوا منها إلا بما لاتزيد قيمته على خفي حنين، لذا اضطر أمراء الموصل جراء الحصار المفروض على رقاب أهالي المدينة، في الدخول مباشرة في الصلح مع السلطان الذي أرسل بدوره بهاءالدين بن شداد الذي ينوب عنه في الصلح، فجرى الاتفاق على معاهدة الصلح في محرم من السنة ذاتها[٤٢]، على ان يسلم للناصر صلاح الدين كل من شهرزور وقلاعها والبوازيج[٤٣] القريبة من تكريت[٤٤] والرستاق وجميع ماوراء نهر الزاب من الأعمال، ويبقى عزالدين مسعود أميراً على الموصل وتوابعها، على أن يُخطب للسلطان صلاح الدين في مساجد وجوامع الموصل على منابرها، بعد قطع الخطبة لسلاطين السلاجقة، وقرر أيضاً ضرب السكة باسمه ويتعهد عزالدين مسعود، بمساندة صلاح الدين المادية والمعنوية على السواء لاسترداد بيت المقدس[٤٥].

د- بلاد المغرب:

وفي السياق نفسه لابد من إتصال الحديث بعضه ببعض، ليحتضن علاقة أخرى تمثلت مع بلاد المغرب، التي أسس الموحدون دولة باسمهم فيها، وتمتد من طرابلس شرقاً وإلى المحيط الأطلسي غرباً، وكانوا في سعي دائم للهيمنة على بلاد مصر أرض الكنانة عام(٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٨م)[٤٦]. هذا في الوقت الذي استمروا في جهودهم ومحاولاتهم المتكررة لابعاد شبح خطر الصليبيين عن بلاد الاندلس والمغرب العربي الاسلامي، ولم يتركوا باباً إلا وطرقوه لهذا الغرض، وما أن تجاوز الصليبيون على بعض ممتلكات الموحدين في الاندلس والمغرب، حتى شرع ابو يوسف يعقوب بن أبي[٤٧] يعقوب في تجهيز قواته

وأن يقود بنفسه قيادتها، وتمكن من تحقيق مايصبو إليه[٤٨]، حيث طرد الغزاة الفرنج واستعاد هذه الممتلكات منهم بعد أن أوقع خسائر جسيمة في صفوف قواتهم. ثم بدأت تتسع دائرة نفوذ السلطان أبي يوسف في الأندلس وبعض مدن المغرب العربي[٤٩]، ولما ادرك الناصر صلاح الدين بهذه التطورات والمستجدات مع تعاظم نفوذ وتوسيع سلطات أبي يوسف ومحاربته الشديدة للصليبيين، ارسل إليه سفيره من بني منقذ[٥٠]، ليستنجده على الفرنج القادمين من بلاد المغرب إلى مصر وسواحل الشام، ولم يخاطبه السلطان صلاح الدين بأمير المؤمنين، بل خاطبه بأمير المسلمين، ولم يجبه إلى طلبه[٥١].

وعلى الرغم من فقدان نوع من التقارب بين الدولتين الصلاحية والموحدية، لانشغالهما في حروبهما مع الصليبيين، فضلاً عن انشغال بعض أمراء المغرب بحروب الاسترجاع الناشطة في الاندلس وصقلية، وفوق هذا وذلك لم يمنع الناصر صلاح الدين مع طلب معاضدة سلطان المغرب يعقوب بن يوسف لمهاجمة ومقاتلة الصليبيين المدعومين في البحر بالاساطيل القوية[٥٢]، إذ ارسل صلاح الدين سفيره الأمير أبا الحزم عبدالرحمن إبن منقذ إلى سلطان المغرب، وقد كرم الوفد من قبل الأخير ببالغ التكريم والتقدير، وتلقى الكثير من الهدايا الباهظة والثمينة من لدن السلطان المغربي، فجهز الأخير مايقارب مائة وثمانين اسطولاً بعد شحنه بجميع المستلزمات الحربية القتالية إلى صلاح الدين الأيوبي بغية مناصرته في الدفاع عن بلاد مصر والشام ضد الصليبيين ومن التف حولهم[٥٣].

هـ- الاراتقة:

لقد انقسمت الامارة الارتقية إلى قسمين هما: آمد ومعها حصن كيفا، واتصفت بعلاقاتها الجيدة مع صلاح الدين، أما القسم الثاني فكانت معروفة بإمارة ماردين التي امتازت على طول الخط بمناوأته ومناهضته للسلطان الصلاحي والأيوبي معاً، دون معرفة حدودها[٥٤].

ولعل أول مراسلات بدأت بين الطرفين جرت في عام(٥٧٢هـ/١١٧٦م) حين وطد صلاح الدين العزم على عقد صلح مع أمراء الاطراف بعد أخذ موافقة مجلسه ومستشاريه سمي بـ(ميثاق حلب) بعد أن زار كل من أميري بني أرتق من آمد وحصن كيفا إلى مقام السلطان صلاح الدين، وتم الصلح بينهم[٥٥].

ازداد السلطان صلاح الدين عزماً على ابقاء حبل السلم أن يسود الجزيرة منذ عام(٥٧٨هـ/١١٨٢م)، إذ بعث الوفود إلى ملوك وامراء كل من آمد وحصن كيفا لتسليم آمد إلى السلطان إذا فتحها، ويروي أبوشامة في احدى رواياته ان أمير آمد بهاءالدين بن نيسان سلم المدينة إلى الناصر صلاح الدين في العام نفسه، الذي كان وفياً بوعده وسلمها إلى نورالدين محمد[٥٦].

ولقد ظلت إمارة آمد وحصن كيفا الارتقية محتفظة بعلاقتها الطيبة مع صلاح الدين حتى بعد وفاة الأمير قطب الدين إيلغازي بن ألب أمير ماردين عام(٥٨٠هـ/١١٨٤م)، وخلفه في حكم الإمارة ابنه الأكبر الذي قدم ولاءه الكامل للسلطان صلاح الدين[٥٧].

هذا ولم يبق أمام الناصر صلاح الدين إلا مدينة ميافارقين، التي اتصفت بالعداء الدائم وعدم تقديم الولاء للسلطان، لذا قرر الأخير حصار

المدينـة ودخولها عنـوة، وكادت شـرارة الحـرب تنـدلع بـين الطـرفين، لـولا وساطة كل من الأمير أسدالدين برنقش والخاتون ابنـة قلـج ارسلان زوجـة قطب الدين صاحب ماردين، وأخت نورالدين ارسلان، وانتهت بالاتفاق على تسليم ميافارقين في ٢٩جمادي الأولى سنة (٥٨٠هـ/١١٨٣م)، مقابـل حصولها على حصن من الحصون[٥٨].

- موقف صلاح الدين من:

أ- الفاطميين:

قبـل مجـيء صـلاح الـدين الأيـوبي، حظـي ترسـيخ عقيـدة الـشيعة الاسماعيليـة باهتمام بـالغ، وتـولى فقهاؤهم ودعـاتهم وضع كتـب ورسـائل متعـددة لتقويـة مـواقعهم والانتـصار لمذهبهم[٥٩]، وقـد عولـوا في ذلـك علـى القرآن الكريـم والسنة النبوية الشريفة[٦٠]، حـاول بعـض المـسؤولين اسـتبعاد العاملين في الساحة المصرية وغيرها من الـبلاد والمـدن مـن غـير الاسماعيليـة من مؤسـسات الدولـة وأجهزتهـا العـسكرية والمدنيـة معـاً[٦١]، ولم يكتـف هـذا الاجراء بهذا الحد، بل قام بعض الخلفـاء في احـداث تغـييرات بـشكل ظاهري وواضـح للعيـان، والجـدير بملاحظتـه هـو ان الخليفـة الظـاهر أمـر عام(٤١٦هـ/١٠٢٥م) باخراج فقهاء المالكية وإحلال الشيعة مكانهم وعن طريق الخطط والبرامج المعدة والمرسومة سبقاً لهذا الغرض، في سبيل زيادة في اثراء الأرث الشيعي فضلاً عن فرض مذهبهم[٦٢].

لقد تعرض علماء وفقهاء السنة إلى الاضطهاد والقمـع المـذهبي والفكـري بشكل أو آخر، وقد اشار ابن واصل إلى ذلك صراحة في احدى رواياته قائلاً:

((ان كلمة السنة بها وان كان مجموعة فإنها مقموعة))[٦٣]، وقد تعرض النشطاء منهم للأذى أو الملاحقة أو القتل[٦٤].

بعد ما آل الحكم من الفاطميين إلى الناصر صلاح الدين عام(٥٦٧هـ/١١٧١م)[٦٥]، أدرك السلطان بحكم الفطرة البشرية أن الأرض ملك الجسور، والفضاء ملك النسور، وان درر البحور لاترتقي إلى النحور، إلا إذا شمر عن ساعد الجد وساق الركب نحو الهدف المنشود، لتأتي الاحداث أعلى صوتاً من الكلمات بشهادة التاريخ بنفسه[٦٦].

وقد ادركت السلطات الصلاحية بعد أن قضى على الدولة الفاطمية، أن أنصارها السابقة عازمون على خلق الاضطرابات والقلاقل في مصر، لاسيما في القاهرة، لذلك فقد تركزت أنظار الأجهزة الأمنية عليهم، ورصدت جميع تحركاتهم صغيرها وكبيرها، ولم يترك المجال لهم، كما شرعت بجملة من الأمور والاجراءات السريعة، كان أولها إلغاء عبارة(حيّ على خير العمل) من الأذان، وأمرت بذكر الخلفاء[٦٧] والأئمة، على المنابر، كما قامت ببيع الكتب التي لاتوافق مذهب السنة، وقد بلغ عدد الكتب المتعلقة بمذهبهم أكثر من مليون مجلد، وفوضت لتنفيذ هذا الاجراء القاضي الفاضل، حق التصرفات بها وبحسب ماتمليه المصلحة العامة[٦٨]، علماً أن السلطات أبقت على الكثير من الكتب التي ظلت متداولة بين الناس، وكانت هذه الالتفاتة الكريمة من القاضي الفاضل خطوة كريمة وذكية صدرت منه، لأنها حفظت هذه المصادر من الضياع والإتلاف[٦٩].

ولقد صمم صلاح الدين على أن يسرع الخطى، نحو تثبيت حكمه في بلاد مصر أولاً لتحقيق السلام الذي بدا يراوده ثانياً، رغبة في توحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم، ورام بذلك قصدا جلياً، والوقوف بوجه

الغـزاة الـصليبيين الطـامعين في أرض المـسلمين(٧٠)، واسـتقامت قامـة العمـل بـالنهوض علـى الـساقين للجـري بهمـا علـى مـسار تحويـل النـاس وصـرفهم تدريجياً عن المذهب الفاطمي، واستمالتهم إلى مذهبه على نـار هادئـة رويـداً رويداً، دون إثارة أية بلبلة، ولم يبتدئ بالساكن فيما فعل، بل اندفع ناشطاً يتحرك في جميع الاتجاهات، لترجمة مضمراته إلى أفعال، وأول مبتدأ أفعالـه، عزل قـضاة الفـاطميين، والغـاء مجالس الـدعوة، متبعـاً ذلـك بالغـاء البيـاض الذي كان شعار الفاطميين، واحـلال الـسواد محلـه، وإصـدار أمـر خـاص بهـذا الـشأن، يقـضي برفـع الرايـات والاعـلام الـسود شـعار العباسـيين علـى منـابر المساجد والجوامع(٧١)، والـزام الخطبـاء، بلـبس الثيـاب الـسود(٧٢)، عـلاوة علـى حذف النقش الديني الخاص بالفاطميين من العملة المتداولة(٧٣).

وجراء هذا الاجراء، شعر الناس بنوع من الأمن والأمان والاطمئنـان علـى حياتهم وممتلكاتهم لكل بعيـد ذي شأن أو غـيره وقريـب حمـيم. وقـد عـبر احد الشعراء عن هذا الاجراء في قصيدة نجتزئ بعض أبياتها قائلاً(٧٤):

أصبح الملك بعد آل علي   مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب   ومصر تزهو على بغداد
ماحووها الا بعزم وحزم   وصليل الفولاذ في الفولاذ
لاكفرعون، والعزيز، ومن كا   ن بها، كالخطيب والاستاذ

وقـد اسـتطاع صـلاح الـدين أن يوطـد سـلطانه، ويرسـخ أقدامـه في بـلاد مـصر، ودعـي لـه علـى منـابر بـلاد الـيمن والـشام الـتي كانـت تابعـة لنفـوذ وسيطرة الخلافة الفاطمية، وبناء على أوامر صدرت له من نورالدين زنكـي وإيعاز مباشر من مركز الخلافة العباسية في بغداد، أمر بـه أن يخطـب لـبني العباس، فقطـع ذكـر الفـاطميين في الخطـب سـنة(٥٦٧هـ/١١٧١م)(٧٥)، لم يكتـفِ

عند هذا الاجراء، بل محا اسماء الفاطميين من محاريب المساجد والجوامع في القاهرة[٧٦]، دون ان تثار قلاقل أمنية، وكذلك تبعه بعمل آخر تمثل في ضرب السكة باسم الخليفة العباسي المستضيء بأمرالله، وعزل أهل الخليفة الفاطمي العاضد وأقاربه في مكان خاص يليق بهم في القصر، ولم تمض إلا أيام معدودات حتى عين القاضي صدرالدين بن درباس الكردي الشافعي قاضياً على مصر(الفسطاط) والقاهرة، وأمر الناس باتباع مذهبه[٧٧]. وكان لكل مذهب قاضٍ يتولى أموره وينشر تعاليمه[٧٨].

ويجب أن نشير هنا إلى أن السلطان صلاح الدين لم يكن يأخذ أي اجراء ضد أحد لاسيما من العلويين، بمجرد اتهامه بالمخالفة لمذهبه، بل كان يدقق ويحقق في الأمر للوقوف على مدى صوابه من خطئه، والشاهد على صواب ذلك مايأتي، لقد دخل صلاح الدين مدينة دمشق في أول شهر رمضان سنة(٥٨٤هـ/١١٨٨م)[٧٩]، واستدعى عزالدين أبا الفليتة قاسم بن المهنا العلوي الحسني(٥٨٤هـ/١١٨٨م)، وكان يناصر السلطان ويوآزره في شتى مناحي الحياة الدينية والتوجهات الدنيوية، وكان صلاح الدين يعتز بآرائه السديدة، وينزل عندها في أحايين كثرة، وطرح على العلوي فكرة تفريق جنوده الذين كانوا بإمرته، غير ان العلوي لم يستحسنها، وقال: ((ان العمر قصير والأجل غير مأمون))[٨٠]، وقد بقيت بأيدي الفرنج حصون متعددة هنا وهناك مثل صفد وكوكب، والكرك وغيرها، ولابد من الاستيلاء عليها والفوز بها، لوقوعها في قلب بلاد الاسلام، وشرور أهلها غير مأمونة الجوانب، وإذ أغفلنا عنهم، ندمنا فيها فوقع الرأي في نفس السلطان موقعاً حسناً، مؤثراً عليه، مؤيداً بحصانة، قوامها السداد والحصافة، فعدل عن رأيه وفكرته وأخذ برأي ومشورة صاحبه العلوي[٨١].

ب- أهل الذمة:

ومادام السياق ذا اتصال بالفكر الديني، فلا غنى عن سوق الحديث نحو مساق لايستثني أهل الذمة من البحث، فلقد أولت الدولة الصلاحية رعاية خاصة بمعتقدات الطوائف غير الاسلامية من أهل الذمة، عبر منحهم الحرية الكاملة، لممارسة طقوسهم وشعائرهم الدينية، وكان يحترم عقائد الناس، ويوسع لهم في الحرية ما استطاع، إذ كان لكل طائفة دينية قائم على أمرها، يقودها إلى مافيه خيرها، ويحكم بينهم طبقاً للقواعد الدينية المعمول بها لدى تلك الطائفة(٨٢).

ولم يبطره الظفر يوماً بل كان يزيده مروءة وتسامحاً ورحمة بالانسان، وان لم يكن من دينه وجنسه، وقد يضيع جنده كرامة الانتصار وعظمته، فيعيثون فساداً وخراباً، وهو يشتد في ردعهم وضبطهم(٨٣).

وعلى هذا الاساس أتاحت الدولة الصلاحية فرصة الاختيار بين المعتقدات، فحرية الاختيار موفورة يعتنق على أساسها كل معتنق ما يرضاه من عقيدة، يطمئن إليها قلبه إلاّ الكفر(٨٤)، فإنه مستثنى من حق الاختيار، إذ لم تتهاون الدولة بشأنه، لكونه خطراً هداماً يلحق الاضرار ببني العقائد السماوية(٨٥).

وقد تم الاعتماد عليهم في الكثير من الشؤون الادارية، مثل الاشراف على خزانة الدولة التي كان زمام أمرها بيد النصارى عام (٥٨٦هـ/١١٩٠م)(٨٦) مع إلزامهم بعدم الاخلال بأمن العباد والبلاد.

غير ان الأغرب والأعجب، هو ان معظم من زاولوا الحرف والصناعات أهل الذمة، فبرز من اليهود من امتهن بالطب وإدارة البيمارستانات وصنع

وتركيب الأدوية، حتى إن مهنة الطب كادت تنحصر فيهم لاقتصارها عليهم بشكل أساس في الدولـة، إمـا قلـة عـدد الأطبـاء، أو للـصعوبات الـتي واجهـتهم للانخراط في جيش المسلمين[٨٧].

ولايفوتنـا ان نقـول فـضلاً عمـامر ذكـره، عـن روايـة تاريخيـة تـشير إلى نشوب خلاف شديد وحاد بين الارثوذكس والكاثوليك وهم أبناء لبني جلدة واحـدة في مدينـة القـدس، لإيثـار الارثـوذكس حكـم المـسلمين علـى حكـم الكاثوليـك الأفـرنج، فكـاتبوا صـلاح الـدين سـراً، يطـالبون قيامـه بفـتح المدينة[٨٨].

ولمـا أيقـن أفـراد الحاميـة بـأن المدينـة صـائرة إلى الـسقوط الحتمـي، على الرغم من بـسالتهم واستماتتهم في الـدفاع عنهـا، أجمعـوا رأيهـم علـى طلب الأمان، فأرسلوا باليان إلى الـسلطان صـلاح الـدين يفاوضـه في الـصلح علـى أن يدفع سكانها له مائة الف دينار[٨٩].

ولقـد أمـسك صـلاح الـدين بيـد باليـان وقـاده إلى بـاب الخيمـة، وأشـار إلى الاعلام الصلاحية الصفراء التي أخذت ترفرف فوق عدد من أسوار المدينـة، وإلى علم الدولة الذي كان رجاله يرفعونه في تلك المدينة وقعت في الأسـر أن تطلب شروطاً للصلح))[٩٠].

فقال الرسول: ((أيها السلطان، ان في المدينـة خلقاً كثيراً لايعلم عـددهم إلاّ الله، وهم انما يفترون عـن القتـال رجـاء الأمـان، ظنـاً مـنهم انـك تجلـبهم إلى الموت الذي لابدّ منه، فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا، ونحرقن أموالنا ومتاعنا، ولانـتركهم تغنمـون دينـاراً أو درهمـاً واحـداً، ... فلايقتـل الرجـل منـا حتـى يقتل منكم أمثاله، فنموت أعزاء أو نظفر كراماً))[٩١].

ويقول سيد أمير علي: ((لقد تغلبت رقة قلب السلطان على رغبته في الاقتصاص، وسمح للروم ونصارى القدس بالاقامة في بلاده، وبالتمتع بحقوقهم المدنية كاملة، كما سمح بالبقاء للفرنج واللاتين الذين شاؤوا ان يقيموا في فلسطين بوصفهم رعايا السلطان))(٩٢).

في الحقيقة، إن أهل الذمة قلما أخلوا بأمن البلاد الصلاحي، ومن الشواهد التي تؤيد على الالتزام بأمن الدولة، قيام أهل الذمة بالتزامهم بشد الزنار ولبس الغبار، الأمر الذي يؤكد وجود العلاقات المميزة بين أهل الذمة والمسلمين، ضماناً لحماية وحدة الصف داخل المدن الاسلامية، من مساوىء الطوارىء المحتمل بروزها في هذه البلدة أو تلك المدينة، على حين غرة من هؤلاء تمس أمن الدولة وسلطانها. ومن هذا المنطلق وتجاوزاً لما قد يحدث من المشكلات، حددت السلطة جملة من الامور والزمت أهل الذمة بوجوب التمسك بها، منها الامتناع عن الاختلاط بالمسلمين ليلاً أو في الظلام الدامس، والنزول إلى البحر، وركوب الخيل، وشراء السودان والاماء، واستخدام المسلمين في الاعمال(٩٣).

ويدخل في سياق مانحن بصدده من أهل الذمة، الأقباط فقد منحوا ماينبغي من لائق الرعاية وفائق العناية، التي بلغت حداً، فعرفت الطوائف في عهد صلاح الدين أقصى الحرية، فأحبه الأقباط محبة شديدة ظاهراً وباطناً، ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها، ان الشاعر عبدالمنعم الاندلسي زار بلاد مصر في تلك الحقبة الزمنية، فدهشى، وثار فيه الاعجاب بتعليق صورة صلاح الدين في كنائسهم، لما رآه من حب القبط للناصر صلاح الدين، مما دفعه إلى نظم قصيدة طويلة في هذا المعنى نجتزيء منها هذا البيت:

فحطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانيم(٩٤).

وفضلاً عن التصاريح السابقة والدالة على عناية صلاح الدين بتوفير الحرية الدينية لليهود في بلاده، نورد شهادة تزيد اليقين قوة على قوة يقيمها الشاعر اليهودي الاسباني (يهود الحريري) الذي زار القدس في سنة(٦١٣هـ/١٢١٦م)، أن اليهود قد استفادوا من جو الحرية الدينية الذي شاع في عهد السلطان صلاح الدين، فلجأت إلى القدس جماعات كبيرة من اليهود وفدت إليها من جميع انحاء العالم(٩٥).

ج- الحركات والتمرد:

لم تكن حركة واحدة، بل كانت حركات متوالية سرية، آخرها أخطرها، حركة الذين كانوا يعملون سراً في البحث عن خليفة بعد العاضد، واختلفوا في الاختيار ففريق يؤيد خلافة ابن العاضد الصغير، وفريق يبحث عن رجل من البيت الفاطمي يستطيع القيام بالأمر، والوقوف بوجه صلاح الدين، وكان من نتائج هذا أن قام أحد ولدي العاضد وهو داود(ولقبه أنصاره بالحامد لله)، يطالب بملك والده، فقبض عليه صلاح الدين وأودعه في السجن عام(٥٦٩هـ/١١٧٤م)، ولم يخرجه إلا بعد أن أمن شره وخطر أنصاره. وهكذا نرى ان الدعوة السرية لم تستكن، فقد خرج من مدينة الصعيد رجل يدعى سليمان بن داود، فاعتقلته الأجهزة الأمنية الصلاحية وسلمته إلى السلطان الذي سجنه حتى توفي(٩٦). غير ان قصة وفاته في السجن تبين انها غير صحيحة، فقد رآه المؤرخ ابن واصل، في مصر سنة(٦٤١هـ/١٢٤٣م)، ولاحظ شدة اهتمام أنصاره ومحبيه به وتحقيق آمالهم وأمانيهم فيه(٩٧).

وتكررت حالات التآمر لبعث الروح في بقايا الدولة الفاطمية[٩٨]، بعد لملمة أشلائها المبعثرة هنا وهناك لصياغة هيكلها من جديد. فيستظل الفاطميون بظلالها ثانية، فمن هذه الحالات المتكررة، ماحدث بقيادة عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان...اليمني[٩٩]، ضد الدولة الصلاحية، وهي تعد من أشد بل أخطر المؤامرات وأعنفها، شاركت فيها جماعة من الفاطميين منهم عبدالصمد الكاتب، والقاضي العويرس[١٠٠]، وداعي الدعاة عبدالجبار ابن اسماعيل بن عبدالقوي[١٠١]، وعلي بن نجا الواعظ[١٠٢]، ثم توسعت رقعة دائرة التآمر، بانضمام السودان والاسماعيلية والأرمن وأخيراً الفرنجة إليها، واتفقوا جميعاً على الاطاحة بالدولة الصلاحية الفتية وهي في المهد في شهر نيسان عام(٥٦٩هـ/١١٧٣م) للاجهاز عليها[١٠٣]. وكان من رؤوس المؤامرة الشاعر عمارة اليمني نفسه الذي عبّر عن دخيلة المؤامرة بقوله[١٠٤]:

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها   فلا تشبعوا منها ونحن جياع

يستشف من هذا البيت من الشعر أنه وجد نفسه وأصحابه خارج نطاق التعظيم القديم له من العطايا السخية والجوائز والهدايا السنية، وكان عند الفاطميين بمنزلة الوزير، ولذلك قال أيضا[١٠٥]:

وكان لي في ملوك النيل قبلكم   مكانة عرفتها العرب والعجم!

وإنما أناضيف للملوك ولي   دون الضيوف لسان ناطق وفم

وقد كان له غير الفم واللسان عقل يدبر التآمر وينظم الأمور، ويجمع معه فيه أرباب المناصب السابقين[١٠٦]. إلاّ ان هذه النشاطات السلبية والحركات المناهضة للناصر صلاح الدين لم تكن خافيه عليه، فتدارك الوضع الأمني مع مستشاريه وأصحابه، ورد الصاع صاعين ضد هؤلاء المتآمرين، مستعيناً بعيونه ورجالات أمن سلطته، المبثوثين هنا وهناك،

وتـدخل عامـل طـارئ لـصالح الـسلطان نفـسه، تجـسم في وقـوع الخلافـات والمـشاحنات المزجيـة إلى الاختلافـات بـين المتـآمرين بـشأن توزيـع مناصب الدولـة والغنـائم مـن التركـة الـتي سيؤول أمرهـا إلـيهم، ان حـالفهم الظفـر بـالتمكن منـه ومـن دولتـه(١٠٧)، فلقـد كـشفت خيوطهـا وانتهـى الأمـر بإلقـاء القبض على المتآمرين، وقررت السلطات بعد التحقيق معهم، صلب كـل مـن عمارة وعبدالصمد والعويرس، وداعـي الـدعاة، في الثـاني مـن شـهر رمـضان المبارك في العام نفسه، وتذكر المصادر إلى أن داعي الدعاة كان عارفـاً بأسـرار القصر كلها بدقة، فلم يفش شيء منها، بل رافقته إلى مثواه الأخير، فرقـدت معه في مرقده(١٠٨).

والظاهران الـشاعر عمـارة الـذي صُلب هـو القائـل في رجـل صُلب يـدعى طرخان(١٠٩):

أراد علو مرتبة وقدر فأصبح فوق جذع وهو عال

ومد على صليب الجذع منه يمين لاتطول إلى الشمال

ويقال إن عمارة قتل لبيتين قالهما يعـرّض بـصلاح الـدين، ولعلهما كانـا من الدلائل التي أخذت واستثمرت ضده(١١٠):

والله لافاز يـوم الحشر ظالمكم ولانجا مـن عذاب الله غير ولي

ولا رأى جنة الخلد التي وعدت من خان عهد الإمام العاضد بن علي.

ويذكر ابن الأثير أن القاضي الفاضل انحنى على إذن صلاح الـدين، يـشفع لعمارة اليمني حين حُكِم بالصلب، وكانت بينهما عداوة سابقة، فـصاح هـذا بـسبب ذلـك: ((لاتـصدق كلامـه بحقـي يامولانـا. فغـضب القاضـي وانـسحب. وقال صلاح الدين: إنما كان يشفع فيك))(١١١).

فقال عمارة:

عبدُ الرحيم قد احتجبْ إنّ الخلاص هوَ العجبْ[١١٢]

ولم تنته الحركات المضادة لصلاح الدين، وهذا ما اقتضى لمتابعتهم واتخاذ الاجراءات اللازمة والصارمة بحقهم، ومن هذه الحركات، حركة ابن مجيرالدين التي يرأسها سنة(٥٧٠هـ/١١٧٤م)، في الصعيد، واجتمع إليه والتف حوله خلق كثير لنصرته، وإن الأجهزة الأمنية الصلاحية لم يكونوا غافلين عنها، بل أوصلوا أخبارها أولاً بأول إلى مسمع السلطان، ومن الملاحظ انه تشاور مع امراء جيشه للتعامل مع الموقف المستجد، ودفعه باتجاه الحل العسكري الحاسم الضروري للقضاء عليها، واخمادها وهي في المهد قبل استفحال أمرها، فسير ضده جيشاً قوياً قادراً على حسم المعضلة لصالح الدولة، وبعد التقاء الجمعين ونشوب المعارك الطاحنة واستماتة المتآمرين في الدفاع عن جماعتهم، الا ان الوضع قد حسم بقتل ابن المجير مع عدد من اتباعه والقضاء على الحركة في ذات السنة[١١٣].

على الرغم من شدة تدابير صلاح الدين ضد هذه الحركات المناوئة، بيد أنها لم تحسم الموقف ولامنعت أصحاب الهوى والنفوذ الفاطمي من المناهضة والتمرد مرة أخرى في الصعيد سنة(٥٧٠هـ/١١٧٤م). قام بذلك مقدم من قواد الفاطميين كان والياً على اسوان يدعى كنز الدولة[١١٤]، الذي بدأ يجمع أشتات السودان الفارين إلى مدينة اسوان[١١٥]، وقوص، وكان يعتزم اعادة الدولة الفاطمية، فاقتضت الضرورة اتخاذ الاجراءات الأمنية الحاسمة بحقهم[١١٦]، وقد بلغ خطورتها ان السلطان فكر في الذهاب بنفسه لإخمادها، ولكنه خشي انتفاض وتمرد القاهر، فوجه صلاح الدين إليه جيشاً قوي العزيمة جاعلاً مقدمه أخاه الملك العادل الذي استطاع من هزيمة خصيمه كنز الدولة، ونهب بلاد الصعيد عقوبة له، فوقع من جيشه من وقع من المتمردين في

قبضة جيش العادل، ومن حالفه الحظ لاذ بالفرار ناجياً بجلده من ساحة المعركة وكان نصيب الكنز الموت(١١٧).

وتشير المصادر التاريخية إلى ظهور حركة تمردية مماثلة في سنة(٥٧٢هـ/١١٧٦م)، لم تكن أقل شأناً من حركة كنزالدولة في احداث الفوضى، تمثلت في حركة داعية فاطمي سابق من بني عبدالقوي جمع حوله حشداً من أهالي قفط، وكانت هذه المدينة منذ عهد علي بن ابي طالب رضي الله عنه تعد وقفاً على العلويين، وكان يعتزم اعادة الدولة الفاطمية، ولما تيقن السلطان ان خطره قادم لم يتهاون في الرد عليه قيد الأنملة، واستعمل القسوة والقوة العسكرية معه، وبعث أخوه الملك العادل حيث قتل ثلاثة آلاف من أنصاره تقريباً وصلبهم على الشجر في المدينة وعرض أعناق بعضهم على مداخل الجسور، عبرةً لغيرهم ممن يحلمون بعودة الحكم الفاطمي(١١٨).

وتتحدث المصادر التاريخية عن أحد رموز المتمردين وهو العباس بن شادي، وهو من قرية طود عام (٥٧٠هـ/١١٧٤م) وسيطر على قوص ونهبها، بعد أن استغل فرصة انشغال صلاح الدين بحركة تمرد كنز الدولة(١١٩)، وباشر يؤلب الناس على السلطة الصلاحية، بيد ان الرصد الأمني عند السلطان كان قوياً إلى درجة لم تسمح بسير حركة التمرد على خطها المرسوم في الخفاء، فاستطاعت عيون السلطة من جمع المعلومات الدقيقة عنهم، ثم رفعها إلى صلاح الدين للاطلاع عليها، فرسم السلطان خطة لاحتواء الموقف، وهذا ماتحقق فعلاً، بمقتل العباس بن شادي نفسه بعد ان وثب عليه الملك العادل في اعقاب تسلمه أوامر من قبل أخيه صلاح الدين(١٢٠).

ويستدل مما سلف ذكره ان قرب السلطان صلاح الدين وبعده، عن مواقف الاحداث، لم يكن ذا بال بسبب قدرة أصحابه على رصد الاحداث والحوادث، ثم رفع المعلومات عنها إليه، ليكون على علم بها، واتخاذ الموقف المناسب لحسمها.

ومن الانباء التي حفلت بها كتب التاريخ عن أنشطة حركات التمرد على السلطان، ومنها حركة معين بن معين الذي عصى بالراوندان[١٣١] وشرع تمرده عام(٥٨٢هـ/١١٨٦م) في حلب، قيل عنه انه كان يكاتب الشيعة، وبدأ عصيانه يشكل خطراً على أمن البلاد، بعد اتساع دائرة نشاطه التمردي، وهذا مادفع الجيش الصلاحي على جمع وحشد قواته ورجالات أمنه، فبدأت هذه القوات تؤدي دورها المنشود على أكمل وجه، الأمر الذي حقق الغاية المطلوبة المتجسمة في نيل رضى السلطان أولاً ومن ثم القبض على رأس الحركة معين واخماد حركته[١٣٢].

فقد الفاطميون الأمل في استعادة دولتهم ومجدهم السابق، وعلى الرغم من ذلك تتناول بعض المصادر التاريخية تمردات أخرى صغيرة وغير منتظمة، كما حصل عام(٥٧٥هـ/١١٧٩م) من قبل رجل يدعى جلدك الشهابي بالواحات، إلا أنه طلب في الأخير الأمان من الملك العادل الذي يسيره إلى دمشق وأمن حياته بعد أن منحه الأمان.

ويمكن القول بلا مواربة ولاتردد أن أصحاب السلطان من رجالات الأمن والعسكريين، كانو ينشطون ليل نهار، في تصيد أخبار بلاد مصر والشام، بكل مايصدر من الخاصة والعامة ماقد ينشأ عنها من مساوىء تضر بالدولة الصلاحية.

وثمة حادثة تمرد عرب سليم بالجيزة سنة(٥٧٦هـ/١١٨٠م)، وما ان تناهى أخبارهم إلى مسمع السلطان، حتى وجه إليهم الأمير أباالهيجاء وكانوا أكثر من (٦٠)ألفاً، في حين كان أبوالهيجاء في ألفي فارس، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين، تمخض عنها انتصار جيش صلاح الدين، وتحقق فيها قتل وأسر الكثير منهم[١٢٤]، ومما لاشك فيه ان هناك عنصر المبالغة ظاهرة للداني والقاضي عن هذه الحادثة، لاسيما في عدد أفراد الجيش المتمرد، لذلك من الصعوبة الاعتماد أو الوثوق بهذه الارقام.

وبقي جيش السلطان وأجهزته الأمنية سواء بسواء قوياً في التصدي للحركات المناوئة له في الخارج والداخل، وهذا ماجعل من المصريين ملتفين حوله، كما حصل في القاهرة سنة(٥٨٤هـ/١١٨٨م) حين ثار(١٢)رجلاً من الشيعة، بعد سنة من وقعة حطين، ونادوا بشعار العلويين من شوارعها وأزقتها وهتفوا: ((ياعلي ياعلي))[١٢٥]، وظنوا أن أهل البلد سيلبّون دعوتهم ويخرجون المعتقلين من الفاطميين، فلم يهتم بهم أحد، فأخذت الأجهزة الأمنية الصلاحية تصيدهم بسهولة، وان هذا الحدث كشف مدى قبول الناس لصلاح الدين وتخليهم عن الولاء الفاطمي.

د- الدولة البيزنطية:

اهتم السلطان صلاح الدين بالسفارة والوفادة وأخذ الحيطة الكبيرة، لجعل السفراء والوفود الخاصة بهم لائقين بعيدين عن النقص لأهمية المهمة المكلفين بها، نظراً لمكانة الدولة الصلاحية انذاك، وعلاقاتها المستمرة مع الدولة البيزنطية، على الرغم من تواصل حروبها معها[١٢٦].

ففـي خريـف سـنة(٥٧٦هـ/١١٨٠م) اسـتقبل صـلاح الـدين في القـاهرة رسولاً(سفيراً) من قبل العاهل البيزنطي الكسيوس كومينوس الثاني، وعقد معه صلحاً، وطد أواصر الصداقة والسلام بين الدولتين: ((وكفل صلاح الدين بتلك المعاهدة عدم مساهمة الاسطول البيزنطي في أية حركة هجومية على جيشه، ومن ذلك التاريخ صارت علاقة مصر بالدولة البيزنطية ودية للغاية واستمرت بيزنطية في الاحتفاظ بالعلاقة الحسنة مع صلاح الدين نكاية بالصليبيين))[١٣٧].

ومما لاينبغي ان يفوتنا ذكره لعلاقته الوثيقة بأمن بلاد السلطان، هو تدخل شاه أرمن صاحب خلاط في شؤون الدولة الصلاحية، وتحدثنا المصادر التاريخية ان أصحاب الموصل أنفذوا إلى صاحب أرمن وفداً استنجدوا به، فاستجاب لطلبهم، فخرج من خلاط لنصرتهم، في شوال سنة(٥٧٨هـ/١١٨٢م)، فاجتمع كل من صاحب الموصل وماردين، فضلاً عن وصول جماعة من عسكر حلب، فساروا شطر صاحب أرمن حتى اجتمعوا به لقتال السلطان صلاح الدين[١٣٨].

وكان صلاح الدين قبل أن يتوجه نحوهم، قد بث عيونه الثقات لاستطلاع أحوال القادة الامراء ومواقفهم مما يجري بينهم.

ولم يقتصر أمر صاحب أرمن عند هذا الحد، بل أرسل بكتمر[١٢٩] إلى الناصر صلاح الدين يخاطبه في الصلح بوساطة شيخ الشيوخ[١٣٠]، فلم ينتظم بينهم الحال، بل لم يحالفهم الحظ، وهنا أحس السلطان ان يتمسك بزمام المبادرة، حيث رحل مع قواته الزاحفة نحو عسكر شاه أرمن، لن تقف ولم يعقهم أي عائق، فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان وعزمه على حسم الأمور، ولى راجعاً إلى بلاده مدحوراً دون أن يدخل في معركة خاسرة

مع جيش السلطان، ولم تشمل العودة والهروب صاحب أرمن، بل امتد إلى عزالدين صاحب الموصل، وبذلك تفرقوا إلى بلادهم.

ولما كان السلطان يصب كل اهتمامه على تثبيت أركان دولته، وابعاد الشر عنها، صمم في هذا الزحف أن يتراجع عما يجيش ويختزن في صدره، فسار يطلب بلد آمد، فنزل علهيا نزول العقاب على الفريسة، وقاتلها قتالاً ضارياً، وأخذها خلال مدة ثمانية أيام، وذلك في أوائل محرم سنة(٥٧٩هـ/١١٨٣م)، ولم يحتفظ بها لنفسه، بل اعطاها إلى نورالدين ابن قره أرسلان، ومنّ على ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الاموال وغيرها[١٣١].

هوامش الفصل الرابع:

(١) ابوشامة: الروضتين، ٢/٢٣٣-٢٣٩؛ القلقشندي: صبح ، ١٣/٨٥-٩٠.

(٢) ابوشامة: المصدر السابق، ١/١٩٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ٥/٣٥٦.

(٣) ابوشامة: المصدر السابق، ٢/٢٣٣-٢٣٩؛ القلقشندي: المصدر السابق، ١٣/٨٥-٩٠.

(٤) العماد الاصفهاني: الفتح، ص١٩١-١٩٢.

(٥) البنداري: سنا البرق الشامي، ١/١٩١.

(٦) ابوشامة: المصدر السابق، ١/٩٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات، ٥/١٤٥.

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، ٣/٤٠-٤١؛ ابن واصل: مفرج، ٢/١٠٦-١٠٨.

(٨) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق، ص٦٢-٦٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٢/١١٠-١١٢.

(٩) ابن جبير: رحلة، ص٥١؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢/٨٥-٨٦.

(١٠) ابوشامة: المصدر السابق، ٤/٣٩؛ ابن واصل: المصدر السابق، ص٢/٢٧٩-٢٨٠.

(١١) البنداري: المصدر السابق، ١/٢٢٥؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٣/٣٤٦-٣٥٣.

(١٢) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٢٧٨.

(١٣) ابن شداد: النوادر، ص٢٠٢-٢٠٣؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٤/٢١٣-٢١٤.

(١٤) ابوشامة: المصدر السابق، ٢/٤٨.

(١٥) سبط ابن قنيتو: الذهب المسبوك، ص٢٨٠-٢٨١؛ شاكر مصطفى: صلاح الدين، ص٣٧٧.

(١٦) القلقشندي: مآثر الخلافة في معالم الانافة، ٣/٨٦.

(١٧) العماد الاصفهاني: المصدر السابق، ص١٨٢.

(١٨) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ص١٨٢.

(١٩) سورة الاسراء: الآية(١٥).

(٢٠) شاكر مصطفى: صلاح الدين، ص٤٠١.

(٢١) العماد الاصفهاني: المصدر السابق، ص١١٣.

(٢٢) نفسه، ص١١٣ومابعدها.

(٢٣) نفسه، ص١١٣-١١٧.

(٢٤) ابن اشداد: النوادر، ص١٠٤.

(٢٥) محمد سهيل طقوش: سلاجقة الروم، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٥٣-٥٤.

(٢٦) تعد من معارك الفاصلة في تاريخ السلاجقة مع البيزنطيين. ينظر: محمد صالح الزيباري: سلاجقة الروم في آسيا الصغرى دراسة في العلاقات السياسية(٤٧٠-٦٤٣هـ/١٠٧٧-١٢٣٧م)، اطروحة دكتوراه، الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٩٩م، ص٧٣، ١٥٧.

(٢٧) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٨، ق١/٣٦٠؛ الحنبلي: شفاء، ص٩٧.

(٢٨) حصن كيفا: هي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر. ياقوت: البلدان، ٢/٢٦٥.

(٢٩) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج٨، ق١/٣٦٠.

(٣٠) ابن واصل: مفرج، ٢/٩٨.

(٣١) ابن شداد: النوادر، ص٩٨.

(٣٢) العماد الاصفهاني: الفتح، ص١٨١.

(٣٣) د.خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي(١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م)، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٨م، ص٣١٠؛
Lanepoole, S.: The Mohammaden lynasties, p.p147-148.

(٣٤) د.خليل ابراهيم وآخرون: المرجع السابق، ص٢١١.

(٣٥) الدواداري: كنز الدرر، ٧/٥٨-٥٩.

(٣٦) كمشتكين: أتابك حلب كان مدبر آمور دولة الملك الصالح بن نورالدين محمود زنكي، قتله الملك الصالح سنة(٥٧٣هـ/١١١٧م)، بسبب عصيانه عليه وعدم تنفيذ أوامره حينذاك. ابن خلكان: وفيات، ٥/٥٢٠-٥٢١؛ ابوالفدا: المختصر، ٢/١٤٠.

(٣٧) ابن العديم: زبدة الحلب، ٢/٥٢٠؛ أبوشامة: الروضتين، ٢/٦٠٨.

(٣٨) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٨، ق١/٣٣٥؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ٦/١٦٧؛ ابن العبري: مختصر التاريخ، ص٣٧٦؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ق٣/٥١٩.

(٣٩) البنداري: سنا البرق الشامي، ص٩٠-٩١؛ ابوشامة: المصدر السابق، ١/٣٥٢.

(٤٠) الحنبلي: شفاء، ص٢٤.

(٤١) ابن العديم: زبدة الحلب، ٣/٣٩؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٢/٩٢.

(٤٢) ابن شداد: النوادر، ص١١٩.

(٤٣) البوازيج: مدينة تقع على الزاب الاسفل(الصغيرة) قرب تكريت وكانت تعد من أعمال الموصل. ياقوت: البلدان، ٣٩٦/٢.

(٤٤) ابن نظيف الحموي: تاريخ المنصوري، ٥٠٣/١.

(٤٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص٧٠؛ الحنبلي: شفاء، ص٣٠.

(٤٦) ابن خلكان: وفيات، ٤٤٨/٥؛ حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي، ٣٠١/٣.

(٤٧) ابن خلكان: المصدر السابق، ٣٧٢/٥.

(٤٨) نفسه، ٣٧٣/٥.

(٤٩) نفسه، ٣٧٥/٥.

(٥٠) بني منقذ: ابن منقذ هو سليل امراء بني منقذ أمير حصن شيزر السابقين بالعهد في الشام، وكان صلاح الدين قد أبقى عليهم في دولته، وهو قريب لأسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية، توفي سنة(٥٨٤هـ/١١٩٩م).

(٥١) ابن خلكان: المصدر السابق، ٣٧٩/٥.

(٥٢) القلقشندي: صبح، ٦٢٧/٧.

(٥٣) ابن خلدون: العبر، ٥١٠/٦؛ عبدالهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي من أقدم العصور الى اليوم، دون مكان الطبع، ١٩٨٧م، ٣١٥/٦.

(٥٤) ابوشامة: المصدر السابق، ٦٩١/١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٥٧/٢.

(٥٥) ابن واصل: المصدر السابق، ٩٨/٢؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ص٣٦٧.

(٥٦) ابوشامة: المصدر السابق، ٦٩١/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٥٧/٢.

(٥٧) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق، ص٢١٨؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٦٣/٢-٦٤.

(٥٨) ابوشامة: المصدر السابق، ٦٤/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ١٧٠/٢.

(٥٩) ابن خلكان: المصدر السابق، ٢١٩/٩؛ مهدي قادر خضر: الأمن في مصر، ص٣١.

(٦٠) المقريزي: الخطط، ١١٣/٢؛

Shaban Blamlc: History, vol.2, p.191.

(٦١) حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٦٧؛ مهدي قادر خضر: المرجع السابق، ص٣٢.

(٦٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ٩٣/١؛ مهدي قادر خضر: المرجع السابق، ص٣٢.

(٦٣) ابن واصل: مفرج، ٢٩١/٣؛ المقريزي: اتعاظ، ٥٤/٢؛ مع اختلاف في النص.

(٦٤) المقريزي: المصدر السابق، ٣٩/٢؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص٣٢.

(٦٥) البنداري: سنا البرق، ١١٢/١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ٢٨٥/٨؛ ابن العبري: المصدر السابق، ص٣٧٣؛ الذهبي: العبر، ٤٩/٣؛ العيني: السيف المهند، ص١٩٧.

(٦٦) أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص٧٧؛ نسرين محمود علي: الأمن في مصر وبلاد الشام في عهد الناصر صلاح الدين، ص٣١٦.

(٦٧) ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء، ص٥٨١؛ العمري: مسالك الابصار، ٥٢/٢٧؛ ابن الوردي: (تتمة) تاريخ ابن الوردي، ٧٦/٢؛ ابن كثير: البداية، ٢٠٨/١٢؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص٥٦.

(٦٨) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٨؛ ابن كثير: البداية، ٢٠٨/١٢؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص٧٤.

(٦٩) اليافعي: مرآة الجنان، ٣٧٧/٣؛ مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الايوبية ورقة، ص١٥؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٣٢٠.

(٧٠) عبدالمنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي، ص٦٢؛ قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٠.

(٧١) الحموي: المصدر السابق، ص١٧٨؛ ابن كثير: البداية، ٢٠٨/١٢؛ المقريزي: الخطط، ٢٧١/٢؛ الحنبلي: شفاء، ص٧٤؛ عبدالعزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، ص٨١.

(٧٢) ابن واصل: المصدر السابق، ٢٢٠/١؛ ابن الوردي: تتمة، ١٢٢/٢؛ ابن خلدون: العبر، ٦٢٧/٩.

(٧٣) ابن واصل: المصدر السابق، ٢٢٠/١؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ١٢٢/٢.

(٧٤) ابن واصل: المصدر السابق، ١٢٣/١؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ٦٢٧/٩؛ ويراجع: ديوان القاضي الفاضل، ١٩٦/١؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٣١٩.

(٧٥) ابن الاثير: الباهر، ص١٥٦؛ البنداري: سنا البرق، ١١٢/١؛ الذهبي: العبر، ٤٩/٣؛ العيني: السيف المهند، ص١٩٧.

(٧٦) الحموي: المصدر السابق، ص١٧٩؛ العيني: المصدر السابق، ص١٩٧.

(٧٧) ابن المستوفي الاربلي: تاريخ إربل، ٣٧٠/٢-٣٧١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ٩٥/٢.

(٧٨) السيوطي: نفسه، ٩٥/٢؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص٨١.

(٧٩) المقريزي: السلوك، ١٢٧/١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ٢٤/٦.

(٨٠) المقريزي: المصدر السابق، ١٣٧/١؛ ابن تغري: المصدر السابق، ٢٤/٦.

(٨١) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٣٢٢.

(٨٢) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٨١-١٨٦؛ المقريزي: السلوك، ١٨٣/١-١٨٤.

(٨٣) ابن أبي أصبيعة: عيون الانباء، ص٥٨٢؛ جيمس رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص١٤٢؛ قدري قلعجي: صلاح الدين، ص٤٥٢؛ نسرين محمود علي: الأمن، ص٣٢٥.

(٨٤) ابن أبي أصبيعة: المصدرالسابق، ص٥٨٢؛ جيمس رستون: المرجع السابق، ص١٤٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣٢٥.

(٨٥) نسرين محمود: نفسه، ص٣٢٥.

(٨٦) ابن الاثير: الكامل، طبعة دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ٣٧٨/٧؛ حامد غنيم: الجبهة الاسلامية الموحدة، ١٥٥/٢.

(٨٧) ابن أبي اصيبعة: المصدر السابق، ص٥٤٥؛ مهدي قادر خضر: الأمن في مصر، ص٨٦.

(٨٨) قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٣٤؛
Crousset: Histoire descrocesades paris, 1934, pp.811-812.

(٨٩) قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٣٤؛
Champdor, A: Saladin le plus pur hersos de Islam, p.181.

(٩٠) أبوشامة: الروضتين، ٩٧/٢؛ ابن واصل: مفرج، ٢١٤/٢؛ قدري قلعجي: صلاح الدين، ص٣٣٦.

(٩١) ابوشامة: المصدر السابق، ٩٧/٢؛ ابن واصل: المصدرالسابق، ٢١٤/٢.

(٩٢) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي، ترجمة رياض رأفت، القاهرة، ١٩٣٨م، ص٣١١؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٢٥-٣٢٦.

(٩٣) المقريزي: اتعاظ، ٥٣/٢-٨١؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٢٦.

(٩٤) مجلة رعمسيس، السنة الخامسة، العدد التاسع.

(٩٥) قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٤٦؛ Champdor, A: op.cit, p.188

(٩٦) ابن خلدون: العبر، ٨٢/٤؛ شاكر مصطفى: صلاح الدين، ص١٣٠.

(٩٧) ابوشامة: المصدرالسابق، ٢٢٢/١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ١٩٤/١.

(٩٨) الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢٧٧؛ ابن الوردي: تتمة، ١٣٦/٢.

(٩٩) ابن خلكان: وفيات، ٤٣١/٣-٤٣٥؛ الاسنوي: طبقات، ٥٦٥/٢-٥٦٨؛ ابن تغري: النجوم، ٧٠/٦؛ ابن كثير: البداية، ٢٧٤/١٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٢٦.

(١٠٠) القاضي العويرس: هو الذي تولى ديوان النظر، ثم القضاء بعد ذلك. ابن الاثير: الكامل، ٢٣٩/١٣؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢٢٠/٢.

(١٠١) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٣٩/١٣؛ المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة، ق٣٧٨/٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٢٦.

(١٠٢) ورد عند ابن الاثير ابن نجيّة. الكامل، ٢٤٠/١٣؛ وكذا الذهبي: العبر، ٥٩/٣ والدول، ٨٤/٢؛ وتاريخ الاسلام، ص٤٠٠؛ شاكر مصطفى: صلاح الدين، ص١٣١؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٢٧.

(١٠٣) ابن خلدون: العبر، ٨٢/٤.

(١٠٤) ابوشامة: المصدر السابق، ٢٢٢/١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ١٩٤/١؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص١٣٠-١٣١.

(١٠٥) ابوشامة: المصدر السابق، ٢٢٢/١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ١٩٤/١.

(١٠٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص١٣١.

(١٠٧) المقريزي: السلوك، ٢٤٠/١؛ علي بيومي: قيام الدولة الأيوبية، القاهرة، ١٩٥٢م، ص١٩٠؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٢٧.

(١٠٨) البنداري: سنا البرق، ١٤٧/١؛ ابن خلكان: وفيات، ٤٥٣/٣؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٨٣؛ عبدالعزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، ص٩٢-٩٣.

(١٠٩) ابن واصل: المصدر السابق، ١٩٤/١؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص١٣١.

(١١٠) ابوشامة: المصدرالسابق، ٢٢٢/١؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص١٣١.

(١١١) ابن الأثير: المصدر السابق، ٢٤٠/١٣.

(١١٢) نفسه، ٢٤٠/١٣.

(١١٣) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٨١؛ العمري: المسالك، ج٢٧ ورقة ٦٣.

(١١٤) كنز الدولة: اسمه كنز فقط وهو مصري من الصعيد. ابن شداد: النوادر، ص٥٦؛ ابوشامة: الروضتين، ٦٠/١؛ ابن خلكان: وفيات، ١٦٥/٧؛ المقريزي: السلوك، ٥٠/١، ٧٩؛ والبيان والاعراب، ص١٢٥ومابعدها.

(١١٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٥٠/١٣؛ الدواداري: كنز الدرر، ٥٨/٧.

(١١٦) المقريزي: السلوك، ٥٠/١؛ علي بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص٢٥١.

(١١٧) الذهبي: دول الاسلام، ٢/٥٠؛ اليافعي: مرآة الجنان، ٣/٣٤٠؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٨٣.

(١١٨) المقريزي: الخطط، ١/٣٧٦؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص١٣٩.

(١١٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/٢٥٠؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٧٢. ويراجع: المقريزي: السلوك، ١/٥٧؛ علي بيومي: قيام، ص٢١٥؛ كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٢٠.

(١٢٠) ابن كثير: البداية، ١٢/٢٢٤؛ كازانوفا: المرجع السابق، ص٢٠.

(١٢١) الراوندان: قلعة حصينة وكورة طيبة مشعبة مشجرة من نواحي حلب. ياقوت: البلدان، ٣/١٩.

(١٢٢) ابن شداد: النوادر، ص٧١؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٣١.

(١٢٣) المقريزي: السلوك، ١/٦٩؛ مهدي قادر خضر: المرجع السابق، ص١٧٢.

(١٢٤) الدواداري: كنز الدرر، ٧/٦٩. ويبدو ان المؤرخ الدواداري قد بالغ إلى حدما بأرقام الجند، ينبغي على القاريء أن يتوقف عند بعض رواياته، لاسيما التي تتعلق بأعداد الجنود.

(١٢٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ١٣/٣٥٧؛ المقريزي: السلوك، ١/٧٦؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص١٣٩-١٤٠.

(126) Settor, K.M: A History of the crusades, Wisconsin, 1969, p.60.

(١٢٧) نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص١١٦؛ قدري قلعجي: صلاح الدين، ص٢٨٧؛

Stevenson, W.B: The Crusades in the east, (Cambridge, 1907), p.214.

(١٢٨) ياقوت: البلدان، ٢/٢٤٠؛ ابن شداد: النوادر، ص١٣٧.

(١٢٩) بكتمر: الاسم تركي(Beydemir)، ويعني أمير-حديد، أو نصل السيف. ابن شداد: المصدر السابق، ص١٢٨، هامش رقم(١).

(١٣٠) أي بهاءالدين مسعود بن علي آخر حكام آمد من آل نيسان، وبعده صارت للاراتقة. ابن شداد: المصدر السابق، ص١٢٨، هامش رقم(٣).

(١٣١) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٢٨.

الفصل الخامس

الأنشطة الاقتصادية والثقافية والصحية والشعرية

١- الاقتصادية:

انخفضت أهمية بلاد الشام في العصر الصلاحي من الناحية الزراعية، فمعظم السهول الساحلية الخصبة كانت بيد الفرنج الصليبيين، وأما بقية المناطق فكانت تتعرض لهجمات صليبية بين حين وآخر، مما أثر في انتاجها الزراعي، وعلى العموم فان معلوماتنا عن عصر صلاح الدين عن اقتصاد بلاده ليست بالمستوى المطلوب، نظراً لاهتمام أغلب المؤرخين في كتاباتهم بالجوانب السياسية والعسكرية، غافلين عن الجوانب الاقتصادية[1].

انبرى السلطان من أجل تحقيق الأمن الاقتصادي للناس والدولة معاً، لذا انصب جل عنايته لتوفير الانعاش الاقتصادي، وأهم هذه الأنشطة التي ركز عليها، هي المياه ضماناً لاشاعة الهدوء والاطمئنان لدى السكان لاسيما فيما يتعلق بنهر النيل. ولما كانت الحضارة تقوم على دعامتين اساسيتين هما الزراعة والصناعة، وتطورهما وتنميتهما يرفع الجانب الاقتصادي إلى قمة الازدهار والتطور، فقد ركز جل اهتمامه على مياه الفيضانات واستغلالها خير استغلال وتحويلها إلى حياض كبيرة لارواء الأراضي الزراعية في مصر، وكذلك احياء واستصلاح الاراضي غير الصالحة منها للزراعة، ولما كانت

غالبية أهل مصر يشتغلون بالزراعة، التي اعتمدت في العصر الصلاحي على ري الحياض، فكانت الأراضي الزراعية بأمر من السلطان تنقسم إلى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية، ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور، فضلاً عن إقامة شبكة محكمة من قنوات المياه، لسقي المزارع المنتشرة في طول البلاد وعرضها(٢).

وعليه فقد كانت أوضاع البلاد الاقتصادية أيام السلطان، تحت رحمة فيضان النيل، فاذا جاء مستوى الفيضان طبيعياً، تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان، وكان نتاجها مرضياً إلى حدما، وإذا حدث العكس، فيعني ذلك ضعف المحصول وارتفاع اسعار الغلال وحدوث المجاعات وانتشار الأوبئة التي تفتك بالانسان والحيوان على السواء(٣).

وبلغ من شدة اهتمام صلاح الدين بالزراعة والتي تعد من الشواهد التأريخية في التاريخ الصلاحي، ما أعلنه للشعب المصري المغلوب على أمر والمحير مع فيضان النيل، عام(٥٦٧هـ/١١٧١م)، موضحاً فيه خطط عمله، لغرض استتباب الأمن الزراعي على جميع الأصعدة بما فيها اسقاطه الضرائب والمكوس من كاهل الفلاحين الغلابه(٥)، وضمان حرية التجارة في جميع الديار المصرية الخاضعة لسلطته، ومن المعلوم للقاصي والداني ان الزراعة بجميع أصنافها لم تكن مصدراً للأمن الغذائي، فحسب بل كانت مصدراً مالياً أساسياً لخزانة(٦) الدولة في أيام السلطان.

ولقد وفر هذا الاجراء لديار مصر والشام الغذاء، وازالت شبح المجاعة(٧)، وعهد صلاح الدين في سبيل تقوية الزراعة الى الأمير قراقوش الأسدي مهمة الاشراف على عمارة القناطر والجسور في ذلك العصر إلى نوعين، جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد، تعهدت الدولة باقامتها والانفاق عليها.

وجسور خاصة بجهة معينة يعود نفعها على تلك الجهة لاغير. ولذلك كان على الأهالي معينـة يعـود نفعها على تلك الجهة لاغير. ولذلك كان على الأهالي تلك الجهة من الفلاحين والمزارعين والمقطعين اقامتها والانفاق عليها[٨].

ومن المعروف ان النظام الاقطاعي قد ساد في أيام صلاح الدين، فقد كان على المقطع لهم ان يؤدوا خدمات اقطاعية، منها ماهو مالي مثل الزكاة والجوالي وغيرها. ومنها ماهو على شكل خدمات مدنية، مثل رعاية شؤون الأمن في الاقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور، وهذا كله فضلاً عن الواجبات الحربية والعسكرية[٩].

ويجب ان نشير هنا، أنه على الرغم من سيادة النظام الاقطاعي، فإن الفلاح كان محمياً من استغلال السادة الاقطاعيين، فكان التوقيع الخاص بالاقطاع في ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الامر بالمعروف، واتباع العدل، والمحافظة على الاقطاع وعمارته وحسن ادارته، فضلاً عن حسن الجوار مع زملائه وجيرانه مع المقطع لهم المجاورين له[١٠]. كما اهتم السلطان بالقضاء ليصل كل صاحب حق إلى حقه[١١]، ومنعوا أخذ الرشوة من الناس، وزيادة في حماية الفلاح، فحددت الدولة الايجارات والجبايات التي يدفعها الفلاح لسيده الاقطاعي. كما حدت من نفوذ وهيمنة السادة الاقطاعين وثروتهم من ناحية أخرى[١٢].

ولقد وفرت الاقاليم والمدن والقرى الغذاء والغلات والحاصلات الزراعية المتوافرة في تلك الديار أيام صلاح الدين هي القمح، والشعير، والحمص، والفول، والجلبان، والكتان، والقرط، والبصل، والثوم، والترمس، والكمون، والكراوية، وقصب السكر والرز[١٣]، وكذلك اشجار الفواكه والنخيل مثلاً. وفي

الفيوم ساعدة وفرة مياه الري، على زراعة الأرز، وكذلك إنتشرت بكثافة زراعة القطن بالوجه البحري، وانتشرت زراعة الباذنجان، والفجل، والخس، واللفت، والكرنب، والبطيخ الأحمر، واهتم السلطان بشجرة السنط لاستعمالها وقوداً[١٤]، وأحياناً أعمدة، واستخدمت اشجار أخرى في صناعة السفن والمراكب البحرية كالصنوبر والأرز التي كانت تنبت بكثرة في جبال لبنان[١٥].

ومما تجدر الاشارة ان في الدولة الصلاحية برزت غلات عدة متعددة، اشتهرت بما توفره في مستلزمات صناعة النسيج، فكانت مدينة الفيوم تعد من أكبر مراكز زراعة الكتان ومصدراً لتصديره إلى مختلف النواحي، كما اشتهرت بدور الطراز الكثيرة لصنع أنواع الأنسجة للتصدير، ولم يكن يستغني عنها لتميزها بالجودة واتقان النسج، فذاعت صيتها وشهرتها في الآفاق، وقد اشتهرت مدينة البهنسة[١٦]، التي كانت ذات حظ كبير ووافر في صنع ونسج الستور والبسط والوسائد، والاستبراقات والأشرعة والخيام والأجلة والمضارب و غيرها[١٧]، حيث طار شهرتها إلى بلاد فارس وخراسان، نظراً لجودة هذه الصناعات وتفوقها على مناطق أخرى في العالم الاسلامي أيامئذ[١٨].

وينبغي الاشارة إلى أن حالات الحصار التي تتعرض لها أية مدينة، يتعذر تموينها بالمواد الغذائية والصناعية ذاتياً، ولذلك يتم تزويدها وترفيدها بما تنتجه المنطقة وضواحيها ذاتياً، وبذلك تنجو الأماكن والمناطق المجاورة من الأزمات الغذائية والتجارية التي تخلق توتراً أمنياً، تنسحب اثاره السلبية على السلطة، كما حدث في حصار مدينة عكا خلال الاعوام بين (٥٨٥-٥٨٧هـ/١١٨٩-١١٩٤م)[١٩].

مما يلفت الانتباه، بروز دور واضح لصلاح الدين، الذي اعتمد اسلوباً مؤثراً في تدمير اقتصاد الصليبيين، وهناك بعض الوقائع التي تدعم هذا الإستنتاج، بطريقة حصد غلاتهم، وقطع أشجار كرومهم[٢٠]، في غور الأردن عام(٥٧٥هـ/١١٧٩م)[٢١]، بعد أن صعد العمليات التخريبية، فتحطمت ماكنة اقتصادهم الحربية، بفعل ذلك الاسلوب، وتكرر هذا العمل الأمني العسكري في مواقع ومناسبات متعددة هنا وهناك ضد الصليبيين، كالذي وقع في قلعة الكرك عام(٥٧٨هـ/١١٨٢م)، ثم يمم السلطان وجهه في الزحف صوب حصن الشوبك وفعل به مثلما فعل بالكرك[٢٢]، الذي يحتوي على مخزون ضخم من الطعام، وفيه أسلحة بكميات كافية مدفونة تحت الأرض تضم مجانيق مفككة، وسلاح من دروع وسيوف ورماح.

وإذا كانت الزراعة ركناً أساساً لقيام الحضارة، فان الصناعة ليست أقل أهمية منها، فهي تعد الركن الثاني الذي يعد عنصراً مهماً، لايمكن الاستغناء عنه ولابد من تطويره وازدهاره، بالبحث عن المصادر التي تغذي النهضة الحضارية بمقوماتها المتمثلة في المعادن المختلفة، فضلاً عن المنتوجات الزراعية، فقد كانت مصر وبلاد الشام الضالة المنشودة، تشفي غليل مشيدي الحضارة، لما يختزنان فيهما من الثروات المعدنية الضخمة، فقد توافرت في مصر والشام بعض المعادن، أدى وجودها إلى ضرورة قيام بعض الصناعات المعتمدة على المنتجات الزراعية في المنطقة، وهي تمثل المرتبة الأولى وتلحقها في المرتبة الثانية الصناعات المعتمدة على المعادن، مثل الزمرد[٢٣] في قرب مدينة قوص، وكذلك استخراج الشب[٢٤] من مواضع بصحراء الصعيد، حيث تولى الديوان السلطاني بيعه دون سواه، لكونه من المواد التي يهتم التجار الأجانب بالحصول عليه، كما كلف الديوان السلطاني ضماناً لاستخراج

النطرون من الطرانة والناقوسية لحسابه، ويلاحظ وجود النحاس في حلب في ذيل جبل جوش[٢٥] الواقع غربي المدينة، وكذا الزجاج في حارم، والذهب على نهر العاصي[٢٦]، والحديد في زبطرة احدى البقاع في حلب، فيجلب منها إلى سائر البلاد[٢٧]، أما الكبريت فمتوافر في رأس العين[٢٨]، ونالت ماردين حظها من الشهرة الذائعة بتصديرها الزجاج إلى بلاد الجزيرة والعراق وبلاد الروم[٢٩].

وفي ضوء ماسبق، قامت عدة صناعات، كالحدادة إذ استعمل النحاس في عمل الموازين والمكاييل، وازرار الابواب والشبابيك وصنع الاقفال وغيرها[٣٠]، فلولا وجود المعادن، لما قامت الصناعة في حلب وقوص وتنيس وغيرها من المدن الشامية والمصرية، فحلب اشتهرت بصناعة الصابون[٣١]، وصناعة المنسوجات والزيتون والعطور، كما اشتهرت مدينة الفسطاط بصناعة نسيج خاص عرف باسم الفستيان كانت لها شهرة واسعة لاسيما في غرب أوربا[٣٢]. وكثر في حلب الناس المتخصصون في صناعة الأحذية والجلود، وكان سوقهم مشتركاً فيها مع سوق البز[٣٣]، أما حماه فقد اشتهرت بصناعة المنسوجات، وتركزت فيها صناعات أخرى كالحدادة والنجارة والحياكة[٣٤]، ومن الصناعات الأخرى انتشرت في المدن المصرية والشامية على السواء، صناعة استخراج الزيوت من السمسم والخردل والكتان والقنب والخس. وقد انتفع منها في الاضاءة وفي صناعة الصابون. كما كانت صناعة استخراج السكر من قصب السكر من أهم الصناعات. وكانت كمياتها كافية للتصدير إلى الخارج. وقد اتبعت الدولة الصلاحية سياسة الاحتكار في عصر قصب السكر. فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب في معاصرها العديدة المنتشرة في سائر الاقاليم[٣٥].

هذا ولانغفل ان الجزيرة اشتهرت بصناعة الخمور على أيدي النصارى ولاسيما سكان الأديرة والكنائس لامتلاكهم وفرة من مزارع الكروم[٣٦].

وتماشياً مع سياق الحديث، لقد انتظم أرباب الحرف في نقابات تولى كل منها شيخ، وعالجت كتب الحسبة الطرائق والاساليب التي اتخذتها الدولة للاشراف على هذه النقابات، كي يقف المحتسب على ما اتخذه أرباب الحرف من أساليب الغش، ويحاول منعها، ويعاقب من يرتكب هذه المخالفات[٣٧]، وقد عين صلاح الدين عام(٥٦٥هـ/١١٦٨م)[٣٨] القاضي عيسى الهكاري في القاهرة[٣٩] وكان يثق به كثيراً، ولايتسنم هذا المنصب إلا من عرف بالامانة وحاز على ثقة السلطان[٤٠].

ولامراء في ان عود الصناعة والحضارة، إذا استقام واستوى على سوقه فاستغلظ، فإن التجارة تنمو في ظله نمواً يتماشي مع مدى تطورهما المؤثر بالضرورة في النسيج الاجتماعي والاخلاقي، ومن ثم المجال الأمني والعسكري على السواء، ذي الارتباط الوثيق بهذا النسيج. فالتجارة احدى ثمار الحضارة الناهضة على ركني الزراعة والصناعة، لذا اعتمدت هذه الثمرة في نضوجها في بلاد السلطان، على وسائل بصماتها جلية الأثر في دفع ماكنتها إلى الأمام. وهي مشتملة في النقل البري، الذي ركيزته القوافل التي هي وسائط نقلها إلى حيث العرض والطلب، فتنقل السلع والبضائع والغلات من أماكن عرضها إلى أماكن يتوجه إليها وعليها وإلى جانب الوسيلة المنوه بها، تنساق إلى المساق نفسه بوسيلة أخرى، هي النقل النهري والبحري، لربط دولة السلطان بمناطق العالم، لتنشيط حركة التجارة الخارجية[٤١].

ولقد نشطت التجارة بين بلاد الشام ومصر والأقاليم الأخرى في عصر صلاح الدين، على الرغم من سيطرة الصليبيين، على حصن الكرك

والـشوبك وبعـض الثغـور علـى الـسواحل البحريـة، وزاد حجـم المبـادلات التجارية بشكل خـاص ويلفت نظـر الزائـر بعـد أن اسـتعاد الـسلطان هـذين الحصنين والثغور وفرض الأمن في ربوع المنطقة[٤٢].

وقـد اهـتم الناصـر صـلاح الـدين بالمشكلات الاقتـصادية الـتي واجههـا في أثنـاء تثبيـت حكمـه في بـلاد مـصر، ولاسـيما الأزمـة النقديـة الـتي واجهتـه عام(٥٦٧هـ/١١٧١م)، حيث نفـدت العملة الذهبيـة والفـضية مـن أسـواق مـصر، وقد أورد المؤرخ المقريـزي نـصاً للقاضـي الفاضـل يوضـح عمـق هـذه الأزمـة وأثرها البالغ على الناس فقال: عمت بلوى الضائقة بأهل مـصر، لأن الـذهب والفضة خرجا عنها ومارجعا، وعدما فلم يوجدا، ولهج الناس بما عمهم من ذلك وصاروا إذا ذكر دينار أحمر، فكانما ذكرت حرمة الغيور له. وان حصل في يده، فكانما جاءت بـشارة الجنـة لـه. وقـد سـاعدت وسـاهمت علـى وجـود هذه الأزمة، حركة المقاطعة الأوربيـة لتجارة المرور عـبر الأراضـي المـصرية، اثر تحول نشاط التجار الايطاليين إلى موانيء بلاد الشام بعد قيـام الامـارات الفرنجية الصليبية. إلى جانب نضوب موارد الذهب من مناجمه المعروفـة في ذلك الوقت، فضلاً عن ارسال صلاح الدين الأيوبي كميات منـه إلى نورالـدين زنكي والي الخليفة العباسي في بغداد[٤٣].

وقـد فطـن صـلاح الـدين إلى خطـورة ضـعف نـشاط التجـارة الاوربيـة في مـصر، وأثرهـا الـسيء في اقتـصاد مـصر، وعلـى تمويـل حركـة الجهـاد ضـد الفرنـج الصليبيين، ولذلك اتجه على الرغم من الظروف الـتي كانـت تمربهـا دولتـه والعـالم الاسـلامي مـن القتـال المستمر ضـد الـصليبيين الغـزاة، إلى الترحيب بالتجار الايطاليين ومن على شاكلتهم للعودة إلى ممارسـة نـشاطهم التجاري السابق في مدينـة الاسكندرية، وقـد نجحـت جهـوده المضنية في هـذا

المضمار. وظهر ذلك النجاح بالمعاهدات التجارية التي أبرمها مع ممثلي البندقية وجنوه وبيزه في سنة(٥٦٩هـ/١١٧٣م)، وأثار ذلك العمل موجة من النقد في العالم الاسلامي، مما دفع بالسلطان إلى الكتابة إلى الخليفة العباسي مبرراً عمله[٤٤].

كما أصدر صلاح الدين منشوراً لتشجيع التجارة جاء فيه: ((وخرج أمرنا بكتابة هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليها وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها، فيرد التاجر ويسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر براً وبحراً، مركباً وظهراً سراً وجهراً، لايحل ماشده، ولايحاول ماعنده، ولايكشف ماستره، ولايسأل عما أورده، وأصدره، ولايستوقف في طريقه، ولايشرق بريقه، ولاتؤخذ منه طعمة ولاتستباح منه حرمة. والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لايشوبها تأويل، ولايتخونها تحويل، ولايعتريها زوال، ولايعتريها انتقال... قائمة ماقام دين القيمة...))[٤٥].

لقد استفادة البندقية من الاتفاقية التي عقدتها مع السلطان صلاح الدين، إذ حصلت بواسطتها على اعفاء تجارها من عدة ضرائب مباشرة ومنحتهم حرية مطلقة في الاتجار باللآلي والاحجار الكريمة والفراء[٤٦]. وحصلت على حق تعيين قنصل في الاسكندرية، ونائب له في دمياط يرعيان مصالحها في مصر. فضلاً عن تعيين قنصل لها في دمشق وبيروت يرعيان مصالحها في الشام. كما أخذت تصريحاً بتشييد كنيسة داخل هذا الفندق وعدد من الحمامات. كما عقدت جنوه بعد البندقية معاهدة مع صلاح الدين في سنة(٥٦٩هـ/١١٧٣م)، سمح لها بمقتضاها باتخاذ قنصل في الاسكندرية، يشرف على التجار المقيمين في المدينة وعلى المترددين عليها[٤٧].

هذا وإن طرق المواصلات قد توسعت وتشعبت ايفاء بمتطلبات التجارة، ونقل السلع والبضائع من منطقة إلى أخرى وهذه الطرق هي، أولاً: طريق الرقة، بالس ومنها تحمل السلع والبضائع التجارية الواردة من مصر والشام إلى بغداد، ويبدأ الطريق الثاني ببغداد ماراً بمدينة تكريت، فالموصل، فنصيبين، فسنجار، فدارا، فماردين، فدنيسر، فرأس العين، فحران، فبزاعه، فحلب، فقنسرين فحماه، فحمص ثم ينتهي بدمشق[٤٨]، وسلك ابن جبير هذا الطريق عامي(٥٧٩-٥٨٠هـ/١١٨٣-١١٨٤م)، عند عودته من الحج[٤٩]، وربط القسم الشمالي من الشام بمصر، طريقاً ثالثاً يبدأ بالكرك ماراً بغزة ومنتهياً بمصر[٥٠].

ترتب على هذه السياسات الحكيمة من قبل صلاح الدين إلى نمو وتطور التجارة[٥١]، وعم الرضاء والازدهار أغلب المدن المصرية والشامية، لاسيما القاهرة التي تتقاطر إليها التجار الأجانب[٥٢]، وبلغ عددهم مايقارب من ثلثمائة تاجر حيث اكتظت الشوارع بالهنود والاحباش واليمانيين[٥٣]، وكانت دولة السلطان قد وفرت لهم مايحتاجونه من الخدمات، وسنت قوانين خاصة لحمايتهم وحماية تجارتهم[٥٤]، وانتشرت في أرجاء مدينة القاهرة الفنادق الضخمة، وكان بإمكان كل تاجر أن يخزن بضاعته في الطوابق، السفلية، ويبيت هو في الطوابق العلوية الأخرى، فضلاً عن إمكانية إيداعه نقوده في إدارة الفندق مما أضفى أمانة كبيرة على حياة وأموال هؤلاء التجار[٥٥]، ويستشف ان ادارة الفندق قد أخذت على عاتقها مسؤولية إيداع أموال الآخرين، وصارت كالمصارف، مثل فندق مسرور بالقاهرة[٥٦] والاسكندرية ودمشق وطرابلس وحلب وغيرها[٥٧]، ولم تقف عملية التجارة عند هذا الحد، بل تعدت العمليات التجارية من فتح وكالات تجارية كوكالة

قوصون التجارية، حيث ضمنت الدولة عدم استغلال أصحاب الخانات للتجار وتم تسعيرها وتوارثها[٥٨]، ولغرض تسهيل العمليات التجارية أكثر، جرى استخدام السفتجة آنذاك[٥٩]، وتمكنت السلطات الصلاحية، اتخاذ اجراءات كفيلة بوضع حد لاستغلال التجار المحتكرين والبشعين؛ فضلاً عن تقديم صلاح الدين تسهيلات كثيرة لتخفيف آثار تلك الكوارث والأزمات الاقتصادية التي ألمت بالبلاد بين حين وآخر[٦٠].

وليس غريباً أن تستمر عمليات تبادل الوفود والسفراء بين صلاح الدين والصليبيين لاسيما ريتشارد، لاعادة الثقة والامان بين تجار القاهرة والتجار الاجانب، لترسيخ الأمن والاستقرار، وحمايته من الاهتزاز، ولاسيما في أعقاب حصار عكا بدعم من السلطان نفسه. حين التقى سفيره الحاج يوسف صاحب المشطوب الهكاري مع ريتشارد عند دخوله مدينة عسقلان ومايتصل بشؤونها[٦١].

لقد نشطت حركة اقتصادية في البلاد، وكانت إدارات الكمارك تقوم باستيفاء الرسوم على الاموال الواردة والصادرة التي كانت خاضعة للتفتيش والتدقيق في المدن والموانيء التجارية، وأصبحت تلك الموارد مورداً مهماً لدولة السلطان، وقد حدثت من جراء ذلك بعض الخروقات والتجاوزات على التجار[٦٢]، وحاولت الدولة منع البضائع والسلع الممنوعة من الدخول أو الخروج، ووضع بعض المؤسسات تحت رقابة صارمة وشديدة، كالاسواق ودور الضرب، وباشرت الأجهزة ذات العلاقة بالاستماع إلى الشكاوى والدعاوي، والأخذ على يد المقصر والظالم[٦٣].

فضلاً عما سبق ان السلطان قد أدرك تمام الادراك ان الاسعار في حالة استقرارها أو تذبذبها، تترك بلا أدنى شك بصماتها الواضحة على الحالة

الاقتصادية والأمنية في بلاده، فكلما كانت الاسعار مستقرة وثابتة، كانت التجارة نشطة، والثقة المتبادلة بين التجار أكثر رسوخاً وثباتاً، وبالعكس من ذلك فان الاضطرابات والقلاقل يخيم على الوضع الاقتصادي والأمني معاً، وتدب الريبة والخيفة في الاسواق وتؤدي بالضرورة إلى زحزحة الثقة، وضعف درجة الاطمئنان عند التجار وأهل السوق وأرباب العمل، لذلك ركز صلاح الدين جُل عنايته ورعايته صوب المسألة، بعد مشاورة اصحابه، واتخذ التدابير الاقتصادية والأمنية السليمة، للحيلولة دون تذبذب الاسعار، حفاظاً على ثبات الوضع الاقتصادي بعيداً عن الاضطراب(٦٤).

وليس خافياً على أحد ان الاسعار على الموارد الغذائية والسلع والبضائع والغلات كانت معياراً بارزاً لادراك الوضع الاقتصادي، فقد أورد المؤرخ المقريزي(٦٥) قائمة بالاسعار في الحالات الاعتيادية، وإذا ماتجاوزت ذلك فانها مؤشر للغلاء، وبحسب التجاوز يمكن ان نحكم على شدة الغلاء وقلته. وهكذا تعتمد الحالة الأمنية سلباً وايجاباً كثيراً على الأوضاع الاقتصادية وينعكس ذلك على الأمن العام في البلاد.

وإذا تابعنا الخطو مواكبين سلسلة الاعمال والاهتمامات الفذة، ماله الاولوية والأسبقية على أيدي الناصر صلاح الدين، لوجد أيامه زاخرة بما يعد ذخائر تراثية ثرية، إذ قلما غابت شمس يوم من أيامه من غير ان يرى ذلك اليوم، عملاً محموداً ناجماً عن قوة فكره ونافذة بصيرته، وكان يعتبر يوماً لايلد فيه جديد، نظيراً للمضيعة ومثيلاً لما يذهب هدراً، وعليه فلابد والحالة هذه من ان نقول إن صلاح الدين قد التفت إلى احترازات أمنية أخرى تمثل في ارتفاع قيمة النقود، المؤدية ندرة وجودها زمن السلطان إلى التشجيع على التحايل والتلاعب بقيمتها، وكان ذلك عاملاً

مساعداً لزيادة وجود العملات المزورة في الاسواق، ولها تأثير فعال في احداث أزمات اقتصادية حادة، ففي عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م)، أوعز صلاح الدين بابطال العملات المتداولة في السوق، وأمر سك دنانير ذهبية مصرية ودراهم فضية[٦٦]، وابطال مفعول دراهم سود، وألغى جميع دور الضرب في مصر، واختصر فيها على دارين رئيسين هما: دار الضرب بالقاهرة، والدار الأخرى في الاسكندرية[٦٧]، جراء هذا الاجراء السليم من قبل السلطان، قد هدأت الحالة الاقتصادية في البلاد، وتحسنت أوضاع الناس المعاشية[٦٨]، وسد الطرق بوجه التلاعب والتزوير، فعاد الانتعاش الاقتصادي والأمني إلى مصر، ليهنا الناس بهدوء البال في ظل رخاء يعم البلاد وتحسنت أوضاع الناس، وخفَ عنهم ماكان بهم من خوف وفزع، مستغيثين بالله تعالى لكشف الضرر والنجاة من الخطر، فقام السلطان بواجبه في حفظ وحماية النقود من الغش والتزوير.

ويدخل في سياق الاحترازات الأمنية للسلطان، ومن تلك الاجراءات مكافحة التهريب التي ان تركت وشأنها، الحقت اضراراً وخسائر كبيرة بالأمن الاقتصادي للبلاد، فلم يتركهم وشأنهم يسترسلون في ممارسة عملية التهريب على عواهنها[٦٩]، وسلك جميع السبل بهدف وضع حد للنشاط التهريبي[٧٠]، تمثل في ترحيل القبائل التي احترفته مهنة ومصدراً للعيش، وتجنب ماينجم عنه من خطر يزحف نحو الاستفحال والتفاقم، فيهز أركان أمن الدولة، مؤدياً بها إلى هاوية السقوط[٧١]. ومن ضمن الاجراءات الأمنية الأخرى عمد السلطان صلاح الدين إلى رصد مكافأة مالية سخية ومغرية للعاملين في الأجهزة المكلفة بحماية الأمن الاقتصادي للبلاد، وما أن تناهى هؤلاء إلى مسألة المكافأة حتى شرعوا في تنشيط هؤلاء في وضع حراسة

مشددة على مصادر هذه الموارد التي تعد العمود الفقري لخزينة الدولة وحمايتها من تعرضها للسوء[٧٢]، حتى تركن السلطة إلى الأمان وهناء البال، وابعاد شبح التذبذب عن الاقتصاد بتثبيت الاستقرار، ففي الوقت الذي عزم صلاح الدين بحزم على منع التهريب الذي يحدث هنا وهناك، فان المهربين ومن التف حول أجندتهم ابتكروا واستخدموا طرائق ووسائل ذكية بل وماكرة تجاه السلطة الصلاحية من خلال إخفاء المواد المهربة[٧٣] عن عيون الأجهزة الأمنية ورجالاتها، أصبحت جزءاً من ممارسات هؤلاء، ولاسيما الذهب الذي كان يهرب إلى الغرب عن طريق مدن الشام عبر وكلاء مختصين في عملية التهريب دون أن تكشفهم الأجهزة الأمنية ورجالات الحرس الخاص[٧٤].

وإذا خطونا خطوات أخرى صوب عصر السلطان، نلاحظ ان اهتمامه انصب هذه المرة على إلغاء أداء المكوس[٧٥] المفروض على زوار بيت الله الحرام، حيث وقع الغبن عليهم، وماافتصرت اجراءاته على هذا الجانب فحسب، بل تضمنت الغاء الضرائب بما فيها القيان والخمور وضريبة نوروز مستثنياً الجزية والخراج[٧٦].

٢- الثقافية والصحية:

أ- بناء المدارس والمساجد:

اهتم صلاح الدين بالعلم والعلماء، ونهض بفتح المدارس حتى زاد عددها في تلك الحقبة زيادة تلتفت النظر في بلاد الشام أولاً ثم بلاد مصر ثانياً. وقد عجب ابن جبير الذي زار بلاد الشام في سنة(٥٨٠هـ/١١٨٤م) من نهضتها

العلمية وسر لكثرة دور العلم والمساجد فيها وفضلها في هذا المجال على بلاد المشرق عامة، ونصح نشأة المغرب بالتغرب في طلب العلم، ودخول بلاد الشام للنهل من علومها ومعارفها، حيث يجدون الأمور المعنيات. كما قرر أن الغرباء من طلبة العلوم فيها لايدخلون تحت حصر[٧٧].

ومما لاريب فيه أن ازدياد عدد المدارس كانت له أسباب قوية أهمها:

١- كان بناء المدارس في العهد الصلاحي ضمن اطار حركة الاحياء السني، فقد اهتم السلطان بنشر المذهب السني عامة وان بناءه المدارس ضمن خطة موضوعة[٧٨].

٢- الاهتمام الكبير الذي حظي به العلماء والمدرسون. فقد وفر لهم صلاح الدين، سبل الرعاية الكافية والتشجيع المستمر، كما خصص لهم الدخل الكبير والمساكن، حتى يتسنى لهم التفرغ للعلم ونشره. ومن شدة اهتمام الناصر صلاح الدين بالعلم، انه كان يعمل على انتقاء المدرسين بنفسه، ويستقدمهم من أماكن بعيدة، ويفتح المدارس الكثيرة من أجلهم. وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مادة من المواد كدافع لبناء مدرسة ليقوم بالتدريس فيها. كانت الغاية من بناء المدارس وسيلة لتخريج موظفين واساتذة متعمقين بالمذهب السني، كما يتولوا الوظائف الحكومية[٧٩].

٣- همة صلاح الدين العالية في نشر الأمن في أرجاء بلاده، والوقوف بعزم وحزم للنهل من العلم. ومن خلال تمحيص المواقف التي أملاها، على أساس أن المواقف مردها نمط المواقع في أحايين كثيرة تبين للسلطان، أن أنصار الدولة الفاطمية عازمون على خلق الاضطرابات والبلبلة بين الرعية ولاسيما في القاهرة، عن طريق استغلالهم المدارس، لذلك انبرت الأجهزة الأمنية تقارع بالتعاون مع الفقهاء والخطباء والعلماء في المدارس، محاولتهم

التي غايتها تمزيق شمل المسلمين على اختلاف مذاهبهم، ولاعجب فيما إذا عزمت السلطات الصلاحية على إلغاء عبارة حي على خير العمل من الأذان، وأمرت بذكر اسماء الخلفاء والأئمة[٨٠]، وطلبت منهم المحافظة على وحدة كلمة المسلمين وأمنها[٨١].

ولما كان عصر السلطان متميزاً بالصبغة الدينية، فقد غدت المدارس والمساجد من مؤسساتها البارزة ومعالمها الشاخصة التي تجمع فيها المسلمون، والمشرفون عليها، يبلغون الناس عامة والدارسين خاصة بالموقف السياسي للدولة الصلاحية وقوتها، ويعرفون الناس أخبار المسلمين في البلاد الأخرى، ويحثونهم على الجهاد إلى جانب التدريس، فهي اذن بمثابة مراكز سياسية واعلامية يتمتع اساتذتها وخطباؤها بعلو المكانة كالوهراني[٨٢]، بحيث تمكنهم من الاضطلاع بعمل مهم في التوعية الثقافية المتساوق مع القيم الدينية، خلال المعارك التي دارت ضد الفرنج؛ والذي يستدعي التنويه به، أن المذاهب السنية كانت تناسب الوضع القائم[٨٣]، المتناسق مع النهج الشافعي المتبع، وهذا النهج يقضي بمنع اقامة خطبة الجمعة في جامعين في بلد واحد، لذلك تقررت اقامة الخطبة في الجامع الخاصكي بدلاً من الأزهر في مصر[٨٤]، بهدف جمع شمل المسلمين، وتوحيد صفوفهم وقواهم وقدراتهم، وتمتين الأواصر بينهم وتعميق جذور وشائج التعاضد والتآزر، فتفريقهم يحقق عدم اتحادهم الذي به تنمو القوة وتخطو نحو التكامل، فالاتحاد قوة ونقصه هلكة[٨٥].

لقد أدرك صلاح الدين كل الادراك ان بقاء المسلمين في داخل المدن، بدون اقامة مساجد وجوامع يؤثر في ظروفهم الأمنية، فأول عمل نال الحظوة في رؤية النور على يديه في هذا المجال، هو بناء المدارس لأهل السنة مثل

الصلاحية[٨٦]، والقمحية[٨٧]، وماحرمت المذاهب الأخرى من العناية والرعاية بها، فقد أولاها ماينبغي من الاهتمام، فبنى لها مدارس خاصة، تقوم بتدريس مبادئها وتعاليمها اصولاً وفروعاً، كالملكية[٨٨]، والسيوفية[٨٩]، ورصد لكل ضرب من ضروب هذه المدارس، أوقافاً خاصة لتصريف شؤونها، وتمشية أمورها[٩٠]، فضلاً عن قيام السلطان بجعل دار الاسبتارية مدرسة للشافعية بعد فتح بيت المقدس عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م)[٩١] عرفت بالمدرسة الصلاحية، وبنى أخرى في دمشق بالاسم نفسه[٩٢].

ولقد توج اعمال السلطان الثقافية بعد الاقتصار على دراسة مذهب واحد وتدريسه، بل كان رائده الأمثل والأشمل والأفضل في مراعاته المثلى، فاعتمد التنوع على أساس المذاهب، فالمدرسة الصلاحية، تعد أولى مدرسة درست فيها المذاهب السنية الأربعة مجتمعة[٩٣]. وامر صلاح الدين بتأمين مستلزمات التعليم فيها، وأناط مسئووليته بعلماء أكفاء، كالقاضي أبي عمر وعثمان بن عيسى بن درباس الهذباني الكردي في المدرسة الهكارية في القاهرة[٩٤]، على ضوء تلك المذاهب. وقد حذا الخبوشاني حذو صلاح الدين في بنائه مدرسة بجوار الامام الشافعي عام(٥٧٢هـ/١١٧٢م)[٩٥]، وتولى التدريس فيها بنفسه وتوفي سنة(٥٨٧هـ/١١٩١م)، وقد أسهمت المدارس والجوامع مساهمة علمية دينية وثقافية جديدة، فأتحفت الدولة بكوكبة من علماء السنة[٩٦]، الذين أصبحوا حماة لمسارات الأفكار الصحيحة، ونفض غبار الانحراف عنها[٩٧] واشترط في من انخرط في هذه المدارس، بقصد الدراسة والتدريس، أن يكون سنياً، ومن لم ينضو تحت مظلة هذا الشرط، كان نصيبه الاقصاء عنها، كما جرى مع بعض التدريسيين من معتنقي المذهب الاسماعيلي[٩٨]، لأن الجذور الفكرية والثقافية لهذا المذهب قد ضرب بأطنابها

في أعماق نفوس مؤيديهم، فلو تركهم وشأنهم لاضطراب أمن سلطته الثقافي.

ويمكن القول ان غالبية المدارس في تلك الحقبة، كانت توقف لتدريس الفقه الشافعي أو الفقه الحنفي، أو قد تكون مشتركة بين الشافعية والحنفية، وهناك مدارس أخرى أقل عدداً للحنابلة، وتكاد تكون تنعدم مدارس المالكية(٩٩).

لم تكن المدرسة للتدريس فقط، بل كانت مكاناً لدفن واقفيها في الغالب، كما كانت مسجداً أو كان يلحق بها مسجد تؤدى فيه فريضة الصلاة، فمدرسة الكلاسة مثلاً كان يلحق بها مسجد وغيرها كثير. كما كان يلحق بالمدرسة سكن المدرس، فقد الحق بدار الحديث الأشرفية دار للشيخ المدرس فيها، كما قطن الفخر بن عساكر بمدرسة الجاروخية.

كما تلحق بالمدرسة مكتبة عامرة بالكتب النفيسة يستخدمها الطلاب والاساتذة. وكانت الكتب مرتبة ومقسمة الخانات على الرفوف، مفهرسة لسهولة الوصول إليها على أدق وأفضل طرق تنظيم المكتبات في عصورنا(١٠٠).

وكانت الكتب توقف على أشخاص بعينهم أو تودع في المدارس والزوايا للصالح العام. فقد وقف صلاح الدين كتباً كثيرة على آخذ العلم. هذا فيما يخص المكتبات العامة، أما الخاصة، فلها قيمتها العلمية، فقد كانت مكتبة القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني العسقلاني، تتألف من مئة ألف مجلدة. ولم تقتصر المكتبات في عهد الأسرة الصلاحية على المدارس، بل الحقت بالجوامع مكتبات كبيرة، فضلاً عن المكتبات الخاصة. فقد الحق صلاح الدين بمدرسته الصلاحية مكتبة كبيرة، والحق بكل مدرسة أنشأها

مكتبة أصغر، أما مافعله صلاح الدين بمكتبة القصر الفاطمية. فلابد من ذكر أنه فعل ذلك في وقت كان يعمل فيه على محاربة الفاطميين ومذهبهم.

وكانت المكتبة تضم فيها كتباً كثيرة لاتحصى ولاتعد في المذهب الشيعي، وكتباً في التنجيم والغيبيات. وقد نقلت الكتب الأخرى إلى مكتبات خاصة كمكتبة العماد الأصفهاني وغيره.

ومن المعلوم ان لكل مكتبة عدداً من الموظفين والعاملين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها من الضياع والتلف، وصيانتها بين حين وآخر، هذا فضلاً عن خدمة المترددين عليها من طلاب العلم والقراء[١٠١]. وأهم هؤلاء الموظفين الخازن(الأمين) والنساخ والمجلدون والمناولون، كما كان لكل مدرسة وقف خاص بها، يصرف ريعه على الناظر والمدرسين والفقهاء والطلاب وغيرهم وواقف المدرسة بعينه. فقد يوقف الاوقاف لمدرسة من المدارس أشخاص غير الذين بنوها، فاذا كان لها وقف سابق يوسع وقفها. وإذا لم يكن لها تجعل لها أوقاف تساعد على بقاء نشاطها التعليمي واستمراره، وخير الأمثلة على أوقاف هذه الحقبة وطريقة صرفها، وقف المدرسة الشامية الجوانية ووقف المدرسة العمادية. ومن هذين الوقفين يتضح انه ليس من الضروري أن تكون جميع الاوقاف أراضي زراعية. فقد أوقف صلاح الدين على مدرسته الصلاحية حماماً بجوارها وفرناً وحوانيت، فضلاً عن جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة[١٠٢].

وهكذا كان للمدارس ميزانيات ثابتة تضمن للمعلمين والمتعلمين فيها مستوى كريماً من العيش، يجعلهم ينصرفون الى طلب العلم بنفوس راضية مطمئنة. وباعتبار أن أوقاف كل مدرسة تختلف عن الأخرى، يمكن القول أن

المحتويات المادية بين المدرسين كانت مختلفة باختلاف سعة وقف المدرسة[١٠٣].

يضاف إلى ذلك انه في حال كون الوقف زراعياً، فان انتاج الوقف يتأثر بالاحوال المناخية والآفات الزراعية. لذلك قد تمر بعض الاعوام على المدرسين تكون حالتهم المعيشية غير جيدة فيها.

ب- الأربطة والخوانق (الخانقاهات) والزوايا:

اعتمد السلطان الى تنمية دور الأربطة والخانقاهات والزوايا[١٠٥]، لشدة تأثيرها دينياً في شحذ همم المسلمين وحضهم على الالتحاق بجبهات القتال لمقاتلة الغزاة الصليبيين، ركز صلاح الدين فائق عنايته ورعايته الكريمة على المؤسسات الثقافية والدينية والخدمية، فقد بنى أول خانقاه سماها بالخانقاه الصلاحية، وهي على غرار ماكانت معروفة بدار السعداء[١٠٦]، زمن الدولة الفاطمية، وجعل منها مأوى للمتصوفة القادمين من خارج مصر، وأوقافها توزع عليهم حيث كلف صلاح الدين شيخاً للقيام بتصريف شؤونها إلى جانب التركيز على الناحية الأمنية أيضاً التي كانت لاتفارق فكره لحظة. وكانت العناية والرعاية متوافرة فيها بصورة مرضية وغير قاصرة وتتصل بالأغذية الصحية، والدليل على ذلك بناؤه حماماً خاصاً بهم إلى جوارها مع تقديم الأطعمة والأشربة لهم[١٠٧].

وفي عهده بلغ التصوف غايته في الترقي والارتقاء، نحو التسامي عن ملذات حياة الدنيا[١٠٨]، فكان تعليم الصوفية على قسمين، قسم اجباري غالباً مايتعلق بالأمور الدينية واللغة العربية، وهي العلوم التي يترتب على الصوفي بحسب قابلياته واستعداده[١٠٩]. ومن أشهر المتصوفين ذو النون

المصري، أبوالفيض بن أهيم (ت٥٨٦هـ/١١٨٥م)[١١٠]، وأبوحفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد المعروف بابن الفارض (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)[١١١]، وشاطرهم المرابطون في التعبد والتزهد وحذو حذوهم فيهما، وماتقاصروا عنهم فيماهم قد بلغوه من الزهد والدنيا والسعي الدؤوب[١١٢]، لنيل رضوان الله في الآخرة، وكان أسمى أهدافهم أنهم نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، والانصراف لتحقيق رضاه، والانقطاع عن ماعداه[١١٣].

ج- التدريس:

لم تكن هناك طرائق معينة للتدريس في المدارس يتقيد بها المدرس ويسير بحسبها، بل كان يدرس بالطريقة التي يراها مناسبة لطلبته، مع التقيد فقط بشروط الواقف من حيث المذهب والمواد المقررة، وكان المدرس يحسن القاء الدروس حرصاً على سمعته العلمية وبدافع ذاتي، ويجعل مستوى المادة التي يعطيها متناسباً مع مستوى الطلاب. فلا يلقي عليهم مالايناسبهم من المشكلات، بل كان يدربهم ويأخذهم بالأسهل، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق[١١٤].

ومما ذكره، هو ان أيام الدراسة المقررة لم تكن واحدة في كل المدارس. فقد كانت تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة من كل اسبوع إذ لم تكن مواعيد بداية اليوم الدراسي ونهايته واضحة ومعروفة. وكانت الدراسة عموماً فيما بين طلوع الشمس وآذان العصر. كما اختلفت العطل الدراسية السنوية من مدرسة لأخرى، وكانت المدارس عادة تعطل في شهر شعبان ورمضان وعشر من شوال، وعشر من ذي الحجة، وأيام الأعياد والتشريق، ويومي التاسوعاء والعاشوراء من كل سنة[١١٥].

د- أعضاء الهيئة التعليمية:

١- المدرسون: يقف المدرس على رأس هيئة التدريس، ويشترط فيه العلم والالمام التام بمادته، وحسن الديانة، والورع والتقوى، وكان المدرس في مدرسته كأنه جزء منها. يتم تعيينه من قبل واقف المدرسة. ولايمكن أن يحل فيها مدرس عوضاً عنه، إلا إذا تنازل المدرس السابق له. أما كلياً أو جزئياً، كأن يتنازل عن ثلث التدريس أو نصفه مجاناً، أو مقابل تعويض، إلا في أحوال استثنائية.

لقد نال المدرسون مكانة كبيرة في هذا العصر لم يرق إليها غيرهم حتى أصحاب المراكز السياسية والعسكرية، وأصحاب النفوذ المادي، كما كان رجال العلم يوجهون النقد اللاذع للمجالس العلمية التي يعقدها السلطان. فقد وجه ابن عساكر النقد لمجلس صلاح الدين وشبهه بمجلس السوقة، ورفض حضوره حتى أمر صلاح الدين أصحابه ان لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ. كما كان العلماء سفراء الملوك والامراء إلى الخلفاء، وأولي الأمر، وكثيراً ماتوسطوا في فض الخلاف بين الأمراء(١١٦).

وتقديراً للمدرس وثقة به وبأمانته، فقد كان يسمح له بعدم القاء الدرس إذا لم يكن عنده الاستعداد النفسي أو الجسدي أو العقلي.

درج المدرسون على منح طلابهم الاجازات، وهي أكثر من نوع، ويهمنا ان نتحدث عن الاجازات العلمية التي ينالها الطالب بعد ان يشعر استاذه بمقدرته وكفايته. وبعد أن يعرضه لاسئلة متعددة ومتنوعة في كتاب بعينه أمام جمهور الناس من أهل الفضل والعلم. فإذا استطاع الطالب الاجابة عن كل الاسئلة التي تطرح عليه، ينال الاجازة من المدرس لا من

المدرسة. يكتبها له الاستاذ ويوقعها. وقد ينال الطالب أكثر من اجازة وكلما زاد عدد اجازاته زادت مكانته العلمية[١١٧].

٢- **المعيدون:** يعد المعيد من اعضاء الهيئة التدريسية، وهو المدرس الثاني للطلاب، يعيد الدرس على الطلاب ويتوقف لشرح النقاط أو المشكلات التي لم يتم فهمها من الاستاذ. ويكون اشتراك المعيد في التدريس مع استاذه، بداية لترقيته إلى رتبة مدرس، على ان يرحل في طلب العلم[١١٨].

٣- **الطلاب:** ويطلق عليهم فقهاء المدارس. ولم تكن تشترط سن معين لقبول الطالب في المدرسة. ولكن بعض الواقفين وضعوا شروطاً فحواها ان تتوافر في طلبة مدارسهم قابلية التعليم واتصافهم بالفطنة والذكاء. ويتدرج الطالب في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيهاً منتهياً. ويختص بعلم من العلوم يؤثره[١١٩].

لم يكن الرجال وحدهم الذين يتلقون التعليم. فقد نالت المرأة حظاً في المجال التعليمي، وان لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس، فلعبت بعض النساء دوراً لايقل أهمية عما قام به الكثير من العلماء والفقهاء، وتتلمذ على أيديهن الكثير من الطلبة. فقد ذكر الحافظ أبوالقاسم بن عساكر ان جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة[١٢٠].

وما هو حري بأن يذكر، هو أنه بعد ما أن تولى السلطان الحكم في مصر وبلاد الشام[١٢١]، حدث تحول كبير باتجاه تنشيط الثقافة، متجلية في رعايته مادياً ومعنوياً لها، واتخذت هذه الطفرة طابع السعة في هذا الحقل، فشكلت مصدر قلق لبقايا الفاطميين، جراء دعمه غير المحدود للمؤسسات الدينية والثقافية التي غدت صمان الأمان للسلطة الصلاحية، فهذا النمط الثقافي، أدى بالضرورة إلى خلق أوضاع أمنية مستقرة. وكانت هذه المؤسسات تستمد

قوة سلطانها من ذخائر أولئك الفطاحل، ومنهم محمد بن يوسف البحراني الشاعر المشهور الذي كان اماماً في العلوم العربية، متضلعاً في العروض والقوافي، خدم صلاح الدين في دمشق إلى أن توفي عام(٥٨٥هـ/١١٨٩م)[١٣٢]، ومن القراء اليسع بن عيسى حزم الغافقي (ت٥٨٥هـ/١١٨٩م)، الذي قربه السلطان وكرمه، وكان فقيهاً محدثاً ومقرئاً ونساباً أخبارياً شهيراً بمصر[١٣٣]، أما الفقيه نجم الدين محمد الصوفي الزاهد الشافعي (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م)، فقد احتضنه السلطان واعتمد عليه في المسائل الفقهية وبالغ في احترامه[١٣٤]، وابن شداد غير مقتصر عمله على تدوين التاريخ، بل اشتهر في المجال الديني، إذ الف كتاباً عن (الجهاد واحكامه وآدابه)، وأهداه إلى صلاح الدين، فاعجب به، فتألق نجمه بين أقرانه في سماء البلاد المزدانة بالاضواء الثقافية في ليله ونهاره، حتى وفاته[١٣٥]، هذا ولاننسى ان أبا عبدالله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب ركن الدين أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان الناصر صلاح الدين، تولى الخطابة بداريا، وهي قرية على باب دمشق في الغوطة، وتوفي سنة(٥٧٥هـ/١١٧٩م) بداريا ودفن على باب تربة الشيخ أبي سليمان الداراني[١٣٦].

- الأمن الصحي:

وقد زار الرحالة ابن جبير مصر في أواخر سنة(٥٧٨هـ/١١٨٢م)، فروى الكثير من مآثر صلاح الدين ومقاصده ومما قاله في ذلك: ((ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب... ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم،

ووكل بـه أطبـاء يتفقـدون أحـوالهم، ونـصب بـين ايـديهم خـداماً يـأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء))[١٢٧].

ويقـوم الـسلطان بتقـديم مايحتاجـه الاطبـاء والعـاملون والخـدم مـن المستلزمات الطبيـة المتـوافرة وقتـذاك، وأغـدق علـى هـذه المقاصـد الـسامية، اغداقاً تجسم في تخصيص مبالغ كبيرة عام(٥٧٧هـ/١١٨١م)، ومن روافد تغذية تلك المقاصد وتغطيتها، جعل غلات جهات الفيوم وقفاً عليها. وبنـى في كـل من الاسكندرية والقدس عام(٥٧٧هـ/١١٨١م)مركـزين صـحيين. وكـان يراقـب بنفسه جميع هذه الأمور عن كثب[١٢٩]، مركزاً على البحث والاستفسار، عـن مدى وتوافر الشروط الصحية في هذه البيمارستانات[١٣٠].

كما التفت الـسلطان إلى الاهتمـام والعنايـة بمعالجـة النـساء، فخـصص لهـن جناحـاً خاصـاً في البيمارسـتان، مـع تـوفير جنـاح خـاص لمعالجـة المـصابين بالأمراض العقلية، هذا ولانغفل ان التسلسل الهرمي للوظيفة كان معمولاً به داخل البيمارستان، كي لايحدث خلل أو زلل في استقرار الأمن الصحي[١٣١].

هذا ولم يكن السلطان يسمح لأحد بممارسة مهنة الطب، مـالم يكـن أهـلاً لهـا، ويمكـن اثبـات أهليتـه باجتيـاز امتحـان أو إختبـار الكفـاءة في حقـل تخصصه[١٣٢]، فأدى هذا الاهتمـام المتزايـد إلى تطـور الطـب، وازدهـار صـناعة الادوية ومفرداتها[١٣٣]، وتطورها المتدرج، وكذا علم الكيمياء[١٣٤]، فكان الشيخ سديد بن أبي البيان المولود في (٥٥٦هـ/١١٦٠م) أحد أطباء المركز ومسؤولاً عن صـــناعة الأدويـــة وتركيبهـــا، حتـــى وافـــاه الأجـــل، وادركتـــه المنيـــة عـام(٥٨٠هـ/١١٨٤م)[١٣٥]. وكـان الاطبـاء في عهـده يمارسـون اعمـالهم داخـل البيمارستان وخارجه سـواء بـسواء، وزاد في أهميـة مهنـة الطـب، حـين فـتح بعضهم عيادات خارجية خاصة بهم، فكان الشيخ الموفق ابوالعشائر هبة الله

الملقب بشمس الرئاسة بن زيد ابن حسن من الاطباء المحترفين والمتمرسين في مجال الطب، وكانت له عيادة خاصة به في سوق القناديل(١٣٦).

وتبرز الرويات التاريخية حسن معاملة السلطان للاطباء، وعلى الرغم من ذلك، كان يهمه الالمام بكل شاردة وواردة لها صلة بصحة الناس، لذا كان ملزماً أن يستعين بمن يسهل له السبيل إلى ذلك، فوجد ضالته المنشودة في الشيخ السديد نقيب الأطباء، الذي كان يفحصه من زملاء الاطباء الآخرين للتأكد من سلامة صحة السلطان بين مدة وأخرى(١٣٧).

ولالبس في أن عصره، كان حقبة انتعاش وتطور للطب وفنونه في مجالات شتى شملت العامة والخاصة، لشدة الحاجة إليه، والاغداق السخي والعطاء اللامحدود عليه، ونشير إلى بعض الفطاحل في الحقل الطبي، ومن هؤلاء المشاهير، ابوالبيان المدور(ت ٥٨٥هـ/١١٨٩م)(١٣٨)، الذي كان له جامكية(مرتب) تصل إليه كل شهر دون تأخير عن الموعد المحدد له، واعتمد وعول عليه صلاح الدين في معالجته، لثقته التامة به، وكذلك الشيخ أبوالحسن علي بن أبي عبدالله بن هبة الله النقاش (ت ٥٧٤هـ/١١٧٨م)(١٣٩)، وأمين الدولة يحيى بن اسماعيل الاندلسي في الشام(١٤٠)، ولاننسى من أطبائه المقربين برهان الدين أبا الفضل سليمان الذي انتقل من بلاد مصر، ليستقر في مدينة دمشق وأن يقدم خبراته الطبية لخدمة السلطان(١٤١).

وهنا لابد من الاشارة إلى ان عمل الأمن الصحي لم يقتصر على فتح البيمارستانات وتوفير الاطباء فحسب، أو تخصيص الأدوية والمستلزمات، بل تجلى في مكافحة الأوبئة والأسقام قبل استفحالها، وانتشارها بين الرعية هنا وهناك وزرعها الخوف والرعب في قلوب المسلمين وقد قيل أيضاً إن الوقاية كما يردده البعض من الساسة، خير من العلاج، وحين أدركت الدولة

الصلاحية أن هناك أجندة أجنبية تعزز وتساهم في تنفيذ هذه الأجندة وتخويفها من انتشار الأوبئة، عملت جاهدة على منعها بل وإزالتها بعد تطويق خطورتها. لاسيما منع بيع بعض المأكولات غير الصالحة للأكل، وكالعادة فإن رجال الأمن المحتسبين ومعاونيهم كانوا يتفننون في كيفية التعامل مع مشكلات الأمن الصحي لتلك الأطعمة والأشربة التي تسبب في انتشار الاسقام والأوبئة والامراض، وكانوا بالمرصاد لمن يثبت عليه الغش والتلاعب(١٤٢)، وهكذا قام المحتسبون باسداء النصح والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاسبة المخالفين للقيود الصحية وشروطها، بادخالهم السجون، عقاباً على اقترافهم السوء بحق اخوانهم، ولايخرجون منها الا بأمر من القضاة(١٤٣).

ويبدو ان المياه المخصصة للشرب لاسيما في القاهرة كانت تخضع بأمر من صلاح الدين للفحص والاختبار، فإذا ثبت عدم صلاحيتها للشرب، استخدمت لاغراض أخرى، فعلى سبيل المثال، عندما حفر الايوبيون بئراً في القلعة، واستمرت عملية الحفر إلى ان تجاوزت المياه العذبة إلى مياه آسنة ذات طعم ممجوج مائل إلى الملوحة، اهملوها ولم يستخدموها للشرب(١٤٤).

وليس عجيباً إذا قلنا ان الأبنية أيام السلطان، كانت تراعي في طرازها ونمط انشائها، الشروط الصحية عن طريق الاستعانة بالمهندسين البارعين الفنيين لتحقيق الهدف المنشود، منها مراعاة اتجاهات الرياح، إذ يجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، هذا ولانغفل الاشارة إلى أنه قلما بني منزل إلأ وجد فيه باذاهنج(١٤٥).

ومن اجل تشديد الرقابة على الحمامات، لكونها أماكن مشجعة على تفشي الاسقام، وضعت تحت اشراف المتحسب، وفرضت على أصحابها ضرورة

توفير الشروط الصحية فيها، كنظافتها، والتأكد من غسلها كل يوم بعد تعقيمها، ومنع دخول المرضى المصابين بالبرص والجذام إليها(١٤٦)، طبقاً لقواعد الشريعة الاسلامية، فقد أدهش الفرنج أيام الحروب الصليبية(١٤٧)، فتأثر بعضهم، بهذا النظام الاسلامي الرائع المطبق في بلاد الشام ومصر، وتملكهم الاعجاب بروعة وعظمة النظام الصحي في الحمامات والمرافق الخدمية الأخرى، حيث خلق لديهم دهشة واعجاباً تحولت إلى حافز مثير يدفعهم على نقل النظام الصحي بشروطه الدقيقة إلى أوربا التي كانت تفتقر إلى الحمامات والمرافق الخدمية الأخرى بغية الانتفاع منها(١٤٨).

ومما لاينبغي ان يفوتنا ذكره هو ان اهتمام صلاح الدين بالجانب الصحي، تعدى من الانسان إلى العناية بالثروة الحيوانية كالبغال والخيول والجمال والحمير والابقار وما إلى ذلك، فقد سخر جهده وجل طاقاته وقدراته لحمايتها من الأمراض المفتكة أيامئذٍ التي كانت تفتك بالحيوانات بين فينة وأخرى، لكونها من وسائل المواصلات الوحيدة براً التي لايمكن الاستغناء عنها بأي شكل من الاشكال في شتى مجالات الحياة أيام السلم والحرب على السواء(١٤٩)، فان الحملات العسكرية الحربية لم تكن تتم لولا الخيول والبغال، والشيء نفسه يقال عن الأنشطة الاقتصادية لولا وجود هذه الدواب، وإذا ما انتشر الداء بين هذه الحيوانات وغيرها بشكل أو بآخر، أفضى بالنتيجة إلى توقف الأنشطة العسكرية والمدينة في أداء نشاط الانسان مهامه الخاصة والعامة، لذلك نرى ان صلاح الدين لم يغفل عن الاهتمام بها، بل اتضح اهتمامه بتخصيصه بيمارستاناً خاصاً بها، عرف بيمارستان(الاسطبل)(١٥٠)، وقد عين له عدداً من الأطباء البيطريين(١٥١)،

الاكفاء من أصحاب الخبرة، مع توفير اللوازم الطبية وتجهيزه تجهيـزاً كـاملاً، لغرض معالجة الحيوانات السقيمة والمصابة في المعارك ضد الصليبيين[١٥٢].

ففـي سـنة(٥٩٠هـ/١١٩٣م)، تفـشي مـرض أشـبه بالطـاعون بـين الابقـار والجمال والحمير، فقضى علـى اعـداد كـبيرة منهـا[١٥٣]، وفي عـام(٥٨١هـ/١١٨٤م)، حل في ديار مصر وباء الطيور وقضي على الدجاج في مصر والقاهرة[١٥٤].

نستشف مماذكر، على الرغم من انشغال الناصر صلاح الـدين بـالحروب والمعـارك العـسكرية والجهـاد بـشكل مـستمر، إلاّ ان كـل ذلـك لم يـثنِ جهـده وعزيمته عن اداء واجبه تجاه الرعية، من خلال تقديمه الخدمات الى الناس في كافة ارجاء دولته، بحيث لم يحرم منها أيـة شـريحة مـن شـرائح المجتمـع، فحتى الحيوانات كانت تحظى بنصيبها الكـافي مـن الرعايـة، وشمـل الاهتمـام كذلك البيئة، إذ حاول السلطان صلاح الدين قدر الامكان من حماية البيئـة من التلوث، ومنعوا الناس الاخلال بالأمن الصحي بأي شكل من الاشكال[١٥٥].

وهكـذا أصـبحت دولـة صـلاح الـدين، مركـزاً للثقافـة الاسـلامية، تقـاطر نحوها العلماء والأدباء والشعراء والاطباء وغيرهم من سائر البلدان والامـصار الاسلامية، نظراً للتشجيع الذي نالوه من لدنه، ولتـوفر المناصـب العلميـة في المـدارس، فـضلاً عـن توافـد الطلبـة والدارسـين الـذين يتـوافر لهـم التعلـيم والجراية من واردات الاوقـاف الـتي أوقفـت علـى المـدارس والمراكـز التعليميـة الكثيرة[١٥٦].

- الشعر:

وإلى جانـب النـشاط الثقـافي الذي شهدته بـلاد صـلاح الـدين في عـصر بـني أيوب، فقد شهدت نـشاطاً شعرياً فريداً وكان لملوكهم اثر في ذلك، حيـث مثـل

عصرهم عصر احياء للثقافة الشعرية، تجسد من خلال تشجيعهم للشعراء والعلماء والفقهاء، ومنحهم الهدايا والهبات إلى جانب ما اشتهرت به أسرهم من تقديم خدماتها للشعراء، وعقدوا المجالس الشعرية وألقوا فيها الشعر، ومنحوا الشعراء حرية الانتقال من بلد إلى آخر، مما اتاح لهم فرصة إتساع أفقهم ومداركهم الشعرية.

لقد إستقبلت قصور بني أيوب وبلاطاتهم الشعراء، وذلك إدراكاً من ملوكهم، ولاسيما السلطان صلاح الدين بالدور الذي يمكن أن يلعبه الشعراء في ميادين الجهاد والدعاية السياسية للحروب التي كان يخوض غمارها جنود صلاح الدين ضد الصليبيين، وكان لحسن بلاء قوات السلطان في المعارك وانتصارهم الساحق على العدو المهزوم، أثر كبير في جذب واستمالة الشعراء إلى قصر السلطان أو خيمته في ساحات الوغى(١٥٧)، إلى جانب ميول حكامهم وملوكهم على قول الشعر وتذويقه(١٥٨)، فضلاً عن تقديم العطايا والهبات التي أسدلوها على شعرائهم الاكارم، وكان من بين الشعراء الذين قدموا إلى بلاد الشام ومدحوا صلاح الدين وهنأوه بانتصاراته، الشاعر عزالدين أبوالقاسم هبة الله ابن سناء الملك والمتوفى سنة(٦٠٨هـ/١٢١١م)(١٥٩) ومن شعره في مدح صلاح الدين يوسف بن أيوب عندما ملك مدينة حلب عام(٥٧٩هـ/١١٨٢م)، قصيدة نجتزيء بعض الابيات الشعرية منها:

بدولة الترك عزة دولة العرب   وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
ان العواصم كانت أي عاصمة   لنفسها بتعاليها عن الرتب
جليسة الجم في أعلى مراتبه   وطالما غاب عنها وهي لم تغب(١٦٠).

هذا ولم يترك الشاعر ابن سناء الملك مناسبة تمر بالسلطان صلاح الدين، إلاّ واتحفها من شعره الجميل فأجاد بمدحه، ووصفه وقد خص بعض أبياته

بالمغازلة، ولاسيما حينما تعرض الى وصف المعارك التي خاضها صلاح الدين ضد الغزاة الصليبيين، فوقف وقفة شجاعاً مع بقية الشعراء من الذين هزتهم بل وحركتهم مواقف السلطان وبطولات جند المسلمين إلى وصف أيامها وتسجيل أحداثها وحوادثها(١٦١)، وهو ممن برزوا في التعبير عن مشاعر الأمة والدعوة إلى وحدتها.

ومن شعراء بلاط صلاح الدين مهذب الدين شميم الحلي(ت٦٠١هـ/١٢٠٤م) الذي قدم من العراق إلى الشام ودياربكر، ووضع كتاباً في مدح صلاح الدين سماه (أنيس الجليس في التجنيس)(١٦٢).

وشاركت المرأة الرجل في إلقاء الشعر ونظمه زمن الدولة الصلاحية أيضاً، ومن هذا القبيل الشاعرة تقية بنت غيث بن علي الارمنازي (ت٥٧٩هـ/١١٨٣م)(١٦٣) التي مدحت الملك تقي الدين عمر صاحب حماه(١٦٤).

ولقد كان لملوك بني أيوب أيام حكم صلاح الدين نصيب وافر من الشعر وصياغة القصائد، واشتهر منهم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماه، وهو شبيه، بسيف الدولة الحمداني، وهذا نموذج من نظمه:

دع مهجة المشتاق مع أهوائها　　يالائمي ما أنت من نصائحها

من مخبر عني نضيرة انني　　أزجيت عيسى الشوق نحو لقائها(١٦٥).

ولقد ذكر ابن واصل عن والده الملك المنصور المتوفى سنة(٦١٧هـ/١٢٢٩م)، وله أشعار حسنة رائعة ومعان فائقة جمعت في ديوان نذكر منها:

سحا الدموع فان القوم قدبانوا　　وافقر الصبر لما أقفر البان

أتسعداني بوجد بعد بينهم؟　　فالشأن لما نأوا عني له شان(١٦٦).

هذا ولقد أخذ أبو حفص عمر المعروف بابن الشحنة الموصلي من جملة قصيدة لبشار بن برد عدد أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً يمدح بها السلطان صلاح الدين فقال(١٦٧):

وإنّي امرؤ أحببتكم لمكارم

سمعتُ بها والأذنُ كالعين تعشَقُ

ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة

والاذن تعشق قبل العين أحياناً(١٦٨).

وامتدح الشاعر ابوالفرج عبدالله بن أسعد بن علي بن عيسى بن علي المعروف بابن الدهان الموصلي، ويعرف بالحمصي أيضاً، السلطان الناصر صلاح الدين بقصيدته العينية التي يقول فيها:

قل للبخيلة بالسلام تورعاً

كيف استبحتِ دمي ولم تتورّعي

وزعمتِ أن تصلي بعام قابلِ

هيهات أن أبقى إلى أن ترجعي

أبديعة الحسن التي في وجهها

دون الوجوه علامة للمبدع

ماكان ضرّكِ لو غمزتِ بحاجبِ

يوم التفرقِ أو أشرتِ بإصبع

وتيقني أني بحبّكِ مغرم

ثم اصنعي ماشئت بي أن تصنعي(١٦٩).

وهكذا نشاهد قدرة شعراء الدولة الصلاحية وملكتهم على قول الشعر، مع توافر صفة النبوغ(١٧٠) عندهم على قوله، فجاء تعبيراً صادقاً عن

المرحلة التي حكموا فيها مما يكشف عن مدى اهتمامهم بالآداب والعلوم، وجاء الشعر إبان عصر صلاح الدين، صادقاً معبراً عن الصورة الحقيقية للأوضاع السياسية والعسكرية السائدة أيامئذٍ، والذي اعطانا الدليل الواضح على الشعور بالوحدة الاسلامية الصادقة الرصينة التي انتعشت بسبب ازدياد مخاوف الخطر الصليبي على العالم الاسلامي، فوجد الشعراء لهم العناية والرعاية والاهتمام غير المحدود من لدن السلطان الناصر صلاح الدين فقربهم ومنحهم العطايا الكبيرة والهبات الجليلة السخية، وكان لتأييد صلاح الدين للخلافة العباسية أثر في ازدياد التقارب والتواشج بين شعراء العراق وبلاد الشام ومصر، مما شجع الشعراء على الانتقال إلى هذه البلاد بحرية كاملة وتامة ومدح حكامها(١٧١).

نستخلص مماسبق اهتمام صلاح الدين في النواحي الحضارية والفكرية، على الرغم من انشغاله في الحروب والمعارك هنا وهناك، وقرب المشتغلين في العلوم الحكمية والهندسية والفقهية والطبية واللغوية والأدبية والشعرية، وكانت ثقافة تلك العلوم هي إسلامية، فكان لهم دور في ازدهار الحضارة والثقافة العربية والاسلامية، والحفاظ على مقوماتها بما فيها رسالة الاسلام(١٧٢).

هوامش الفصل الخامس:

(١) د.سهيل زكار وأمينة بيطار: تاريخ الدولة العربية في المشرق، من السلاجقة حتى سقوط بغداد، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٨٩-١٩٩٠م، ص٢٨٨.

(٢) د.أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد، ص٢٢٣؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٠٧.

(٣) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٨٨-٢٨٩.

(٤) مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٠٧.

(٥) ابن جبير: رحلة، ص٢٦، ٣٠، ٣١؛ ابوشامة: الروضتين، ٢٠٥/١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٦١/٢٩؛ المقريزي: السلوك، ٥٨/١؛ دريد عبدالقادر: سياسة صلاح الدين، ص١٠٨-١٠٩؛ قدري قلعجي: صلاح الدين، ص٢٣٥.

(٦) الجاحظ التبصر بالتجارة، القاهرة، ١٩٢٥م، ص٧٩؛ نسرين محمود علي: الأمن، ص٢١٦.

(٧) الباز العريني: الشرق الأدنى، ص٨٩؛ شاكر مصطفى: المدن، ٤٨٠/٢-٤٨١.

(٨) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٨٩.

(٩) نفسه، ص٢٩٠.

(١٠) نفسه، ص٢٩٠.

(١١) ابن واصل: مفرج، ١٩٨/١؛ ابن تغري: النجوم، ٥٤/٦-٥٥؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص١٥٢.

(١٢) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٩٠.

(١٣) ابن شداد: النوادر، ص٣١؛ أحمد عبدالجواد: صلاح الدين، ص١٦٦؛ ابو زيد شلبي: تاريخ الحضارة، ص٣٠١-٣٠٤.

(١٤) ابن مماتي: قوانين، ص٣٤٨-٣٤٩؛ الباز العريني: الشرق الأدنى، ص١٩٧.

(١٥) الحصيني: منتخبات التواريخ لدمشق، منشورات دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٩م، ٧٨/١؛ كامل أسود: البحرية الايوبية، ص٤٠؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٢٦٢.

(١٦) النويري: نهاية الأرب، ٢٧٨/٨؛ المقريزي: الخطط، ١٠٢/١؛ الباز العريني: المرجع السباق، ص١٩٩؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٦٢.

(١٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١١٨-١٢٨؛ الباز العريني: المرجع السباق، ص١٩٨-٢٠٠.

(١٨) ابو زيد شلبي: تاريخ الحضارة، ص٣٠٥.

(١٩) ابن الشحنة: الدرر المنتخب، ص٢٥٠-٢٥٤؛ نيقولا زيادة: مدن عربية، ص١٨٠؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٢٦٣؛

Barker Rinchard: Egypte, Encyclopaedia of eslam.

(٢٠) أبوشامة: المصدر السابق، ٨/٢.

(٢١) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق، ص٢٦؛ المقريزي: السلوك، ٦٩/٧.

(٢٢) ابن شاهنشاه الأيوبي: المصدر السابق، ص٩٣؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٦٤.

(٢٣) الزمرد: جوهر، ولقب به قيس بن حسان لجماله. الفيروز آبادي: قاموس المحيط، ٧٦/١؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١١٤؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٧٨، هامش رقم(٤).

(٢٤) الشب: حجارة الزاج. الفيروز آبادي: المصدر السابق، ص٩٩ وينظر: ابن مماتي: قوانين، ص٣٠٧-٣٠٩؛ المقريزي: السلوك، ٧٦/١.

(٢٥) ابن العديم: بغية الطلب في أخبار حلب، ٣٤/١؛ محمود ياسين، الأيوبيون، ص٣٣٧.

(٢٦) الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، ١٣٤٢هـ، ٤٣/١؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٦٥.

(٢٧) ابن العديم: زبدة، ٣١٩/٢.

(٢٨) الغزي: المصدر السابق، ٤٧/١؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٦٧.

(٢٩) الاصطخري: مسالك الممالك، مطبعة بريل، لايدن، ١٩٠٧م، ص٧٣؛ ابوالفداء: تقويم البلدان، ص٢٧٩.

(٣٠) الغزي: المصدر السابق، ١٠٣/١؛ زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص٩٦-٩٧.

(٣١) ابن الشحنة: الدرر المنتخب، ص٢٥٤.

(٣٢) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٩٢.

(٣٣) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ١٤٧/١.

(٣٤) محمود ياسين: الايوبيون، ص٣٦٨.

(٣٥) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٩٢.

(٣٦) عمادالدين خليل عمر: إمارة بني أرتق، أطروحة دكتوراه في جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٣٢٩.

(٣٧) ابن تيمية: الحسبة في الاسلام، ص١٤؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١١١.

(٣٨) ابن واصل: المصدر السابق، ٣٠٥/٣؛ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٠.

(٣٩) المقريزي: أتعاظ، ٣١٨/٣.

(٤٠) القلقشندي: صبح، ٣٨/٤.

(٤١) الغزي: المصدر السابق، ١٤٥/١؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٧١.

(٤٢) المقريزي: السلوك، ٤٤/١-٥٠.

(٤٣) سهيل زكار: المرجع السابق، ص١٩٢-١٩٤.

(٤٤) نفسه، ص٢٩٣-٢٩٤؛ عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٠م، ص٢١٠.

(٤٥) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٩٤.

(٤٦) نفسه، ص٢٩٤.

(٤٧) نفسه، ص٢٩٤؛ عادل زيتون: المرجع السابق، ص٢١٠.

(٤٨) ياقوت: البلدان، ٤٦٣/٢.

(٤٩) ابن جبير: رحلة، ص٣٧٢.

(٥٠) محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٧٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٦٧.

(51) Spuler, Bertold: The Muslim world A Historical survey part caliphs leiden, brill/1969, p.13.

(٥٢) رنسيمان: الحروب الصليبية، ١٥٠/٢.

(٥٣) ابن جبير: المصدر السابق، ص٣٧؛
Crausset: Histoire des croissades, vol, p.13.

(٥٤) ذكرى عزيز محمد صالح الصائغ: عصر الملك الكامل الأيوبي، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ١٩٨٨م، ص١٥٦.

(٥٥) ابن جبير: المصدر السابق، ص٣٧٤؛ نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص٩٤؛ ذكرى عزيز: المرجع السابق، ص١٤٨-١٥١؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٣٧٢.

(٥٦) المقريزي: الخطط، ٩٢/٢؛
Wiet. G: Egypte Arab Histoire dula nation Egyptiene IV. Paris, 1937, p.381.

(57) Heyd: Histoire du commerce du levautau moyen Age 2vol, 5 Lipzig, 1923, p.431.

(٥٨) المقريزي: الخطط، ٩٣/٢؛ نيوباي: المرجع السابق، ص٩٥.

(٥٩) ناصر خسرو: سفرنامة، ص١١٨؛ العماد الأصفهاني: البرق، ١٤٠/٣.

(٦٠) مهدي قادر: المرجع السابق، ص١١٠.

(٦١) ابن شداد: النوادر، ص٢١٨؛ جيمس رستون: مقاتلون، ص٤١٠-٤١٢.

(٦٢) المقريزي: الخطط، ٩٢/٢.

(٦٣) ابن جبير: رحلة، ص٧-٨؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة للطباعة، بيروت، ١٩٧٢م، ص١٣٨.

(٦٤) القلقشندي: صبح، ٥١٤/٣-٥١٥؛ أحمد عبدالعزيز محمود: الأمن في بغداد، ص٢٣٦.

(٦٥) الخطط، ٣٦٨/٢؛ نسرين محمود علي: الأمن في مصر وبلاد الشام، ص٢٧٦.

(٦٦) المقريزي: السلوك، ٢٩٩/١؛ عبدالعزيز عبدالله: مظاهر الحضارة المغربية، الدار البيضاء، مراكش، ١٩٥٧م، ص٧٣.

(٦٧) المقريزي: شذور العقود، ص٢٧-٢٨؛ شاكر مصطفى: المدن، ٦١٥/٢.

(٦٨) المقريزي: السلوك، ٩٩/١؛ شذور العقود، ص٣٠-٣١.

(٦٩) المقريز: السلوك، ٤٦/١؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٧٧.

(٧٠) نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٧٧؛ Mayer: The crusaders, p.117.

(٧١) ابن تغري: النجوم، ٣٦٥/٥؛ عبدالعزيز سيد الأهل: أيام، ص٤٠.

(٧٢) ابن مماتي: قوانين، ص٣٢٨؛ مجهول: الاستبصار في عجائب الابصار، ص٨٦.

(٧٣) العمري: مسالك الأبصار، ١٩٨/٣.

(٧٤) محمد حسنين ربيع: النظم المالية في مصر زمن الايوبيين، القاهرة، ١٩٦١م، ص٦٣؛ محمود ياسين: الايوبيون، ص٣٨٩.

(٧٥) ابن واصل: مفرج، ٢٠/٢؛ جب: صلاح الدين، ص١٢٥؛ Wiet: op.cit, p.313.

(٧٦) العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ١٢١/٥؛ ابن تغري: المصدر السابق، ٧٨/٦.

(٧٧) ابن جبير: رحلة، ص١٥؛ الحنبلي: شفاء، ص١٨٩؛ قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٧٨.

(٧٨) السيوطي: حسن المحاضرة، ٢٠٣/٢.

(٧٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ، ١٣/٢.

(٨٠) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٨؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص٧٤.

(٨١) ابن خلكان: وفيات، ٤٤٢/٢-٤٤٣؛ ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، ١٥٦/٣؛ نسرين محمود علي: الأمن في مصر وبلاد الشام في عهد الناصر صلاح الدين، ص٣٠٨.

(٨٢) الصفدي: الوافي، ٢٣٢/٣؛ الذهبي: العبر، ٢٥٣/٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات، ٢٨٠/٤.

(٨٣) سلطان جبر سلطان: الدور السياسي للعلماء المسلمين أيام الحروب الصليبية، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٩م، ص١٥٦.

(٨٤) ابن أياس: بدائع الزهور، ص٥٨؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٣٠٩.

(٨٥) نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣٠٩.

(٨٦) الحنبلي: شفاء، ص١٨٩؛ السيوطي: المصدر السابق، ٢٠٢/٢؛ ابن كنان: المواكب الاسلامية في المماليك والمحاسن الشافعية، ٣٤٩/١؛ كمال الدين سامح: العمارة الاسلامية في مصر، ص٧٤-٧٦؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣٠٩.

(٨٧) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، تحقيق: لجنة أحياء التراث العربي، دار الاوقاف الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م، ٩/٤؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣٠٩.

(٨٨) النعيمي: المصدر السابق، ١٣/٢؛ ابن كنان: المصدر السابق، ٢٣/٢.

(٨٩) ابن الوردي: تتمة، ١٢٧/٢-١٢٨؛ علي مبارك: الخطط، ٢٣/٢.

(٩٠) ابن تغري: النجوم، ٥٤/٦-٥٥.

(٩١) ابن الاثير: الكامل، طبعة دار احياء، ٣٣٨/٧؛ جيمس رستون: مقاتلون، ص١٣٦-١٣٨.

(٩٢) سهيل زكار: تاريخ الدولة العربية في المشرق، ص٢٨٧.

(٩٣) السيوطي: المصدر السابق، ٢٠٤/٢.

(٩٤) الاسنوي: طبقات الشافعية، ١٤٥/١؛ أحمد عبدالعزيز محمود: الامارة الهذبانية الكردية، ص١٦٠.

(٩٥) العماد الاصفهاني: الفتح، ص٥٥٧؛ اليافعي: مـرآة الجنـان، ٤٣٣/٢؛ الـذهبي: العـبر، ٢٦٢/٤؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣١٠.

(٩٦) الاسنوي: المصدر السابق، ٤٩٣/١؛ نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص٨٩.

(٩٧) المقريزي: السلوك، ١٥/١؛ عبدالله سلوم السامرائي: الشعوبية بـين حركـة مـضادة للاسلام والأمة العربية، المؤسسة العراقية للدعاية والطبع، بغداد، ١٩٨٤م، ص١٦١.

(٩٨) تاج الدين شاهنشاه ابن ايوب: منتخبات مـن كتـاب التـاريخ لـصاحب حماه، دار المنار، للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢١٢.

(٩٩) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٧٨.

(١٠٠) نفسه، ص٢٧٨.

(١٠١) نفسه، ص٢٧٨-٢٧٩.

(١٠٢) نفسه، ص٢٨٠.

(١٠٣) نفسه، ص٢٨٠.

(١٠٤) نفسه، ص٢٨٠.

(١٠٥) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ١٩١/٦، ١٩٣، ١٩٦.

(١٠٦) الـصابوني: تكملـة الاكمـال، بـيروت، ١٩٩٦م، ٨٠/٨، هـامش رقـم(٤)؛ ابـن تغـري: النجوم، ٥٠/٤؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣١١.

(١٠٧) المقريزي: الخطط، ٤١٥/٢؛ الباز العريني: الشرق الأدنى، ص٢١٧-٢١٨.

(١٠٨) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٣٢٢.

(١٠٩) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٨١.

(١١٠) ابن خلكان: وفيات، ٣١٥/١-٣١٦؛ الباز العريني: المرجع السابق، ص٢١٦-٢١٧.

(١١١) ابن خلكان: المصدر السابق، ٤٥٤/٣-٤٥٦.

(١١٢) شاكر مصطفى: المدن، ٢٨٣/٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣١٢.

(١١٣) ابـن الاثـير: الكامـل، طبعـة دار احيـاء الـتراث العربـي، ١٩٨٩م، ٢٢١/٧؛ نـسرين محمود: المرجع السابق، ص٣١٢.

(١١٤) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٨٢.

(١١٥) نفسه، ص٢٨٢.

(١١٦) نفسه، ص٢٨٢.

(١١٧) نفسه، ص٢٨٣.

(١١٨) نفسه، ص٢٨٣.

(١١٩) نفسه، ص٢٨٤.

(١٢٠) سهيل زكار: نفسه، ص٢٨٤.

(١٢١) ابن خلدون: العبر، ٣٧٤/٩-٣٧٥.

(١٢٢) اليافعي: مرآة الجنان، ٣٢٧/٣.

(١٢٣) نفسه، ٣٠٤/٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٢٨٤/٢؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣١٣.

(١٢٤) اليافعي: المصدر السابق، ٣٢٩/٣؛ ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ٢٥٠/٢.

(١٢٥) ابن شداد: النوادر، ص٢١؛ ابوشامة: الروضتين، ٢٢١/٢؛ ابن خلكان: وفيات، ٨٤/٧-١٠٠؛ عصام الدين عبدالرؤوف: في بلاد الجزيرة، دار الفكر العربي، بغداد، ١٩٧٦م، ص٢٥٦؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣١٤.

(١٢٦) ابن خلكان: المصدر السابق، ٣٨٥/٤.

(١٢٧) ابن جبير: المصدر السابق، ص٢٤.

(١٢٨) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٦٨/٧؛ المقريزي: الخطط، ٢٣٣/٢؛ عبدالجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن الاسلامية، ص٢٠٩.

(١٢٩) ابن جبير: المصدر السابق، ص٢٤؛ المقريزي: الخطط، ٤٠٧/٢؛ شاكر مصطفى: المدن في الاسلام، ٦٤٩/٢؛ نيقولا زيادة: مدن عربية، ص١٠١.

(١٣٠) ابن جبير: المصدر السابق، ص٢٤؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٩٩/٧؛ عبدالعزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، ص٢٠٩.

(١٣١) ابن جبير: المصدر السابق، ص٢٤؛ مهدي قادر: الأمن في مصر، ص١١٦.

(١٣٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤١٧.

(١٣٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء، ص٥٧٩.

(١٣٤) الصفدي: الوافي، ٣٣/٢؛ عبدالعزيز سيد الأهل: المرجع السابق، ص١٤١-١٤٢.

(١٣٥) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص٥٨٤.

(١٣٦) نفسه، ص٥٧٦-٥٧٧.

(١٣٧) نفسه، ص٥٧٣-٥٧٤.

(١٣٨) نفسه، ص٥٨٩-٥٩٠؛ محسن محمد حسين: الجيش الايوبي، ص١٦٤.

(١٣٩) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص٦٣٥-٦٣٧.

(١٤٠) نفسه، ص٦٣٥-٦٣٧.

(١٤١) نفسه، ص٦٣٧، لم أعثر على سنة وفاته.

(١٤٢) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٦٢؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١١٧.

(١٤٣) رياض رمضان الدليمي: الدواء في فجر التاريخ إلى اليوم، الكويت، ١٩٨٨م، ص٣٩-٤٠؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٩٤.

(١٤٤) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٦٥؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١١٧.

(١٤٥) باذاهنج: كلمة باذاهنج معرب كلمة كردية أصلها بادگير، وانها على هيئة اسطوانة لها فتحة من الجهة الغربية يدخل فيها النسيم، فهي رواق النسيم، ينظر: الخفاجي: شفاء الخليل، ص٤٧؛ شاكر مصطفى: المدن، ٥٥/٢، هامش رقم(١)؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٩٤، هامش رقم(٦).

(١٤٦) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٩؛ الباز العريني: مصر في عصر الايوبيين والمماليك، ص٢٢٤.

(١٤٧) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٥٥/٢، ٧٧، ٧٨؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ٣٦/٢-٣٧.

(١٤٨) اسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٣٦؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ٦٦/٢.

(١٤٩) الظاهري: زبدة كشف الممالك، باريس، ١٨٩٤م، ص١٢٥-١٢٦؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٩٦.

(١٥٠) الظاهري: المصدر السابق، ص١٢٦.

(١٥١) الأبي: نثر الدوور، تحقيق: محمد علي قرنة وعلي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م، ٦/٢، ٣٩؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٢٠.

(١٥٢) نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٩٦.

(١٥٣) المقريزي: السلوك، ١٠٨/١.

(١٥٤) نفسه، ص٩١.

(١٥٥) مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٢٠.

(١٥٦) سهيل زكار: المرجع السابق، ص٢٨٨.

(١٥٧) عبدالكريم توفيق العبود: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦م، ص٣٦.
(١٥٨) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م، ص٧٥؛ محمود ياسين: الايوبيون، ص٧٥.
(١٥٩) عزالدين أبوالقاسم هبة الله ابن سناء الملك: ديوان ابن سناء الملك، تحقيق: محمد عبدالحق، حيدر آباد، ط١، الدكن، ١٩٥٨م، ١٣/١.
(١٦٠) أبوشامة: الروضتين، ٤٣/٢؛ ابن واصل: مفرج، ١٤٥/٢.
(١٦١) ابن سناء: ديوان ابن سناء الملك، ١٠٤/٢، ١١٢، ١٠٨؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٤٠٧-٤٠٨.
(١٦٢) ياقوت الحموي: الأدباء، ١٢٩/٥-١٣١؛ ابن خلكان: وفيات، ٣٦/٣؛ عبدالكريم توفيق العبود: المرجع السابق، ص١٣٦؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٤٠٨.
(١٦٣) ابن خلكان: وفيات، ٣٠٧/١.
(١٦٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات، ٢٦٥/٤؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٤١٠؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣١٥.
(١٦٥) الاصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، ٨١/٣-٨٢.
(١٦٦) ابن واصل: المصدر السابق، ٨١/٤؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٤١٠.
(١٦٧) ابن خلكان: المصدر السابق، ٢١٤/٥-٢١٥.
(١٦٨) نفسه، ٢٧٠/١.
(١٦٩) نفسه، ٥٨/٣-٥٩؛ وينظر ديوان الحمصي، ص٥١-٥٢.
(١٧٠) ابن العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ٨١/٣؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٤١١.
(١٧١) عبدالكريم توفيق: المرجع السابق، ص١٤٢؛ محمود ياسين: المرجع السابق، ص٤١١.
(١٧٢) محمود ياسين: المرجع السابق، ص٤٢٠-٤٢١.

الفصل السادس

صلاح الدين واهتماماته

١- بالحج والحجاج:

وفي السياق نفسه لابد من إتصال الحديث بعضه ببعض، ليحتضن موضوعاً آخر، أبدى فيه صلاح الدين إهتمامه الشديد به طوال حياته، ببسالة وجراة لاتعرفان إلاّ به في عصره، لما عرف به من حزم وعزم ثابتين لايهتزان، مهما أشتد هبوب عواصف الوغى، فلم يعرف معنى للتقاعس ولامغزى للتهاون في أثناء خوضه المعارك ضد الغزاة الفرنج، وهو عليم علم اليقين بأن حماية الحجاج ليس وليد الأفكار الضاغطة على المخيلة أو الأفكار الألتقاطية المشوهة، غير القادرة على التصدي والتحدي، بل هو ابتكار وابداع على صعيد الوسائل والغايات. لشموليته على مفردات واتساعه غير المحدود، تظل دون ان تمسها يد الأتقان الأمني، لتستقيم الشؤون على أحسن ماينبغي، والكثرة الكاثرة من المفردات مداها أوسع من أن يحصرها حاصر، وتعجز من يسعى إلى الاحاطة بها. نظراً لتنوع حقول الحياة المختلفة وتباينها، سواء أكان ذلك في البيئة الواحدة على المستوى الديني والاجتماعي، لاسيما الحج الذي يعد أحد الأركان الخمسة للاسلام الذي تمسك صلاح الدين بمبادئه وجعل من الشرع اساساً لحكمه، ولم يألُ جهداً

في توفير التسهيلات المتاحة كلها وتقديمها إلى الحجاج، وكان السلطان يعد ذلك من الاولويات التي يجب الاهتمام بها، وكان طريق الحج أحد الطرق التي كانت تتعرض دوماً للاخطار من مختلف الجوانب وأصبحت قوافل الحجاج لقمة سائغة لقطاع الطرق ولصوص البر وقراصنة البحر، وتزخر المصادر التاريخية والجغرافية والرحلات بالكثير من تلك الاحداث التي تعرضت لها قوافل الحجاج من الأذى[١].

ومن الصواب حقاً ان نشير إلى عمل قام به صلاح الدين، لاثبات قدرته على تكريس الجهد، لترسيخ أمن الحجاج، كي يعيشوا في مأمن من الخوف والرعب وتمثل ذلك في تأمين عناصر كفوءة وقديرة للعمل في هذا المجال، وقد خطى السلطان خطوات رصينة لتأمين الطرق التي يسلكها الحجاج شطر الحرمين الشريفين من جميع الأقاليم والولايات الاسلامية، كمصر والشام وخراسان، والحجاز والجزيرة واليمن والعراق والمغرب والاندلس وغيرها[٢]، من الهجمات والاعتداءات التي تحدث على يد قطاع الطرق، فضلاً عن قيام رجالات الفرنجة بالاعتداءات المتكررة بين حين وآخر[٣]، ولاسيما في الطريق المؤدي إلى الكرك والشوبك ومن البحر المتوسط أيضاً، وخشية من انفلات الوضع الأمني للحجاج من يديه، في هذه المسالك والمعابر والمضائق والطرق، وتعرض قوافلهم للخطر، قرر بسط سيطرته من قبل رجالاته على إيلة(العقبة) عام (٥٦٤هـ/١١٦٨م)[٤]، ثم على البحر الأحمر عام (٥٦٦هـ/١١٧٠م)[٥]، وقد ساعد ذلك على استتباب الأمن وسد الطريق بوجه القلاقل والمعضلات التي قد تبرز هنا وهناك[٦]، من خلال اقامة المظلة الأمنية المنيعة في أرجاء بلاده، التي يهنا الحجاج المسلمون تحت ظلالها الوارثة بالهدوء، والسعادة والأمن والأمان.

ولكي يبقى السقق الأمـني للحجاج محفوظاً ومـصوناً؛ مـن أي اعتـداء في اعقاب مابذل من أجل رفعة الاسلام مـن جهد عظيـم، لايجحد آثاره أحـد، مهما حاد عن الحق والحقيقـة، فكـم غـرد طـائر الأمـن في جنبـات النفـوس، بحكم استحكامه في مختلف البقاع الاسلامية، الـتي نـأت بجانبهـا عـن أولئـك الذين كانوا يتربصون بكل فرصة قد تسنح لهم، ليسرعوا إلى اسـتغلالها ضـد المسلمين، كأرنـاط أحـد أمـراء الـصليبيين الـذين تجـرأ علـى القيـام بمغـامرة خطيرة عام(٥٧٧هـ/١١٨١م)[٧]، على البحر الأحمر الذي كان يعد شريطاً ممتداً عبر إقليم استراتيجي من العالم الاسلامي، وقد اكتظ بالسفن والمراكـب الـتي تحمل الحجاج والبضائع، بقصد الهيمنة على المنطقة التي كانـت خاليـة مـن مستلزمات التصدي والمقاومة لها، وقد استعان ارناط بـالاعراب القـاطنين في شبه جزيـرة سينـاء[٨]، في الوقت الذي كان السلطان مشغولاً، ومنهمكاً بحـروب الجهـاد ضـد الـصليبيين في مـصر وبـلاد الـشام علـى الـسواء، وتمكـن النـاكر للجميل وناكث العهد في نقل المراكب على ظهـور الجمـال إلى ايلـة، وتوغـل في عمق البلاد، ولم يقف موكبه عند إيلة، بل استطاع في السير إلى ان وصـل إلى ميناء عيذاب[٩]، فتـصدت لهـم قـوة صـلاحية بقيـادة لؤلـؤ الحاجـب[١٠]، ودار قتال عنيف، وانزلت بهم هزيمة نكراء، بعد أن وقعوا في الكمين الـذي نـصب لهم، فثار عنـد وصولهم أبطال صلاح الدين وصـاحوا صـيحة الرجـل الواحـد وهجموا عليهم هجمة الأسود على فرائسها، فأبادوهم عن بكرة ابيهم[١١]، ثـم ولى بعض الأمراء والجنود الناجين مهزومين، فتمكن أولياء الله منهم وأوقعوا فـيهم ضـرباً بالـسيف، حتـى أفنـوا مـنهم جمعـاً عظيمـاً واسـتـسلم البـاقون للأسـر، فأسـروهم وأخـذوا دوابهـم واسـلحتهم، وجـاء البـشير إلى المعـسكر الصلاحي فارتفعت الاصوات بالتهليل وركب السلطان يتلقى المجاهدين.

بيد أن مايستحق الوقوف عنده، هو ان صلاح الدين فكر في وضع حد لتصرفات الاعراب، ان هؤلاء المافتين المقيتين والكارهين الكريهين، كانوا يتحينون الفرص للانقضاض على قوافل الحجاج والبطش بهم كي تخلوا لهم الساحة، يفعلون فيها مايشاؤن بحسب مايملي عليهم الاعداء الفرنج امثال أرناط مع رغباتهم وغرائزهم التي كانت تحملهم قبل ظهور الدعوة الاسلامية على التراخي والاسترخاء، على مهاد الرفه ثم التراضي فيما بينهم عما قد يسبب نمطاً من التباعد الناجم عن احتمال الفرقة والتفريق بحكم طبائعهم النازعة إلى حب الذات، وطغيان الانانية، متعلقة عقولهم وضمائرهم في سجل النزوات، ومطلقة أيدي غرائزهم في كل اتجاه بدلاً من الايثار ونكران الذات، لذا آثروا الالتزام بطبيعتهم المتأصلة في أغوار نفوسهم ألا وهي نقض العهود واستساغة الاعتداء والتجسس على المسلمين. لذا أمر السلطان صلاح الدين ببناء قلعة حصينة محكمة غير قابلة للاختراق في عقر دارهم عام(٥٧٩هـ/١١٨٣م)، وانتهى منها سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)[١٢]، فصان الحبل الأمني الحجاج والبلاد من الاضطراب والفوضى، ومن الطبيعي فان هذه العملية الرائعة ماكان لها أن تتم لولا أن اعواناً كثيرين من رجالات أمنه قد ساعدوه على تنفيذها[١٣]، غدا بستان الأمة الأمني نامي الشجر، فأضحى أصحاب السلطان يقطعون غض الثمر، مبددين على الاعداء الفرنج ومن التف حولهم، أوهامهم ومفوتين عليهم احلامهم، في اليقظة والمنام على السواء.

ففي اعقاب تمكن إطمئنان السلطان من بسط أجنحة الأمان على طرق قوافل الحجاج، وانتشار الاحساس برسوخ الاستقرار المواظب على الاستمرار في الخارج، وجه صلاح الدين عنايته إلى أمن الحجاج من الداخل، ليطبع

بصماته على هذا الجانب، طبعاً لاتمحي اثاره الايجابية، وذلك بمد أذرع التحركات في اتجاهات مختلفة، فسهم من مجهوده الأمني العسكري، انطلق شطر الجبهة الداخلية، لأن الأخطار المحدقة بأمن الحجاج لم تكن قادمة كلها من الخارج فحسب، بل كانت بعض الأخطار تأتي من الداخل، وعن طريق بعض الأمراء الذين تحكموا بشؤون الحج، ومنهم أمير مكة يدعى مكثر[١٤](٥٨٩هـ/١١٩٣م) الذي تولى اسرته مهام الاشراف على بيت الله الحرام، واعتقد أن الحج تركة له ولآبائه[١٥]، واقدم على فرض ضرائب باهظة على الحجاج، مستغلاً فترة انشغال صلاح الدين بالجهاد في جبهات القتال ضد الفرنج، ولم يتمكن من دفعها إلى الاغنياء منهم[١٦]، ولما كانت ديار مصر معبراً مهماً للحجاج القادمين من المغرب أراد صلاح الدين امتصاص هذه النقمة التي بثها أمير مكة (مكثر) في التقرب إليه وكسب وده، فتمكن من اقناعه لتحمل السلطان تكاليف كافة الحجاج الوافدين إلى الحرمين الشريفين، فتمت بهذا العمل الرائع الفريد في عصره ازاحة أكبر مشكلة كانت تواجه الحجاج، وتمنعهم أو تصعب عليهم اداء فرائضهم، وأمن الحج للناس كافة[١٧]. وكان صلاح الدين رمزاً مضيئاً ينير صفحات التاريخ، بإضاءته الفياضة بعلائم المفاخر والامجاد ومعالمها، المتميز بالشموخ والعنفوان المؤدي إلى قراءت معاني العز والرفعة والسؤدد، لما انطوت عليه اعماله المجيدة، التي زينت منها الأمجاد المرصعة جبين التاريخ بأكاليل من العز والفخر والمنعة، حتى أضحت هذه السمات وضاحة، يستمد منها التاريخ الدروس والعبر لصنع النصر، والحفاظ على شرف الأمة وكرامتها.

ومما لاريب فيه ولاسبيل إلى جهله أو تجاهله، فيما يتعلق بالأمر بأمن الحجاج الصليبيين، فكان ذلك مؤشراً واضحاً على عظمة صلاح الدين وسعة

تفكيره واحترامه المشاعر الدينية على اختلافها[١٨]، وبخاصة بعد اتمام الصلح مع ريتشارد قلب الأسد سنة(٥٧٨هـ/١١٩١م)، وبات الطرفان يدخل كل منهما أرض الآخر ويخرج منها بلاقيود أو مساءلة الا إذا ألجات الضرورة إليهما[١٩].

ولكي يمس الامان شغاف قلوب حجاج الصليبيين، نصب مراكز للجنود على طول الطرق المؤدية إلى القدس، لالزرع الرعب في قلوب الحجيج النصارى، بل لتوفير الأمن والسلامة لهم، وفي المدينة المقدسة ذاتها خرج صلاح الدين عن المعهود باستقباله الحجاج النصارى، بل وقد دعاهم إلى مائدته زيادة في خلق شعور يشعرهم، بما يضمر من الود والوئام، تجاه غير المسلمين[٢٠].

٢- الأسرى والسجناء:

فمن أبرز انواع المعاناة وأشدها قسوة هي مسألة الاسرى والسجناء، التي تخلف الحروب بلاشك وتؤدي إلى وقوع أعدادٍ من الاسرى، في قبضة المهيمن على ساحة القتال، وهي متباينة في الكثرة والقلة. الذين كان الغيظ يأكل قلوبهم، ويدفعهم إلى القيام بأي عمل، ولو كان انتحارياً، لإيقاع أكبر الأذى بمن قاتلوهم وهزموهم. وان المتتبع لدراسة موضوع معاملة الاسرى، قد يقع في حيرة وشك، لعدم وجود قواعد ثابتة متفق عليها بين الاطراف المتصارعة والمتحاربة، ولهذا ظل الأسير تحت رحمة الأسر، يبيعه أو يسخره لإنجاز بعض الاعمال أو يسجنه أو يقتله[٢١].

ومع ان صلاح الدين غني التعريف به والتعرف عليه، لسعة شهرته ذات الجوانب المتعددة المنضوية تحتها، ذخيرة لاتنفد من السجايا الحميدة

والفضائل الجليلة والخصال النبيلة، الشاملة لشتى مناحي الحياة بضربيها المادي والمعنوي، يجب توجيه العناية إلى نقطة غاية في الأهمية، تمثلت في كون السلطان من الذين لم يمل إلى اراقة الدماء والانتقام من الاسرى الفرنج، على الرغم من أنهم جاءوا إلى البلاد الاسلامية في الأساس غزاة محتلين[٢٢] لأراضي بلاد الشام وبعض أجزاء مصر.

لايجهل أحد من المتتبعين لخط سير الروايات التاريخية، عن حسن معاملة صلاح الدين لاسراه، واستعداده التام للتسامح معهم، حين وقعت مجموعات متنوعة في قبضة جيشه من جنود العدو بما فيهم الاسبتارية[٢٣] في شهر شوال سنة(٥٨٦هـ/١١٩٠م)، فأمر قواد عسكره، باحضار جماعة منهم إلى مجلسه، وعند مثولهم بين يديه، بدأ السلطان يلاطفهم ويستفسر عن أحوالهم واحتياجاتهم، وأمر بكسوتهم فمنح كل أسير فروة ملحقة بملابس أخرى تقيهم من البرد القارص، وقدم لهم الأطعمة والأشربة، ولم يكتف عند هذا القدر، بل نصب لهم خياماً قرب خيمته، تحفظهم من أي سوء، قد يلحق بهم من لدن جنوده، وأغدق عليهم المكارم بأنواعها المتعددة، بضمنها مراسلة أهليهم وذويهم ليظهروا ويكشفوا لهم أوضاعهم، ويتمكنوا من تبادل الأخبار فيما بينهم، ووفر لهم غطاءً يحميهم من أي سوء أو إهانة قد صدر بحقهم هنا وهناك قبل ارسالهم إلى السجن في دمشق[٢٤].

هذا فضلاً عن اصرار صلاح الدين على الوفاء بالمواثيق والعهود، في حالة نشوب القتال مع الاعداء، والالتزام الدقيق بنصوص الاتفاقيات المعقودة بين المسلمين والصليبيين وغيرهم، بعيداً عن الاخلال أو المساس بأي بند من بنودها، انطلاقاً من أن السياسة، هي مروءة الاصدقاء ومداراة الاعداء، على ان لايكون الأمر مقروناً بأي شكل من اشكال الافراط أو التفريط، في كلتا

الحالتين، فالاصدقاء جديرون بالمروءة، لاجتنابهم التأثير في الميزان السياسي، بقصد ترجيح كفته لغير صالح، من هم على صداقته معهم بحاجة إلى المداراة. كي لاتستشري عوامل إلهاب الاحقاد والضغائن، ولاتستفحل مسببات توسيع الخصومة وتفعيلها، بشكل أشد وطأة من الحالة التي غادرتها الى ماهو أسوء(٢٥).

ومن البراهين التي تترفع عن النقض والانتقاض وتسلم بلا مواربة، ثمة حادثة أخرى اثبتت بجلاء ان السلطان لم يلجأ إلى حسم المواقف واتخاذ القرارات بشكل اعتباطي تجاه الاسرى، بل كان يتوخي الصدق والحقيقة بالاختيار والتحري الدقيقين، وأبرز مثال على صواب الاستنتاج، هو مايتصل بوقوع مجموعة من جند الصليبيين في أسره عام(٥٨٧هـ/١١٩١م)، في بيروت، وكان من بينهم شيخ طاعن في السن، ولما وصلت العملية الأمنية أبعدهم عن القاهرة، لكي لايعقد الناس آمالهم عليهم، مرة أخرى، لاحداث مشكلات وقلاقل وفوضى تؤثر على أمن العباد والبلاد على السواء(٢٦).

وان صلاح الدين لم ينس أبداً ان السجناء كثيراً ماكانوا يقومون بتسلق اسوار السجون والهروب، وفي بعض الحالات يقومون بحفر نفق تحت السجن يؤدي إلى نهر النيل، ويتم لهم الهروب، أو يقومون بأعمال الشغب كاحراق أبواب السجون والإضراب عن الطعام. ومن هذه السجون، سجن الكرك وصفد(٢٧)، وخصص سجن الاسكندرية(٢٨) للذين يسجنون بشكل إنفرادي نظراً لما يشكلونه من الخطورة على الدولة. أما سجن دمشق فقد حبس فيه السلطان أصحاب الشأن والصيت والشهرة وأولي القدرة على التأثير في الناس، من قبيل ان تيمية الذي قضى نحبه فيه، على الرغم مما هوعليه من الشهرة والغزارة في الانتاج العلمي ولاسيما في المجال الديني(٢٩).

وليس خافياً على أحد أن السجن كان من نصيب من يسيء الاتفاقات أو يخالف الوعود، كما حدث مع أرناط دي شايتون صاحب قلعة شقيف أرنون، عندما تعهد صلاح الدين تسليمه اياه حصن نفسه، فأودع على اثر ذلك السجن في مدينة دمشق عام(٥٨٥هـ/١١٨٩م). فقد بنيت السجون على أوفق صورة، حيث توافر ضمان عدم تمكن الموقوفين فيها من الهروب، وكان التحوط الأمني بالغاً مديات بعيدة في الاحكام، حتى لايتيسر أي مناص أو مفر للسجناء[٣٠]. وفوق هذا، كان على السجين دفع ضريبة محددة للدولة، وان لم يستغرق الدخول فيه والخروج منه، يوماً واحداً[٣١].

والذي لايختلف بشأنه القاصي والداني، هو أنه لم يذر صلاح الدين ناحية من النواحي الأمنية والعسكرية المختلفة، الا وقد رصد لها مبلغاً جديراً بها من وسعه، ارضاء للخالق، واسعاداً للمخلوق، بتوفير مايتطلبه وضع العباد والبلاد على الصعيد الأمني الذي لايمكن تعزيزه، مالم ينشيء رجالاته السجون، لتنفيذ مرامه، لايداع المخالفين فيها، وكان على الدولة الصلاحية أن تستخدم بعض وسائل وأساليب لردع المخالفين والعابثين بأمنها والمهددين لكيانها والمتجاوزين والمتطاولين عليها، فدولة السلطان قامت على أنقاض الدولة الفاطمية، التي ظل بعض أنصارها هنا وهناك يحاولون استعادة مجد دولتهم السابقة[٣٢].

وكانت السجون في دولة صلاح الدين على نوعين، احدهما نمط مخصص للاسرى والامراء والمماليك والقادة السعكريين كخزانة البنود[٣٣]، التي أصبحت فيما بعد أماكن لأسرى الفرنج[٣٤]، والآخر لأصحاب الجرائم والجنائيات الاعتيادية مثل السرقة والقتل والزنا وغيرها الذي كان صلاح الدين يعاقبهم بعد تقديم اوراقهم التحقيقة على القضاة وأخذ جزائهم

العادل بموجب الأمر القضائي الصادر من قبل قضاة المحكمة دون ان يخاف القاضي لومة لائم، وتتمثل بخزانة الشمائل(٣٥).

وقد ادرك السلطان المخاطر المحيطة والمحدقة بدولته، فأخذ بنظر الاعتبار هذه المسألة، إذ نقل مجموعة من السجناء إلى مدينة صرخد ليلاً عام(٥٨٨هـ/١١٩٢م)(٣٦)، والدافع الذي دفعه إلى اتخاذ هذا القرار، هو أنه وصلت إليه تقارير سرية من قبل الأجهزة الأمنية عن وجود نشاطات سياسية سرية للمسجونين بالتنسيق والتشاور المحكم مع الانصار الموالين للفاطميين في القاهرة، فأقتضت الضرورة محبة القائد العسكري الصليبي، وكانوا يمارسون ذلك أمام عساكرهم وأهاليهم حتى ينالوا رضاهم، وكان ذلك بنظرهم يدل على شجاعة القائد وإخلاصه(٣٧)، إذ كانوا لايرحمون أحداً ولايراعون في مسلم الأ ولاذمة، وكان المسلمون يضعون القيود والسلاسل في أيدي وأرجل الأسرى، لعدم وجود السجون الرسمية، الا أن انواعاً أخرى منها ظهرت طبعاً لمقتضيات الظروف، وقد تستخدم هذه الأماكن للحجز فقط. فعندما تمت إزالة الخلافة الفاطمية عام(٥٦٧هـ/١١٧٢م)، أودع جميع افراد الأسرة الفاطمية في مكان خاص في دار المظفر بحارة البرجوان كانت تعرف بدار الضيافة، ووفرت لهم كل مستلزمات الحياة وظلوا فيها بمثابة السجن حتى سنة(٦٠٨هـ/١٢١١م)، وكان أقسى مافعل بهم في البداية هو التفريق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا(٣٨)، على الرغم من أنه يتنافى مع الشرع الاسلامي الحنيف.

ويحدثنا ابن جبير حين وصل إلى مدينة الاسكندرية، انه شاهد اناساً جاءوا لمشاهدة الاسرى: ((الذين ادخلوا البلد راكبين جمالاً وجوههم إلى اذنابها وحولهم الطبول والابواق للتشهير بهم على مارتكبوه، وليراها المارة

المجتمعون حولهم، فتتسع رقعة الهلع على خارطة المخاوف النفسية، بهدف الترويع المفضي إلى التركيع خلال تصعيد وتيرة الرعب حماية لأمن البلاد))[٣٩]. وتشير وقائع أخرى إلى أن التعامل مع الاسرى الصليبيين من قبل الناصر صلاح الدين يعتمد على طبيعة معاملة الطرف الآخر في الغالب، وظروف الأسر، فقد اتخذ اجراءات بحق بعض أسرى الفرنج، اثر هزيمة المسلمين في الرملة عام(٥٧٣هـ/١١٧٧م)[٤٠]، إذ أمر بضرب اعناق بعض الذين تم أسرهم قرب عسقلان[٤١]، أما البقية الباقية فجرى سجنهم في سجن الاسكندرية[٤٢].

ومن الدلائل النابضة بالقدرة على إظهار حب السلطان للعدل وتمكنه من فؤاده، مافعل بالملكة سيبيل إذ سمح لها بالخروج ويحيط بها الاشراف والأميرات، فبالغ السلطان في اكرامها، وخاطبها باسلوب مهذب رقيق، وبعث بها الى زوجها غي السجين بقلعة نابلس حيث مكثت في ضيافته حتى أطلق سراحهما معاً. وسمح بخروج الملكة ماريا كومنينوس أرملة أموري الأول وزوجة باليان، وأمر بحراستها ومن معها من بيت المقدس حتى مدينة طرابلس[٤٣].

وفضلاً عما مضى فيه الحديث، خرجت طائفة كبرى من النساء ووقفن في حضرته متهيبات، يختلسن النظر إليه، فلايرين ملامح الوحش الكاسر، آكل لحم البشر وشارب الدماء، فقال: ((ماتردن؟))، فقلن: ((أيها السلطان! ترانا الآن راحلات عن هذه الديار ونحن من بين أزواجنا الآن نغادر هذه الديار إلى الأبد، فإذا فقدناهم فقدنا الحياة، أما إذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم، وحققت بذلك آمآلنا، وأزحت بؤسنا، وابعدت عنا شقاءنا، فان لاتكن على ظهر هذه الأرض من غير مساعد أو عائل!...))[٤٤].

فتـأثر صـلاح الـدين لقـولهن، واطلـق سـراح ابنـائهن وأزواجهـن وآبـائهن جميعاً، وعوض اللاتي مات أولياؤهن مالاً كثيراً، وجدد الأمر على عماله بأن يحسنوا معاملة من بقي لديهم من الأسرى[٤٥].

وكـان مـن بـين الاسـرى الـذين اعـتقهم الـسلطان فتـاة فرنـسية، فتولاهـا الغـضب وتقـدمت نحـو صـلاح الـدين قائلـة: ((لقـد قتلـت أبـي أيهـا المجـرم السفاك، واسرت أخويّ، فلم يعد لـي عائـل، وهـا أنـت تمـن علـيّ بـالعتق كمـا يزداد بلائي!.

فلم تثر تلك الشتائم صلاح الدين، وبعث بمن احضر أخويّ الفتاة، وقـال لها: أما أبوكِ فقد قتل في حرب هو الذي اشعل نارها واعتدى بها على القـوم الآمنين، وأما أخواكِ فاني اطلق سراحهما اكراماً لامـرأة في حاجـة إلى العائـل والمعين. فقالت الفتاة: عفواً مولاي، فانما هـي ثـورة الحـزن، وماكنـت اسمعـه في بلادي ظلم المسلمين... هذا مـاجعلني أنطلـق بمـا لا أعـي، وانـني مـع هـذا لست بائـسة مـن صـفحك وكـرم عفـوك. ولمـا همـت الفتـاة بالانـصراف، قـال الـسلطان: إلى أيـن أنـتِ ذاهبـة؟ فقالـت: إلى بـلادي. قـال: ومـاذا أنـت قائلـة لقومك؟ قالت أقول لمتعصبيهم، كلمة الحق في الاسلام والمسلمين[٤٦].

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الأمنية الشديدة والعسكرية الرشيدة التي اصدرها قائد الدولة الصلاحية، إلى قادته العسكريين حماية الأسرى، ولكن لم يكن قانون الأسر ينطبق على جميع الاسرى، وهناك مالايمكن أن يعامل مطلقاً معاملة الاسرى، لاسيما أولئك الذين كانوا يقومون بإيذاء المسلمين ويحاربونهم بشكل غير إنساني، فعوقبة هؤلاء في الاسلام هي القتل، كما نص عليه في التنزيل الحكيم في قوله تعالى: ((إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ))(٤٧). ويشمل حكم هذه الآية الكريمة كل من كان على شاكلة أرناط دي شايتون، كالداوية(٤٨) والاسبتارية، وكان أمر قتل هؤلاء يناط إلى مسؤولية أهل الصلاح والفتوى من المسلمين(٤٩)، بعد اصدار الفتوى من الفقهاء، وكان التمثيل بأسرى المسلمين من الأطفال والشيوخ وتعريفهم لأشد أنواع العذاب قسوة وأبشعها. ومن بين الأسرى شيخ طاعن في السن تم اخبار قصته إلى مسامع الناصر صلاح الدين الذي أمر أحضاره فوراً، فجاءوا به، وبعد ان مثل بين يديه، استنطقه بتوجيه بعض الاسئلة إليه بما فيها سبب مجيئه الى المشرق، وهو على هذا النمط من العمر، فقال مجيباً جئت إلى هذه الأرض للحج فقط، وتركت هذه الاجابة أثراً كبيراً في نفسية وديدن السلطان، وأحدثت بالغ الأثر في أعماقه وحزن بسبب ما إلتقطه مسمعه من الشيخ المسن الهرم، فأمر باطلاق سراحه واعاده راكباً على فرس إلى معسكر الفرنج(٥٠).

فضلاً عما ورد، فان هناك روايات وأحداثا، تدل على اهتمام السلطان بالاسرى، كما يتجلى في البراهين التي يمكن اقامتها على ايلائه كل الاهتمام بالتعامل مع الاسرى الصليبيين، بإعطائهم وعداً ملكياً بالامان والعفو عنهم، إذا ماسلموا أنفسهم من دون مقاومة، كما وقع مع المدن والقلاع والحصون في الشام كجبلة(٥١) ودربساك(٥٢) عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م)(٥٣)، وصهيون؛ وبكاس، وصفد، وبرزية، وكوكب عام(٥٨٤هـ/١١٨٨م)(٥٤)، ففرض عليهم نتيجة تعنتهم واصرارهم على المكابرة والمقاومة المبلغ المذكور سلفاً والمقرر

من قبل المجلس الاستشاري، بأن ينزلوا بأنفسهم دون السلاح[٥٥]، واطلق سراح قسم منهم رجالاً ونساءً[٥٦]، ودون علم السلطان فاعترض بعض أمرائه سبيل بعض الاسرى الصليبيين وهم يحملون مقادير من الأموال فابتزوهم وجردوهم منها، وعند ورود النبأ إلى مسامع صلاح الدين وتولاه الغضب زجرهم ومنعهم، وقال لهم: نحن قوم لانغدر بأحد، ونلتزم بالعهد والمواثيق التي قطعناها لهم[٥٧].

٣- الحياة الإجتماعية:

كان لظروف الحرب الفرنجية الصليبية أثر كبير في الحياة الاجتماعية أيام صلاح الدين الأيوبي. فقد تغلبت فكرة الحرب والجهاد المقدس على أحاسيس الناس وعلى السلطان نفسه. فلم يعد هناك متسع من الوقت لدى الجميع للتوسع في دائرة حياة الترف والقيام بالاحتفالات كتلك التي سادت عند أسلافهم الفاطميين وخلفائهم المماليك. ولما كان المال والجهد والوقت كلها أمور مدخرة وموجهة ومكرسة لقتال غزاة الفرنج الصليبيين. ولقد انصب جل اهتمام السلطان منذ أول أدوار سلطته إلى بناء القلاع، والاسوار، والابراج، والحصون والمدارس، فضلاً عن تحصينه الثغور[٥٨].

وقد وصف لنا ابن شداد، صلاح الدين الأيوبي وصفاً دقيقاً، وصور لنا اهتماماته في حياته، وكلها تشير إلى نوع الحياة التي كان يحياها. ومما قاله بحقه: ((كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً. بحيث ماكان له حديث إلاّ فيه، ولانظر إلاّ في آلته، ولا كان له اهتمام إلاّ برجاله، ولاميل إلاّ إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه. وقنع في

ظل خيمة تهب الرياح يمنة ويسرة))[٥٩] ولم يكن اهتمامه بمجاهدة الاعداء، تتوقف عند هذا الحد، بل كان يهتم كثيراً بأخبار من سبقه مـن المجاهـدين، ليجعلهم قدوة له. ويجب أن يعلم ماقيل له في الجهاد قبله. فقد ألف لـه ابـن شداد كتاباً جمع له فيه آداب القتال، وكل آية وردت فيه. وكل حـديث روي في فضله، وشـرح لـه غريبهـا. وكـان يطالعـه دائمـاً حتـى أخـذ منـه ولـده الأفـضل. وكـان لايبـالي بركـوب المخـاطر مـن أجـل دفـع غائلـة الفـرنج الصليبيين، وقد وضح ذلك لابن شداد في يوم كان البحر فيه هائجاً هيجانـاً شديداً لايعرف لغة السكون سبيلاً، وموجها كالجبال يخيـف عظمـاء الرجـال، ويجعلهم يرفضون ركوبه مقابل ملك الدنيا بكاملها، قال صلاح الـدين لابـن شداد وهو ينظر نظرة الامعان الدقيق إلى موج البحر: ((في نفسي أنـه متـى مايسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد وأوصيت وودعت، وركبـت هذا البحر إلى جزائرهم، اتتبعهم فيها حتـى لا أبقـي علـى وجـه الأرض مـن يكفر بالله أو أموت))[٦٠].

علاوة على ماسبق وجوب كون القائد صلاح الدين يقظاً متمتعـاً، بـأعلى درجـات الانـضباط الاجتمـاعي، حـاملاً الـروح والقـيم الاجتماعيـة العاليـة الوثابة مقتدراً اقتداراً بليغاً علـى ضـبط المجتمـع. ولقـد كـان حرصـه علـى راحة شعبه وأمن بلاده ومستقبله واضحاً، إذ كرس بعض وقته الثمين الذي لايعـوض، للتجـوال في أمـاكن متعـددة شملـت المـدن والاحيـاء والاسـواق والطرقات العامة، للاطلاع على احوال الرعية بذاته، لا بالاستعانة بـالعيون والارصاد ورجـالات القـضاء والمحتـسبين، فأسلوب التتبـع المباشـر والرصـد، والوقـوف علـى الأمـور، مـن شـأنه إيجـاد الحـل المناسـب، لكـل حـال بحـسب المقتضى، لمعرفته أن الوقاية خير من الضرر، لذلك تم التمكن من نشر الأمن

لمواجهة التدهور الأمني في البلاد[٦١]. إلى جانب سماع الشكاوى المرفوعة إليه من قبل الرعية، وهي تتضمن مايعانونه من ظلم على يد كبار موظفي ومسؤولي الدولة، ولكي يتأكد بنفسه من صدق هذه الشكاوى، وتحديد أماكن الخلل، طبقاً لمقتضيات الحكمة والحنكة، سَن نهجاً للفحص والتمحيص، يمكنه من معالجتها، من دون تأخير، خير مثال على ذلك ماجرى للامير أبي الهيجاء السمين الذي اصابه العزل عن مدينة نصيبين على يديه عام(٥٧٨هـ/١١٨٢م)، لكثرة الشاكين منه والباكين من ظلمه وافراطه في استخدام القسوة معهم، مبدين الأسى والأسف على دولة عزالدين صاحب الموصل السابق عليه، لعدله فيهم، فلما سمع ذلك أنكر عليه ظلمه وعزله فوراً، توخياً لسيادة الأمن والاستقرار وعدم اتاحة الفرصة أمام المسيئين للعبث بمقدرات الرعية وأمن الدولة على السواء[٦٢].

ومما يعزز بنيان الحياة الاجتماعية مارواه ابن شداد قائلاً: ((ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الايام قبالة الإفرنج، وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء دائمة الضرب على صدرها، فقال اليزكي أن هذه خرجت من عقد الإفرنج، فسألت الحضور بين يديك، وقد اتينا بها، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها، فقالت اللصوص المسلمن دخلوا البارحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتى، وبت البارحة استغيث إلى بكرة النهار، فقال لي الملوك السلطان هو أرحم، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه، فأخرجوني إليك وما أعرف خبر ابنتي إلاّ منك، فرق لها قلبه ودمعت عينه وحركته مروءته، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة، من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما

كان إلا ان وقع نظرها عليها فخرت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وهي ترفع طرفها إلى السماء، ولاتعلم ماتقول فسلمت إبنتها إليها))[٦٣]، ثم حملت كلتاهما على فرس معادتين إلى معسكرهما، فلو لم يكن الناهضون بالمهمات الأمنية والاستخبارية يقظين، إلى حد يقدرون معه على معرفة مايجري في الأوكار والاوجار، لأختفت آثار تلك الفتاة المسروقة[٦٤]، فانظر إلى شهادة الاعداء لصلاح الدين لرأفته وكرمه. شعر:

ومليحة شهدت لها ضراتها   والحسين ليس لحقه منكر[٦٥].

ولقد كان صلاح الدين عادلاً رؤفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً.

هذا ولانغفل ان العيون الأمنية كانت مختصة بالتطلع على الاسرار ونقلها إلى السلطان، وشملت هذه الاسرار، مختلف الجوانب بما فيها الشخصية والادارية، وكان يجلس مع الكتاب ساعة إما في الليل أو في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه. وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف مظلمته وأعتنى بقصته. ويشير ابن شداد في احدى رواياته عن صلاح الدين بعد ان استقر في دمشق في شوال عام(٥٧٠هـ/١١٧٤م)، شرع يجلس للنظر في شكاوى المتظلمين، عن طريق البت والركون إلى الصائب، حيث استغاث إليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده، ولكنه لم يحابه في الحق، ضماناً لسلامة الأمن

والاستقرار، وحفاظاً على وحدة المسلمين، وارجاع الحق إلى صاحبه، بغية رسوخ العقيدة الجهادية في القلوب رسوخاً لايتضعضع ولايتزحزح(٦٦).

ومن معالم نفاذ البصيرة ذات الارتكاز على عبقرية صلاح الدين، انتشال فآت الشرائح غير المحظوظة من هوة مس الظروف السلبية وذلك باجراء الاقوات عليها، لأنها الواقعة تحت قسوة المعاناة آنئذٍ، فضلاً عن اسعاف الرضيع واللقط، بتخصيص نوع من التخصيصات من النفقات من بيت مال المسلمين، حتى يبلغوا مبلغاً من القوة الضامنة سلوك سبل العيش المكنة، من ممارسة الحياة والكسب الذاتي للأقوات.

هذا ولاننسى ان الفقه الاسلامي قد اهتم بالعفة والطهر بين الرجال والنساء في عهد الدولة الصلاحية، واعدّ لذلك خططاً وسبلاً تكفل بذلك وتختلف الوسائل في هذا الطريق بين مدة واخرى، فكان الفقيه حريصاً على التفاعل مع الزمن بغية الحفاظ على الخلق الاسلامي بين الرجال والنساء، وكان المحتسب في عهد الناصر صلاح الدين، يمنع ركوب الناس مختلطين رجالاً ونساءً في المراكب للتنزة وذلك في عام(٥٩٤هـ/١١٩٧م) حفاظاً على الشرف(٦٧).

ولما كانت الموجبات الدينية تقتضي فرض سلوك بعض المسالك في ظروف معينة، وتحت شروط تسوغها عوامل دينية محددة. ومثل هذا مايحدث في عصرنا في مراكب برية وبحرية وجوية من اختلاط الرجال والنساء وانتهاجهم سبل الرقص والطرب والغناء والسكر والعربدة والغناء على الحان الموسيقى ولاسيما الغربية منها، وانكشاف العورات من النساء أمام الرجال الغرباء والاجانب، وفي أنظار أهل الفسق والمجون، ويعد اجراء السلطان صلاح الدين من أرقى مراتب حقوق الانسان ولاسيما المراة باحترامها وصيانتها من

المس بكرامتها وحماية عرضها وشرفها من الخدش بها لاسيما من قبل بعض شبان طائشين، حرصاً على مراعاة حقوق المرأة ومحاسبة المسيء المتجاوز عليها بأشد العقوبات[٦٨].

ومن الشواهد التي يمكن اقامتها لشد أزر التعزيز لصحة اهتمام السلطان بشؤون الرعية، حين تقدم شيخ نصراني من يمسك بذراع شاب مسلم وقال بصوت متهدج: ((أيها المولى، أنا فرنسي من بلدة تولوز اقيم في هذه المدينة منذ عشرين سنة، وقد جاءني هذا الشاب منذ سنتين هارباً من مدينة عسقلان، فضيفته في بيتي وكتمت خبره عن الناس. وقد أقام في بيتي هذه المدة كلها، يأكل ويشرب وينام، فلما استرجعتم القدس، وخسر الصليبييون كل شيء، وشعر هذا الشاب بأنني غدوت ضعيفاً وأصبح هو قوياً، انقلب عليَّ وطردني من بيتي واستولى على كل شيء فيه. فهل انتم تطلقون الأيدي في السلب والنهب وتقرون خيانة الضيف للمضيف؟ أم تطبقون علينا شروطاً قبلناها وارتبطتم بها؟ ان هذا الرجل خائن وسارق، فهل تعاقبه ياصلاح الدين، أم تسكت عن خيانته وسرقته؟))[٦٩]، فلم يتردد صلاح الدين لحظة في الجواب، بل التفت إلى الملك العادل وقال: ((أعيدوا إلى هذا الشيخ بيته وماله، واعفوه من دفع الفدية أو الجزية، واسجنوا هذا الشاب حتى ننظر في أمره))[٧٠].

ومما يندرج في احكام حبل الحياة الاجتماعية أيام صلاح الدين، ان القوافل التي أرسلها السلطان مخفورة كي لاتتعرض لأي اعتداء[٧١]، قد أغلقت في وجهها أبواب طرابلس وانطاكية اللتين كانتا ماتزالان في أيدي الفرنج، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب[٧٢]. ويقول البيرشامبيدور انه لما اغلقت أبواب طرابلس وانطاكية في وجوه اللاجئين

مـن الفـرنـج، واعتـدى عليهم بنـو قـومهم المقيمـون في طـرابلس ونهبـوهم، حتى ان احدى النساء قد انتابتها ثورة عصبية شديدة دفعت بها الى القاء وليدها في إلـيم يأسـا وألمـا، ((أمـر صـلاح الـدين بـأن تـوزع علـيهم الخيـام والأطعمة دون مقابل إلى أن يستطيعوا الابحار إلى الغـرب، ونقـل عـدداً كـبيراً منهم إلى الاسكندرية أملاً في تسهيل رحيلهم على المراكب الايطاليـة، ولكـن قادة سفن بيـزا وجنيـوا والبندقيـة لم يقبلـوا في سـفنهم إلاّ مـن كـان يملـك أجور السفر ونفقات الغذاء طوال مـدة الرحلـة، ممـا أدهـش المـسلمين هنـاك وأغـضبهم فانـدفعوا لتـأمين الغـذاء والمـأوى لاولئـك المـسيحيين الاوربـيين المتشردين))(٧٣).

ومـن أطـرف مـايروي ان عيـد المـيلاد أطـل بعـد تحريـر بيـت المقـدس سنة(٥٨٣هـ/١١٨٧م) باسابيع معدودة، في ليلة ممطرة حالكة السواد، فاحتفـل المسيحيون الباقون في القدس بعيد المرح والبهجة في ظـروف تكتنفهـا الكآبـة والحزن. ويذكر احد البـاحثين: ((وفي مـساء ذلـك اليـوم، أقـدم الرجـل الـذي هـزت انتـصاراته العـالمين في الـشرق والغـرب، والـذي كـان عظيمـاً في حربـه، عظيمـاً في سـلمه، علـى عمـل نبيـل تجاه المـسيحيين الحزانـي المكلـومين، لم يذكر التاريخ له مثيلاً من قبل أو من بعد. فقد سار السلطان صـلاح الـدين الايـوبي في ميـاه الأزقـة وأوحـال الطرقـات، يبحـث عـن النـصارى الافـرنـج القـابعين في عقـر بيـوتهم والـذين لم يفتـدهم أهلوهم فوجـدوا أنفـسهم في ضـنك شـديد، حـاملاً إلـيهم تهنآتـه وهـداياه. كـان يطـرق الأبـواب، فتفـتح صارخة على رزازها، ويبدو الشيوخ والنساء من ورائها خـائفين مرتـاعين أو يطل الاطفال من الطاقات والنوافذ مذعورين باكين، ثم تعود الطمأنينة إلى نفوسـهم فيـستقبلون الوافـدين، ويقبلـون مـنهم الهدايا مـن مأكـل وملـبس

ومال. ولم يكن اولئك الوافدين غير السلطان ورفاقه، وقد راحوا ينشرون الغبطة والسعادة والرخاء في بيوت النصارى بالقدس ليلة عيد الميلاد))[٧٤].

ولم يكن ماسبق يمثل كل اهتمامه بالشؤون الاجتماعية والعدلية للرعية. بل امتد نشاطه إلى تناول أقاربه وأولاده وكبار موظفيه بقصد احقاق العدل والانصاف بينهم وبين الرعية، ولم يكن يراعي في التولية والعزل غير مصلحة الرعية وأمنها، من دون أن تأخذه في ذلك شفقة أو لومة لائم، وان اتصل الأمر بالأقربين من ذوي القربى، إذ طبق حكم القضاء العادل على أحد أبنائه وأقربهم إلى قلبه الا وهو الملك الظاهر صاحب حلب، بعد ان شكى الناس منه لوقوعه تحت طائلة الغفلة، وميله إلى اللهو والتسلية، قرر السلطان تنحيته عن ولاية حلب، واستعاض عنه بأخيه سداً للفراغ الأمني، وتوخياً السكينة والاستقرار بين ظهراني الرعية[٧٥].

وفضلاً عن جلالة الحدث السالف ذكره، اغنى سجل جلائل اعماله بتحفة سنية أخرى، افتخر بها الدهر، وسيبقى تجسم في نهوض كاهله بعمل فريد الطراز غير مسبوق أحد في عصره، الذي يخص الصفي ابن القابض الذي كان متولياً خزانة دمشق في أيام صلاح الدين، فبنى داراً مشرفة على قلعة دمشق، وانفق عليها أموالاً جمة، وبالغ في تحسينها وتزيينها، ظناً منه انها تقع من السلطان موقع الأستحسان والرضى، ثم دعى إليها، فلم يستحسن السلطان مافعله خازنه، بل عرضه للمسألة والتحقيق الدقيقين، حين استنطقه مرغماً اياه على النطق بالوسائل التي إستخدمها بصرف اموال كانت طائلة، فلم يشفع للخازن شيء على ما أقدم

عليه بشأن تلك الدار، بل على الضد من المأمول، نال العقاب المناسب لفعله[٧٦].

استطاع صلاح الدين أن يحافظ على سمعة الايوبيين الاجتماعية، وكان حريصاً كل الحرص على مراقبة أبنائه وأقاربه ومسؤوليه، ويمنعهم من مخالطة القيان، ولايسمح بان يدخل داره حتى الصبي إذا بلغ رشده، ولم يكن يدع الامور تجري على شأنها من دون رقابة رقيب أو محاسبة حسيب[٧٧]، كمحاسبة الشاعر ابن عنين[٧٨]، إذ نفاه من مدينة دمشق بسبب هجائه وثلبه لاعراض الناس[٧٩].

٤- وفاة المجاهد صلاح الدين:

انتقل السلطان في آخر أيامه إلى دمشق، وكان يحبها ويؤثر الاقامة فيها، فوصلها يوم الاربعاء(٢٦شوال ٥٨٩هـ/٤تشرين الثاني ١١٩٣م)، بعد أن غاب عنها أربع سنوات، فاستقبلته استقبالاً عظيماً رجالاً ونساءً أطفالاً وشيوخاً، وقضى فيها أربعة أشهر كانت سلسلة من الافراح والأعياد، وكان يجلس في أكثر أوقات فراغه بين أولاده الصغار وأصدقائه المقربين، وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباسطة، فكأنه كان يودع أهله وأصحابه وأحبابه ومرابع شبابه وأنسه[٨٠].

وفي فجر اليوم السابع والعشرين من صفر سنة(٥٨٩هـ/٤آذار سنة ١١٩٣م)، توقف ذلك القلب الكبير عن الخفقان، بعد مضي ستة أشهر فقط من ابرام معاهدة السلام، وهو في السابعة والخمسين من عمره، بعد ان ملك وحكم بلاد مصر نحو أربع وعشرين سنة، وملك بلاد الشام أيضا نحو تسع عشرة سنة، غيّر خلالها الخارطة الجغرافية والتوزيع السياسي في فلسطين، وقضى

على آمال واحلام رجالات الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة، في استرداد بيت المقدس، وحصر الصليبيين في شريط ضيّق يقع بين يافا وأنطاكية، باستثناء صيداوبيروت[٨١].

وقد وصف وصور لنا المؤرخ ابن شداد، الساعات الأخيرة في حياته، فقال ان في ليلة السبت المصادف السادس عشر من صفر، وإثر عودته عن استقبال الحجاج العائدين من الديار المقدسة، شعر بتعب شديد وغشيته الحمى، فلما كان اليوم الثاني حضر بهاءالدين ابن شداد والقاضي الفاضل وولده الملك الأفضل، وطال جلوسهم عنده، وأخذ يشكو من قلقه ليلاً، وطاب له الحديث إلى الظهر، ثم انصرفوا والقلوب عنده، ولما مدّ الطعام في الأيوان جلس الملك الأفضل مكان ابيه، فتشاءم كثيرون من الحاضرين وغادروا الايوان وبكى جماعة منهم[٨٢].

ثم أخذ المرض يتعاظم ((وكان مرضه في راسه، وكان من امارات انتهاء عمره إذ كان قد ألف مزاجه سفراً وحضراً؟))[٨٣]، فرأى الأطباء فصده ففصدوه في اليوم الرابع، فاشتد مرضه، ولم يزل المرض يتزايد شيئاً فشيئاً حتى انتهى به إلى غاية الضعف والوهن، ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدة حرارته، وعُرض عليه ماء ثان فشكا من برده، ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات: سبحان الله ألا يمكن أحداً تعديل الماء؟ فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده، وقد اشتد البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: ابصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من حضره!))[٨٤].

يقول ابن شداد: ((واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه. ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب، فاشتد الخوف في البلد، وغشي الناس من الكآبة والحزن مالايمكن حكايته، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلاّ عرّفونا احواله. وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلىأن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا))[٨٥].

ولكنه توفي في اليوم الثاني عشر لمرضه، وكان قد فقد وعيه منذ اليوم التاسع، فكان يوماً مشهوداً لم يصب الاسلام بمثله منذ عهد الخلفاء الراشدين، حتى خيّل ان الدنيا كلها تبكيه بصوت واحد. وتجهز الناس لدفنه، ووقفوا يبكونه بكاء مرأ، وانهم لفي بكائهم ونحيبهم، إذا بالقاضي يحمل في يده سيفاً وينزل به إلى قبر السلطان ويضعه إلى جانبه، ولايزيد على أن يقول: ((هذا تتوكأ عليه إلى الجنة!...))[٨٦].

وقد عبر الشعراء في رثائهم لصلاح الدين عن مشاعر العرب والمسلمين في هذا المصاب الفادح أصدق تعبير، ومن هذه المراثي قصيدة كبرى للعماد الأصفهاني في مائتين وثلاثين بيتاً جاء فيها[٨٧]:

شمل الهدى والملك عم شتاته — والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية — مرجوّة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا — مبذولة، ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي — لله خالصة صفت نياته؟
أين الذي مازال سلطانا لنا — يُرجى نداء وتتقى سطواته؟
أين الذي شرف الزمان بفضله — وسمت على الفضلاء تشريفاته؟

أين الذي عنت الفرنج لبأسه ذلاً، ومنها أدركت ثاراته؟
أغلال أعناق العدا أسيافه، أطواق أجياد الورى مناته
لم يجدِ تدبير الطيب، وكم وكم أجدَتْ لطب الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت بالنصر حتى أغمدت صفحاته
لله المتاعب في الجهاد ولم تكن مذ عاش قطّ لذاته لذاته
مسعودة غدواته، محمودة روحاته، ميمونة ضحواته
في نصره الاسلام يسهر دائماً ليطول في روض الجنان سباته
لاتحسبوه مات شخص واحد، فممات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محامياً ابدا إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذغاب عنها دوره لما خلت من بدره داراته
دُفن السماح فليس ينبش بعدما أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف أقوت قواه وأفقرت ساحاته
جبل تضعضع من يضعضع ركنه أركاننا، وتهدنا هداته
ماكنت اعلم أن طوداً شامخاً يهوي ولاتهوي بنا مهواته
من لليتامى والأرامل راحم متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته!
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوان رب العرش بل صلواته
تضريحه سقيا السحاب فإن يغب تحضر لرحمة ربه سقياته
وكعادة البيت المقدس، يحزن الـ بيت الحرام عليه، بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه؟ من للجهاد ولم تعد عاداته؟

ولقد شاع نبأ وفاته في أوربا، فبهت الناس هناك لهذا النبأ، وطفقوا يؤلفون الكتب حول موته من خلال ماعرفوا وسمعوا عنه من أخلاق

وشمائل، ومنها قصة صورت صلاح الدين وقد حضره الموت، فدعا إليه حامل العلم وأوصاه قائلاً: ((أنت الذي حملت رايتي في الحرب، وأنت تحمل رايتي كذلك بعد الموت، فدعها تكون خرقة بالية، واحملها على رأس رمح طويل وطف بها ربوع دمشق، وادع جميع الناس لينظروا إليها، وقل لهم ها هوذا ملك الملوك، مات ولم يأخذ معه سوى الخرقة التي بيدي، ومن جميع الممالك المترامية التي ملكها صلاح الدين، والكنوز الهائلة التي كانت في يده ورهن ارادته، لم يستطع أن يأخذ لنفسه أكثر من هذه الأذرع الثلاثة من نسيج الكتان لكفنه الذي لفوه به!))[٨٨].

ولابدع أن يبكي العرب والمسلمين صلاح الدين الأيوبي، وهو الذي احتل باخلاقه وشمائله وجهاده وتضيحته وشجاعته وصبره وذكائه وبساطته، المكان الأسمى في قلوبهم، فكان موضع حبهم وتقديسهم ورمز عزتهم وفخارهم، نبع لاينضب، وقل بين حكام المسلمين ومن نظرائه في التاريخ، من احتل مثل هذه المكانة العالية والدرجة الرفيعة، ومن حظي مثله باجماع الناس على الولاء له والتعلق به خير تعليق والثناء عليه ثناء المنقطع النظير. ولقد أشار ابن جبير في مواضع عدة من رحلته. حيث ينقل لنا في بعض رواياته هذه العاطفة الجياشة التي لمسها في كل بلد حل به، خلال رحلته الشهيرة من المغرب العربي إلى بلاد مصر فالحجاز والعراق فالجزيرة وأخيراً بلاد الشام. ولعل أبلغ من ذلك كله ماسمعه عنه في الحرم الشريف بمكة المكرمة، إذ قام الامام فصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم، ورضى عن آله وأصحابه، ثم دعا للخليفة العباسي ولأمير مكة ولصلاح الدين الأيوبي. قال ابن جبير: ((وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان:

وإذ أحب الله يوماً عبده   ألقى عليه محبة الناس

وحَقّ ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم))[٨٩].

ويذكر ابن جبير في مكان آخر: ((وفي إثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزميّ في وسط قبة زمزم، ولها مطلع على ادراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا، رافعاً صوته بالدعاء للامام العباسي أحمد الناصرلدين الله ثم للأمير مكثر أمير مكة، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن، ذي المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة، فاذا انتهى على ذكره بالدعاء ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدّها القلوب الخالصة والنيات الصادقة. وتخفق الألسنة بذلك خفقاً يذيب القلوب خشوعاً لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس، وعباد الله شهداؤه في أرضه))[٩٠].

ويصف ابن جبير زيارة شقيق صلاح الدين لمكة ودخوله إلى الحرم الشريف فيقول: ((والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة الوافدين، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع وأذهلت الأذهان))[٩١].

كل ذلك مايجعلنا نتساءل عن سر عظمة صلاح الدين، وسر محبة الناس له، وسر ذلك الاجماع المنقطع النظير على النظر إليه نظرة مفردة معجبة فيها كثير من التقدير والتقديس.

ومما يؤسف له ان السلطان لما مرض سنة(٥٨١هـ/١١٨٥م)، بحرّان، قد أوصى أن يدفن بدمشق قبليّ ميدان الحصى، ويكون قبره على النهج السابل،

وطريق القوافل، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر، وتجوز عليه في الغزوات العساكر[٩٢]، ولكن لم تنفذ هذه الوصية كما أرادها.

٥- ماقاله المؤرخون عن صلاح الدين:

ان هذا الكتاب يوضح بجلاء عظمة أمتنا الاسلامية التي أنجبت صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع إلحاق الهزيمة بالصليبيين، لما يتمتع به من المزايا العسكرية التي يفوق أصحابه ونظراء عصره.

ولابد من ابراز الملامح الانسانية في شخصيته، لاعتقادنا بأن هذه الملامح هي التي كان لها الأثر الأول والفعال في حياته، وهي بالتالي سر عظمته واجماع الناس على محبته وتقديره.

وتحدثنا كتب التاريخ ان صلاح الدين خلال حكمه الذي استمر أربعاً وعشرين سنة، قد أمضى ست عشرة سنة في الجهاد، الا أنه حتى في ذلك المظهر من مظاهر حياته، لم يكن حاكماً يحشد الجيوش ويبعث بالقادة إلى غمرات القتال من أجل مزيد من المجد والسلطان والمتارف، وانما جعل من نفسه رمزاً ومثلاً، وهجر في سبيل الهدف الذي جعل منه التاريخ واجبه الأول ((أهله ووطنه وسكنه وسائر بلاده، وقلع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة))[٩٣]، وبذلك أعاد سيرة الابطال العظام الكرام الذين يعايشون جنودهم ويشاركونهم مصيرهم في السلم والحرب معاً.

لقد وثق الناس بصلاح الدين فأحبوه، وآمنوا بصدقه ووعده وتجرده وتضحيته فاجتمعوا حوله وهرعوا إليه لنجدته وتقاطروا عليه، من حلب إلى عسقلان، ومن الموصل إلى القاهرة والاسكندرية، ومن أربيل وماردين إلى

دمشق، ومن قلعة شيزر إلى الكرك، ومن جعبر إلى افامية، ورأوا فيه أميراً وقائداً عسكرياً من طراز جديد، بسط الاحسان لعدوه فأحبه عدوه، وفك قيد أسيره فقيده بالعفو والمغفرة والرحمة، وعطف على شعبه فأشاع روح المحبة والمودة في قلوب الرعية، وارتفع بمستوى القادة والامراء من وهدة التنابذ والتنازع والتذابح إلى صعيد التكاتف والتعاضد في سبيل هدف عظيم.

فقد ذكر ابوشامة: ((انه وصل الملك العادل عند السلطان صلاح الدين عند الكرك، وكان قد استدعاه بأهله وماله وجميع الجند، قلت الأموال عند السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلاً وقال: اريد أن تقرضني مئة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال السمع والطاعة، وخرج من عنده وكتب إليه يقول: اموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك واشتهي أن أحلّ هذا المال إلى خدمة السلطان، ويكون عوضاً عنه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه السلطان: إنني والله ما أقدمتك إلاّ لأوليك حلب، وإذا قد اقترحت ذلك فقد وافق ماعندي. فلما أصبح العادل أنفذ، وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً ويجعله ككتاب البيع والشراء، فامتنع السلطان وقال: انما تكون حلب اقطاعاً والمال على ماهو له، فاعتذر العادل إلى السلطان، ولما اجتمعا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع؟ أو ماعلمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم؟ أو ماعلمت أن السلطان ملك شاه السلجوقي لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء؟ ثم قرر له السلطان ولاية حلب وأعمالها وكتب له التوقيع، وقرر عليه مالاً يحمله برسم الزردخانات وخزانة الجهاد ورجاله من الحلبيين))[٩٤].

والـذي لاينـأى بنفسه فضلاً عماسبق هـو مـارواه أبوشـامة، كـان صـلاح الدين صاحب مثل أعلى يلاحقه ويقلق ضميره، ولقد عبّـر عنـه في مختلف الرسـائل إلى الخلافـة العباسـية، ولخّصه في احـدى هـذه الرسـائل بمقاصـد ثلاثـة: ((وهذه المقاصد الثلاثة هي: الجهاد في سبيل الله، والكف عـن مظـالم عبادالله، والطاعة لخليفة الله؛ هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمـه من الدنيا إذا ملكها، والله العالم أنه لايقاتل لعيش ألين من عيش، ولا لغضب يملأ العيان من نـزق ولاطيش، ويريـد إلاّ هـذه الأمـور الـتي قـد توسّـم انهـا تلـزم، ولاينـوي إلاّ هـذه النيـة الـتي هـي خـير مايـسطر في الـصحيفة ويُرقم...وكتب الخادم هذه الخدمة بعد أن بات بحلب...))[٩٥] ولم يقف عنـد هذا القدر، وقد ذكـر عـن تـسلّمه حلب للخليفـة: ((أنـه لايـؤثر الا أن تكـون كلمة الله هي العليا لاغير، وثغور المسلمين لها الرعاية ولاخير، ولانختـار إلا أن تكون جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لامتحاسدة بعتوها...))[٩٦].

ان السلطان صلاح الدين لم تأخذه في الله لومة لائم، يوماً من الأيـام، ولم يتردد في الجهاد في سبيل الله في أي زمان ومكان دون أي دافع آخر، وها نـسمع موقـف ابـن الاثـير في احـدى رواياتـه التاريخيـة تجـاه صـلاح الـدين قـائلاً: ((وكان قد أحضر قبل مرضه ولده الأفضل علياً وأخـاه الملك العـادل أبـابكر واستشارهما فيما يفعل، وقال: قـد تفرّغنـا مـن الفـرنج، ولـيس لنـا في هـذه البلاد شاغل، فأي جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط، لأنـه كان قد وعـده إذا أخـذها أن يـسلمها إليـه. وأشـار ولـده الأفضل بقـصد بـلاد الروم التي بيد أولاد قلـيج أرسـلان، وقـال: هـي أكثـر الـبلاد وعـسكراً ومـالاً، وأسرع مأخذاً وهي أيضاً طريق إذا خرجوا على البر، فإذا ملكناهـا منعنـاهم من العبور فيها، فقال: كلا كما مقصر ناقص الهمة، بل أقصد أنا بلـد الـروم،

وقال لأخيه: تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العساكر وتقصد خلاط، فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم، وندخل منها أذربيجان نتصل ببلاد العجم، فما فيها من يمنع عنها، ثم أذن لأخيه العادل في المضى إلى الكرك وكانت له، وقال له: فجهز واحضر للمسير... فلما سار الى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عودته...))[٩٧].

وتعليقنا على ابن الاثير هنا، هل كان حاضراً في هذه الجلسة السرية بين الأب وابنه وأخيه وروى هذا المخطط؟ وانفرد هو من بين المؤرخين بروايته؟ أم كان ابن الاثير شاهد هذه الجلسة، وفضح مخطط الهجوم على المسلمين؟ إن ابن الاثير ماغفر لصلاح الدين حتى بعد وفاته، إنه الزم الزنكيين إلزاماً بالجهاد، وأجبرهم بالرغم منهم على الوقوف معه في جبهة القتال...أليس غريباً أن يسجل أية فرية لإلصاقها بصلاح الدين؟ ولو كانت تخالف كل نهج حياته وسلوكه![٩٨].

ولاريب ولا ارتياب في انه كانت لصلاح الدين قدوة حسنة في نورالدين محمود زنكي الذي نشأ في ظله وتأثر بمدرسته، وقبس من رسالته، وعد نفسه وريثاً له، فقد كان نورالدين أول من وضع دعائم الوحدة الاسلامية في وجه العدوان الصليبي الغربي، ((ولم يلجأ نورالدين في تكوين هذه الوحدة إلى غدر أو خديعة، ولم يهبط بخلقه ودينه إلى ماكان يهبط إليه أنداده ومعاصروه من سلاطين زمانه، انما ظل طوال أيامه مسلماً فاضلاً شريفاً لايكاد الانسان يستدرك عليه شيئاً يمس الخلق والدين))[٩٩].

ومما يستحق ذكره هنا ان احساس صلاح الدين ازداد بمسؤوليته التاريخية بعد وفاة نورالدين زنكي، وشعوره بالفراغ الذي تركه رحيله في بلاد الشام أمام جيوش الفرنج الغازية التي دنست أرض المسلمين، فانتقل

من طور الى طور، وجعل نصب عينه أن يملأ ذلك الفراغ، ويكمل رسالة نورالدين، ويحقق ماعجز عنه.

ويرى هاملتون جب انه كان على صلاح الدين بعد وفاة نورالدين زنكي الأخذ بأحد الاسلوبين، الأول هو دمج الجيش الزنكي كله في دولة عسكرية قوية من الخارج، والثاني هو البناء على أسس الوحدة الأخلاقية التي وضع لبناتها الأولى نورالدين، وقوى تلك الاسس الى حد بلغ، بحيث يضطر الحكم الذي أقامه نورالدين إلى ان يخدم أهداف تلك الوحدة، وتدل المظاهر الخارجية الخالصة على ان صلاح الدين أخذ بالاسلوب الأول، والواقع ان سر نجاحه يرجع إلى أخذه بالاسلوب الثاني وتنفيذه(١٠٠).

ومن هذا المنطلق، نفذ جب إلى أعماق الحقيقة وأغوارها، عندما نسب الفضل في اتساع دولة صلاح الدين التي شملت بلاد مصر والشام والجزيرة واليمن، بفعل مواقفه الخلقية الرفيعة الكريمة أكثر من الاعمال العسكرية(١٠١). فان أعمال صلاح الدين الحربية أمام الموصل وحلب كانت في الواقع أقرب إلى شكل المظاهرات منها إلى الحصار، وكذلك كانت أعماله أمام عشرات الحصون التي استسلمت له هنا وهناك بعد موقعة حطين عام(٥٨٣هـ/١١٨٧م)، فان ثقة امراء وقادة وعلماء وفقهاء المسلمين، وأمراء الصليبيين فيما بعد، بخُلق الرجل، جعلت الأولين يقدمون له الولاء طوعاً لاكرهاً، ودفعت الآخرين إلى أن يطلبوا منه الأمان فقط(١٠٢).

في الواقع يظهر بجلاء ان سر عظمة صلاح الدين ودعامة مجده، هي الأخلاق التي يتحلى بها، وكانت تظهره أحياناً بمظهر البساطة والسذاجة، فيحاول الكثيرون استغلالها، ولكنها كانت تتغلب في النتيجة على الخديعة

والمكر، وتتحطم تلك المحاولات على صخرة منيعة من الصفاء والوفاء ونبل الغاية والوسيلة معاً[١٠٣].

ولايرتاب أحد من ان صلاح الدين بالحب والصدق والتجرد، فرض نفوذه العظيم، وأوجد بين الناس والجنود والقادة العسكريين والمدنيين ذلك الجو المؤاتي من الولاء الشخصي له، وتمكن ان يجند ويحشد الجميع للنضال تحت لوائه دون أن يفرض عليهم أوامر ونواهي سلطان حقيقي. وفي ذلك العصر الذي كان اغتصاب السلطة الهدف الأول لكل ذي قوة، لم يفكر أحد من امرائه أو أقربائه أو قواده في منافسته أو الخروج عليه أو انتزاع السلطة منه. وكان يكفي ان يراه الجبان حتى يتشجع، والمتردد حتى يقدم، والعاصي حتى يعود إلى الطاعة، لأنه كان يعطي المثل نفسه سلوكاً وعملاً.

لم يكن يعاملهم على أنه سيد الدولة، بل كان يقف أمامهم بوصفه رجلاً أمام رجال، لافرق بين واحد وآخر إلاّ بمقدار حظه من الرجولة والنبل والطيبة التي استعاض بها عن ابهة الملك وهيبة السلطان[١٠٤].

علاوة على ماسبق ذكره في مواطن، فإن صلاح الدين كان طاهر المجلس لايذكر بين يديه إلاّ الخير، وطاهر اللسان لايشتم ولايعنف قط، وطاهر القلب لايفكر الا في مصلحة أمته وبلاده، حليماً لايثور وسمحاً لايغضب. روى تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب، ان احد الخدم رمى آخر بحذاء فتجاوز حتى وصل إليه، فأدار وجهه للناحية الأخرى حتى لايحرج ذلك الخادم، وكان إذا عرضت عليه القصص ازدحم الناس من حوله حتى يطأوا طراحته، وهو لايتأثر. وقد عرف بالعطف على كل ضعيف ولاسيما الشيوخ والنساء والاطفال، يقف في الفتوح على مفارق الطرق باحثاً عن فقير

يؤويه، أو محتاج يقضي حاجته، أو عاجز يعفيه من فدية يعجزه الحصول عليها[١٠٥].

هـذا في الوقـت الـذي بلـغ عـصره مـن شـدة الاهتمـام بـالترف والبـذخ والاسراف، في حين ان صلاح الدين قد تميـز بـين عـصره، بالبساطة والبعد عـن ابهة الملك، فلـم يكـن يحب الـسكنى في القـصور، وكـان يـرتـدي الملابـس المصنوعة من الكتان والقطن والصوف[١٠٦]. وكان يعـد نفـسه واسـرته خزنـة المـسلمين وحراسـاً لأمـوالهم لا أسـياداً علـيهم. وقـد ولى ابنـه الظـاهر حلـب، فغفل وتلهى، وشغف بالملك وأحبه، فخاف صـلاح الـدين أن يـسد عليـه حبـه للمنـصب والجـاه أبـواب الـذكاء والفطنـة وحـسن الخدمـة، فعزلـه عـن ولايـة حلب وأرسل مكانه أخاه العادل[١٠٧]، وطلب مـن الملـك العـادل ان يكتـب لـه في اقطاع حلب كتاباً ككتاب البيع والشراء، فامتنع وقال له: ((أظننت ان البلاد تباع، أو ماعلمت ان البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة المسلمين ورعـاة للـدين وحـراس للامـوالهم))[١٠٨]، ورفـض اعفـاء أخيـه مـن مـال يحملـه إلى خزينة الدولة، وجند يرسله إلى ميدان القتال.

كثيراً ماكـان بعـض أولاد الـصغار يرافقونـه في احـدى المعـارك، فـأرادوا أن يأذن لهم بقتل أحد الأسرى، فغضب وزجرهم عن ذلك التـصرف الـذي بـدر منهم وهـم صغار في الاعمـار، لـئلا يعتـادوا علـى سفك الـدماء ويهـون ذلـك عليهم[١٠٩].

وقد تناول بروكلمان عدداً من صفاته ومزاياه بقوله: ((وليس مـن شـك في ان قلة ضئيلة من امراء الاسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن ايما نـزعة الى الكسب الشخصي، ومن حيـث انـصرافه إلى خدمـة دولتـه ورعاياهـا لـيس غـير، ولم يـستطع اعـداؤه أنفـسهم الا الاقـرار لـه بالـشهامة والنبـل في

معاملة الخصم المغلوب. ليس هذا فحسب، فقد كان صلاح الدين فضلاً عن ذلك كله كان نصيراً للعلم))[١١٠].

ولقد مدح المؤرخ المعاصر اينكرويتز(Ehrenkreutz) صلاح الدين مشيداً بدوره في مقاومة القوات الشامية الفرنج في بلبيس قائلاً: ((إن الأمر الوحيد الذي حمى العساكر الشامية من الفناء ومهد لها التخلص من مصيدة شاور العسكرية، هو حسن سياسة شيركوه وحكمته. أما مقاومة القوات الشامية في بلبيس لمدة ثلاثة شهور أمام عدو عنيد، فتدل على مهارة صلاح الدين في تزويدها وإعدادها للمقاومة. وقد قدر له نورالدين عمله هذا، فكافأه لدى عودته إلى دمشق، باعادة منصب الشحنة إليه))[١١١].

أما وليم الصوري، المؤرخ اللاتيني المعاصر لصلاح الدين، فقد وصفه بأنه ذكي، نشيط وكريم جداً، لكنه أضاف: ((ويقال إنه في بداية حكمه، عندما زار الخليفة الفاطمي، ليقوم له الولاء، رماه على الأرض بعصى كان يحملها، وذبحه، ثم ذبح جميع أبنائه، كي تخلو له السلطة في مصر، ومن المعروف أن المصريين كانوا يكرهون الاتراك، فخاف صلاح الدين أن يدعوه الخليفة لزيارته ثم يقضي عليه، ومن ثم فانه سبق الخليفة وقضى عليه، وان صحت التقارير الواصلة للفرنج، فإن الخليفة الفاطمي كان ينوي القضاء على صلاح الدين...))[١١٢].

ومع ما في تقرير وليم الصوري من تشويش وافتراء على الناصر صلاح الدين حول رميه الخليفة بالعصا على الأرض، انه لم يفعل مع ملوك الفرنج من الاسرى، فكيف يفعل مع الخليفة الفاطمي على الرغم من الاختلاف في المذاهب بينهما، لأن أخلاقه لايسمح له في الاقدام على مثل هذه الافعال والاعمال اليتيمة التي لاتليق بمكانته الاجتماعية والدينية.

وأخيراً وليس آخراً لم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً وجرام واحد صوري، وهذا لمن دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن، دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف داراً ولاعقاراً. قال العماد الكاتب حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا، من خيل عراب وأكاديش، فكان اثنى عشر ألف رأس، وذلك غير ما أطلقه من اثمان الخيل المصابة في القتال، فلم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به.

ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولاصلى إلاّ في جماعة، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله ولايفضل يوماً على يوم، وكان يسمع الحديث النبوي الشريف، وقرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي، وكان حسن الخلق صبوراً على مايكرهه كثير التغافل عن أصحابه، يسمع من أحدهم مايكره ولايعلمه بذلك ولايتغير عليه. كان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بقشرة موزة فأطاطأته ووصلت إلى السلطان، ووقفت بالقرب منه، فألفتت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها، وكان طاهر المجلس، فلايذكر أحداً بمجلسه إلاّ بخير وطاهر اللسان فما ولع بشتم قط. قال العماد الكاتب مات بموت السلطان الرجال. وفات بفواته الافضال وعضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الارزاق، وادلهمت الآفاق. وفجع الزمان بواحده وسلطانه ورزئ الاسلام بمشيد أركانه(١١٢).

هوامش الفصل السادس:

(١) ابن جبير: رحلة، ص٤٤؛ الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢٣٦؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ٤٥٣/١؛ ابن خلكان: وفيات، ٥٢٤/٢-٥٢٥.

(٢) ابن جبير: المصدر السابق، ص٤٤؛ البتاتوني: الرحلة الحجازية، الطائف، ١٩٧٧م، ص٧؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٢٠.

(٣) ابن جبير: المصدر السابق، ص٤٤.

(٤) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ٢٨٣/١؛ الحنبلي: شفاء، ص٧٤.

(٥) ابن الاثير: الكامل، طبعة دار احياء التراث العربي، ١٩٨٩م، ٢١٦/٧؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص٧٤؛ عبدالرحمن زكي: قلعة صلاح الدين، ص١٢١-١٢٢.

(٦) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٣٠٣.

(٧) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٨٦/٧؛ ابن شداد: النوادر، ص٣٣-٣٤؛ الذهبي: العبر، ٦٤٨/٩.

(٨) ابن شداد: المصدر السابق، ص٣٣-٣٤.

(٩) ابن الاثير: المصدر السابق، ص٢٩٧/٧-٢٩٨.

(١٠) ابن جبير: ص٣١؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ١٥٧/٩؛ الدواداري: كنز الدرر، ١٧/٧؛ نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص١١١.

(١١) ابن جبير: ص٣١؛ الدواداري: المصدر السابق، ١٧/٧؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٢١.

(١٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ٤١٠/٧؛ القلقشندي: صبح، ٢٧٦/٤-٢٧٧.

(١٣) نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣٠٤.

(١٤) ابن الاثير: المصدر السابق، ٤١٠/٧؛ القلقشندي: المصدر السابق، ٢٧٦/٤-٢٧٧.

(١٥) ابن جبير: المصدر السابق، ص٤٨-٤٩.

(١٦) نفسه، ص٤٩.

(١٧) نفسه، ص٤٩؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٢١.

(١٨) القلقشندي: المصدر السابق، ٢٨٩/٤-٢٩٠.

(١٩) ابوالفداء: المختصر، ٨٠/٣؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٣٠٥.

(٢٠) جيمس رستون: مقاتلون، ص٤٥٢.

(٢١) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص٢٢٣.

(٢٢) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٢٢٢-٢٢٣.

(٢٣) الاسبتارية: هم فرسان المستشفى الذين كانوا من ابرز فرسان الصليبيين الذين حملوا السلاح في وجه صلاح الدين في معركة بيت المقدس وغيرها من المعارك. قدري قلعجي: صلاح الدين، ص٣٤٢، هامش رقم(٢).

(٢٤) ابن شداد: النوادر، ص١٥١؛ ابن واصل: مفرج، ٣٥٢/٢؛ محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص٢٢٩.

(٢٥) نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٢٣٣.

(٢٦) نفسه، ص٢٤٥.

(٢٧) المقريزي: الخطط، ٨٩/١؛ شاكر مصطفى: المدن، ٥٩٤/٢.

(٢٨) المقريزي: المصدر السابق، ٨٩/١؛ جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الاسلامية، ص١٥٥.

(٢٩) نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٤٥.

(٣٠) المقريزي: المصدر السابق، ١٨٧/٢؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ٥٩٦/٢.

(٣١) المقريزي: المصدر السابق، ١٨٧/٢؛ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ٥٩٦/٢.

(٣٢) الصفدي: الوافي، ٥٠/٢٩؛ القلقشندي: صبح، ١٣/٤.

(٣٣) القلقشندي: نفسه، ٤٠٤/٣؛ المقريزي: الخطط، ٤٢٣/١، ٤٦٣.

(٣٤) ياقوت: الادباء، ٣٠/٣، هامش رقم(١)؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٤٣.

(٣٥) خزانة الشمائل: بناها شمائل والي القاهرة، وسميت باسمه. الدواداري: كنز الدرر، ٢٠١/١، هامش رقم(١).

(٣٦) ابوالفداء: المختصر، ٧٦/٢؛ العمري: مسالك، ٥٢/٢٧؛ المقريزي: الخطط، ٢١٥/١؛ ابن تغري: النجوم، ٧/٦.

(٣٧) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ١٣٤/٣.

(٣٨) ابن واصل: مفرج، ٣٨٢/٥؛ المقريزي: المصدر السابق، ٣٨٤/١.

(٣٩) ابن جبير: المصدر السابق، ص٣٥؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٩٨/٧؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ٣٦٩/٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ١٢٨/٢.

(٤٠) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٦٨/٧-٢٦٩.

(٤١) ابوشامة: الروضتين، ٥٩/٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ٥٩/٢.

(٤٢) المقريزي: الخطط، ٨٩/١؛ جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الاسلامية، العصران الأيوبي والمملوكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ١٥٥/٢؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٢٤٥.
(٤٣) قدر قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٤٢.
(٤٤) سورة المائدة: الآية(٣٣).
(٤٥) الداوية: هم صنف من رجال النصارى شديدوا التطرف، شاركوا في الحروب الصليبية، بعد أن قدموا من أوربا متطوعين وأخذوا على عاتقهم نشر المسيحية، ولاطاعة لأحد عليهم، وقد غالى بعضهم حتى ان حرم على نفسه النكاح، أي أنهم قصروا حياتهم على محاربة المسلمين وقتلهم. ينظر: ياقوت: البلدان، ٢٧٦/٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج١٨/٢-١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم، ٣٣/٦.
(٤٦) بسام العسلي: فن الحرب الاسلامي، ١٤٣/٤؛ مهدي قادر: المرجع السابق، ص١٣٠.
(٤٧) قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٣٩-٣٤٠.
(٤٨) مونروند مكسيموس: تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ترجمة: البطريق مكسيموس مظلوم، بيروت، د.ت، ٩٥/٢.
(٤٩) قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٤٠.
(٥٠) ابن شداد: النوادر، ص١٥٦؛ عبدالعزيز سيد الأهل: أيام، ص٥٩؛ جيمس رستون: مقاتلون، ص٢٤٣.
(٥١) جبلة: قلعة مشهورة بساحل بلاد الشام من اعمال حلب قرب اللاذقية. ياقوت: البلدان، ١٠٥/٢.
(٥٢) دربساك: من أقصى شمال الشام مقابل بغراس. ياقوت: نفسه، ٨٦٠/٢.
(٥٣) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٤٥/٧؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٨٩؛ ابوالفداء: المختصر، ١٥٣/٢-١٥٤.
(٥٤) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٥٠/٧-٣٥٦؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٩١-٩٢.
(٥٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٥٢/٧-٣٥٧؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٩٣-٩٦.
(٥٦) ابن الاثير: المصدر السابق، ٣٤٥/٧-٣٤٦؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٩٠.
(٥٧) الذهبي: دول الاسلام، ٧٠/٢؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٣٩؛ نسرين محمود علي: المرجع السابق، ص٢٣٧.

(٥٨) سهيل زكار: تاريخ الدولة العربية في المشرق، ص٢٩٩.
(٥٩) النوادر، ص١٣.
(٦٠) نفسه، ص١٩-٢٠.
(٦١) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٩٦/٧؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ٢٠١/٧.
(٦٢) العماد الاصفهاني: البرق، ٥٣/٥؛ ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٩٦/٧؛ ابن خلدون: العبر، ٦٥٤/٩؛ الحنبلي: شفاء، ص١٠١.
(٦٣) ابن شداد: النوادر، ص١٥٨-١٥٩؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص٦٤؛ نسرين محمود: المرجع السابق، ص٢٩٧-٢٩٨.
(٦٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص١١٨-١١٩.
(٦٥) نفسه، ص١١٩.
(٦٦) ابن الاثير: المصدر السابق، ٢٥٠/٧-٢٥١؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص٢٤٠-٢٤١.
(٦٧) ابن الجوزي: المنتظم، ٢٩٤/٨؛ حسن محمد حسن: موقف الاسلام من الحسبة، اطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٨١م، ص١٥٣.
(٦٨) ياسين رشيد الزيباري: وقائع من نظام الرقابة والحسبة، دراسة مقارنة، مؤسسة o.pl.c للطباعة والنشر، أربيل، ٢٠٠٨م، العدد(٨٦)، ص٥٧.
(٦٩) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٤٦؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٤٣.
(٧٠) حبيب جاماتي: الناصر صلاح الدين، د.ت.م، ص٩٢؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٤٣-٣٤٤.
(٧١) سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ٨٢٥/٢؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٤٤؛
Besant et palmer: Jerusalem, p.400.
(٧٢) أمير سيد علي: مختصر تاريخ العرب، ص٣١١؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٤٤.
(٧٣) قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٤٤؛
Champdor, A: Saladin leplus fur Heros de lislam, pp.183-184.
(٧٤) حبيب جاماتي: الناصر صلاح الدين، ص١١٩؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٤٦.
(٧٦) عبدالعزيز سيد الأهل: نفسه، ص٤٦.

(٧٧) الدواداري: كنز الدرر، ٢٧٧/٧؛ الذهبي: تاريخ الاسلام، ص٢٤٧؛ الغساني: العسجد، ٣٦٢/٢.

(٧٨) ابن عنين: هو ابوالمحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري، الملقب شرف الدين. ابن خلكان: وفيات، ١٤/٥.

(٧٩) ابن خلكان: نفسه، ١٤/٥؛ الحنبلي: شفاء، ص٦٥.

(٨٠) ابوشامة: الروضتين، ٢٠٩/٤-٢١٠؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٣٣.

(٨١) قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٣٣.

(٨٢) ابن شداد: النوادر، ص٤١٧ ومابعدها.

(٨٣) ابن شداد: نفسه، ص٤١٧؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢١٠/٤-٢١٢.

(٨٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص٤١٨؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢١٢/٤؛ مع اختلاف في النصين. وينظر: قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٣٣.

(٨٥) ابن شداد: المرجع السابق، ص٤١٨؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢١٢/٢-٢١٣؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٣٣.

(٨٦) ابن شداد: المصدر السابق، ص٤٢٢؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢١٦/٢.

(٨٧) ابن شداد: المصدر السابق، ص٢٤٦-٢٥٠؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢١٧/٤-٢١٨؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٣٦-٤٣٨.

(٨٨) ابن شداد: المصدر السابق، ص٤٢٠؛ ابوشامة: المصدر السابق، ٢١٦/٤؛
Vincent de Beauvis: Speculum Historiale, ed Douais, paris, 1924, p.1204

(٨٩) ابن جبير: رحلة، ص٧٣.

(٩٠) نفسه، ص٨٠؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٤١.

(٩١) ابن جبير: المصدر السابق، ص١١٤؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٤١.

(٩٢) ابوشامة: النوادر، ٢١٦/٤.

(٩٣) ابن شداد: النوادر، ص٦٦.

(٩٤) ابوشامة: المصدر السابق، ٥٠/٢؛ شاكر مصطفى: صلاح الدين، ص٤٢٠.

(٩٥) ابوشامة: المصدر السابق، ٤٨/٢.

(٩٦) نفسه، ٤٨/٢.

(٩٧) ابن الاثير: الكامل، ٩٥/١٢.

(٩٨) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص٤١٢.

(٩٩) حسين مؤنس: صور من البطولة، ص١٧٧؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٤٣.

(١٠٠) جب: صلاح الدين الأيوبي، ص١٣٠.

(١٠١) نفسه، ص١٣٧.

(١٠٢) قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٤٤.

(١٠٣) نفسه، ص٤٤٥.

(١٠٤) جب: المرجع السابق، ص١٣٧؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٤٥ ومابعدها.

(١٠٥) ابن شداد: النوادر، ص٣١٠؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٤٥.

(١٠٦) السيوطي: حسن المحاضرة، ٢٦/٢.

(١٠٧) ابن شداد: المصدر السابق، ص٥١.

(١٠٨) ابوشامة: الروضتين، ٥٢/٢.

(١٠٩) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٤٢.

(١١٠) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ٢٣٢/٢؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٥٣.

(111) Andrew.S.Ehrekreutz: Saladin state university of New York, 1972, pp.32-38.

(112) William of Trye AHistory of Done beyond the sea, tr.be C.A. Babcock and A.C. kwey (New York Columbia university press, 1943, vol.11, pp.317-318.

(١١٣) تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب: منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه، ص٢٤٩-٢٥٠.

المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريم.

الابي: أبوسعيد منصور بن الحسين(ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م).

- نثر الدر، تحقيق: محمد علي قرنة وعلي محمد البجاوي، طبعة مصر، ١٩٨١م.

ابن الاثير: عزالدين ابن الحسن علي بن عبدالكريم الجزري(ت ٦٣٠هـ/١٣٣٢م).

- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية الموصل، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣م.

- الكامل في التاريخ، حققه وضبط اصوله وعلق عليه شيري، دار حياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٩م، وطبعة بيروت، ٢٠٠٩م.

ابن الأخوة القرشي: محمد بن محمد بن أحمد القرشي(ت٧٢٩هـ/١٣٣٨م).

- معالم القربة في أحكام الحسبة، مطبعة دار الفنون، كمبردج، ١٩٣٧م.

ابن الأزرق: محمد بن علي بن محمد(ت ٨٩٦هـ/١٤٨٩م).

- بدائع السلوك في طبائع الملوك، تحقيق: د.سامي النشار، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م.

الاسنوي: جمال الدين عبدالرحيم بن الحسين(ت ٧٧٢هـ/١٤٩٠م).

- طبقات الشافعية، تحقيق: عبدالجبوري، مطبعة الارشاد، بغداد، ج١، ١٩٧٠م، ج٢، ١٩٧٢.

الاصطخري: ابو اسحاق محمد بن ابراهيم توفي بعد(٣٤٠هـ/٩٥١م).

- مسالك الممالك، مطبعة بريل، لايدن، ١٩٠٧م.

ابن أبي اصيبعة: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي(ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م).

- عيـون الانبـاء في طبقـات الاطبـاء، تحقيـق: د.نـزار رضـا، دار مكتبـة الحيـاة، بيروت، ١٢٩٩هـ، وطبعة اصدار دار الفكر، بيروت، ١٩٥٧م.

الأوسي الانـصاري: عمـر بـن ابـراهيم(أوائـل القـرن التاسـع أو القـرن الخـامس عشر الميلادي).

- تفريـج الكروب في تـدبير الحـروب، حققـه وترجمـه إلى الانجليزيـة: الـدكتور جورج سكانلون، منشورات الجامعة الامريكية بالقاهرة، ١٩٦١م.

ابن اياس: محمد بن أحمد الحنفي المصري(ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م).

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٥م.

البغدادي: عبداللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي(ت ٦٢٩هـ/١٢٣٠م).

- الافادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيـق: أحمد غسان سبانو، مطبعة خالد بن الوليد، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٣م.

البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر(ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م).

- فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله أنـيس الطبـاع وعمـر أنـيس الطبـاع، مؤسـسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م.

البنداري: الفتح بن علي الاصفهاني(ت ٦٢٤هـ/١٢٤٥م).

- مختصر البرق الشامي، تحقيق: رمضان شنشن، القسم الأول، بيروت، ١٩٧١م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن الاتابكي(ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمـة والطبع، القاهرة، ١٩٥٦م.

ابن تيمية: احمد بن المفتي شهاب الدين عبدالحليم(ت ٧٢٨هـم١٣٢٧م).

- السياسة الشرعية في اصـلاح الراعـي والرعيـة، دار الكتـاب العربـي، القـاهرة، ١٩٦٩م.

الثعالبي: ابومنصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل(ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م).

- لطائف المعارف، تحقيـق: ابـراهيم الابيـاري، وحـسن كامـل الـصيرفي، مطبعـة عيسى الباب الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م، وتحقيق: ثـروة عكاشة، بيروت، ١٩٨٣م.

الجاحظ: ابوعثمان عمرو بن بحر(ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م).

- الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٦٥م.

ابن جبير: ابوالحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي(ت ٦١٤هـ/١٢١٧م).

- رحلة ابن جبير(تذكرة الأخبار عن اتفاقات الاشعار) تحقيق: وليم رايت، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.

ابن الجوزي: جمال الدين أبوالفرج عبدالرحمن بن علي(ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الحيدر آباد، الدكن، الهند، ١٣٥٧-١٣٥٩هـ.

ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي(ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م).

- رفع الإصر عن قضاة مصر، الجزء الأول في قسمين تحقيق: حامد عبدالمجيد وآخرون، الادارة العامة للثقافة، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٥٧-١٩٦١م.

الحموي: ابن واصل(ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).

- تجريد الأغاني: تحقيق: طه حسن وابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨م.

الحموي: ابوالفضائل محمد بن علي(ت ٦٤٤هـ/١٢٤٦م).

- تاريخ المنصوري المسمى(تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان) عني بنشره ووضع فهارسه: البطرس غرباز نيويج، دار النشر للآداب الشرقية، موسكو، ١٩٦٠م.

الحنبلي: أحمد بن ابراهيم(ت ٨٧٦هـ/١٤١٧م).

- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد شيخو، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م.

الحنبلي: مجيرالدين بن عبدالرحمن بن محمد(ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م).

- الأنسى الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، ١٩٧٣م.

ابن خلدون: أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن محمد(ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م).

- العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر(تاريخ ابن خلدون)، دار البيان، بغداد، د.ت.

- المقدمة، دار القلم، بيروت، ١٩٧٨م.

ابن خلكان: شمس الدين أبوالعباس أحمد بن محمد(ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م).

- وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.

ابن دريد: أبوبكر محمد بن الحسن(ت ٣٢١هـ/٩٣٣م).

- جمهرة انساب العرب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م.

دريد: أبوبكر محمد بن الحسن(ت ٣٢١هـ/٩٣٣م).

- جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٣٤٢هـ.

ابن دقماق: ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي(ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م).

- الانتصار لواسطة عقد الامصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، تحقيق لجنة أحياء التراث العربي، دار الآوقاف الجديدة، بيروت، ١٨٩٣م.

الدميري: كمال الدين محمد بن موسى(ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م).

- حياة الحيوان الكبرى، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.

الدواداري: أبوبكر عبدالله بن ايبك(ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م).

- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس المسمى(الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١م.

- الجزء السابع (الدرة المطلوب في أخبار بني أيوب)، تحقيق: د.سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م.

الدياربكري: حسين بن محمد بن الحسن(ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م).

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهبية، القاهرة، ١٨٦٦م.

الـذهبي: أبوعبـدالله محمـد بـن أحمـد بـن عثمـان بـن قايمـاز التركمـاني(ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

- تاريخ الاسلام، تحقيق: د.عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ١٩٩٧م.

- دول الاسـلام، تحقيـق: فهـيم محمـد شـلتوت ومـصطفى ابـراهيم، القـاهرة، ١٩٧٤م.

- العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر(ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م).

- مختار الصحاح، بيروت، ١٩٧٩م.

الراغب الأصفهاني(ت ٤٢٥هـ/١٠٣٣م).

- محاضرات الأدباء، ومحاولات الشعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبـة الحيـاة، بيروت، ١٩٦١م.

ابن أبي الربيع: شهاب الدين أحمد بن محمود بن أبي الربيع(ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م).

- سـلوك المالـك في تـدبير الممالـك، تحقيـق: د.سـامي النـشار، بغـداد، ١٩٧٧م. وكذلك طبعة تحقيق: ناجي التكريتي، بيروت، ١٩٨٧م.

ابـن الـساعي: ابوطالـب علـي بـن انجـب تـاج الـدين ابـن الـساعي الخـازن(ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م).

- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيـون الـسير، تحقيـق: مـصطفى جـواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، ١٩٣٤م.

سبط ابن الجوزي: أبوالمظفر شمس الدين قزاوغلي التركي(ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م).

- مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانيـة، حيـدر آباد الدكن، الهند، ١٩٥١م، ج٨ قسم أول.

السبكي: تاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين(ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م).

- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمـد الحلو، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م.

ابن سعيد: علي(ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

- النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب، حلي المغرب، تحقيق: حسني نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م.

ابن سناء الملك: عزالدين أبوالقاسم هبة بن جعفر بن محمد(ت ٦٠٨هـ/١٢١٢م).

- ديوان ابن سناء الملك، اعتنى بتحقيقه: محمد بن عبدالحق، ٣أجزاء في مجلد واحد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥٨م.

السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ/١٥٠٥م).

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جزءان، تحقيق: محمد أبي الفضل، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق: محمد أبي الفضل، مطبعة دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧-١٩٦٨م.

أبو شامة: شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي(ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م).

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، طبعة دار الجبل، بيروت، ١٩٧٤م.

ابن شاهنشاه: محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي(ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م).

- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٨م.

ابن الشحنة: أبوالفضل محب الدين محمد الحلبي(ت ٨٨٤هـ/١٤٦٨م).

- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تعليق: يوسف بن الياس سركيس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٩م.

ابن شداد: بهاءالدين يوسف بن رافع الأسدي(ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية(سيرة صلاح الدين) أختار النصوص، محمد درويش، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م. وطبعة القاهرة، ١٩٦٤م.

ابن شداد: عزالدين محمد بن علي(ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م).

- الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، معهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٦م، وتحقيق: يحيى عيادة، دمشق، ١٩٧٨م.

الشيرزي: عبدالرحمن بن نصر(ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م).

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، قام بنشره: السيد الباز العريني، وأشرف على طبعه، محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م.

- النهج المسلوك في سياسة الملوك، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

الصابئ: أبوالحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم(ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م).

- رسوم دار الخلاق، تحقيق: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤م.

- الهفوات النادرة، تحقيق: د.صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٧م.

ابن الصابوني: جمال الدين أبوحامد محمد بن علي الحموي(ت ٦٨٠هـ/١٢٨١م).

- تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المجتمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٧م.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن إبك(ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م).

- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى، دار الاحياء العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

ابن الصيرفي: تاج الرئاسة ابوالقاسم علي بن منجب بن سليمان(ت ٥٤٢هـ/١١٤٨م).

- القانون في ديوان الرسائل والاشارة الى من نال الوزارة، حققهما وكتب مقدمتهما وحواشيهما ووضع فهارسهما: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٠م.

الطبري: ابوجعفر محمد بن جرير(ت ٣١٠هـ/٩٢٢م).

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبي الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.

الطرسوسي: مرضي بن علي بن مرضي(ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م).

- تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ونشر اعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على القاء الاعداء، تحقيق: كلودكاهين، بيروت، ١٩٤٨م.

ابن ظافر: جمال الدين أبوالحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدي(ت ٦١٢هـ/١٢١٥م).

- أخبار الدولة المنقطعة، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدمة وتعقيب أندرية فرية، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي، للاثار الشرقية، ١٩٧٢م.

الظاهري: غرس الدين خليل بن شاهين(ت ٨٧٣هـ/١٤٦٧م).

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك اعتنى بتصحيحه بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م.

عباس أبقال أشتياني:

- وزارت در عهد سلاطين برزك سلجوقي، تحقيق: محمد تقي دانش ويحيى ذكاء، انتشارات دانشاه، طهران ١٣٣٨هـ/١٩١٩م.

ابن العبري: ابوالفرج غريغوريوس أهرون السلفي(ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

- تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م.

ابن العديم: كمال الدين ابوالقاسم عمر بن احمد بن هبة الله(ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م).

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، وطبعة تحقيق: سامي الدهان، ج٣، ١٩٦٨م.

- بغية الطلب في تاريخ حلب، عني بنشره: علي سويم، الجمعية التركية، أنقرة، ١٩٧٦م.

العماد الأصفهاني: ابن عبدالله الكاتب(ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

- البرق الشامي، تحقيق وتقديم: مصطفى الحيارى، عمان، ١٩٨٧م.

- خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: محمد بهجت الأثري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، القسم العراقي، الجزء الثاني، ١٩٦٤م.

- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

العماد الحنبلي: أبوالفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي(ـ ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حيدرآباد، الدكن، ١٩٣١م.

العمري: القاضي إبن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى(ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

- التعريف بالمصطلح الشريف، عني بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

العيني: بدرالدين محمود(ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م).

- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ الحموي، تحقيق: فهمي شلتوت، القاهرة، ١٩٦٧م.

- عقود الجمان في تواريخ أهل الزمان، أحداث(٦٤٠-٦٦٤هـ/١٢٥٠-١٢٦٥م)، حققه ووضع حواشيه: د.محمد محمدأمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

الغزي: كامل بن حسين بالي الحلبي(ت ١٢٧١هـ/١٨٥٤م).

- نهر الذهب في تاريخ حلب، جزءان، المطبعة المارونية، حلب، ١٣٤٢هـ.

الغساني: ابوالعباس اسماعيل بن العباس(ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م).

- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، جزءان في مجلد واحد، تحقيق محمود عبدالمنعم، اخرجه علي الخاقاني، دار التراث العربي الاسلامي للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٥م.

أبو الفداء: عمادالدين اسماعيل بن محمد بن عمر(ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م).

- تقويم البلدان، باعتناء وبنود وريسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، د.ت.

ابن الفرات: ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم(ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م).

- تـاريخ ابـن الفـرات، عـني بتحريـر ونـشره: حـسن الـشماع، دار الطباعـة الحديثة، البصرة، ١٩٦٩-١٩٧٠م.

ابـن الفقيـه: أبـوبكر أحمـد بـن محمـد الهمـداني (ت أواخـر القـرن الثالـث الهجري).

- مختصر كتاب البلدان، نشر دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٥م.

قاضي شهبة: بدرالدين محمد بن تقي الدين الأسدي(ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

- الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

- طبقات الشافعية، اعتنى بتصحيحه وعلق عليه: عبدالعليم خان، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٧م.

القاضي فاضل: عبدالرحيم بن علي البيسان(ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م).

- ديـوان القاضـي الفاضـل، تحقيـق: أحمـد أحمـد بـدوي، مراجعـة: ابـراهيم الابياري، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، القاهرة، ١٩٦١م.

القرماني: ابوالعباس أحمد بن يوسف بن أحمد(ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م).

- كتـاب أخبـار الـدول وآثـار الأول في التـاريخ، عـالم الكتـب، بـيروت، مكتبـة المتنبي، القاهرة، مكتبة سعدالدين، دمشق، د.ت.

القفطي: جمال الدين ابوالحسن بن يوسف(ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م).

- انباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق: محمد أبي الفضل، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠-١٩٥٥م.

ابن القلانسي: ابويعلي حمزة بن أسد(ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م).

- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

القلقشندي: ابوالعباس أحمد بن علي(ت ٨٢١هـ/١٤١٨م).

- صبح الاعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلـق عليـه وقابـل نـصوصه: محمـد حسين، شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ونشر وتحقيقه: علي الخاقاني، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٨م.

ابن كثير: عمادالدين أبوالفداء اسماعيل الدمشقي(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).

- البداية والنهاية في التاريخ، قدم له: محمد عبدالرحمن المرعشلي، حقق النصوص وعلق عليه: مكتب تحقيق، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٥م؛ وطبعة مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢م.

ابن كنان: محمد بن عيسى الصالحي(ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م).

- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق: عباس صباغ، دار النفائس، ط١، بيروت، ١٩٩١م.

الماوردي: ابوالحسن علي بن محمد حبيب البصري البغدادي(ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م).

- الاحكام السلطانية، تحقيق: د.رشيد الجميلي، بغداد، ١٩٨٦م.

مجدالدين محمد يعقوب الفيروز آبادي(ت ٨١٧هـ/١٤١٤م).

- القاموس المحيط، تحقيق: مكتبة التحقيق والتراث في مؤسسة الرسالة، باشراف محمد النعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٣م.

مجهول:

- مخطوطة تاريخية عن الدولة الايوبية نسخة مصورة عن نسخة مكتبة الاوقاف الموصل برقم ١٧/١ زيواني.

مجهول: من القرن السادس الهجري.

- الاستبصار في عجائب الأمصار، مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق، سعد زغلول عبدالحميد، د.م، ١٩٨٦م.

ابن المستوفي: شرف الدين ابوالبركات بن أحمد الأربلي(. ٦٣٧هـ/١٢٣٨٩م).

- نباهة البلد الخامل ممن ورد في الاماثل والمشهور بـ(تاريخ اربل)، تحقيق: سامي الصقار، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

ابن مسكويه: أبوعلي محمد بن أحمد بن يعقوب(ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م).

- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ليدن، ١٨٧١م، اعادت طبعة مكتبة المثنى ببغداد.

المقدسي البشاري: أبوعبدالله شمس الدين محمد بن أحمد(ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م).

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦م، اعادت طبعه بالأوفسيت، مكتبة المثنى ببغداد.

المقريزي: أحمد بن علي عبدالقادر(ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

- السلوك لمعرفة دول الملوك، ومنقحة ج١، ق٢، وق٣، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٧م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، المعروف بخطط المقريزي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٨٥٣م، وطبعة المعهد الفرنسي، ١٩١٣م.

- اتعاظ الحنفا باخبار أئمة الفاطميين الخلفا، ج١، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧م، ج٢و ج٣، تحقيق: محمد حلمي أحمد، اشرف على اصدارها: محمد توفيق عويصة، القاهرة، ١٩٧١-١٩٧٣م؛ وطبعة أخرى تحقيق: علمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، لجنة أحياء التراث، القاهرة، ١٩٧٣م.

- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، ط١، تحقيق وتأليف: د.عبدالحميد عابدين، الناشر عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦١م.

- درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة، قطعة منه، ق٢، حققه: د.عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥م.

- شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق: محمد السيد علي بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٧م.

- المقفى الكبير، تحقيق: محمد العيلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.

ابن مماتي: أسعد (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م).

- قوانين الدواوين، جمع وتحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م.

ابن منظور: جمال الدين أبوالفضل محمد(ت ٧١١هـ/١٣١١م).

- لسان العرب، ١٥مجلد، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ.

ابن ميسر: محمد بن علي يوسف بن جلب(ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م).

- تاريخ مصر، اعتنى بتصحيحه: هنري ماسيه، مطبعة العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩١٩م، ج٢.

ناصر خسرو: أبومعين الدين القبادياني المروزي(ت ٤٨١هـ/١٨٠٨م).

- سفرنامة، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٥م.

ابن نظيف الحموي: أبوالفضائل محمد بن علي(ت ٦٤٤هـ/١٢٤٦م).

- التاريخ المنصوري المسمى (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)، عني بنشره: بطرس غريازينويج، دار النشر للآداب الشرقية، موسكو، ١٩٦٠م.

النعيمي: عبدالقادر محمد(ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م).

- الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، دمشق، ١٩٤٨م.

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م).

- نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، د.م.

الهرثمي: أبوسعيد(صاحب الخليفة المأمون العباسي).

- مختصر سياسة الحروب، تحقيق: عبدالرؤوف عون، طبعة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة(سنة الطبع بلا).

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم(ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، عصر صلاح الدين(ت ٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م)، حققه وعلق على حواشيه وقدم له: الدكتور جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥٧م.

ابن الوردي: زين الدين بن عمر بن مصطفى(ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

- تتمة المختصر في أخبار البشر المشهور بـ(تاريخ ابن الوردي)، ط١، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

وليم الصوري(ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م).

- الحروب الصليبية، الترجمان والتعليق، حسن حبشي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

اليافعي: ابومحمد عبدالله بن سعد(ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م).

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، منشورات محمد علي بيضوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، وطبعة مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت، ١٩٧٠م.

ياقوت الحموي: شهاب الدين أبوعبدالله الحموي(ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

- معجم الادباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، (د.م)، ١٩٩٩م.- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب(ت بعد ٢٩٢هـ/٩٠٥م).

- تاريخ اليعقوبي: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٩٠م.

اليونيني: موسى بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطب الدين البعلبكي(ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م).

- ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥٤-١٩٥٦م.

- المراجع:

ابراهيم علي طرخان:

- النظم الاقطاعية، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

ابوزيد شلبي:

- تاريخ الحضارة الاسلامية، مطبعة الاستقلال الكبرى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٤م.

احسان هندي:

- الحياة العسكرية عند العرب، دمشق، ١٩٦٤م.

أحمد القاضي حسين بن أحمد العرشي: ختم حوادثه في عام(١٣١٨هـ/١٩٠٠م).

- بلوغ المرام في شرح مسك الختام، عني بنشره: الاب انستاس ماري الكرملي، مطبعة فؤاد الاول، القاهرة، ١٩٣٩م.

أحمد سيد كسروي:

- شهرياران طمنام، تبريز، طهران، ١٩٢٩-١٩٣٠م.

أحمد عبدالجواد:

- صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة الخانجي، د.ت.

أحمد عبدالعزيز محمود:

- الامارة الهذبانية الكردية في اذربيجان وأربيل والجزيرة الفراتية من(٢٩٣-٦٥٦هـ/٩٠٥-١٢٥٨م)، رسالة ماجستير، مؤسسة موكرياني، أربيل، ٢٠٠٢م.

- الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول(١٤٥-٢٤٧هـ/٧٦٢-٨٦١م)، أطروحة دكتوراه، دار التفسير للنشر والاعلان، أربيل، ٢٠٠٨م.

أحمد مختار العبادي والسيد الباز العريني:

- تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٢م.

ادريس سليمان محمد:

- نظام الحجابة في الدولة العربية الاسلامية، دراسة مقارنة، ٤١-٤٤٧هـ، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٩م.

أدي شير:

- الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، ١٩٠٨م.

ارنست باركر:

- الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.

اسماعيل سرهنك:

- حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية، بولاق، ج١و ٢ و ٣، ١٣١٤هـ، ١٣١٦هـ، ١٣٢٣هـ.

إسماعيل شكر رسول:

- الامارة الشدادية الكردية في بلاد الرّان(٣٤٠-٥٩٥هـ/٩٥١-١١٩٨م)، دراسة سياسية حضارية، مؤسسة موكرياني للطباعة والنشر، اربيل، ٢٠٠١م.

أسمت غنيم:

- الدولة الأيوبية والصليبيون، الاسكندرية، ١٩٨٨م.

أمين الخولي:

- الجندية والسلم، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٠م.

أيمن فؤاد سيد:

- الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

بدري محمد فهد:

- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٣م.

بسام العسلي:

- فن الحرب الاسلامي في العصر العباسي، مركز الكتب الثقافية للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٨٨م.

بيتر فارب:

- بنو الانسان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٠م.

جرجي زيدان:

- تاريخ التمدن الاسلامي، مراجعة: حسين مؤنس، مطبعة دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٤م.

جهادية القره غولي:

- العقلية العربية في التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول(١٣٢-٢٣٢هـ)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٦م.

جيمس رستون:

- مقاتلون في سبيل الله، صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٢م.

حامد زيان غنيم:

- الجبهة الاسلامية الموحدة، القاهرة، ١٩٧٨م.

حسام الدين السامرائي:

- المؤسسات الادارية في الدولة العباسية خلال فترة(٢٤٧-٣٣٤هـ/٧٦١-٩٤٥م)، مكتبة دار الفتح، دمشق، ١٩٧١م.

حسام الدين علي النقشبندي:

- اذربيجان(٤٢٠-٦٥٤هـ/١٠٢٩-١٢٥٦م) دراسة في أحوالها السياسية والحضارية، اطروحة دكتوراه، الاداب، جامعة بغداد، ١٩٨٤م.

حسن ابراهيم حسن:

- تاريخ الاسلام السياسي والديني، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٧م.

- تاريخ الدولة الفاطمية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٢م.

- الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٢م.

- النظم الاسلامية، القاهرة، ١٩٣٩م، وطبعة ١٩٦٢م.

حسن الباشا:

- الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.

حسن حبشي:

- نورالدين محمود والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م.

حسن محمد حسن:

- موقف الاسلام في الحسبة، اطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٨١م.

حسين أمين:

- تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٥م.

خالد جاسم الجنابي:

- تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر الاموي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٤.

- تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني(٢١٨-٣٣٤هـ)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩م.

خليل ابراهيم السامرائي وآخرون:

- تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي(١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م)، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٨م.

دريد عبدالقادر نوري:

- سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، ٥٧٠-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٦م.

ذكرى عزيز محمد صالح الصائغ:

- عصر الملك الكامل الأيوبي، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٨م.

رياض رمضان الدليمي:

- الدواء في فجر التاريخ الى اليوم، الكويت، ١٩٨٨م.

رينهات دوزي:

- المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١م.

زكي النقاش:

- العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، منشورات دار الكتاب اللبناني، مطابع دار الكشاف، بيروت، ١٩٥٨م.

ستڤن رنسيمان:

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

سعاد ماهر:

- البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

سعيد عبدالفتاح عاشور:

- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة للطباعة، بيروت، ١٩٧٢م.

- العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، دار النهضة، ط٣، القاهرة، ١٩٧٦م.

- دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، الكويت، ١٩٨٦م.

- الحركة الصليبية، منقحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

سلام حسن طه:

- جزيرة ابن عمر في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة ماجستير، الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٨٩م.

سلطان جبر سلطان:

- الدور السياسي للعلماء المسلمين أيام الحروب الصليبية، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٩م.

سوادى عبد محمد الرويشدي:

- امارة الموصل في عهد بدرالدين لؤلؤ، بغداد، ١٩٧١م.

- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، اطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٥م.

السيد الباز العريني:

- الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيون)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م.

سيد أمير علي:

- مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي، ترجمة رياض رأفت، مكتبة الملكة العربية، القاهرة، ١٩٣٨م.

شاخت وبوزورث:

- تراث الاسلام، الكويت، ١٩٨٨م.

شاكر مصطفى:

- صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م.

صالح أحمد العلي:

- ادارة بغداد ومركزها، مقال مستل من مجلة سومر، بغداد، ١٩٦٧م، العدد(٣٣).

صالح بن يحيى:

- كتاب تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٩م.

صلاح الدين العبيدي:

- منجنيق من الحضر، مجلة سومر، مجلد٣٢، ج١ + ج٢ لسنة ١٩٧٦م، ومجلة كلية الآداب، العدد(٢٥)، بغداد، ١٩٧٩م.

عادل زيتون:

- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٠م.

عبدالجبار ناجي:

- دراسات في تاريخ المدن العربية الاسلامية، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٦م.

عبدالرؤوف عون:
- الفن الحربي في صدر الاسلام، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦١م.
عبدالرحمن زكي:
- قلعة صلاح الدين وماحولها من الاثار، الجمهورية العربية للمتحدة، الهيئة العامة المصرية للتأليف.
- السلاح في الاسلام، طبعة دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥١م.
عبدالرزاق الانباري:
- منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية منذ نشأتها حتى نهاية العصر السلجوقي، بيروت، ١٩٨٧م.
عبدالعزيز الدوري:
- مقدمة في التاريخ الاقتصادي، بيروت، ١٩٦٠م.
عبدالعزيز سيد الأهل:
- أيام صلاح الدين، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٦١م.
عبدالعزيز عبدالله:
- مظاهر الحضارة المغربية، الدار البيضاء، مراكش، ١٩٥٧م.
عبدالكريم توفيق العبود:
- الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد، دار الحرية للطباعة بغداد، ١٩٧٦م.
عبدالله سعيد محمد الغامدي:
- صلاح الدين والصليبيون، مكة المكرمة، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م.
عبدالله سلوم السامرائي:
- الشعوبية بين حركة مضادة للاسلام والأمة العربية، المؤسسة العراقية للدعاية والطبع، بغداد، ١٩٨٤م.
عبدالمنعم ماجد:
- تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٣م.

- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٦م.
عبدالنعيم محمد حسنين:
- سلاجقة ايران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
عبدالهادي التازي:
- التاريخ الدبلوماسي من أقدم العصور الى اليوم، دون مكان الطبع، ١٩٨٧م.
عصام الدين عبدالرؤوف:
- في بلاد الجزيرة، دار الفكر العربي، بغداد، ١٩٧٦م.
علي بيومي:
- قيام الدولة الايوبية في مصر، القاهرة، ١٩٥٢م.
عمادالدين عمر خليل:
- إمارة بني أرتق، اطروحة دكتوراه في جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٦٨م.
فتحي عثمان:
- الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٦م.
قدر قلعجي:
- صلاح الدين الأيوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٩٤م.
كارل بروكلمان:
- تاريخ الشعوب الاسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤م.
كازانوفا، بول:
- تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة وتقديم: أحمد دراج، مراجعة: جمال محرز، د.ت.
كرفان محمد أحمد:
- الملك الاشرف موسى بن عبدالملك العادل الأيوبي، دوره وأثره في الدولة الأيوبية(٥٧٦-٦٣٥هـ/١١٨٢-١٢٣٧م)، رسالة ماجستير، الاداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٩٩م.

كريزويل، ك.أ:

- وصف قلعة الجبل، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

كمال الدين سامح:

- العمارة الاسلامية في مصر، مكتبة النهضة المصرية دون تاريخ.

محسن محمد حسين:

- أربيل في العهد الاتابكي، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦م.

- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦؛ والطبعة الثانية، دار ئاراس، أربيل، ٢٠٠٣م.

محسن محمد حسين:

- المشطوب الهكاري، سيرة مجاهد، مجلة المجمع العلمي العراقي، الهيئة الكردية، المجلد(٨)، بغداد، ١٩٨١م.

محمد أديب آل تقي الدين الحصيني:

- كتاب منتخبات التواريخ لدمشق، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩م.

محمد التونجي:

- المعجم الذهبي: دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩م.

محمد أمين زكي:

- تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي، ترجمة: محمد علي عوني، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٨م.

- مشاهير الكرد وكردستان، ج١، مطبعة التفيض الأهلية، القاهرة، ١٩٤٥م؛ ج٢، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤٧م.

محمد جمال الدين الشيال:

- تاريخ مصر الاسلامية، العصران الأيوبي والمملوكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

محمد جمال الدين سرور:

- تاريخ الحضارة الاسلامية في المشرق، دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥م.

محمد حسنين ربيع:

- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦١م.

محمد زغلول سلام:

- الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٦٨م.

محمد سهيل طقوش:

- سلاجقة الروم، بيروت، ٢٠٠٢م.

محمد سيد الكيلاني:

- الحروب الصليبية وآثرها في الأدب العربي في مصر والشام، د.ت.

محمد صالح الزيباري:

- سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، دراسة في العلاقات السياسية(٤٧٠-٦٤٣هـ/١٠٧٧-١٢٣٧م)، اطروحة دكتوراه، الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٩٩م.

محمد عبدالستار عثمان:

- المدينة الاسلامية، مراكز الكتب الثقافية، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٨م.

محمود ياسين أحمد التكريتي:

- الايوبيون في شمال الشام والجزيرة، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م.

مكسيموس مظلوم:

- تاريخ العرب المقدسة في المشرق، ترجمة: البطريق مكسيموس مظلوم، بيروت، د.ت.

مهدي قادر خضر:

- الأمن في مصر في العصر الأيوبي(٥٦٧-٦٥٥هـ/١١٧١-١٢٥٥م)، اطروحة دكتوراه، الآداب، جامعة صلاح الدين، ٢٠٠٢م.

موسى مصطفى ابراهيم:

- سنجار، ٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦١م)، دراسة في تاريخها السياسي والحضاري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٨٩م.

ميخائيل عواد:

- المآصر في بلاد الروم والاسلام، بغداد، ١٩٤٨م.

نافع توفيق العبود:

- الدولة الخوارزمية، نشأتها، علاقاتها مع الدولة الاسلامية، نظمها العسكرية والادارية، ٤٩٠-٦٢٨هـ/١٠٩٧-١٢٣١م، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٦٧م.

نەبەز مجيد أمين:

- المشطوب الهكاري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٩٩م.

- الاستخبارات الايوبية في عهد صلاح الدين، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، ١٩٩٧م.

نسرين محمود علي الاربلي:

- الأمن في مصر وبلاد الشام في عهد الناصر صلاح الدين، أطروحة دكتوراه، معهد التاريخ والتراث العلمي للدراسات العليا بغداد، مكتب التفسير للنشر والاعلان، أربيل، ٢٠٠٦م.

- صاحب الخبر في العصر العباسي، رسالة ماجستير، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، ١٩٩٩م.

نظير سعداوي:

- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٠م.

- المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، القاهرة، ١٩٦٢م.

نعمان ثابت:

- الجندية في الدولة العباسية، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٥٦م.

نهاد عباس شهاب الجبوري:
- تدابير الأمن العسكري في صدر الاسلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٩م.
نيقولا زيادة:
- مدن عربية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٥م.
نيكيتا ايليسف:
- الشرق الاسلامي في العصر الوسيط، ترجمة: منصور أبي الحسن، مؤسسة دار الكتب الحديث، بيروت، ١٩٨٦م.
نيوباى، ب.هـ:
- صلاح الدين وعصره، ترجمة: ممدوح عدوان، سامي الجندي، دار الجندي، دمشق، ١٩٩٣م.
هارولد لامب:
- شعلة الاسلام، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٧م.
هاملتون أ.جب:
- صلاح الدين الايوبي دراسات في التاريخ الاسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣م.
الهيثم الأيوبي:
- الموسوعة العسكرية الوجيز في الحروب، بيروت، ١٩٩٧م.
ياسين رشيد الزيباري:
- وقائع من نظام الرقابة والحسبة، دراسة مقارنة، مؤسسة OP.L.C للطباعة والنشر، أربيل، ٢٠٠٨م.
يوسف درويش غوانمة:
- امارة الكرك الايوبية، المملكة الهاشمية، عمان، ١٩٨٠م.

المجلات:

ابراهيم أحمد العدوي:

- الحمام الزاجل في العصور الوسطى، مجلة تاريخية مصرية، العدد(١)، مـج٢، القاهرة، ١٩٤٩م.

Andrew,S:

- Ehrekreut Saladin, Albany, state university of New York, 1972.

Andrew.S.Ehreutz:

- Saladin state university of New York, 1972.

- William of tyre Ahistory of Done beyond the sea, tr.by, C.A.Babcock and A.C.Kwey, New York Columbia university press, 1943.

Baldwin:

- Crusades, L.philadelphia, 1955.

Barbers Richard:

- The Devils corown, Book club A ssociate, London, 1987.

Benjamin, Z.Keder:

- The Bettle of Hattin Revisited Varlorum 1992.

Besent.W.and palmer.E.H:

- Jerusalem, the city of herod and saladin, 1899.

Cahen, Claude:

- La syrie du Nord, paris, 1975.

Champdor, Albert:

- Saladin leplus fur heros de islam, Editiors Albin Micher, Paris, 1956.

Dozy.R:

- Supplement aux Dictionaires arabes, Libraine du Libnan Beyrouth, 1968.

- Supple, aux, Arab, Leauetans laquelce on alaisse trempe les raisain secs.

Grousset Rene:

- Histoire des croisedeset duroyaume from the Gerusalem, Tome, 11, Parise, 1935.- The Journal of the royal Asiatic society, Artayubid feudalism.

Hamilton A.R:

- The Rise of Saladin in Hamilton, A.R. Gibb, Saladin in Islamic History, Edited by Yusuf Ibish (Beirut, The Arab institute for Research and publishg, 1974.

Heyd.W:

- Histoire du commerce du levautau Moyen Age2, vol.5, Leipzig, 1923.

Joshua prawer:

- Crusader in stitutions (Oxford: Clarendon) press, 1980.

Lane poole, Stanley:

- Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, London, 1898; and(Beirut khayyat, 1964).

Marshall.W:

- Baladwin Raymond-111, of Tyipolis, and the fall of Jerusalem, 1140-1969.

Mayer, Hans Eberhand:

- The crusades, Great Britain, 1965.

Minorsky.F:

- Studies in Caucasian History, London, 1953.

Quetermer:

- Histoire des sultans Mamluk, paris, 1840.

Rose bault charlies.T:

- Saladin prince of chivalary first published, London, 1930.

Salain:

- The politics of the Holy war, Cambridge university press, 1982.

Samil, R.C:

- Cansading war fare 1097-1193, Cambridge, university, press, 1956.

Settor, K.M:

- A History of the crusades, Wisconsin, 1969.

Spuler, Bertold:

- The Muslim world Ahistorical survey part caliphs leiden, brill, 1969.
Steven Runciman:
- AHistory of 1187, Amsterdami adolf M.Hakkert harper, 1965.
- The Crusaders in the East Combridge, 1907.
Vincent de Beauvis:
- Speculum Historiale, ed douais, Paris, 1924.
Wiet.G:
- L Egypt Arab, Historie delanation Egyptienne paris, 1937.

المحتويات



السيرة الذاتية للمؤلف

- أحمد عبدالعزيز محمود مصطفى
- خريج اعدادية أربيل- محافظة أربيل.
- خريج كلية التربية قسم التاريخ-جامعة بغداد عام ١٩٧٦-١٩٧٧م.
- عمل كمدرس في مدارس ومعاهد أربيل ١٩٧٧-١٩٨٨م.
- حصل على شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي عام ١٩٩٠م، جامعة صلاح الدين تحت اشراف الاستاذ الدكتور عمادالدين خليل وعنوان رسالته الموسومة (الامارة الهذبانية الكردية في اذربيجان وأربيل والجزيرة الفراتية ٢٩٣-٦٥٦هـ).
- حاز على شهادة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي عام ١٩٩٨م في جامعة صلاح الدين وعنوان اطروحته الموسومة (الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول ١٤٥-٢٤٧هـ).
- انتقل إلى جامعة صلاح الدين للمارسة عمله كمدرس عام ١٩٩٢م.

مؤلفاته:

١- الأمن في عهد الرسول والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم عام ٢٠٠٨م.
٢- نوروز عيد الامجاد ومفخرة الاجداد عام ٢٠٠٨م.
٣- الكرد في كتاب تجارب الأمم لمؤلفه ابن مسكويه ت ٤٢١هـ، عام ٢٠٠٨م.
٤- قراءة نقدية لكتب بعض المستشرقين عن الكرد عام ٢٠٠٩م.
٥- علاقة الكرد بالخوارج والزنج في العصرين الأموي والعباسي عام ٢٠١٠.
٦- انماط وسلوكية الشخصية الكردية عام ٢٠١٠
٧- اجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي رجل عصره عام ٢٠١٠

كتب أخرى جاهزة للطبع:

١- تركيا خلال القرن العشرين.
٢- في التارط العباسي.

نشاطاته الأخرى:

- عضو جمعية المؤرخين الكرد.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- عضو في نقابة صحفي كردستان.